١١/أ / ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٩٨، ٩٩].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٩٨].

هذه الآيات من سورة الأنعام بين الله فيها براهين العقائد العقلية الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، ومن ذلك أنه خلق جميع الآدميين من نفسٍ واحدة، أبوهم رجل واحد، وأمهم امرأة واحدة، مع اختلاف أشكالهم، وألوانهم، وألسنتهم، وذلك دليل على إبداع عظيم. والله (جل وعلا) ينبهنا في القرآن العظيم في آيات كثيرة على ما أودع في أنفسنا من غرائب صنعه وعجائبه، الدالة على أنه وحده هو الرب، وهو المعبود وحده جل وعلا.

وقوله هنا ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله الذي أدعوكم إلى توحيده وطاعته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أصل الإنشاء: الإبراز من العدم إلى الوجود[(١)]. والمراد بهذه النفس الواحدة: أبونا آدم، كما أطبق عليه العلماء[(٢)].

وإنما قال: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ بالتاء الفارقة بين الذكر والأنثى مع أن آدم ذكر[(٣)]: لأنه أطلق عليه اسم النفس، فهو تأنيث لفظي لا حقيقي، كقول الشاعر[(٤)]:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى ... وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذاكَ الكَمالُ

هذه النفس الواحدة هي: آدم. والله (جل وعلا) أرشدنا في هذه الآية

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥٦٢).

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

إلى أن نتأمل ونتعقّل مم خُلقنا، وما العنصر والأصل الذي خُلقنا منه؛ لنعرف أقدارنا، ونعرف عظمة ربنا، فأول مَنْشَئنا تُراب بلّه الله (تبارك وتعالى) بماء. هذا الأصل الأول لنا، كما قال ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] أخذ الله تراباً فَبَلّه بماء، فلمّا بُلّ وعُجن بالماء صار طيناً؛ ولِذا قال تارةً: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: آية ٢٠] وتارة: ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: آية ٢]. ثم إن الله (جل وعلا) ذكر أحوال ذلك الطين، مرة قال: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: آية ١١] يلزق باليد إذا مسه الإنسان، بين أنه: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: آية ٢٦] ثم بين أن ذلك الطين يبس فصار صلصالاً كالفخّار، تُسمع له صلصلة إذا قرعه شيء، ثم خلق من ذلك الطين - الذي أصله ماء وتراب، خلق منه - بشراً سوياً، ذا لحم وعظام ودم، هو أبونا (آدم) المراد بقوله هنا: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] ثم خلق من آدم امرأته (حواء) أُمّنا، خلقها من زوجها آدم، وقد نص على ذلك في آياتٍ كثيرة[1] كقوله في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: آية ١] يعني حواء. وكقوله في سورة الأعراف: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: آية ١٨٩]. وقوله في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] وهذا من غرائب صنعه وعجائبه، حيث كان العنصر الأول: الماء والتراب، وخلق منه رجلاً جميلاً في غاية الحسن والجمال، ثم خلق من نفس الرجل امرأةً أنثى. وهذا أحد القسمة الرباعية، لأن الله خلق نوع الإنسان على قسمة رباعية: قسم منه خلقه من ذكر دون أنثى، وقسم منه خلقه من أنثى دون ذكر، وقسم منه خلقه بلا أنثى ولا ذكر، وقسم منه خلقه من أنثى وذكر.

أما الذي خُلق من دون الأنثى ومن دون الذكر: فهو أبونا آدم؛ لأن الله خلقه من تراب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [آل عمران: آية ٥٩].

(١) انظر: الأضواء (٢/٢٠٥).

والذي خُلق من ذكر دون أنثى: هو حواء، خلقها الله من آدم دون أنثى.

والذي خُلق من أنثى دون ذكر: هو نبي الله عيسى، أوجده الله من أمه مريم بلا ذكر.

والذي خُلق من ذكر وأنثى: هو سائر جنس الإنسان.

وهذه غرائب وعجائب تدل على كمال قدرة خالق هذا الكون. إن شاء خلق دون أنثى ودون ذكر، وإن شاء خلق من ذكر دون أنثى، وإن شاء خلق من أنثى دون ذكر، وإن شاء خلق من أنثى وذكر.

ثم إن الله أشار إلى الطور الثاني من أطوار الإنسان؛ لأن الطور الأول من أطوار الإنسان: الماء والتراب، والطور الثاني: هو النُطفة. أشار الله إلى بعض تلك الأطوار بقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ثم أتبعه بقوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على قراءة: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[(١)] وبعضهم قرأ: ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ بكسر القاف. أما: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فجميع السبعة قرؤوها بفتح الدال. وأما: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ ففيها قراءتان سبعيتان: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقِرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[(٢)].

أما على قراءة: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[(٣)] فالأظهر أنهما اسما مكان. أي: مكان استقرار، ومكان استيداع. وقيل: هما مصدران ميميان. أي: فاستقرار واستيداع.

---

(١) في هذا الموضع وقع وهم للشيخ (رحمه الله) استدركه بعده بأسطر وقد حذفت الكلام الذي وقع فيه الوهم هنا وأثبت الكلام على وجهه بعد استدراك الشيخ رحمه الله.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٩.

(٣) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ابن جرير (٥٦٢/١١ ـ ٥٧٢)، القرطبي (٤٦/٧)، البحر المحيط (١٨٨/٤)، الدر المصون (٦٦/٥).

أما على قراءة: ﴿فَمُستقِرٌ وَمُستودَعٌ﴾ ﴿فَمُسْتَقِرٌ﴾: اسم فاعل، و﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ اسم مفعول. كما يأتي شرحه.

وقد تقرر في فن العربية: أن الفعل إذا زاد ماضيه على ثلاثة أحرف فإن اسم مكانه، واسم زمانه، ومصدره الميمي كلها بصيغة وزن اسم المفعول، كما هو معروف في فن الصرف(١).

وأكثر علماء التفسير أن المراد بـ: (المُسْتَقَر): المُسْتَقَر في الأرحام، والمراد بـ(المُسْتَودع): المُسْتَقَر في الأصلاب. يعني أول نشأتكم من نفسٍ واحدة، ثم صار بعد ذلك النُطف يقرها الله في الأصلاب، ثم ينقلها فتستقر في الأرحام، فَيُخْرِج منها بشراً سوياً، وهذا عليه أكثر المفسرين، أن (المُسْتَقَر): هو استقرار الجنين في الرحم، و(المُسْتَودَع): هو استيداع الله للنطفة الذي خُلق منها في أبيه(٢).

وكان بعض العلماء يختار: أن (المُسْتَقَر): الاستقرار على وجه الأرض أيام الحياة، وأن (المُسْتَودَع): الاستيداع في بطن الأرض في القبور(٣).

وبعض العلماء يقول: المُسْتَقَر في الأصلاب، والمُسْتَودَع في الأرحام(٤). عكس ما ذكرنا.

والذي عليه أكثر المفسرين: أنها تشير إلى بعض أطوار الإنسان؛ لأن الله (تبارك وتعالى) نبه الإنسان على أنه نقله من حال إلى حال، وجعل خلقه طوراً بعد طور كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] أي: خلقكم على طَور ثم نقلكم من ذلك الطَّور إلى طَور آخر. وقال جل وعلا: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: آية ٦] بعد أن كنتم نُطفاً تصيرون علقاً، ثم مُضغاً، ثم

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٨٣/٢، ٨٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٦٣/١١)، القرطبي (٤٦/٧)، البحر المحيط (١٨٨/٤).

(٣) انظر: ابن جرير (٥٦٤/١١)، البحر المحيط (١٨٨/٤).

(٤) انظر: ابن جرير (٥٦٥/١١)، البحر المحيط (١٨٨/٤).

عظاماً. وقد بيّن الله (جل وعلا) هذه المراتب بياناً شافياً في آياتٍ كثيرة من أوضحها آية (قد أفلح المؤمنون) لأن الله بيّن فيها الأطوار الذي مر بالإنسان عليها إلى حالته هذه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ ـ ١٦].

وعلى هذا: فالمُسْتَقَر: هو القرار المكين الذي يجعل الله فيه الإنسان في رحم أمه بعد أن خلق آدم من تراب، كما قال في آية (قد أفلح) هذه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ يعني: رحم أمه. وهذا نبهنا الله عليه، وحذّرنا أن ننصرف عن هذا، وأن نغفل عنه؛ لأنكم كلكم تعلمون أن الواحد منا لم يدخل رحم أمه مُخَطَّطاً، وليس فيه يدٌ، ولا رجل، ولا رأس، ولا عين، بل يدخل رحم أمه وهو نطفةٌ من مني، ثم إن الخالق (جل وعلا) ينقل بقدرته تلك النطفة فيجعلها دماً جامداً، وهو المعبَّر عنه بـ(العلقة)، ثم يقلب ذلك الدم مضغة لحم ليس فيها تخطيط، ولا رجلِ، ولا يد، ثم إنه يقلب تلك المضغة هيكل عظام، ويرتب هذه العظام بعضها ببعض هذا الترتيب المُحْكَم المتقن الذي يجده الواحد منكم، فيرتب السُّلاميات في السُّلاميات، والمفاصل بالمفاصل، وفقارى الظهر بفقارى الظهر، ويجعل هذه العظام على أم الدماغ، فيجعل له دماغه في هذا الغلاف الذي هو أم الدماغ، ويفتح في وجهه العينين، ويصبغ بعضهما بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، ويزينها بشعر الحواجب والجفون، ويجعل فيهما حاسة البصر، ويفتح له الأنف، ويجعل فيه حاسة الشم، ويفتح له الفم، ويجعل فيه اللسان ليرد به شارد الطعام على أضراسه عند المضغ، ويبين به الكلام، حتى يقضي حاجته من بني الإنسان، ثم إنه (جل وعلا) يضع الكبد في محله، والكليتين في محلهما، وكل موضع في محله، ويوكله بوظيفته في تدبير الجسم، ويفتح الشرايين ليدور الدم، ويفتح مجاري البول والغائط. ولو شُرِّح عضوٌ واحد

من أعضاء الإنسان تشريحاً حقيقياً لبهر العقول ما أودع الله (جل وعلا) فيه من غرائب صنعه وعجائبه، فليس في الواحد مِنَّا موضع رأس إبرة إلّا وفيه من غرائب صنع خالقه وعجائبه ما يبهر العقول لو فكر(١).

وأنا أُؤكد لكم أن هذه العمليات الهائلة التي تُفعل في الواحد منا، العليم القدير الذي فعلها لم يحتج إلى أن يشق بطن أم الواحد مِنّا، ولم يُبَنِّجْها، ولم يُنَوِّمها في صحية، بل فعل فيها هذه الأعمال الهائلة العجيبة الغريبة من حيث لا تشعر، وهي لاهية تفرح وتمرح، لا تدري عما يُفعل في بطنها من غرائب الصُّنع وعجائبه، مع أن الجنين الذي يُفعل فيه هذا من الغرائب والعجائب هو مندرج في ثلاث ظلمات: ظُلمة بطن أمه، وظلمة رحمها داخل البطن، وظلمة المشيمة التي على الولد؛ لأنه في داخل الرحم يكون عليه المشيمة، والسَّلَا يغطيه، فالله (جل وعلا) عِلْمُه نافذ، وبصره نافذ، لا يحتاج إلى كهرباء، ولا إلى نور يكشف به تلك الظلمات، بل علمه وقدرته نافذة، فيفعل في الإنسان هذه الأفعال الغريبة العجيبة، ويرتب بعضه مع بعض، ويخلقه هذا الخلق العجيب.

ونحن دائماً نذكر هذا لأن الله ينبهنا عليه، وينكر علينا أن نغفل عنه؛ لأن الله يقول في السورة الكريمة ـ سورة الزمر ـ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: آية ٦] أين تصرفون وتروح عقولكم عن فعل خالقكم فيكم؟ فَأَنَّى تصرفون عما يفعل الله (جل وعلا) فيكم؟ هذه غرائب صُنْع ربنا وعجائبه، حتى إنه من شدة لطفه وحكمته: أن ما يحتاج الإنسان إلى تقصيره دائماً، كشعره وأظفاره: نزع منه روح الحياة، إذ لو جعل الحياة في الشعر والظفر لم يحلق الإنسان، ولم يُقَصِّر، ولم يُقَلِّم أظفاره إلا وهو مُنَوَّم في صحية بعملية. هذا من غرائب صُنعه وعجائبه (جل وعلا) ولطفه بخلقه؛ ولذا نبهنا على هذا حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ

---

(١) للاستزادة في هذا الموضوع انظر مثلًا: مفتاح دار السعادة (١/١٨٧، ٢٥٥) فما بعدها، أقسام القرآن ٢٩٥ فما بعدها.

﴿وَٰحِدَةٍ﴾ كما قال جل وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ الآية. [الروم: الآيتان ٢٠، ٢١] وقال هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فلكم بعد إنشاء تلك النفس، وإنشاء زوجها منها، لكم بعد ذلك ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الأرحام، تُنقلون فيها من طَور النطفة إلى طَور العَلَقَة، ومن طَور العَلَقَة إلى طَور المُضْغَة إلى آخر الأطوار.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: نُطفاً في أصلاب الآباء. هذا قول أكثر المفسرين.

وبعض العلماء عَكَس، قال: الاستيداع في بطن الأمهات، والاستقرار في أصلاب الرجال.

وبعض العلماء يقول: مُسْتَقَر على ظهر الأرض، ومُسْتَودَع في بطنها في القبور وأنتم أموات، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: الآيتان ٢٥، ٢٦] الكِفَات هنا: محل الكَفْت. والكَفْت في اللغة: معناه الضم[1]. أي: محلاً يضمهم أحياءً على ظهرها، ويضمهم أمواتاً في بطنها. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ ولذا قال: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ التفصيل: البيان والإيضاح وإزالة الإجمال. والمراد بالآيات: آيات هذا القرآن العظيم مع ما تضمنته من آياته الكونية (جل وعلا)، الدالة على كمال قدرته.

وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: قال في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٧] وهنا قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] فما الحكمة في تلوين الكلام، والتعبير في الأول بـ(قوم يعلمون) وفي الثاني بـ(قوم يفقهون)[2]؟

---

(١) انظر: المفردات (مادة: كفت) ٧١٣.

(٢) في الإجابة على هذا السؤال انظر: درة التنزيل وغرة التأويل ص٦٨، البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص٦٥، مِلاك التأويل (٤٦٢/١)، البحر المحيط (١٨٨/٤)، الدر المصون (٦٧/٥).

قال بعض العلماء: إنما قال بعد ذكره الاهتداء بالنجوم: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأن ذلك أمرٌ يعلمه جُلّ الناس. وقال هنا: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ لأن أسرار نقل الإنسان من هذه الأطوار وإيجاده الأول لا يُدْرِك حقائقها وما انطوت عليها من الغرائب والعجائب إلا الذين يفقهون. أي: لهم فقه وفهم دقيق في الأمور. وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

وهذه الآيات الكريمة قد بينا مراراً أنها تشير إلى براهين البعث الثلاثة الكثيرة في القرآن؛ لأن الله تبارك وتعالى أجرى العادة بأنه يُكثر في القرآن العظيم من ثلاثة براهين على البعث، ذكرها كلها في هذه الآيات من سورة الأنعام. وهذه البراهين الثلاث:

منها: إيجادنا أولاً؛ لأن من خلقنا أولًا من تراب، ثم من نفس واحدة، ثم خلق من تلك النفس زوجها، ثم صار يجعل نطفنا مستودعة في أصلاب آبائنا، ثم ينقل منها ويجعل لنا قراراً في أرحام أمهاتنا، وينقلنا في تلك الأطوار إلى أن نكون بشراً ننتشر في الأرض، من قدر على هذا الإيجاد الأول فلا شك أنه قادرٌ على البعث مرةً أخرى بعد الموت؛ لأن عامة العقلاء متفقون على أن إعادة الفعل أسهل من ابتدائه، والله (جل وعلا) كل شيء عنده سهل.

والآيات الدالة على أن الإيجاد الأول برهان عقلي قاطع على الإيجاد الثاني ـ الذي هو البعث ـ كثيرة جداً في هذا القرآن العظيم، كقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: آية ٢٧] وكقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٤] وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: آية ٦٢] وتتعظون بأن من أنشأ أولاً قادرٌ على أن ينشىء ثانياً، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: آية ٥] إلى أن قال في آخر آيات الحج هذه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا

رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: الآيتان ٦، ٧] بهذه الدلائل العظيمة؛ لأن البعث والإيجاد بعد عدم لا يمكن أن يكون أعظم من الإيجاد الأول من التراب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] فَعَيْنُ المقدمة التي تنكرون: هي المقدمة التي أنتم موجودون بها، مقرون بها، وكقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: الآيتان ٧٨، ٧٩] وكقوله جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى﴾[1] وفي القراءة الأخرى: ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: الآيات ٣٧ ـ ٤٠] بلى والله هو قادرٌ على ذلك. وهذا كثير في القرآن؛ ولأجل هذا قال الله جل وعلا: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: الآيات ١ ـ ٤] ثم بيّن أن مُراده بالقَسَم على أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ليقيم بذلك البرهان القاطع على البعث بعد الموت؛ ولذا أتبعه بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾﴾ [التين: آية ٧] أيُّ شيء يحملك على التكذيب بالبعث والجزاء، وقد علمت أني أوجدتك أولاً، وليس الإيجاد الأخير بأصعب من الإيجاد الأول؟ ولأجل هذا بيّن الله تعالى أنه لا ينكر الإيجاد الثاني ـ الذي هو البعث بعد الموت ـ إلا من نَسِيَ الإيجاد الأول حيث قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: آية ٧٨] إذ لو تَذَكَّر خلقه الأول لما أمكنه أن ينكر خلقه الثاني. وكما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: الآيات ٦٦ ـ ٦٨] وهذا كثير. وهذا البرهان القطعي على البعث أشار له بقوله هنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٨].

---

(١) وهي قراءة أكثر السبعة. انظر: المبسوط لابن مهران ٤٥٣.

البرهان الثاني: خلقه السماوات، وتزيينها بالنجوم، وخلقه الأرض، وأشار له هنا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ [الأنعام: آية ٩٧] والنجوم زُينت بها السماء. ومن خلق هذا العالم العلوي والسفلي فهو قادرٌ على بعث الإنسان الصغير المسكين؛ لأن من خلق الأكبر الأعظم فهو قادرٌ على خلق الأصغر من باب أولى؛ ولأجل هذا كثر في القرآن العظيم الاستدلال على البعث بإيجاد السماوات والأرض المشار لها بإيجاد النجوم والاهتداء بها في العالم العلوي، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: آية ٥٧] أي: ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادرٌ على خلق الناس الذين هم أصغر. وكقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾ [الأحقاف: آية ٣٣] وكقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: آية ٩٩] وكقوله جل وعلا: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: الآيات ٢٧ ـ ٣٢] والجواب: السماء أشد خلقاً منّا، أي: فمن قدر على خلق الأشد فهو قادرٌ على خلق الأضعف الأصغر. والآيات في مثل هذا كثيرة.

البرهان الثالث: إحياء الأرض بعد موتها، المشار إليه بقوله هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] لأن من يحيي الأرض، ويُخرج النبات بعد الانعدام قادرٌ ـ بلا شك ـ على أن يحيي الأنفس الإنسانية بعد العدم؛ لأن الكل من باب واحد، كله جرم خلقه الله أولاً وانقرض وانمحى. وقد عاينا أنه يُعيد النباتات، فتجد الأرض بحُليّها وحُللها من أنواع النبات، ثم ييبس، وتذروه الريح، ويصير هشيماً، ثم إن الله يوجد في الأرض شيئاً كثيراً بعد فنائه. فمن أحيا الأرض وأنبت النبات بعد أن انعدم: فلا شك أنه قادرٌ على خلق الإنسان، وإنبات الآدميين بعد أن أكلتهم الأرض.

تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: آية ٣٩] وكقوله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] أي: فإخراجنا للنبات بعد الانعدام كذلك إخراجنا للموتى بعد أن أكلتهم الأرض. وكقوله جل وعلا: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: آية ٥٠] وكقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: الآيات ١٧ ـ ١٩] أي: من قبوركم أحياءً بعد الموت، وكقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: الآيات ٩ ـ ١١] أي: كخروج النبات الذي تشاهدون ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: خروجكم من قبوركم أحياءً بعد الموت. والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً كما قال جل وعلا: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: آية ٥٧] كذلك الإخراج نخرج الموتى؛ ولذا قال (جل وعلا) هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: آية ٩٩] الله (جل وعلا) ينزل الماء من السماء؛ لأن إنزال الماء من السماء فيه غرائب وعجائب، يجب على الإنسان تأملها؛ لأن الله قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: آية ٢٤] وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ صيغة أمر تدل على الوجوب، فإذا لم ينظر الإنسان إلى طعامه كان مخالفاً للأمر السماوي من خالق السماوات والأرض. وما يدريه أن الله يقول له كما قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] ما منعك ألا تنظر إلى طعامك إذ أمرتك؟

وهذا النظر المأمور به إلى الطعام كأن الله يقول لك: انظر يا عبدي لتعلم عظمتي وقدرتي، وتعرف قدرك، وضعفك، وعجزك، انظر إلى الخبز الذي تأكله، وتُقيم به أَوَدَك، من هو الذي خلق الماء الذي نبت بسببه؟

أيقدر أحد غير الله أن يخلق هذا الجرم اللطيف الذي يحيي به الله الأجسام، وينبت به النباتات؟ لا والله لا يقدر على خلقه إلا الله.

هب أن الماء خُلِق، فمن يقدر على إنزاله، وسقي الأرض به مع سعة رقعتها؟ من يقدر على إنزاله على هذا الأسلوب الغريب العجيب الذي ينزل رَشَاشاً؟ فلو كان مُنْزِلُه أخْرَقَ لأنزله قطعة واحدة متصلًا بعضه ببعض. ولو نزل المطر الغزير قطعة واحدة لأهلك كل من سقط عليه، وترك الخلق أثراً بعد عين؛ لأن الله تعالى بين كيفية إنزاله إياه، وما في ذلك من الغرائب والعجائب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: آية ٤٣] الوَدْق: المطر يخرج من خلال السحاب، أي: من فتوق المُزن وثقوبه التي جعلها الله فيه، وهو إنما يأتي به قادر يُصرفه كيف شاء. ولكن الله بين في السورة الكريمة ـ سورة الفرقان ـ أنه يُنزل الماء هذا الإنزال الهائل الغريب العجيب، وأن كثيراً من الناس يأبى في هذه الغرائب والآيات إلا الكفر ـ والعياذ بالله ـ؛ لأن الله قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: الآيات ٤٨ ـ ٥٠] يعني: صَرَّفْنا الماء بين الناس، تارة نُغْدِق المطر على قوم لتخصب أرضهم، وتنبت زروعهم، ويكثر خير مواشيهم، اختباراً لهم وابتلاءً هل يشكرون نعمنا؟ ونَصْرِفه عن قوم كانوا في خِصْب حتى يُجْدِبوا؛ لنختبرهم بذلك الجدب، والفقر، وهلاك المواشي، والزروع: أيتعظون، وينيبون إلينا؟ ولما قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قال: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: آية ٥٠] ومن الناس الذين أبوا إلا كفوراً: الكفرة، وأذناب الكفرة، الذين يزعمون أن السحاب لم ينزله ملك مقتدر، وإنما هي طبائع، وأن الماء تتفاوت عليه درجات الشمس، أو احتكاك الهواء حتى يتبخر وتتصاعد أبخرته، فتتجمع ثم تلاقي هواءً حاراً، ثم تزعزعها الريح، فتفرقها، وأن هذا ليس فعل فاعل!! هؤلاء الذين يقول الله فيهم: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ في تلك السحابة ـ التي أنزلها الله ليلًا ـ أن النبي ﷺ قال: «**أسمعتم ما قال ربكم البارحة؟ قال:**

أصبح من عبادي مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأصبح من عبادي كافر بي مؤمن بالكوكب. أما الذين قالوا: مُطرنا بفضل الله وبرحمته، فهذا مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما الذي قال: مُطرنا بنوء كذا، فهو كافر بي مؤمن بالكوكب»[1]. ومثله الذي يقول: مُطرنا ببخار كذا!! لأن السحاب ينزله ملك مقتدر، يخلق ماءه أولاً. وبين خلقه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ أي: يسوقه ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكباً يعلو بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ يعني المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: آية ٤٣] جمع خَلَل، أي: من ثقوب المُزن وفروجه: ينزل منها؛ لأنه يجعل وعاءه كالغرابيل؛ ينزل منها المطر، على قدر ما يشاء الله جل وعـلا ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: آية ٥٠].

هب أن الماء خُلق، وأن المطر أُنزل على هذا الأسلوب الغريب العجيب، من هو الذي يقدر أن يشق الأرض ويُخرج منها مسمار النبات؟

هب أن مسمار النبات خرج، من هو الذي يقدر أن يشقه ويخرج منه السنبلة؟

هب أن السنبلة وُجدت، من هو الذي يقدر أن يخرج حبها وينميه، وينقله من طَور إلى طَور حتى يصير صالحاً مُدْرِكاً نافعاً للأكل؟ كما ينبهنا الله على هذا في هذه الآية التي نحن عندها في قوله: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] انظروا الثمر عندما يبدو، وانظروه عندما يُدرِك ناضجاً صالحاً للأكل، تعلمون أن الذي نقله منذ تلك الحال الأولى إلى حالة الانتفاع هذه، أنه رب قادرٌ عظيم، هو الخالق وحده، المعبود وحده (جل وعلا)؛ ولذا قال جـل وعـلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] الباء: سببية، والله (جل وعلا) يُسَبِّب ما شاء على ما شاء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلَّم. حديث (٨٤٦)، (٣٣٣/٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مُطِرنا بالنوء. حديث رقم: (٧١)، (٨٣/١).

من الأسباب، ولو شاء أن تنخرم الأسباب لانخرمت، فهو (جل وعلا) يفعل كيف يشاء، ويسبب ما شاء من المُسَبَّبات، على ما شاء من الأسباب، ويبين لنا في كتابه غرائب وعجائب وعبراً نعلم بها أنه لا تأثير إلا لله وحده، وأنه لو شاء أن لا تؤثر الأسباب لم تؤثر، ومن ذلك ما قصّ علينا في سورة الأنبياء وغيرها من سور القرآن أنه أُلقي إبراهيم في نار نمرود وقومه، أُلقي إبراهيم في نارٍ تضطرم، تأكل الحطب حتى تتركه رماداً، أُلقي فيها إبراهيم والحطب، فأكلت الحطب بحرارتها فتركته رماداً، وصارت برداً على إبراهيم. ولو لم يقل الله: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: آية ٦٩] لو لم يقل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأهلكه بردها، والنار لا عقل لها ولا إدراك تحرق به الحطب وتترك إبراهيم. وذلك يبين أن الفاعل هو الخالق (جل وعلا)، وأنه يسبب ما شاء على ما شاء من المُسَبَّبات. ويوضح لنا هذا: أن السبب تارةً يكون مناقضاً للمُسبَّب وينتج الشيء من نقيضه، كما قدمنا في هذه الدروس في قصة قتيل بني إسرائيل[1]؛ لأنه لما أراد الله أن يُحييه قال لهم: اذبحوا بقرة، فذُبحت البقرة، وصارت ميتة، وقُطعت منها وصلة، وهي ميتة، قطعة من بقرة ميتة، ليس فيها من الحياة شيء، فضربوه بها فحيي، /وأخبرهم بقاتله!! ١١/ب
لو ضربوه بالبقرة حية لربما قال جاهل: قد استفاد الحياة منها، وسرت حياتها فيه!! أما هو فقد أمرهم أن يميتوها، ويذبحوها، ويضربوه بقطعة منها فحيي!! فمن أين وُجدت هذه الحياة من هذا الضرب بقطعة من بقرة ميتة؟ وذلك برهان قاطع على أن الله يسبب ما شاء على ما شاء من الأسباب؛ ولأجل هذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بسببه ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: جميع أصناف النباتات مما يأكله الناس والأنعام، كما قال جل وعلا: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: آية ٥٤] فينبت للناس أنواع النبات مما هو قوت كالقمح والشعير ونحوهما، ومما هو فاكهة، وينبت لهم المرعى لحيواناتهم؛ لأن الحيوانات إذا أكلت المرعى المليء كثرت ألبانها، وأزبادها، وأسمانها، ولحومها، وكثرت جلودها،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها، إلى غير ذلك من منافعها بسبب الماء؛ ولذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من نبات كل شيء.

﴿خَضِرًا﴾ الخَضِر: هو صفة مشبهة من (خَضِرَ) فهو (خَضِرٌ وأَخْضَرُ). والمراد بالخَضِر هنا: الذي ينبت أخضر كالبقول ونحوها[1]؛ لأن القمح والشعير وما جرى مجراهما ينبت أولًا نبات البقول.

ثم قال: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك الخَضِر النابت.

﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يعلو بعضه بعضاً كالسنبل، فإنك تجد السنبلة يتراكب فيها الحب ويعلو بعضه بعضاً[2]. وهذا معنى قوله: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قراءة الجمهور[3]: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ﴾ بالنصب؛ لأن الكسرة علامة هنا للنصب.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النخل: من جنس المُنْبَت بهذا الماء، إلا أن الله قَطَعَه، وجاء به في صيغة جملة مُسْتَأنَفَة من مبتدأ وخبر تنويهاً بشأن النخل[4]؛ لأن النخل كله منافع.

وجرت العادة في القرآن: أنه إذا ذَكر الإنعام بالتمر ذكره باسم شجرته التي هي النخلة، وإذا ذكر الإنعام باسم العنب ذكره باسم الثمرة التي هي العنب. هذه قاعدة مطردة في القرآن.

قال بعض العلماء: إنما ذكر شجرة التمر التي هي النخلة لأن النخلة

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٧٣/١١)، القرطبي (٤٧/٧)، الدر المصون (٦٩/٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٧٤/١١)، القرطبي (٤٨/٧)، البحر المحيط (١٨٩/٤).

(٣) والقراءة الأخرى: برفع «جناتٌ». انظر: المبسوط لابن مهران، ص١٩٩.

(٤) انظر: البحر المحيط (١٨٩/٤).

كلها منافع، فتمرها بعض منافعها[١]. فلو عبّر بالتمر لأهمل منافع النخل الكثيرة؛ لأن النخل كلها منافع؛ لأن خوصها تُصنع منه القفاص، وجريدها تُصنع منه الحُصر، وتصنع منها الحبال، ولبها يؤكل، وجذعها يُسقف به، وكُرْنَافها يُوقد به، فجميع ما فيها منافع.

أما شجرة العنب: فليس في نفس الشجرة من المنافع ما في النخلة[٢]، فأعظم منافعها في ثمرتها.

وقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ النخل: جمع نخلة. وقيل: هو جنس أو اسم جمع[٣]. وهو يُذكَّر ويُؤنث؛ لأن الله ذكَّره في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: آية ٢٠] ولم يقل: منقعرة. وأنثه في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: آية ٧] وهذا معروف في كلام العرب، أن أسماء الأجناس تُذَكَّر وتُؤَنَّث.

قال بعض العلماء: فإن قيل له: (نخيل) لم يجز تأنيثه.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ يطلق (الطلع) على أول ما يخرج من النخلة؛ لأنه يخرج أولًا قبل أن ينفتح يسمى (كِمًاّ)، ثم ينفتح على النَّوْر المسمّى بـ(الإغْرِيض). وهذا هو المراد بقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾. وربما يُطلق الطلع على ثاني الحال؛ لأنه يكون أولًا طَلْعاً نَوْراً أبيض، ثم يُنقل من طَور إلى طَور حتى يكون بُسْراً ورُطَباً وتمراً يابساً. وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ المراد بالطلع هنا: حاله الأخيرة، إلا أن ذلك يوجد من الطلع،

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠).

(٢) قال ابن القيم: «وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار. وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل، وصنف الجاحظ في المحاكمة بينهما مجلداً فأطال فيها الحِجَاج والتفضيل من الجانبين. وفَصْلُ النزاع في ذلك: أن النخل في معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعاً، وأجدى على أهله، كالمدينة والحجاز والعراق. والعنب في معدنه ومحل سلطانه أفضل، وأعم نفعاً، وأجدى على أهله، كالشام، والجبال، والمواضع الباردة التي لا تقبل النخيل» اهـ. مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٠).

(٣) انظر: الكليات ٩١٢.

وهو النَّوْر الذي ينفتح عنه الكِمُّ أولًا[(١)].

وقوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾ القِنْوَان: جمع القِنْو، كالصِّنْوَان والصِّنْو.

وفيه قراءة: ﴿قِنوانٌ﴾ و ﴿قُنوانٌ﴾ أما قراءة: ﴿قَنوان﴾ بفتح القاف فليست سبعية[(٢)].

والقِنْوَان: جمع القِنْو. والقِنْو: هو عِذْقُ النخلة الذي فيه الثمر[(٣)].

وقوله ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المُتَنَاوَل؛ لأن النخل إذا كان صغاراً قد يثمر الثمرة الجيدة، مع أنها دانيةٌ قريبة سهلة المُتَنَاوَل، لا يحتاج صاحبها إلى طلوع، ولا إلى صعود. ومعنى قوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المُجْتَنَى، ينالها الإنسان من غير تعب.

قال بعض العلماء: ذكر دانية الثمر ولم يذكر السَّحُوق ـ التي هي النخلة الطويلة ـ قال بعض العلماء: ذكر الدانية لأن النعمة بها أتم؛ لأن ثمرها يوجد بلا تعب ولا كلفة. بخلاف السَّحُوق فإنها لا بد من أن يُصعد عليها[(٤)].

وقال بعض العلماء: هنا حذف الواو وما عَطَفَت عليه: ومن النخل من طلعها قنوان دانية وسَحُوق[(٥)]. أي: نخل طِوَال.

وقوله: ﴿قِنْوَانٌ﴾ مبتدأ، خبره الجار والمجرور قبله[(٦)].

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٤٨، ٥٠)، الدر المصون (٥/٧٥)، وقد ذكر مراتب ثمر النخلة، ونقل قول بعضهم:

إن شِئْتَ أن تَضْبِطَ يا خَلِيلُ أسماءَ ما تُثْمِرُهُ النخيلُ
فاسْمَعْه موصوفاً على ما أذكرُ طَلْعٌ وبعده خَلال يظهر
وبَلَحٌ ثم يليه بُسُرُ ورُطَب تجنيه ثم تَمرُ
فهذه أنواعُها يا صاح مضبوطةً عن صاحب الصحاح

(٢) وكذلك القراءة بضم القاف (قُنوان) شاذة أيضاً. انظر المحتسب (١/٢٢٣)، القرطبي (٧/٤٨).

(٣) انظر: ابن جرير (١١/٥٧٥)، القرطبي (٧/٤٨)، الدر المصون (٥/٧٣).

(٤)(٥) انظر: القرطبي (٧/٤٨)، البحر المحيط (٤/١٨٩).

(٦) انظر: القرطبي (٧/٤٨)، البحر المحيط (٤/١٨٩)، الدر المصون (٥/٦٩).

وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾[(١)].

و﴿قِنْوَانٌ﴾ في محل مبتدأ، و﴿دَانِيَةٌ﴾ نعتٌ له.

والخبر قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾[(٢)].

وقوله: ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ جارٌ ومجرور مُبدل من الجار والمجرور قبله، وهذا معروف.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ جماهير القراء قرؤوا: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾[(٣)] هو معطوف على قوله: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عَطْف الخاص على العام[(٤)]. أي: فأخرجنا به نبات كل شيء، وأخرجنا به جنات من نخيل وأعناب. ولم يقل: وجناتٌ من أعناب؛ لأن جنات الأعناب ليست من قِنْوَان النخيل. ولو رُفع في قوله: «وجناتٌ من أعناب» لصار المعنى: من النخل قِنْوَان دانية، ومن النخل جناتٌ من أعناب. وهذا لا يصح. وعلى بعض القراءات: ﴿وجناتٌ﴾ بالرفع، قالوا: يُقَدَّر له محذوف. أي: ولهم من نِعَمِه ـ جل وعلا ـ جناتٌ من أعناب[(٥)].

(الجنات) جمع الجنة، والجنة في لغة العرب: البستان[(٦)]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ [القلم: آية ١٧] هو بستان معروف وقعت فيه هذه القضية. أصل الجنة: البستان. والعرب تسمي كل بستان (جنة). وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير[(٧)]:

كأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ ... من النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقَا

---

(١) انظر: البحر المحيط (١٨٩/٤، ١٩٠)، الدر المصون (٦٩/٥).

(٢) انظر: القرطبي (٤٨/٧)، البحر المحيط (١٩٠/٤)، الدر المصون (٦٩/٥).

(٣) تقدمت هذه القراءة قريباً، وأشرت هناك إلى القراءة الأُخرى، وهي برفع (جنات).

(٤) انظر: البحر المحيط (١٩٠/٤)، الدر المصون (٧٥/٥).

(٥) انظر توجيه قراءة الرفع في: حجة القراءات ص٢٦٤، القرطبي (٤٩/٧)، البحر المحيط (١٩٠/٤)، الدر المصون (٧٦/٥).

(٦) انظر: المفردات (مادة: جنَّ) ص٢٠٤.

(٧) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

يعني: بستان نخلٍ نخله طِوَال؛ لأن السُّحُق: جمع سَحُوق، وهو النخلة الطويلة. هذا أصل الجنة في لغة العرب.

وهي في اصطلاح الشرع: دار الكرامة التي أعد الله لعباده المؤمنين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: آية ١٧].

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ الأعناب: جمع العنب، وهو الثمر المعروف. وفي العنب غرائب وعجائب؛ لأنها ثمرة كأن جُلّها ماء يمسكه الله جل وعلا[1].

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أما قوله: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فلم يقرأه أحد كائناً ما كان إلّا بالنصب.

أما ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ فقراءة الجمهور: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وفي بعض القراءات ﴿وجناتٌ﴾ بالرفع.

أما ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ فقرأه عامة القراء بالنصب، ولم يرفعه أحد.

الزيتون: هو الشجر المعروف، وهو الذي وصفه الله بالبركة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: آية ٣٥] لأن منافع الزيتون كثيرة؛ لأنه وقود ودهن وإِدَام، إلى غير ذلك من منافعه[2]. يذكرون أنه أول شجرة نبتت في الأرض شجرة الزيتون، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان يزعمون أنها شجرة الزيتون، ويزعمون أن شجرة الزيتون هي أطول الشجر عمراً، وأنها تمكث في الأرض ما لا تمكثه شجرة غيرها.

﴿وَٱلرُّمَّانَ﴾ معروف.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ كان بعض العلماء يقول: في

(١) انظر: زاد المعاد (٣٤٠/٤).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣١٦/٤ ـ ٣١٧)، أقسام القرآن ص٤٤.

الكلام حَذْف دل المقام عليه، أي: والزيتون مشْتَبِهاً وغير متشابه، والرمان مُشْتَبِهاً وغير متشابه[١]. أنها راجعة لكليهما. وحُذف أحدهما لدلالة المقام عليه، ونظير هذا التفسير من كلام العرب قول عمرو بن أحمر الباهلي[٢]:

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بَريئاً ومن أَجْل الطَّوِيِّ رماني

يعني كنتُ منه بريئاً، وكان والدي بريئاً.

ومنه قول ضابىء بن الحارث البرجمي[٣]:

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينة رَحْلُهُ فإني وقَيَّاراً بها لغريبُ

وهو أسلوب عربي معروف.

ومعنى كون الزيتون مُشْتَبِهاً وغير مُتَشَابِهٍ: أن شجره يتشابه ورقه في القَدْر، ويتشابه في نباته في جميع الغصن، وغير متشابه لأنه أنواع تختلف طُعُومُها. الذي يعرفه يجد في اختلاف طعمه فروقاً يستدل بها على كمال قدرة من صنعه، وأن صانعه ليس بطبيعة؛ لأن الطبيعة معنى واحد لا ينقسم، وكذلك الرمان: تجده متشابهاً بالمنظر، أغصانه وورقه متشابه، وقد تجد طعمه متبايناً أيضاً كما هو معروف[٤].

كونه يتشابه من جهة، ويختلف من جهة، هذا دليل على كمال قدرة من خلقه، وأن خالقه ليس بطبيعة؛ لأن الطبيعة عند من يزعمونها معنى واحد، جوهر لا يتقسم، ولا يقبل الانقسام. يستحيل أن تؤثر الطبيعة في مطبوعين مختلفين. فالنار لو فرضنا ـ كما يقولون ـ «إنها بطبيعتها تحرق» فلا يمكن أن يكون من طبيعتها الإبراد، وكذلك السكين، وقلنا: «طبيعتها

(١) انظر: البحر المحيط (٤/١٩١)، الدر المصون (٥/٧٩).

(٢) البيت في الكتاب لسيبويه (١/٧٥)، الدر المصون (٢/٦٠٨).
وقوله: «الطوي» أي: البئر. وقد كان بينه وبين رجل خصومة فيها.

(٣) البيت في الكتاب لسيبويه (١/٧٥)، الخزانة (٤/٨١، ٣٢٣). وقيار: اسم فرسه.

(٤) انظر: ابن جرير (١١/٥٧٨)، القرطبي (٧/٤٩)، البحر المحيط (٤/١٩١)، الدر المصون (٥/٧٩).

القطع»، فلا يكون من طبيعتها الوصل، وهكذا. فلا يمكن أن تكون الطبيعة الواحدة تنتج أشياء مختلفة.

واختلاف هذه الأشياء دليل على أن فاعل ذلك صانع مختار يفعل ما يشاء، كما نبَّهنا على ذلك في أول سورة الرعد؛ لأن الله (جل وعلا) في أول سورة الرعد لما بين غرائب صنعه وعجائبه، نبَّه خلقه أن ما يزعمه الكفرة الفجرة الكلاب، أبناء الكلاب، من أن فعل الله (جل وعلا) في هذا الكون من غرائبه وعجائبه، أنه فعل طبيعة، ألقمهم الحجر في أول سورة الرعد، ذلك أن الله لما قال: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ ثم نوه بشأن هذا القرآن ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ذكر صفات خالق هذا الكون ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ ثم قالوا هو محل الشاهد **﴿وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٍ ونخيلٍ﴾** وفي قراءة أخرى[1]: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وفي القراءة الأخرى[2]: **﴿تُسقى بماءٍ واحدٍ﴾** ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ﴾ [الرعد: الآيات ١ ـ ٤] وفي القراءة الأخرى: **﴿في الأُكْل﴾**[3][4] يعني تجد هذا البستان أرضه أرض واحدة، وقِطَع يجاور بعضها بعضاً، والماء الذي يُسقى به ماءٌ واحد، والأرض بقعةٌ واحدة لا اختلاف في مائها، ولا في أرضها، ثم ترى ذلك البستان تخرج منه ثمارٌ مختلفة ألوانها، وأشكالها، ومقاديرها، وطعومها، ومنافعها. فهذا لا يمكن أن يكون من طبيعة، إذ لو كانت طبيعة الماء لما اختلفت إلى هذا

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٥١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وهناك قراءة أخرى في قوله ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ حيث قُرِئ بالنون ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ وبالياء **﴿ويُفضِّل﴾**. انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٥٢، القرطبي (٢٨٣/٩).

(٤) انظر: النشر (٢١٦/٢).

الاختلاف، ولو كانت طبيعة الأرض لما اختلفت إلى هذا الاختلاف؛ لأن الماء واحد، والبقعة واحدة، فدل اختلاف هذه الثمار في أصنافها، وألوانها، وأشكالها، ومقاديرها، وطعومها، ومنافعها: على أن خالقها هو القادر وحده، الرب وحده، المعبود وحده، الذي له السلطان على هذا الكون، وأَمْره (جل وعلا) هو الأمر، ونهيه هو النهي، وشرعه هو الشرع، ودينه هو الدين؛ ولذا قال (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

ثم قال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ هذا إلفات خالق الكون نظر خلقه إلى غرائب صنعه وعجائبه، انظر مثلًا إلى النخلة، إلى (الكُمّ) عندما يطلع كاللسان غير مفتوح، ثم انظره عندما ينفتح عن ذلك النَّوْر الأبيض اللين، ثم بعد ذلك، بعد أن يصير تمراً يابساً مُدْرِكاً، انظر حالته الأولى عندما نبت، وحالته الثانية عندما طاب وأدرك، تعرف أن الذي نقله من ذلك الطَّور إلى هذا الطَّور أنه ملك قادر، هو رب كل شيء، ومعبود كل شيء جل وعلا.

ولذا قال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩٩] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ﴾ الذي يلفت ربكم نظركم إليه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلالات واضحات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون، يعرفون بذلك من غرائب صنع ربهم وعجائبه أنه هو الرب وحده، المعبود وحده جل وعلا.

وإنما خص المؤمنين في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الكفرة لا يتعظون بالآيات، ولا يفهمون عن الله غرائبه وعجائبه؛ لأن الله أعمى بصائرهم والعياذ بالله.

ومن عادة القرآن أنه غالباً يخص بالفعل المنتفع به، وإن كان الفعل في أصله عاماً[١]، كقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥]

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

وهو مذكر به الأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر الأسود والأحمر، وكقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: آية ١٨] وأمثال ذلك، مع أنه منذرٌ للجميع، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: آية ١].

هذه غرائب صنع الله وعجائبه يبينها لخلقه (جل وعلا) ليعرفهم بربهم (جل وعلا) بما يرون في هذا الكون من باهر صنعه، وعظيم قدرته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾.

﴿ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ ﴿أَثْمَرَ﴾ معناه: عندما يبدو ويطلع.

والينع: تقول العرب: «يَنَعَ الثمر، يَيْنَع، ويَيْنِع يَنْعاً، فهو يَانِع»، إذا نضج وأدرك وصار صالحاً للأكل[1]. معناه: انظروه عند حالته الأولى، وانظروه عند ينعه. أي: طِيْبِه، ونُضجه، وإدراكه صالحاً للأكل، تعرفون بذلك أن الذي نقله من الطَّور الأول عندما يثمر، إلى الحالة التي أينع فيها وصار صالحاً للأكل، تعلمون أن ذلك فعل عليم قدير عظيم، هو رب كل شيء، ومعبود كل شيء؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١/١٢ / ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٠ ـ ١٠٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ

---

(١) انظر: ابن جرير (١١/٥٨١)، القرطبي (٧/٥٠)، الدر المصون (٥/٨٢).

وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١٠٠].

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ﴾ بتخفيف الراء. وقرأه نافع وحده: ﴿وَخَرَّقُواْ﴾ بتشديد الراء[١]. أما على قراءة عبد الله ابن مسعود: (وحرّفوا له بنين وبنات) فهذه قراءة شاذة[٢].

ومعنى هذه الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) لما بين غرائب صنعه وعجائبه الدالة على أنه الرب وحده، المعبود وحده، كما في الآيات الماضية، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ [الأنعام: آية ٩٥] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٨] وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾ الآية [الأنعام: آية ٩٧]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾

واسم فاعله: تارك، واسم مفعوله: متروك. ومصدره: الترك. ولا يُستعمل منه إلا الأمر والمضارع[١]. ومعنى ﴿ذَرْهُمْ﴾: اتركهم.

﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ما) منصوبة لأنها مفعول معه. ويحتمل أن تكون مصدرية[٢] والمعنى: ذرهم وافتراءهم. وعلى أنها موصولة فالمعنى: اتركهم والذي يفترونه على الله. وصيغة الأمر هنا إنما هي للتهديد، والمعنى: خلهم وافتراءهم فسيجدون غِبَّ ذلك، ويعلمون عاقبته الوخيمة. وقد تقرر في فن الأصول في مباحث الأمر[٣]، وفي فن المعاني في مباحث الإنشاء[٤]: أن من المعاني التي تأتي لها صيغة (افعل) منها: قصد التهديد والتخويف، كقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: آية ٣] وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: آية ٨] وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: آية ٢٩] كل هذه صيغ مراد بها التهديد؛ ولذا قال هنا: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ والافتراء: هو اختلاق الكذب والعياذ بالله جل وعلا.

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٣] أي: ليغروهم، ولتميل إليه، أي: إلى ذلك القول المزخرف المزين الباطل؛ ليكون سبباً للضلال، تميل إليه أفئدة: أي: قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ والعياذ بالله ـ لأن المؤمنين يعرفون زخارف الشيطان ووحيه، فيتباعدون منه ويجتنبونه؛ ولذا قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾. إذا مالت قلوبهم إليه يرضوه ويحبوه، ثم إذا رضوه وقعوا في الكفر المزين المزخرف والعياذ بالله.

﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: آية ١١٣] الاقتراف في لغة العرب: معناه الاكتساب[٥]. والمعنى: وليكتسبوا ما هم مكتسبون إياه من

---

(١) انظر: المفردات (مادة: وذر) ص٨٦٢، القرطبي (٦٩/٧)، الدر المصون (٦٣٧/٢).

(٢) انظر: الدر المصون (١٧٧/٥).

(٣)(٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٢٣/٣، ٣٧)، الإيضاح للقزويني ص١٤٨.

(٥) انظر: المفردات (مادة: قرف) ص٦٦٧.

الكفر والمعاصي ـ عياذاً بالله ـ بسبب ذلك القول المزخرف، الذي صغت إليه قلوبهم ورضوه وأحبوه، ووقعوا بسببه بالكفر والمعاصي. والاقتراف: الاكتساب. وتقول: راح فلان يقترف لأهله أي يكتسب لهم من الدنيا. والمراد بالاقتراف هنا: اكتساب المعاصي هذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١١٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٤].

قرأ هذا الحرف جمهور القراء ما عدا حفصاً، وابن عامر: ﴿مُنزَلٌ من ربك بالحق﴾ بصيغة اسم مفعول (أَنزَل). وقرأه حفص عن عاصم، وابن عامر ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بصيغة اسم المفعول من (نَزَّله) مُضَعَّفاً[(١)].

كان كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: احْتَكِم معنا إلى علماء اليهود والنصارىٰ، الذين عندهم بقية علم من التوراة والإنجيل، ليخبرونا أأنت رسول حقاً أم لا[(٢)].

وقال بعضهم[(٣)]: قالوا له: نحن وأنت اختلفنا فلنتحاكم إلى بعض الكهنة. فبين الله جل وعلا ـ أَمَرَ نبيه أن يبين ـ أنه لا يبتغي حَكَماً غير الحَكَم العدل، خالق السماوات والأرض، الذي أنزل هذا الكتاب وفصّله. وأهل الكتاب الذين تريدون أن نتحاكم معكم إليهم يعلمون أن هذا الكتاب حق، وأنه منزّل من الله، وأن النبي ﷺ رسول حقاً. كما أُخذ عليهم بذلك العهد في كتبهم، كما قدمناه مراراً.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠١.

(٢)(٣) انظر: البحر المحيط (٢٠٨/٤ ـ ٢٠٩)، ولم أقف على ذلك في غيره.

﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٦] وقد أخذ الله العهد على جميع الرسل، وعلى أممهم أن منهم من أدرك النبي ﷺ أن يؤمن به ويصدقه، كما قدمنا بيانه في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: آية ٨١] ومعنى الآية الكريمة: قل لهم يا نبي الله: أأضل عن سواء الطريق ضلالًا بعيداً في الحكومة فأبتغي حَكَماً غير الله؟! لا يكون ذلك مني أبداً.

قال بعض العلماء: والحَكَم: أعظم من الحاكم؛ لأن الحَكَم لا تكاد العرب تطلقه إلا على من هو معروف بالإنصاف والعدالة في حكومته، أما الحاكم فيطلق على كل من يحكم، سواءٌ حكم بجور أم بحق[١].

والهمزة للإنكار. أي: لا أبتغي حَكَماً غير الله. وقد قدمنا بعض الكلام في الليلة الماضية على بعض هذه الآية[٢] وأوضحنا إعراب (غير) و (حَكَماً).

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أي: لا يكون ذلك؛ لأن الهمزة إنكار، بمعنى النفي[٣]. أي: وهو الذي أنزل، الحَكَمُ الذي لا أبتغي حَكَماً سواه هو الله الذي أنزل إليكم على لساني هذا الكتاب ـ القرآن العظيم ـ الذي جمع الله فيه ثمرات الكتب المنزلة، وجمع فيه علوم الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ أي: موضحاً مبيناً، آياته توضح فيها العقائد، والحلال والحرام، والأمثال، والمواعظ، والآداب، والمكارم؛ لأنه في غاية

---

(١) انظر: القرطبي (٧/٧٠)، البحر المحيط (٤/٢٠٩)، الدر المصون (٥/١٢٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٠٩).

الإيضاح والتفصيل، والذي فصّله هو الحكيم الخبير ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: آية ١].

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾[١] أي: أنزله إليكم في حال كونه مُفصَّلًا، أي: موضَّحاً مبيناً فيه العقائد، مُبيناً فيه الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، وما يقرِّب إلى الله، وما يوصل إلى جنته، وما يُبعد من الله ويسخطه، ويوصل إلى ناره، وبين مصير الفريقين، وما أعدَّ لأوليائه، وما أعدَّ لأعدائه، كل هذا موضح مفصل في القرآن، و إن كان في القرآن بعض الآيات المتشابهات، فإنها تُرد إلي المحكمات، ويُعرف إيضاحها بردها إلى المحكمات.

كما قدمنا في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: آية ٧].

يعني: أن المحكمات هن أم الكتاب التي يُرَدُّ إليها ما أشكل من متشابهاته. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٤] التفصيل: ضد الإجمال، وهو الإيضاح والبيان[٢]. وقول من قال: «﴿مُفَصَّلًا﴾ أي: بَيْنَه فَتَرَات وفَصْل؛ لأنه ينزل أنجماً مُنَجَّماً». هو غير الصواب، والتحقيق: أن معنى قوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾: أنه مُبَيَّن مُوَضَّح، بين الله فيه العقائد، والحلال والحرام، ومصير أهل الجنة، ومصير أهل النار، وكل شيء يحتاج إليه الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: آية ٨٩] فالقرآن فيه تبيان كل شيء، ولكن الناس [كل منهم][٣] يأخذ منه بقدر ما أعطاه الله من الفهم، فهو بحر، وكل يغرف منه بحسب ما عنده، كما بينه حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه)، كما ثبت عنه في صحيح البخاري[٤]: أنه لما سأله أبو جحيفة:

---

(١) المصدر السابق (٢٠٩/٤)، الدر المصون (١٢٣/٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٩٦/١١)، (٦٠/١٢)، البحر المحيط (٢٠٩/٤).

(٣) في الأصل: كلهم.

(٤) تقدم تخريجه في مقدمة الكتاب.

هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أجاب علي (رضي الله عنه): لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلًا في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة. قال: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يُقتل مسلم بكافر. ومحل الشاهد من الحديث: قول علي (رضي الله عنه): «إلا فهماً يعطيه الله رجلًا في كتاب الله» فهو يدل على أن من أعطاه الله فهماً في كتاب الله فَهِمَ علوماً خصه الله بها لم تكن عن أحد؛ لأن القرآن يتضمن جميع الأشياء، والناس في فهمه بحسب ما أعطاهم الله من المواهب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ﴾ معناه: أعطيناهم ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ والمراد بالكتاب: جنس الكتاب الصادق بالتوراة والإنجيل، وصيغة الجمع في قوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ﴾ للتعظيم. والمعنى: والإسرائيليون والنصارى الذين أعطيناهم علماً من علم التوراة والإنجيل يعلمون أن هذا القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أن الله نزله عليك في حال كونه متلبساً بالحق؛ لأن كل ما فيه حق، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهىٰ إلا عن شر، ولا يخبر إلا بصدق، إلى غير ذلك من أمور أحقيته.

ومعنى الآية: علماء اليهود والنصارىٰ الذين تطلبون أن نتحاكم إليهم هم يعلمون أن هذا الكتاب الذي أنزله الله عليّ حق، وأني رسول الله، ولأنهم يعلمون أن الكتاب حق [وأنه][1] ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه في محل حال. أي: في حال كونه متلبساً بالحق[2]، والحق: ضد الباطل. ومعناه: أن هذا القرآن لا باطل فيه، كله حق، وكله هدىٰ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس: آية ٣٢] كما يأتي إيضاحه في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] وهذا معنى قوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١١٤] (الفاء) كأنها سببية. أي:

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة لربط أجزاء الكلام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/١٢٤).

وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: آية ١٠٣] ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: آية ٧١] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: آية ٨] وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن نصيب الجنة من الناس واحدٌ من الألف، وأن نصيب النار تسعةٌ وتسعون وتسعمائة. هذا ثابت في الصحيحين عن النبي ﷺ. وفي الصحيح: أن الله يقول لآدم يوم القيامة: يا آدم. فيقول آدم: لبيك ربي وسعديك، والخير كله في يديك. فيقال له: يا آدم أخرج خلق النار. فيقول: يا ربي، وما خلق النار؟ فيخبره ربه أنه تسعة وتسعون وتسعمائة من كل ألف، ولما ذكر النبي ﷺ هذا ضاق على الصحابة، وحزنوا من هذا لقلة نصيب أهل الجنة، وكثرة نصيب النار، فبين لهم النبي ﷺ كثرة الكفرة الفجرة، وأن يأجوج ومأجوج يمكن أن يكون منهم الألف ومنكم الواحد[١]؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] المراد بالأرض على

وكثرة نصيب النار، فبين لهم النبي ﷺ كثرة الكفرة الفجرة، وأن يأجوج ومأجوج يمكن أن يكون منهم الألف ومنكم الواحد[١]؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] المراد بالأرض على
التحقيق: جميع أهل الدنيا الذين هم في الأرض، خلافاً لمن زعم أن المراد بها أرض مكة، وأن المراد أكثر أهلها من رؤساء الكفرة. التحقيق هو التعميم[٢].

وقوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ هو جزاء الشرط، منصوب بحذف النون، مضارع (أضله، يُضِلُّه) إذا جعله ضالًّا، وتسبب له في الضلال عن طريق الصواب.

وقد بينا في هذه الدروس مراراً: أن الضلال ـ أعاذنا الله والمسلمين منه ـ يُطلق في القرآن العظيم وفي اللغة العربية إطلاقات متعددة على ثلاثة أنحاء[٣]: يطلق الضلال في اللغة والقرآن على الذهاب عن طريق الحق إلى

---

(١) الحديث أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٣٣٤٨)، (٦/٣٨٢)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٤٧٤١، ٦٥٣٠،

الحكم العدل فيه، ولم يترك الناس سدى. أَمَرَهُمْ ونهاهم، فلا بد أن تُطاع أوامره، وتُسلك طرقه التي أمر بها، وكل ذلك ما فيه للإنسانية إلا خير الدنيا والآخرة؛ ولذا قال (جل وعلا) هنا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: آية ١١٥] صدقاً في كل ما تخبر به من الأخبار، وعدلاً في كل ما تحكم به من الأحكام، وكل ما تشرعه للبشرية.

وقوله جل وعلا: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لأن كلمات الله (جل وعلا) هي في غاية الحق، والصدق، والعدالة، لا يمكن أحد أن يبدلها ويُحوِّل عدالتها جوراً، أو يُحَوِّل صدقها كذباً، لا يمكن أحد أن يفعل ذلك، فهي في غاية العدالة والصدق والكمال، لا يمكن أحداً أن يغيرها فيجعل عدلها جوراً، ولا أن يجعل صدقها كذباً أبداً.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هو السميع لكل ما يقوله خلقه، العليم بكل ما يعمله خلقه، وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1]: أنه جرت العادة في القرآن: أن الله لا يذكر آيات تتضمن أوامر ونواهي إلا وترى بعدها الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم؛ لأنه لا خلاف بين العلماء أنه لا يوجد واعظ أكبر، ولا زاجر أعظم من زاجر المراقبة والعلم. وهو أن يعلم هذا الإنسان المسكين أن خالق السماوات والأرض مطلع عليه، يعلم ما يسر وما يُعلن، حتى ما يخطر في قلبه فهو يعلمه (جل وعلا). إن الله يعلم خطرات القلوب، وكيف يجهل خطرات القلوب من هو خالق خطرات القلوب؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: آية ١٤] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦] فالله يقول لنا في كل موضع من كتابه، لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم (سميع عليم)، (عليم حكيم)، (سميع بصير) يعلم كذا. لا تكاد تجد ورقة إلا فيها أن الله يعلم ما نفعل، وهذا أكبر واعظ، وأعظم زاجر، وقد ضرب العلماء لهذا مثلًا قالوا: لو فرضنا أن في هذا البراح من الأرض مَلِكاً عظيماً شديد البأس، عظيم النكال، شديد الغضب

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

إذا انتُهكت حرماته، قتّالًا للرجال، سفاكاً للدماء، وحوله سيافه، والنطع مبسوط، والسيف يقطر دماً، وحول هذا الملك بناته ونساؤه وجواريه، أيخطر في البال أن أحداً من الحاضرين يُطل بريبة، أو غمزة، أو إشارة عين؟! لا، وكَلَّا، كلهم خاضع الطرف، خاشع الجوارح، أُمنيته السلامة[1].

ونحن نؤكد لكم أن خالق السماوات والأرض أعظم اطلاعاً، وأشد بطشاً، وأفظع فتكاً إذا انتُهكت حرماته جل وعلا.

فعلىٰ الإنسان أن يعلم أن هذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم، أن ربه يسمع ما يقول، ويعلم ما ينوي وما يفعل، إذا علم الإنسان هذا فإنه يُحاسِب ويطيع ربه، فلو علم أهل بلد من البلاد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس والدسائس باتوا متأدبين، كَافِّين عن كل ما لا ينبغي. وهذا خالق السماوات والأرض ـ مع عظمته وجلاله ـ يبين لخلقه أنه مطلعٌ عليهم، عالم بما يفعلون، ومع هذا لا يتأدبون، ولا ينزجرون!! فهذه وقاحة عظمىٰ، وجهل كبير؛ ولأجل هذا أنتم تعلمون في آيات من كتاب الله أن الله بين أن الحكمة التي خلق من أجلها الخلائق، والموت والحياة، والسماوات والأرض، هي أن يبتليهم على ألسنة رسله، أيهم يحسن العمل ممن لا يحسنه، كما قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] وإذا عرف العاقل أن خالق السماوات والأرض خلقه ليبلوه ويختبره: أهو يحسن العمل أم لا يحسنه؟ وربنا يقول: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: (أيكم أكثر عملا) فلا بد أن يقول الإنسان: يا ليتني عرفت الطريق التي أنجح بها في هذا الاختبار، ويكون عملي حسناً؛ ولأجل

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

هذه المهمة العظمى لَمَّا غفل عنها أصحاب النبي ﷺ جاء جبريل (عليه السلام) في صفة أعرابي في حديثه المشهور الصحيح[(١)]؛ ليبين لهم هذه المهمة الكبرى، والواعظ الأكبر؛ ولذا قال للنبي ﷺ في ضمن حديثه المشهور: يا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) أخبرني عن الإحسان. يعني: والإحسان هو الذي خُلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فالنبي ﷺ بين أن الإحسان الذي خُلق الخلق للاختبار فيه لا يمكن أن يحصل إلا بهذا الزاجر الأعظم والواعظ الأكبر (...)[(٢)].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٦ ـ ١٢٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٦].

أخبر الله في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ ليبين على لسانه لأمته أن من أطاع أكثر الناس أضلوه عن سبيل الله، وهذه الآية الكريمة تدل على أن أكثر الخلق ضالون مضلون، وهو كذلك، كما جاء مبيناً في أحاديث كثيرة صحيحة، وآيات من كتاب الله[(٣)]، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: آية ١٧] ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.
(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. ولاستيفاء النقص راجع كلام الشيخ (رحمه الله) في هذا الموضوع عند تفسير الآيات: (٥٩، ١٢٨) من سورة الأنعام، (٥٦، ٦١) من سورة الأعراف، (٤٣، ٧١) من سورة الأنفال.
(٣) انظر: أضواء البيان (٢/٢٠٨).

(أَخَذ) و (أكل) فالأجود فيهما حذف الهمزة في الأمر، تقول: «خُذ» ولا تقول: «أُخذ» وتقول: «كُل» ولا تقول: «ءُأكل» ورَدُّهُما إلى أصلهما لغة قليلة.

والأمر في قوله هنا: ﴿فَكُلُوا۟﴾ أمر إباحة، وقد تقرر في فن الأصول أن من صيغ (افْعَل) التي تأتي لها: الإباحة[1]. يعني: فكلوا. والفاء هنا مُسَبِّبَة عما قبلها، إن زعموا أن الميتة ذبيحة الله، وأنها خير من ذبيحتكم؛ فكلوا مما ذكيتم وذكرتم اسم الله عليه عند الذكاة، ولا تأكلوا من الميتة، ومما ذبحه الكفار وذكروا عليه اسم الأصنام. كما يأتي في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فإنه قابل بين الأمر والنهي، أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ١١٨] ونهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

ومعنى ذكر اسم الله عليه: هو أن يُسمَّى على الذبيحة عند الذكاة، أو على العقيرة عند الاصطياد، أو على الجارح إذا أُرسل إلى الصيد، كل هذا يُسمى الله عليه ويُؤكل منه، وسيأتي ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ

= (٤٠٧)، (٢٥٩/٢)، وابن خزيمة (١٠٢/٢)، والدارقطني (٢٣٠/١)، والبيهقي (١٤/٢)، (٨٣/٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢٣١/٣)، وصحيح ابن خزيمة رقم (١٠٠٢)، وانظر: صحيح أبي داود رقم (٤٦٥)، وصحيح الترمذي رقم (٣٣٤)، ومشكاة المصابيح رقم (٥٧٢)، والإرواء (٢٦٦/١).

٢ ـ عبدالله بن عمرو (رضي الله عنه). عند أحمد (١٨٠/٢، ١٨٧)، وابن أبي شيبة (٣٤٧/١)، وأبي داود في الصلاة، باب: متى يؤْمر الغلام بالصلاة. حديث رقم (٤٩١)، (١٦٢/١)، والدارقطني (٢٣٠/١)، والحاكم (١٩٧/١)، والبيهقي (٨٤/٣)، وانظر: صحيح أبي داود رقم (٤٦٦)، والمشكاة رقم (٥٧٢)، والإرواء (٢٦٦/١).

٣ ـ أنس بن مالك (رضي الله عنه) عند الدارقطني (٢٣١/١)، وفي سنده داود بن المُحبَّر، قال أحمد: لا يدري ما الحديث اهـ. وقال ابن المديني: ذهب حديثه، اهـ وقال الدارقطني: متروك اهـ الميزان(٢٠/٢).

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١٨/٣)، مذكرة الأصول ص١٨٩.

﴿اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وسنتكلم عليه هناك، وحاصله أن للعلماء فيه ثلاثة مذاهب[١]:

أحدها: أن كل ما ذبحه مسلم ولم يذكر اسم الله عليه، أو صاده ولم يذكر اسم الله عليه، أو أرسل عليه جارحه من كلبه أو صقره أو بازه ولم يسمّ الله عليه؛ أنه لا يُؤكل، سواء ترك التسمية عمداً أو نسياناً. وهذا قال به طائفة قليلة في الذبيحة، وقال به جماعة في الصيد، وهو رواية قوية عن أحمد بن حنبل. وجمهور العلماء على أنه إن ترك التسمية نسياناً فالذبيحة تُؤكل؛ لأنه ما تركها إلا نسياناً، والنسيان معفو عنه، وإن تركها عمداً فلا تُؤكل عند جماهير العلماء، خلافاً للإمام الشافعي وعامة أصحابه في مشهور مذهبه أنه إن ترك التسمية وهو مسلم أُكلت ذبيحته مطلقاً، سواء تركها عمداً أو نسياناً؛ لأن الشافعي يفسر قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بما أُهل به لغير الله، أما المسلم عنده فذبيحته حلال سواء سمَّى الله أو لم يسمِّ، سواء تركها عمداً أو نسياناً. وسيأتي تفاصيل هذا في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقوله هنا: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: مما ذكيتم وذكرتم اسم الله عليه. والآية على التحقيق في الذكاة، خلافاً لبعض العلماء القائل: هي عامة. أي: كل طعام: من خبز، أو لحم، أو غيره، أو فاكهة تسمي الله عليه وأن تأكل منه[٢]. وعلى هذا فلا ينبغي للإنسان أن يأكل من شيء كائناً ما كان إلا إذا سمى الله عليه. والتحقيق أنها في الذكاة كما يقتضيه السياق. وهذا معنى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ هذه (إنْ) الشرطية هي كثيرة في القرآن وفي السنة، وفيها إشكال معروف كثير؛ لأنهم يؤمنون قطعاً. وقد تقرر في فن المعاني: أن تعليق فعل الشرط بجزاء الشرط بأداة الشرط التي هي (إنْ) لا تكون إلا فيما لا يُتحقق وقوع الشرط فيه[٣]، فلو قلت لعبدك وهو عارف باللغة

---

(١) انظر: المجموع (١٠٢/٩)، المغني (٢٨٩/١٣ ـ ٢٩١)، المحلى (٤١٢/٧ ـ ٤١٤)، القرطبي (٧٥/٧)، ابن كثير (١٦٩/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٦٧/١٢)، القرطبي (٧٢/٧).

(٣) انظر: الكليات ص٦٩، ٧٠، ٧١، ١٩٣، ٨٣٩، جواهر البلاغة ص١٣٣.

العربية: «إن جاءك زيد فأعطه درهماً». هو يعلم أن معنى كلامك: أن زيداً قد يأتي وقد لا يأتي؛ لأن (إنْ) لا تدل على تحقيق وقوع الشرط، بل قد يقع الشرط فيقع الجزاء، وقد لا يقع الشرط فلا يقع الجزاء. وقوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ يُفهم من «إنْ» الشرطية أنهم قد يكونون مؤمنين وقد يكونون غير مؤمنين، وهم مؤمنون حقاً قطعاً، فَمِن هذا جاء الإشكال في (إنْ) هذه، وهذا كثير في القرآن، كقوله للمؤمنين: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وكقول النبي ﷺ في حديث زيارة القبور: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون**»[1] وهم لاحقون بهم قطعاً يقيناً. وكقوله جل وعلا: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: آية ٢٧] وهم داخلوه قطعاً بلا شك، فما وجه التعليق بأداة الشرط التي هي (إنْ) التي تدل على أن جزاء الشرط قد يقع، وقد لا يقع، مع أنها أمور مُحققة؟ هذا وجه الإشكال. وهذه مسألة عربية معروفة، وهي من مسائل العربية الكبار المشهورة التي اختلف فيها علماء البصرة وعلماء الكوفة من النحاة[2]، فذهب عامة علماء الكوفة إلى أن (إنْ) في جميع هذه الآيات بمعنى (إذْ) التعليلية، قالوا: وتأتي (إنْ) بمعنى (إذْ) التعليلية، وعليه ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم﴾ أي: لأجل كونكم مؤمنين بآياتي. قال الكوفيون: ومن هذا المعنى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: آية ٩] قالوا معناها: إذْ نفعت الذكرى ذَكِّر؛ لأجل أن الذكرى تنفع. قالوا: وهذا أسلوب عربي

---

(١) ورد في هذا المعنى ثلاثة أحاديث:

الأول: حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند مسلم في الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء. حديث رقم (٢٤٩)، (٢١٨/١)، وهو اللفظ المطابق لما ذكر الشيخ (رحمه الله).

الثاني: حديث عائشة (رضي الله عنها) عند مسلم في الجنائز، باب ما يُقال عند دخول المقابر، حديث رقم (٩٧٤)، (٦٦٩/١).

الثالث: حديث بريدة (رضي الله عنه) عند مسلم في الجنائز، باب ما يُقال عند دخول المقابر، حديث رقم (٩٧٥)، (٦٧١/١).

(٢) انظر: مغني اللبيب (٢٤/١)، الدر المصون (١٩٢/٤ ـ ١٩٣)، خزانة الأدب (٦٥٥/٣).

معروف. واستدلوا له من أشعار العرب بقول الفرزدق ـ وهو عربي فصيح قُح[(١)] ـ:

أَتَغْضَبُ إنْ أُذْنا قُتَيبة حُزّتا جِهَاراً ولم تَغْضَبْ لقَتْل ابن خَازِمِ

قالوا: (إن) هنا بمعنى (إذ)، أتغضب إذْ حُزَّت أُذنا قتيبة. هذا قول البصريين؛ ولذا كله أَجْرَوه على سَنَن واحد. «وإنا إن شاء الله» قالوا: وإنا لاحقون إن شاء الله ذلك. ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] أي: إن شاء الله ذلك. وهذا قول الكوفيين. وأما البصريون ففصلوا بين الأمرين، قالوا: أما قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهي أداة شرط جيء بها للتهييج والإلهاب؛ لأن من عادة العرب أن يُهَيِّجُوا المُخَاطب، تقول للرجل: «إن كُنتَ ابن الكرام، ابن فلان وفلان، فافعل لي كذا». وليس مقصودك تعليق الشرط بالجزاء، بل مقصودك تهييجه وبعثه للفعل، وهذا أسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول أحد أولاد الخنساء الشاعرة[(٢)]:

لسْتُ لخنسَاءَ ولا للأَخْزَمِ ولا لعمرو ذي السَّنَاءِ الأقدمِ
إن لم أَرِدْ في الجيش جيشِ الأعجمي ماضٍ على الهَولِ خِضَم خِضْرِمِ

يقول: لست لأبي ولا لأمي إن لم أَرِد في الجيش. ليس يعني التعليق، وإنما يعني تحريض نفسه.

قالوا: قوله: «**وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**» وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] قال علماء البصرة: المراد بالتقييد بالمشيئة في هذا الأمر المُحَقَّق: هو تعليم الخلق ألا يتكلموا عن أمر مستقبل إلا معلقين بمشيئة الله. وإنما جيء بالأمر المُحَقَّق لتوكيد ذلك، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتحدث عن مستقبل أنه سيقع أو سيفعل إلا إذا قيد بمشيئة الله، كما قال الله لنبيه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾

---

(١) البيت في الكتاب لسيبويه (١٦١/٣)، مغني اللبيب (٢٤/١)، خزانة الأدب (٦٥٥/٣)، الدر المصون (١٩٣/٤).

(٢) البيتان في الاستيعاب (٢٩٧/٤)، الإصابة (٢٨٨/٤).

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: الآيتان ٢٣، ٢٤] وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

و(الآيات) جمع تصحيح مؤنث، مفرده (آية)، وقد بينا[١] أن الآية أصلها عند المحققين من علماء التصريف أن أصلها (أَيَيَة) اجتمع فيها موجبا إعلال، فوقع الإعلال في الحرف الأول، على خلاف القاعدة الكثيرة المُطَّرِدَة، وهو جائز، فلو جرى على الأغلب لكان الإعلال في الحرف الأخير. وقيل: (أَيَاه) ولكن الإعلال وقع هنا في الحرف الأول، فصار (آية) ووزنه بالميزان الصرفي: (فَعَلَة) وحروفه: فاؤه همزة، وعينه ولامه كلاهما ياء. هذا أصل وزنها وصرفها.

وهي في لغة العرب ـ قد بينا مراراً[٢] ـ أن (الآية) في لغة العرب تطلق إطلاقين، وذكرنا هذا كثيراً في هذه الدروس.

أما الإطلاق الأول المشهور: فهو إطلاق الآية بمعنى (العلامة). تقول العرب: «الآية بيني وبينك كذا». أي: العلامة بيني وبينك كذا. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] أي: علامة ملكه أن يأتيكم التابوت. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو عربي جاهلي ـ تفسير الآيات بالعلامات حيث قال[٣]:

تَوَهَّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها لِسِتَّةِ أعوامٍ وذا العامُ سَابعُ

ثم بين أن مراده بالآيات: (علامات الدار) فقال:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأياً أُبينُه ونُؤيٌ كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمُ خَاشِعُ

إطلاق الآية الآخر في لغة العرب: تُطْلِق العرب الآية على

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(الجماعة)، وهو إطلاق عربي مشهور، يقولون: «جاء القوم بآيتهم». أي: بجماعتهم، ومنه بهذا المعنى: قول بُرج بن مُسْهِر الطائي[1]:

خَرَجْنَا من النَّقبينِ لا حَيَّ مثلنا ... بآيتنا نُزجي اللِّقَاحَ المَطَافِلاَ

أي: بجماعتنا.

إذا عرفتم أن (الآية) تُطلق في لغة العرب: إطلاقين، تطلق بمعنى (العلامة)، وتطلق بمعنى (الجماعة)، فاعلموا أن (الآية) في القرآن تُطلق أيضاً إطلاقين:

تطلق على الآية الكونية القدرية، وهي: ما نصبه الله كوناً وقدراً دالّاً على ربوبيته، وأنه المعبود وحده، وهي بهذا المعنى من الآية بمعنى (العلامة) قولًا واحداً. كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: علامات واضحات لأصحاب العقول على أن لهذا الكون مُدَبِّراً هو رب كل شيء، وهو المعبود وحده جل وعلا.

الإطلاق الثاني في القرآن: إطلاق الآية بمعنى الآية الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم، كقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: آية ١١] فهي بهذا من الآية الشرعية الدينية، والآية الشرعية الدينية قيل: من الآية بمعنى (الجماعة)؛ لأن الآية جمعت كلمات من القرآن اشتملت على بعض معانيه ومقاصده.

وقال بعض العلماء: الآية الشرعية الدينية أيضاً من الآية بمعنى (العلامة)؛ لأنها علامات على صدق من جاء بها؛ لما فيها من الإعجاز؛ ولأن لها علامات: مبادىء، ومقاطع تدل على انتهاء هذه الآية وابتداء هذه.

وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

والإيمان في لغة العرب: التصديق[١]، ومنه قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدق لنا في أن يوسف أكله الذئب. ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: آية ١٧].

والإيمان في اصطلاح الشرع في مذهب أهل السنة والجماعة: هو التصديق الكامل من جميع الجهات، أعني: تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل؛ ولذا ثبت في الصحيح أن: «**أن الإيمان بضع وستون**» وفي بعض الروايات: «**بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[٢] فسمى إماطة الأذى عن الطريق (إيماناً). وفي الحديث الصحيح: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً**»[٣] فسمى الصوم (إيماناً) «**من قام ليلة القدر إيماناً**»[٤] فسمى القيام (إيماناً). وقد قدمنا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٤٣] أن معناه: وما كان الله ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس قبل نسخ القبلة، كما قدمناه مراراً. وهذا معنى قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٩].

في هذه الآية الكريمة قراءات سبعيات[٥]: قرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ببناء الفعلين للفاعل.

وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو قرؤوا: ﴿**وقد فُصِّل لكم ما**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٢.

وقرأ هذا شعبة عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿**وقد فصَّل لكم ما حُرِّم عليكم**﴾ ببناء «فَصَّل» للفاعل، و «حُرِّم» للمفعول. فتحصَّل أنها ثلاث قراءات سبعيات: ﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ﴾ لنافع، وحفص، ﴿**فُصِّلَ لكم ما حُرِّم**﴾ لابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، ﴿**فصَّل لكم ما حُرِّم**﴾ لحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم.

والجمهور ـ غير الكوفيين ـ قرؤوا: ﴿**وإن كثيراً ليَضِلُّون**﴾ بفتح الياء. وقرأ الكوفيون الثلاثة ـ أعني: عاصماً، وحمزة، والكسائي ـ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ بضم الياء[1] ﴿بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. هذه القراءات في الآية.

ومعنى الآية الكريمة[2] ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (ما) استفهامية، أيُّ شيء ثبت لكم يمنعكم من أن تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه؟ والاستفهام هنا بمعنى الإنكار[3]، أي: لا يوجد شيء يمنعكم من ذلك. وقال بعض العلماء: هو بمعنى التقرير بأن يقولوا: ليس هنالك شيء يمنعنا مما ذُكر اسم الله عليه. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أيُّ شيء ثبت لكم يمنعكم من ذلك؟ والمعنى: لا شيء يمنع من ذلك؛ لأنكم ذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه، وفعلتم فيه الطريقة الشرعية التي أُمرتم بها، فأيُّ مانع يثبت يمنعكم من أكل هذا؟ والمعنى: لا مانع منه، وإنما جاء المانع في الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: والحال أنه حلال كماء المزن؛ لأن الله فصَّل لكم ما حرم عليكم، أي: أوضحه وبينه غاية البيان والإيضاح، ولم يجعل مما حرم عليكم ما ذبحتموه، وذكيتموه، وسميتم الله عليه؛ فإذا كان الله فصَّل لكم ما حرمه عليكم

---

(١) المصدر السابق ص٢٠١.

(٢) انظر: الأضواء (٢/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/٢١١).

بالتفصيل والبيان، ولم يكن منه أنه حرم ما ذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه، فما لكم ألَّا تأكلوا منه؟ لا مانع من الأكل منه.

واعلم أن هذه الآية غلط فيها كثير من المفسرين[1] فقالوا: ﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فصّله بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] وهذا غلط لا شك فيه؛ لأن هذه الآية التي نفسرها من سورة الأنعام، وهي من القرآن النازل بمكة بإجماع العلماء، إلا آيات معروفة منها[2]، كقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات [الأنعام: آية ١٥١]، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: آية ٩١] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: آية ٩٣] فهي آيات معدودة مدنية في سورة مكية، أما جُل سورة الأنعام فهي نازلة في مكة قبل الهجرة بلا خلاف بين العلماء، وهي نازلة قبل النحل بلا شك، والنحل من القرآن المكي على التحقيق، وقد دل القرآن في موضعين أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة النحل[3]:

أحدهما: قوله في سورة النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: آية ١١٨] فهذا المحرم المقصوص من قبل المُحال عليه هو النازل في سورة الأنعام بالإجماع في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: آية ١٤٦].

الثاني: أن الله قال في سورة الأنعام هذه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: آية ١٤٨] فبين أنهم سيقولونه في المستقبل بدلالة حرف التنفيس الذي هو السين، ثم بين في سورة النحل أن ذلك الموعود به في المستقبل وقع وثبت في سورة النحل حيث

---

(١) انظر: ابن جرير (٦٩/١٢)، القرطبي (٧٣/٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: آية ٣٥] فدل على أنها بعدها، وإذا كانت سورة الأنعام التي فيها: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٩] نازلة في مكة قبل الهجرة، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: آية ٣] من سورة المائدة نزلت بعد الهجرة في المدينة في آخر ما نزل من القرآن؛ لأن المائدة من آخر ما نزل من سور القرآن، وفيها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] المُؤْذِنَة بكمال الدين، وقرب انقضاء الوحي، كيف يكون هذا التفصيل المذكور في الأنعام في سورة المائدة، والمائدة لم تنزل إلا بعد ذلك بسنين كثيرة؟ والتحقيق أن قوله هنا: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١١٩] أنه هو التفصيل المذكور في سورة الأنعام؛ لأنها نزلت جملة واحدة، وهذا مما فَصَّله في الأنعام، وهو قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] فقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: آية ١٤٥] هذا التفصيل للحرام يدل على أن ما ذبحتم، وذكيتموه، وذكرتم اسم الله عليه أنه ليس من المحرم الذي فُصِّل لكم، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (ما): موصولة، وهي في محل المفعول، والعائد إلى الصلة محذوف، والتقدير: وقد فصل لكم ما حرمه عليكم. وعلى قراءة (حُرِّم) فالرابط هو ضمير النائب المحذوف أي: ما حُرِّمَ هو عليكم وهذا معنى قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ جرت العادة في القرآن أن الله إذا ذكر هذه المحرمات الأكل، أنه يستثني منها حالة الضرورة كما قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] وقال في النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: آية ١١٥].

وقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: آية ٣] وقال هنا: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يعني: أن هذا الذي حرمه عليكم، وفصل تحريمه، إذا ألجأتكم الضرورة إليه فهو حلال عليكم للضرورة؛ لأن الضرورة تبيح المحظورات.

ومن يأتِ الأمورَ على اضطرارِ فليسَ كمثلِ آتيهَا اختياراً[1]

فالميتة حرام بالإجماع، ولكن الإنسان إذا خاف على نفسه الهلاك ولم يجد إلا الميتة أو الخنزير أو ما جرىٰ مجرى ذلك فإنه يباح له ذلك الحرام. وقد قدمنا في سورة البقرة كلام العلماء في الضرورة التي تبيح الميتة، وفي القدر الذي يباح منها هل هو ما يسد الرمق ويمسك الحياة، أو هو الشبع والتزود حتى يجد غيرها كما قدمناه موضحاً[2].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يدل على أن هذه المحرمات التي فصلها الله، وبين أنها حرام إذا اضطر الإنسان إليها، وألجأته الضرورة إليها كانت حلالًا عليه؛ لأن نبينا ﷺ بُعث بالحَنِيفِيَّة السمحة، وسُهِّل له فيها كل التسهيل، ورُفعت عنا على لسانه الآصار ـ وهي أثقال التكليف التي كانت على من قبلنا ـ وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم أن النبي ﷺ لما قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ الآيات [البقرة: آية ٢٨٦]. أن الله قال: «قد فعلت» في رواية ابن عباس عند مسلم، وأن الله قال: «نعم» في رواية أبي هريرة عند مسلم[3]. ولذا كان من علامات نبوته ﷺ أنه يحل الطيبات، ويحرم الخبائث، ويضع الآصار، والأغلال، وأثقال التكليف التي كانت على من قبلنا؛ لأن ذلك من صفاته

---

(١) البيت لسيدي محمد بن الشيخ سيدي من أدباء شنقيط، وهو ضمن قصيدة له مذكورة مع ترجمته في كتاب: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص٢٤٧.

(٢) انظر: المجموع (٣٩/٩)، المغني (٣٣٠/١٣)، المحلى (٤٢٦/٧)، القرطبي (٢٢٥/٢)، الأضواء (١٠٧/١).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

في الكتب المتقدمة كما يأتي في سورة الأعراف في قوله: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] والآصار والأغلال هي: الأثقال التي كانت شديدة في التكليف على من قبلنا؛ لأن من قبلنا ربما إذا أذنب الواحد منهم ذنباً لا تقبل توبته حتى يقدم نفسه للموت والقتل، كما قدمناه في البقرة[١] في قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: آية ٥٤] وما كانوا تصح صلاتهم إلا في المساجد، ولا تصح صلاتهم إلا بالماء، ولا طهارتهم من الخبث إلا بالماء، فهي آصار، وتكليفات، وأثقال شديدة رفعها الله عنا على لسان نبينا ﷺ حيث قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: آية ٧٨] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: آية ١٦] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] ونحو ذلك من الآيات؛ ولذا قال هنا: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ والطاء في قوله: ﴿مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أصلها مبدلة من تاء الافتعال، وقد تقرر من فن العربية[٢]: أن تاء الافتعال إذا جاء بعد واحد من حروف الإطباق أنه يُبدل طاء، والحقيقة أصل مادة هذا الفعل (ضَرَرَ). ففاء المادة: ضاد، وعينها: راء، ولامها: راء. فدخلها تاء الافتعال، كما تقول في قَرُب: اقترب، وفي كَسَب: اكتسب، وفي ضرر: اضترر فأُبدلت تاء الافتعال طاء، ثم بُني الفعل للمفعول ورُكب للنائب، فقيل: اضطررتم[٣].

والمعنى: أن هذه المحرمات التي فصلها الله لنا أن محل تحريمها علينا ما لم تلجئنا إليها ضرورة، فإن ألجأتنا إليها ضرورة فهي حلال لنا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٥١١).

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/٥٤)، القرطبي (٢/٢٢٥)، شرح الكافية (٤/٢١٥٨)، البحر المحيط (١/٣٧٣)، الدر المصون (٢/١١٣)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٢٥.

وقد قدمنا كلام العلماء في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فالإنسان إذا خاف على نفسه الهلاك جاز له أكل الميتة إن لم يجد غيرها، وجاز له أكل الخنزير إن لم يجد غيره، وجاز له ما حُرم عليه للضرورة. وأعظم الأشياء هو كلمة الكفر إذا أُلجىء الإنسان، وأُكره عليها، وقالها إكراهاً، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يؤاخذه الله بها؛ لأن الله قال كما يأتي في سورة النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: آية ١٠٦] وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيَضِلُّونَ﴾ قرأه القراء[١]: ﴿وإن كثيراً ليَضلون﴾ وقرأه الكوفيون[٢]: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ فعلى قراءة ﴿يَضلون﴾ فالفعل لازم لا مفعول له. والمعنى: أنهم يَضِلُّون ويذهبون عن طريق الحق. وعلى قراءة الكوفيين ﴿يُضلون﴾ فهو متعد للمفعول، والمفعول محذوف. والمعنى: كثيراً من الناس ليُضلون الناس عن طريق الحق بأهوائهم[٣]. وحَذْفُ المفعول إذا دل المقام عليه سائغ أسلوب عربي معروف مشهور.

﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الأهواء: جمع الهوى، وأصل الهوى: (هَوَيٌ) بواو وياء، اجتمع فيه موجبا إعلال فوقع الإعلال في الحرف الأخير الذي هو الياء على القاعدة الأغلبية[٤].

وأصل (الهوى) في لغة العرب ميل النفس. وكثيراً ما يُطلق على ميلها إلى ما لا ينبغي[٥]، وربما أُطلق نادراً على ميلها لما ينبغي[٦].

والهمزة في قوله: ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ مبدلة من الياء؛ لأن مادة (الهوى) مما يسميه الصرفيون «اللفيف المقرون»[٧] معتل الواو واللام. والقاعدة المقررة

---

(١) وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر.
(٢) وهم: عاصم، وحمزة، والكسائي. انظر: السبعة ص٢٦٧.
(٣) انظر: حجة القراءات ص٢٦٩، الدر المصون (١٣٠/٥).
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.
(٥) السابق.
(٦) انظر: جامع العلوم والحكم (٤٣٨/٢).
(٧) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

في التصريف: أن كل واو أو ياء تطرفت بعد ألف زائدة وجب إبدالها همزة[١]. فهمزة (الأهواء) مبدلة من ياء الهوى، أصلها: (هَوَيٌ) بالياء؛ لأن لام الكلمة ياء، فأُبدلت همزة لتطرفها في الأخير بعد ألف.

والمعنى: أن كثيراً من الناس ليُضلون الناس. على قراءة حمزة، والكسائي، وعاصم. أو ليَضلون في أنفسهم فيكونون ضالين. وذلك الإضلال ـ على قراءة الكوفيين ـ والضلال ـ على قراءة غيرهم ـ إنما هو بسبب أهوائهم، أي: ميول أنفسهم إلى الباطل والكفر ـ والعياذ بالله ـ وهو ميل الهوى واتباع النفس في الحرام والكفر، لا إلى الشَّرع، ولا إلى بيان، ولا إلى دين. وهذا معنى قوله: ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ لا علم لهم بذلك الذي سلكوه وضلوا به وأضلوا، وإنما اتبعوه جهلًا منهم؛ ولذا قال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (أعلم): كـ(أعلم) التي قبلها. والمعتدون: جمع المعتدي، والمعتدي (مُفْتَعِل) من العُدوان، وأصل العُدوان: مجاوزة الحد، فكل من جاوز حده فقد اعتدى. قال بعض العلماء: أصل العدوان مشتق من العُدْوَة، والعُدوة: شاطىء الوادي؛ لأنه كأنه جاوز شاطىء الحلال والحق إلى شاطىء الحرام والضلال، فالعدوان: مجاوزة الحد[٢]. وهذا معنى قوله: إن الله جل وعلا ﴿أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الذين سبق لهم الضلال في أزله، ويسرهم لما خلقهم له، فهو أعلم بهم. وكأن هذا فيه تسلية للنبي ﷺ، كأنه يقول له: ربك أعلم بالضالين المضلين، ولا بد أن ييسرهم لما خلقهم له، فلا تحزن عليهم إذا لم يؤمنوا وهذا معنى قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢٠] ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ (ذروا) معناه: اتركوا. و (ذر) بمعنى: اترك. وهذا الفعل ـ الذي هو (ذَر) ـ لم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من هذه السورة.

(٢) انظر: المفردات (مادة: عدا) (٥٥٣ ـ ٥٥٤)، بصائر ذوي التمييز (٣١/٤).

يستعمل منه في لغة العرب إلا الأمر والمضارع[١]، تقول العرب: (ذَر) بمعنى: اترك، و (يَذَر) بمعنى: يترك. ولم يُستعمل منه ماضي، ولا مصدر، ولا اسم فاعل، ولا اسم مفعول، ولا صيغة تفضيل، لم يُستعمل منه إلا المضارع والأمر خاصة. ومعنى (ذَر): اترك. ومعنى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ اتركوا ظاهر الإثم. وعلماء العربية يقولون: إن الحرف المحذوف في مكان الفاء إنها واو، وإن أصل (ذَر) أن أصل ماضيه (وَذَرَ) بواو[٢]، إلا أن هذه الواو لم تثبت؛ لأن (فَعَل) إذا كانت مفتوحة العين تُحذف فاؤها في المضارع والأمر، ويُحذف في المصدر، وذلك إنما ينقاس في (فَعَلَ يَفْعَل) وأما (وَذَر يَذَر) فليس مقيساً فيها؛ إلا أن العرب لم تنطق بالواو ولم تنطق بها إلا في المضارع والأمر[٣]. وعلى كل حال فـ(ذَرُوا) معناه: اتركوا.

وقوله: ﴿ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الظاهر: كل ما ظهر وعلن. والباطن: كل ما خفي واستتر[٤]. والإثم: أصله ضد الطاعة، فكل ما هو خلاف التقوى والطاعة من الوقوع في المعاصي يُسمى: (إثماً)[٥]. وقد قال الشاعر ـ وصدق[٦] ـ:

إنـي رأيـتُ الأمـرَ أعـجـبـه تـقـوى الإلـه وشـره الإثـمُ

فقابل الإثم بالتقوى.

واعلموا أن ظاهر الإثم وباطنه فيهما أقوال [...][٧].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من هذه السورة.

(٢) انظر: الدر المصون (٢/٦٣٦ ـ ٦٣٧)، (٣/٥٠٨)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٨٦.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤٨٦.

(٤) انظر: ابن جرير (١٢/٧٢)، ابن كثير (٢/١٦٨)، البحر المحيط (٤/٢١٢).

(٥) انظر: المفردات (مادة: أثم) ص٦٣، اللسان (مادة: أثم) (١/٢٢).

(٦) البيت للمخبل السعدي، وهو في ديوانه ص٣١٦.

(٧) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وللوقوف على الأقوال المشار إليها راجع: القرطبي (٧/٧٤)، ابن كثير (٢/١٦٨) وقد تم استدراك النقص هنا من كلام الشيخ رحمه الله عند تفسير الآية (٣٣) من سورة الأعراف.

[وأنها كلها ترجع إلى شيءٍ واحد، فقال بعضهم: الفواحش الظاهرة هي الزنى مع البغايا ذوات الرايات، والفواحش الباطنة هي الزنى مع الخليلات والصديقات التي يُزنى بهن سراً في البيوت. وقال بعض العلماء: ما ظهر من الفواحش: كنكاح زوجات الآباء، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: آية ٢٢] وأن ما بطن منها هو الزنى. والتحقيق: أنّ الآية الكريمة تشمل جميع المعاصي والذنوب، لا تفعلوا شيئاً منها ظاهراً علناً بين الناس، ولا شيئاً باطناً في خفية لا يطلع عليه أحد، وهو يشمل جميع التفسيرات الواردة عن الصحابة وغيرهم.

والفواحش ظاهرها وباطنها تشمل جميع الذنوب؛ إلا أن الله عطف بعضها على بعض عطف خاصٍ على عام. وقد تقرر في المعاني: أن عطف الخاص على العام، وعطف العام على الخاص، إن كان في كل منهما في الخاص أهمية لا تكون في غيره من أفراد العام أنه سائغ، وأنه من الإطناب المقبول لأجل الخصوصية التي في الخاص. فكأن تميزه بخصوصيته جعله كأنه قسم آخر من أقسام العام فحسن عطفه عليه[(١)]. وهنا عطف الخاص على العام لأن المعطوفات الآتية كلها داخلة في الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقول من قال: إن ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو الزنى مع البغايا ذوات الرايات، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنى مع الخليلات الصديقات التي يُزنى بهن سراً. أو: إن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ هو نكاح زوجات الآباء، وأن ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنى إلى غير ذلك من الأقوال كله يشمله التفسير العام الذي هو الصواب، وإن الله نهى عن ارتكاب جميع المحرمات سواء كان ذلك ظاهراً أمام الناس، أو خفية بحيث لا يطلع عليه الناس].

---

(١) انظر: فقه اللغة للثعالبي ص٢٩٤، الإكسير للطوفي ص٢٥٦، المدخل للحدادي ص٢٩٥، البرهان للزركشي (٤٦٤/٢)، الإتقان (٢١٢/٣، ٢١٣)، قواعد التفسير (٤٢٩/١، ٤٣٠).

١٦/ب

/ يقول الله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: آية ١٢٨].

قرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا حفصاً عن عاصم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وقرأه حفص ـ وحده ـ عن عاصم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ بالياء التحتية[١].

أما قراءة الجمهور ففاعل الفعل ضمير محذوف تقديره: نحن. أي: نحشرهم نحن. وصيغة الجمع في (نحشرهم) وفي (نحن) للتعظيم، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: آية ٩] ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: آية ١٢] وهو جل وعلا واحد إلا أنه يعبر عن نفسه بصيغة الجمع؛ لأجل التعظيم والإجلال. وعلى قراءة حفص: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فالفاعل ضمير يرجع إلى الله. (يحشرهم) هو. أي: الله.

وقوله هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قال بعض العلماء: هو منصوب بـ (اذكر) مقدراً، أي: اذكر يوم نحشرهم. وقال بعض العلماء: هو منصوب بالقول المحذوف الذي دل عليه المقام[٢]. والمعنى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: نقول: يا معشر الجن قد استكثرتم. نقول ذلك القول: ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

والحشر في لغة العرب معناه: الجمع. وكل شيء قد جمعته فقد حشرته[٣]. ومنه قول قوم فرعون لفرعون: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١١] ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: آية ٣٦] أي: قوماً

---

(١) انظر: السبعة ص٢٦٩، الموضح (٥٠٣/١)، النشر (٢٦٢/٢).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢١٩/٤)، الدر المصون (١٤٨/٥).

(٣) انظر: القاموس (مادة: الحشر) ص٤٨٠.

العرب: الجمع؛ لأن الله يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، إنسهم وجنهم، في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: آية ٩] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [النساء: آية ٨٧] ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٤٩، ٥٠] ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٤٧] والمعنى: يقول الله جل وعلا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] يقول ذلك القول حين يحشرهم جميعاً.

وقد بين الله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ أنه يحشر جميع المخلوقات مما يدب على رجلين، ومما يطير في السماء، وسائر المخلوقات كما تقدم في قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: آية ٣٨] فبين أنه يحشر كل دابة وكل طير ـ جل وعلا ـ، والذي يُجَازَى من هذا إنما هو الثقلان: الإنس والجن.

وقوله: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: نجمعهم جميعاً يوم القيامة بعد أن نخرجهم من قبورهم أحياء يمشون بعد أن كانوا عظاماً رميماً.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يُعرب حالاً[1]، ومعناه: التوكيد، بدليل أنك لو حذفت التنوين وأضفته لكان توكيداً محضاً، لو قلت: «نحشرهم جميعهم». لكان توكيداً، فلما حُذفت الإضافة أُعرب حالًا ومعناه التوكيد. أي: نحشرهم في حال كونهم مجتمعين فلم يشذ منهم أحد.

﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ فسره بعض العلماء[2]: (يُقال). قال: لأن الله ليس هو القائل؛ لأن كفرة الإنس لا يكلمهم الله، لأن الله يقول عن الكفار: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾.

والتحقيق: أن الله يكلم الكفار كلام توبيخ وتقريع، الذي هو من

---

(١) انظر: الدر المصون (١٤٨/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٢٠/٤)، الدر المصون (١٤٨/٥).

جنس العذاب، كقوله لما قالوا: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ١٠٧، ١٠٨] لأن هذا التكليم لهم ليس تكليم تشريف، إنما هو تكليم توبيخ وتقريع، وهو من أنواع عذابه لهم، ولا مانع منه.

يقول الله ذلك اليوم مُخَاطِباً عُتاة الشياطين الذين أضلوا بني آدم حتى أغووهم وأدخلوهم النار: ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ المَعْشَر في لغة العرب[1]: الجماعة، كل جماعة تُسمى مَعْشَراً، ويُجمع على: مَعَاشِر. كان بعضهم يقول: لأن بعضهم يُعَاشِر بعضاً. وقد يُطلق المَعْشَر على الجماعة المتفقين في نِحْلَة أو ناحية وإن لم يُعَاشِر بعضهم بعضاً، كما في الحديث: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث**»[2] والنبي ﷺ لم يدرك منهم أحداً، ولم يُعَاشِر منهم أحداً.

والحاصل أن المَعْشَر: الجماعة، أي: يا جماعة الجن.

وأصل (الجن) مشتق من الاجتنان، وكل ما يخفى عنك ويجتن فهو

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٠)، الدر المصون (٥/١٤٨ ـ ١٤٩)، القاموس (مادة: العشرة) ص٥٦٦.

(٢) روى هذا الحديث عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة. وممن رواه منهم:

١ ـ عمر (رضي الله عنه): عند البخاري في الفرائض، باب: قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا صدقة**» حديث رقم (٦٧٢٨)، (١٢/٦)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (٢٩٠٤، ٣٠٩٤، ٤٠٣٣، ٤٨٨٥، ٥٣٥٧، ٥٣٥٨، ٧٣٠٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: حكم الفيء. حديث رقم (١٧٥٧) (٣/١٣٧٦).

٢ ـ عائشة (رضي الله عنها): عند البخاري في فضائل الصحابة، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ. حديث رقم (٣٧١١ ـ ٣٧١٢)، (٧/٧٧)، وانظر الأحاديث (٦٧٢٥، ٦٧٢٧، ٦٧٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**» حديث رقم (١٧٥٩)، (٣/١٣٨٠)، وانظر: حديث رقم (١٧٥٨).

٣ ـ أبو هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الوصايا، باب: نفقة القيم للوقف. حديث رقم (٢٧٧٦)، (٥/٤٠٦)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر: حديث رقم (٣٠٩٦، ٦٧٢٩)، ومسلم في الجهاد، باب: قول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**». حديث رقم (١٧٦٠)، (٣/١٣٨٢).

وقد أخرجه أحمد (٢/٤٦٣)، بنفس اللفظ الذي أورده الشيخ رحمه الله هنا.

مجنون عنك، أي: مغيب. ومنه: جَنَّ عليه الليل، وقيل للجنين: (جنين) لأن بطن أمه يُجِنُّه، ومنه سُمي المجنون (مجنوناً) لغيبوبة عقله[١]. وبعضهم قال: تُسمي العرب الملائكة (جِناً)؛ لأنهم محجوبون عن الأبصار، وهو أحد التفسيرين في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[٢] [الصافات: آية ١٥٨] والعرب تعرف ذلك، ومنه قول الأعشى يمدح سليمان[٣]:

وسَخَّرَ من جِنِّ الملائِكِ تِسْعَةً قِيَاماً لديْهِ يَعْمَلونَ بلا أَجْرِ

والمراد بالجن هنا: عُتاتهم وشياطينهم الذين كانوا يضلون الآدميين ويغوونهم في دار الدنيا، يقول لهم الله يوم القيامة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ أعني: يا جماعة الشياطين ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ والمعنى: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم[٤] ـ والعياذ بالله ـ حتى أضللتم منهم أعداداً طائلة وجِبلّاً كثيراً ضخماً، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: آية ٦٢].

وهذه الآيات يبينها الله لنا في دار الدنيا لنحذر من أن تكون الشياطين تستهوينا وتضلنا لتدخلنا النار، وقد بين القرآن أن هذا العدد الكثير من الإنس الذي أضلتهم شياطين الجن الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أن منهم الذين يتبعون تشريع الشيطان، ويحيدون عن تشريع الله فيتبعون ما نَظَّمه الشيطان من النُظُم على ألسنة أوليائه، صرح القرآن بأن هؤلاء داخلون في هذا الاستكثار وما أكثرهم؛ لأن الله يقول في السورة الكريمة ـ وكل سورة من القرآن كريمة ـ أعني سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: آية ٦٠] ومعنى عبادتهم للشيطان ليست أنهم سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان،

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٠٨/٢٣)، القرطبي (١٣٤/١٥).

(٣) البيت في ابن جرير (٥٠٦/١)، القرطبي (٢٩٥/١)، البحر المحيط (١٥٣/١)، اللسان (مادة: جنن) (٥١٧/١).

(٤) انظر: ابن جرير (١١٥/١٢).

ولا صاموا للشيطان، ولا حجوا للشيطان، وإنما عبادتهم للشيطان: هي اتباعهم ما شرعه من النُّظُم على ألسنة أوليائه، كما قدمنا في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالله ـ مثلاً ـ يقول: إن الميتة حرام ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فالميتة حرام ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] هذا من تشريع الله الذي شرعه على لسان نبيه. فيأتي الشيطان فيشرع نظاماً آخر غير هذا ويقول: ما قتله الله بيده الكريمة بسكين من ذهب أحل وأكرم مما قتله الإنسان بيده؟ فالميتة ذبيحة الله، وهي أحل من ذبيحة الناس!! فهذا تشريع إبليس على ألسنة أولياء إبليس، فصرح الله بأن من اتبع تشريع إبليس وقال: بأن الميتة حلال: أنه مشرك بالله، وهو قوله: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وهذا الشرك بالله هو عبادة الشيطان التي نهى الله عنها في (يسٓ) في قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ وليس المراد بعبادته أنهم يسجدون له ويركعون، لا؛ وإنما بطاعته فيما شرع، واتباعه في نُظُمِه وقوانينه، ثم بين أن الذين يتبعون ذلك من هذا الاستكثار المذكور في (الأنعام) حيث قال في (يس): ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ أي: ومنهم الذين عبدوه باتباع نظامه وشرعه وقانونه ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ فتتركون تشريع خالق السماوات والأرض إلى عبادة الشيطان باتباع نظامه وقانونه، ثم بين مصير هؤلاء فقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: الآيات ٦٠، ٦٢ ـ ٦٥] هؤلاء عابدي الشيطان باتباع تشريعه. ومن هذا المعنى قول خليل الله إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: آية ٤٤] وما كان أبوه يسجد للشيطان، ولكنه كان يتبع نظام الشيطان، وشرع الشيطان، وقانون الشيطان الذي شرعه من عبادة الأوثان، ومعاصاة الرسل. فليعلم كل إنسان أن للشيطان مذهباً وقانوناً وشرعاً وضعه على ألسنة أوليائه من مَرَدَة الإنس، ولخالق السماوات والأرض نظاماً وشرعاً: نوراً منزلاً من السماء شرعه على ألسنة أوليائه، فالذين يعدلون عن نور الله الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلى

تشريع الشيطان الذي شرعه على ألسنة أوليائه داخلون في قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وداخلون في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾ [يس: آية ٦٢] سواء سموا ذلك قانوناً، أو سموه نظاماً، أو تشريعاً؛ لأن خالق السماوات والأرض لا يقبل أن يُعبد إلا بما شرع؛ لأنه ملك الملوك لا يقبل غير شرعه وتشريعه، كما قال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: آية ٢١] ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس: آية ٥٩] فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وكل من يتبع نظاماً شيطانياً وضعه الشيطان على مردة شياطين الإنس من أوليائه فإنه يوم القيامة صائر إلى النار، داخل في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ [يس: آية ٦٢] وفي قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨].

والنبي ﷺ قد بين هذا لعدي بن حاتم رضي الله عنه، فإنه لما قال له: يا نبي الله: قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً؟ فقال: ألم يُحلوا لهم ما حرّم الله، ويُحرِّموا عليهم ما أحلَّ الله فاتبعوهم؟ قال: بلى. قال: بذلك اتخذوهم أرباباً[1]. وذلك هو عبادتهم إياهم. فكل تشريع غير تشريع الله، وكل نظام غير نظام السماء الذي يمشي عليه كأنه يقول: تشريع خالق السماوات والأرض أفضل منه تشريع غيره!! فهو ينزل درجة الخالق - جل وعلا، سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً - إلى أن أوضاعاً ملفقة من أذهان الكفرة الفجرة الخنازير أنه أحسن من تشريع الله!! ولذا يعدلون عن نور القرآن والسنة النبوية الصحيحة إلى ما يسمونه قانوناً ونظاماً وضعه أبناء الكلاب القردة الخنازير من اجتهاداتهم، تارة يحرمون ما أحل الله صريحاً، ويحللون ما حرم الله صريحاً، يزعمون أن الهدى في هذا!! هذا - والعياذ بالله - من أشنع الكفر والطغيان على الله، والتمرد على نظام السماء، واحتقار الخالق -

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

جل وعلا ـ حيث كان تشريعه لا ينفع، وتشريع غيره من سفلة الخنازير أحسن من تشريعه!! وهذا إنما وقع ـ والعياذ بالله ـ بسبب طمس البصيرة؛ لأن نور البصيرة إذا طُمس من قلب الإنسان صار يرى الباطل حقاً، والحق باطلًا، والحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، والذين يعدلون عن نور الله يطلبون النور في تشريع المخلوقين هم في الحقيقة ـ بالكلمة التي هي بمعنى الحرف الصحيح ـ هم خفافيش البصائر، أعماهم ضوء القرآن فصاروا يطلبون الضياء في ظلام أفكار الكفرة الفجرة.

خفافيشُ أعماهَا النهارُ بضوئِهِ ... ووافَقها قِطَعٌ من الليلِ مظلمُ(١)

مثل النهار يزيدُ أبصارَ الورى ... نوراً ويُعمي أعينَ الخفاشِ(٢)

والله (جل وعلا) يقول: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] وفي بعض التفسيرات: تكاد أنوار القرآن تعمي بقية بصائرهم، والله يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] لأن النور الساطع الشديد يقضي على البصر الأعشى الضعيف، وقد بين الله تعالى في السورة الكريمة ـ سورة الرعد ـ أن الذي لا يعلم أحقية القرآن، ومنزلته، وكونه هو الذي ينبغي أن يُتبع أن ذلك إنما جاءه من قِبَل عماه؛ لأن الله يقول: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح بأن الذي منعه من ذلك عماه، وعدم رؤية الأعمى للشمس لا يجعل الشمس فيها ريب.

إذا لم تكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ ... فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصبح مُسفرُ(٣)

---

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه (١/١٥٧)، تحقيق حسين نصار، ولفظه هناك:
خفافيش أعشاها نهار بضوئه ... ولاحمها قطع من الليل غيهب

(٢) البيت في المغني لابن قدامة (١٣/٣٢٣)، حياة الحيوان للدميري (١/٢٩٦)، صبح الأعشى (٢/٨٨)، الأضواء (٢/٢٧٤).

(٣) البيت ذكره الشيخ في «رفع الإيهام والاضطراب».

والذين عموا عن نور القرآن ونور السنة النبوية التي نظمت حياة البشرية على أكمل الوجوه وأبدعها وأنصفها، وميزت الأوضاع على ضوء نور السماء، فجمعت بين خير الدنيا والآخرة يرفضونها وينصرفون عنها ذاهبين إلى النظام الذي شرعه إبليس ـ عليه لعائن الله ـ على ألسنة أوليائه إنما جرهم إلى ذلك أنهم خفافيش، والخفاش يعميه نور الشمس، وإذا كان النهار وانتشر ضوء الشمس صار الخفاش أعمى لا يرى شيئاً، ولا يقدر أن يقوم من محله، وإذا جاء الليل وأرخى الظلام سدوله قام الخفاش يسرح ويمرح؛ لأن هذا عنده ضياء!! فهذا مثلهم ـ ولله المثل الأعلى ـ.

وعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن الله خصنا بسيد الرسل، وسيد الخلق، وأشرف الأنبياء، وجعل معجزته باقية، وهي هذا النور المنزل الذي يتردد في أسماع البشر إلى يوم القيامة. وفي الحج تلتقي ببعض الحجاج من جميع أقطار الدنيا، ترى الذين يعرفون القرآن منهم على الحقيقة لا يختلف اثنان منهم في حرف ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: آية ٨٢] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر: آية ٩] بين الله لنا فيه العقائد، وأصول الحلال والحرام، وطريق الجنة، وطريق النار، وتهذيب النفوس، وتربيتها، ومعالي الأمور، والتنزه عن سفسافها، وبين لنا فيه كيف نستعد لأعدائنا، وكيف نواجههم في حالة الحرب، وحالة الصلح والهدنة، وقد بينه النبي ﷺ بياناً شافياً كافياً، حتى تركها محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فعلينا أن نعمل به، ونترك آراء الكفرة الفجرة؛ لأن اتباع نظام الشيطان دلت هذه الآيات على أنه كفر بالله.

واعلموا أن الأنظمة ليست سواء، منها نظام إداري، ومنها نظام شرعي، والأنظمة الإدارية التي لا تصادم الشرع وإنما تجري على المصالح المرسلة لضبط أمور الرعية وأوطانها، فهذا النوع لا بأس به، وقد فعل الصحابة كثيراً منه؛ فإن المسلمين لم يكن عندهم ديوان للجند تكتب فيه أسماء الجند في زمن النبي ﷺ وأبي بكر، ولَمَّا تخلف كعب بن مالك (رضي الله عنه) في غزوة تبوك لم يعلم النبي ﷺ بأنه تخلف حتى بلغ تبوك؛ لأنه لم يكن عنده ديوان يكتب فيه أسماء الجند، وقام عمر بن

الخطاب لما أفضت الخلافة إليه، وكتب أسماء الجند في ديوان؛ فصار جميع الجند المقاتلين مكتوبة أسماؤهم في دواوين، إذا تخلف واحد عُرف الوقت الذي تخلف فيه ووجههم إلى الجهاد، وأعد لكل جهة قدراً معيناً بأسمائه. فهذا نظام عسكري لم يفعله النبي ﷺ، ولا أبو بكر، ولكنه إداري لا يخالف شيئاً من الشرع.

ولم يكن في زمن النبي ﷺ ولا زمن أبي بكر سجن يُوقَف فيه المجرمون حتى يُحقق معهم فيعاقبوا فيه، حتى كان في زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فاشترى دار صفوان بن أمية في مكة، واتخذها سجناً.

ومثل هذا من الأنظمة الإدارية لضبط أمور الرعية مما لا يخالف الشرع، هذا أمر كان يفعله الصحابة، وأجمع عليه جميع المسلمين في قرونهم الماضية، وليس كلامنا عليه، وإنما كلامنا على الذين يتبعون نظام الشيطان في التحليل والتحريم، ويتركون نظام الله، كالذين يقولون: إن المرأة أضعف من الرجل، وصلتهما بالميت واحدة، فلا بد أن يكونا سواء، وتفضيله عليها غلط وحيف عليها!! وكالذين يقولون: إن قطع يد السارق إنه عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظم الإنسانية!! وكالذين يقولون: إن الرجم والقتل بالحجارة عمل وحشي، لا ينبغي أن يكون في النُّظم الإنسانية!! ونحو هذا مما يقوله الكفرة، وأتباع الكفرة، حتى تركوا تشاريع السماء لآراء الكفرة، وخفيت عليهم الحِكَم.

أما قطع اليد مثلًا الذي يقولون: إنه عمل وحشي لا ينبغي أن يكون في نظام سماوي، ولا أن يعامل به الإنسان. فإنما هو لجهلهم؛ لأن اليد الواحدة إذا لم تُعاقَب عقوبة رادعة قد تُقَطِّعُ آلاف الأيادي بسرقتها، وإن الله (جل وعلا) خلق هذه اليد وفَرَّق أصابعها، وأبعد إبهامها عن أصابعها؛ لأنه لو جعل الإبهام قريباً من السبابة لما قدر صاحبها أن يحل ولا أن يعقد، وشد رؤوسها بالأظفار لتكون أداة فعَّالة عاملة في الخير، وفي الإعانة على ما يرضي الله، على غرار: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: آية ٢] فلما مدَّها هذا الخائن الخبيث الخسيس ليأخذ أموال الناس على أخس وجه

وأدناه وأردئه صارت هذه اليد في نظر من خَلَقَها وفي شرعه صارت كأنها قذرة نجسة، وإن استمرت بالبدن قَذَّرت ذلك البدن كله ونجّسته، فقُطع عضو فاسد، كعملية تطهيرية؛ ليصح بها بقية البدن من ذلك التنجيس، وتلك الرذيلة، ولتطمئن الناس على أموالها؛ ولذا ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ما يدل على أن الحدود كفارات[(١)]، وأنه إن قُطعت يده الخبيثة النجسة الفاجرة المجرمة أنه يطهر بذلك بقية بدنه[(٢)].

وقد يحصل في ذهن طالب العلم هنا سؤال، وهو أن يقول: العدوان على المال ذو وجوه كثيرة؛ لأنه قد يكون بالغصب، وقد يكون بالاختلاس، وقد يكون بالتعدي، وقد يكون بالمطل، وما جاء القطع إلا في نوع واحد منه وهو السرقة، فما الحكمة في أن يكون قطع اليد في خصوص السرقة دون غيرها من الاعتداءات المالية[(٣)]؟!

والجواب عن هذا: أن غير السرقة من الاعتداءات المالية الغالب على حاله أن صاحبه لا بد أن يرى الشهود؛ لأنه لا يكون غالباً في خصوص ومفارقة، وإذا جاء الشهود رفع بهم صاحب الحق إلى من بسط الله يده فاستخرج له حقه، وعاقب الجاني بقدر ما يستحق. أما السرقة: فإن السارق يتحرى أخفى الأوقات، وأبعدها عن اطلاع الناس بحيث لا يشعر به أحد، ولا يطلع عليه أحد، ولو لم يعاقب صاحبها بعقوبة رادعة لَمَا اطمأن أحد على سبيل مالي؛ لحذق اللصوص في الحيل الخفية التي يسرقون بها أموال الناس، والمال شريان الحياة؛ لأن المال هو أساس هذه الحياة الدنيا، فهو شريانها في جميع المجالات، إذ لا عسكرية إلا بالمال، ولا سياسة إلا بالمال، ولا اجتماعية إلا بالمال، ولا ثقافة إلا بالمال، فهو شريان الحياة، والله (جل وعلا) جعل هذه العقوبة لأمرين:

---

(١) البخاري في الحدود، باب: الحدود كفارة. حديث رقم (٦٧٨٤)، (١٢/٨٤)، ومسلم في الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها. حديث رقم (١٧٠٩)، (٣/١٣٣٣).

(٢) انظر: الأضواء (٣/٤٣١).

(٣) المصدر السابق (٣/٤٣٢).

أحدهما: تطهير الجسد الذي أنجسه ذلك الجزء النجس كعملية تطهيرية بقطع عضو فاسد لتصح بقية البدن.

والثاني: لتطمئن الناس على مالها، فإذا قُطعت يد واحدة طهر صاحبها من تلك الرذيلة، وصار إنساناً طيباً بعد أن صار قذراً نجساً، وسَلِمَ المسلمون من أذاه بعد ذلك، ومن أذى غيره؛ لأن من علم أنه إذا سرق قُطعت يده كف عن الناس؛ ولذلك ترى أقل البلاد أن يوجد فيها حوادث السرقة هي هذه البلاد ـ نرجوا الله أن يوفق ولاتها إلى ما يحبه ـ وإنما ذلك بفضل الله ثم بفضل قطع يد السارق، وإن الإحصاءات العالمية إذا أُحصيت تجد آلاف حوادث السرقة بل ملايينها في كل محل، وأقل ما يوجد فيه هذا المحل، الذي يُقام فيه هذا الحد من حدود الله؛ وذلك مما يبين أن حكمة الله في تشريعه هي الحكمة الكفيلة للمخاليق بجميع مصالحهم.

ولا يسعنا في الوقت أن نتتبع جميع هذه التي ينكرون فنُظْهِر حِكَمَها الواضحة بفلسفة عقلية لا تخفى على أحد، كتعدد الزوجات، وكتفضيل الرجل في الميراث، وكالرجم، وما جرى مجرى ذلك، فإنها أحكام عادلة في تشريعات سماوية، وكمسألة الرق، إلى غير ذلك من المسائل، فهي في الحقيقة من أبرز المسائل وأظهرها. ومن أشد ما ينكره الفجرة على الإسلام: مسألة الرق، وهم في الحقيقة يرتكبون أعظم منها!! وسنبين حكمتها تنبيهاً بها على غيرها[1]. وإنما أوجب الإسلام الرق لأن الله خلق هذا الإنسان وأمره أن يكون إعانة وعضواً صالحاً في المجتمع ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٦] وقد وضع الله نظاماً أراد به الخير لخلقه، هو نظام السماء الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ، يريد للناس إذا اتبعته أن يسودهم العدالة، والطمأنينة، والرخاء، والمساواة في الحقوق، إلى غير ذلك من أنواع الخير، فقام الكافر واستعمل جميع نعم الله في كل ما يسخط الله، وخرج على نظام السماء ليقلب الحكم السماوي إلى غيره!! ومعلوم أن كل دولة من هذه الدول التي تنكر الرق لو أَغْدَقَت النعم

---

(١) انظر: الأضواء (٣/٤٢٤)، (٧/٤١٩).

على رجل منها، ثم تمرد عليها وحاول إسقاط حكمها، وقَلْبَ نظام الحكم، ثم تمكنت منه أن تقتله شر قِتْلَة فالكافر تمرد على نظام مَنْ خَلَقَه، واستعمل نعم الله في معصية الله، يريد بذلك قَلْبَ نظام حُكْم السماء، لعدم رضاه بنظام السماء، فأصحاب الدولة الإسلامية الذين هم وكلاء الله في أرضه، ويستعملهم في طاعته؛ لينفذوا ما يريد من خير، وينهون عما ينهى عنه من شر قاتلوا هذا الكافر قتالاً مريراً، فبعد أن أمسكوه كان لهم أن يقتلوه؛ لأنه كان عدواً لهم يريد أن يقلب نظام السماء، فأَمَرَ من خَلَقَه بِقَتْلِهِ قِتْلَةً دون قِتْلَة، وهي أنه طرده عن مرتبة الإنسان إلى مرتبة تَقْرُب من مرتبة الحيوان، بل هي مرتبة الحيوان؛ لأنه يباع، ويُشرى، ويُوهب، مع أنه لم يقتله من الدنيا، بخلاف الدولة التي تنشر الكفر لو تمكنت من المتمرد عليها الذي يريد قلب نظامها لشنقته وقتلته شر قِتْلَة!! فالله أمر بِقَتْلِه قِتْلَةً دون قِتْلَة، وأنه تُنزل منزلته عن درجة الإنسان الكامل إلى درجة الحيوان، وبيين حقوقه كاملة، فيأمر سيده بالإحسان إليه، وألا يكلفه من العمل إلا ما يطيق، وإن كَلَّفه أعانه.

نعم، هنا يبقى سؤال: وهو أن يقول طالب العلم: ما دام كافراً متمرداً على نظام السماء فَقَتْلُه قِتْلَةً دون قِتْلَة هذا أمر معقول، ولكن إذا أسلم وصار أخاً لنا يصلي معنا في المساجد، ويصوم معنا رمضان، ويعبد الله معنا، فما الحكمة إذاً وما المُسَوِّغ بأنَّا نشتريه، ونبيعه وقد زال الموجب المُسَوِّغ لذلك؟

والجواب عن هذا: هي قاعدة معروفة لدى جميع العقلاء، وهي أن الحق الثابت لا يرفعه الحق اللاحق، فالمجاهدون عندما وضعوا عليه أيديهم وهو كافر ثبتت لهم ملكيته، فلما أسلم استحق رفع الملكية، ولكن كان حقه متأخراً، فقُدم عليه الحق السابق، وتقديم الحق السابق على الحق المتأخر أمر يقرُّ به جميع العقلاء، نعم لطالب العلم أن يقول: إن كان هذا الحق قبل هذا الحق، والحق الآخر لا يرفع الحق الأول، لكن يجدر بالمسلم أن يُعتق أخاه، ويُسقط حقه الأول لحق أخيه الأخير!!

فنقول: نعم بهذه جاء القرآن، ورَغَّب المؤمن بعتق أخيه، وأنه يعتق كل عضو منه بعضو منه، وفتح الأبواب الكثيرة للعتق: من كفارة الأيمان، والظهار، وغيره، إلى غير ذلك، فهذه حِكَم الله في تشريعه لا يضل عنها إلا من خذله الله، وجعله كالخفاش.

ومعنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أي: قد أكثرتم من إغواء الإنس، وإضلالهم باتباعهم تشاريعكم ونُظُمكم، وقد يُضِلُّون لو لم تتبع تشريعهم، فيُضِلُّون المسلم الذي هو على تشريع السماء بأن يزينوا له المعاصي كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ويتبعهم في ذلك، ويغوونه بذلك مع أنه لم يكفر، ولم يقر بتشريع غير تشريع الله؛ لأن الذي يشرب الخمر، ويزني، ويسرق - والعياذ بالله - إن كان يعتقد أن ذلك حلال فهو كافر متبع نظام الشيطان داخل في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: آية ٩] أما إذا زين له الشيطان الزنى، والسرقة، وهو يعلم أنه مرتكب خسيسة، وأنه فاعل أمراً حراماً، وأن هذا لا يجوز، فهذا لا يخرج عن دين الإسلام، بل هو مسلم من عصاة المسلمين، مرتكب كبيرة تُرجى لهم التوبة. والشياطين قد يستكثرون من الآدميين بالنوعين، يستكثرون باتباع تشاريعهم كما هو جار الآن في أقطار الدنيا، ويستكثرون بتزيين الشهوات، كالزنا، والسرقة، والمعاصي - والعياذ بالله - مع أنه مسلم. وهذا معنى قوله: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] ثم إن أولياءهم من الإنس، والمراد بأوليائهم: هم الذين كانوا يتبعون تشريعهم في الدنيا، أو يطاوعونهم فيما زينوا لهم من المعاصي كالزنى، وشرب الخمر، وما جرى مجرى ذلك. هؤلاء أولياؤهم؛ لأنهم يوالونهم، هؤلاء يوالونهم في التشريع، وهؤلاء يوالونهم في الطاعة، والفاجر ولي الفاجر، والكافر ولي الكافر، والمؤمن ولي المؤمن.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] معناه: يا خالقنا ومدبر شؤوننا، ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] الاستمتاع: هو التمتع، والتمتع في لغة العرب: الانتفاع، وقد انتفع بعضنا في دار الدنيا من بعض.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أما انتفاع الإنس

بالشياطين: فهو أنهم يدلونهم على لذات الدنيا الحرام، ويزينونها لهم، فيستمتعون بالزنا، والتلذذ بالنساء الجميلات زنا، وبشرب الخمر، بقتل الأعداء ظلماً، حتى يتشفوا ويشفوا غيظهم، ومن جنس المظالم التي يزينونها لهم ينتفعون ويتمتعون بها في الدنيا. وأما انتفاع الشياطين: فهو أنهم يكونون سادة مطاعين؛ لأن لذة الطاعة والرياسة أمرٌ عظيمٌ، أكثر من لذة ما يناله ذلك. وكان بعض العلماء[١] يقول في انتفاع الإنس بالجن، والجن بالإنس: إنه كان قبل الإسلام إذا نزل الرجل بواد في الليل، وخاف من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الحي من سفهاء قومه. فيعيذه ذلك السيد، فينتفع الإنسي بأن كبير الشياطين منعهم من الدنو، وينتفخ كبير الشياطين، وينتفع، ويقول: نحن صرنا سادة الجن والإنس، الإنس يعوذون منا، والجن سدناهم، وإلى هذا الإشارة بقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: آية ٦] ولكن هذا لا تفسر الآية به؛ لأن هذا يقع قليلًا؛ والله يقول: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فدل على أنه كثير، وأنه اتباع تشريعهم، أو ما زينوا من المعاصي، والشهوات - والعياذ بالله جل وعلا -. هذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] أظهر الأقوال أن أجلهم الذي أَجَّل لهم: الموت؛ لأن كل إنسان حياته محددة بدقائقها، لم يزالوا - والعياذ بالله - في تزيينهم لهم المعاصي، والشهوات، والكفر، واتباعهم إياه - إلى أن - حتى انتهى الأجل وماتوا.

وقال بعض العلماء: إن الأجل الذي أَجَّله لهم هو يوم القيامة؛ لأنه هو اليوم الذي أَجَّله لمعاقبة الجميع بما يليق بكل منهم[٢]. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال الله مجاوباً لهم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ - والعياذ بالله - يعني أن عذركم هذا عذر بارد غير مقبول، لا حجة لكم فيه، وأنتم وإياهم في النار (. . .)[٣].

و(النار) - عياذاً بالله - هي نار الآخرة. وأَلِفُ النار - التي بين النون

---

(١) انظر: ابن جرير (١١٦/١٢)، القرطبي (٨٤/٧)، ابن كثير (١٧٦/٢)، البحر المحيط (٢٢٠/٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٢٠/٤).

(٣) في هذا الموضع كلام غير واضح ولعله بيت من الشعر.

والراء ـ مبدلة من واو، أصلها: (نَوَر) بدليل تصغيرها على (نُويرة)، ولو كانت يائية العين لقيل فيها: (نُييرة) ويقال: «تَنَوَّرْتُ النار» إذا نظرتها من بعيد.

تنورتُها من أذرعاتٍ وأهلُها بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالِ[1]

ولو كانت يائية العين لقال: تَنَيَّرْتُها بالياء، ولم يقل: «تَنَوَّرْتُها»،[2] واشتقاق النار من «نارت الظبية» إذا ارتفعت جافلة؛ لأن عادتها إذا أُوقدت الارتفاع. ونار الآخرة ـ والعياذ بالله ـ أشد حراً من هذه بسبعين ضعفاً.

وقوله: ﴿مَثْوَنكُمْ﴾ المثوى: مكان الثَّوَاء. والثَّوَاء: الإقامة على الدوام. ومنه قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: آية ٤٥] أي: مقيماً فيهم[3]. وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الحارث بن حِلِّزَة[4]:

آذنتنا بِبَيْنِها أسماءُ رُبَّ ثَاوٍ يُملُّ منه الثَّوَاءُ

فالمثوى: مكان الثَّوَاء. وهو مفتوح الواو على القياس؛ لأن المقرر في فن التصريف أن الفعل المعتل اللام الثلاثي يبقى مصدره الميمي، واسم مكانه، واسم زمانه على (المَفْعَل) بفتح العين. وهذا مُطَّرد[5]. والمثوى: مكان الثَّوَاء.

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَنكُمْ خَلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا﴾، ﴿خَلِدِينَ﴾ حال، ويُشكِل العامل في الحال؛ لأن المَثْوى اسم مكان، والمكان لا يعمل في الحال.

قال بعضهم: العامل في الحال فعل محذوف، تقديره: النار مثواكم تدخلونها خالدين فيها. وقال بعض العلماء: العامل في الحال معنى الإضافة[6].

ومعنى: ﴿خَلِدِينَ فِيهَآ﴾ لابثين فيها على الدوام.

---

(١) البيت لامرىء القيس، وهو في ديوانه ص١٢٤.

(٢) انظر: المفردات (مادة: نور) ص٨٢٨، اللسان (مادة: نور) (٧٣٩/٣)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٦٣.

(٣) انظر: ابن جرير (١١٧/١٢)، المفردات (مادة: ثوى) ص١٨١.

(٤) شرح القصائد المشهورات (٥١/٢).

(٥) انظر: التوضيح والتكميل (٨٣/٢)، الدر المصون (٤٣٦/٣)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٧٦.

(٦) انظر: البحر المحيط (٢٢٠/٤)، الدر المصون (١٤٩/٥).

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ هذه الآية ونظيرتاها في القرآن هما اللتان أخذ منهما بعض أهل العلم أن النار تفنى(١)، وقد جاءت في القرآن ثلاث آيات يفهم من بعض ظاهرها بعض الشيء:

أولها: آية الأنعام هذه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾.

الثانية: آية هود: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا﴾ [﴿مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: الآيتان ١٠٦ ـ ١٠٧].

الثالثة: آية النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: الآية ٢٣]](٢).

١٧/ب / (...)(٣) وجاء عن جماعة من الصحابة منهم(٤) عمر بن الخطاب(٥)، وابن مسعود(٦)، ....

---

(١) في مسألة فناء النار راجع: حاوي الأرواح ص٢٤٨، الرد على من قال بفناء الجنة والنار لابن تيمية، كشف الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للصنعاني، دفع إيهام الاضطراب ص١٢٢ ـ ١٢٨.

(٢) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل. وتم استدراك النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأعراف. وللاستزادة راجع كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة في دفع إيهام الاضطراب ص١٢٢ ـ ١٢٣، معارج الصعود إلى تفسير سورة هود ص٢٥٤.

(٣) في هذا الموضع جملة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

(٤) انظر: ابن جرير (٤٨٤/١٥)، ابن كثير (٤٦٠/٢)، الدر المنثور (٣٥٠/٣)، الرد على من قال بفناء الجنة والنار ص ٥٣، ٦٩، رفع الأستار ٦٤ ـ ٨٧، حادي الأرواح ٢٤٩، ٢٥٢.
قال الصنعاني بعد أن ذكر بعض هذه الآثار وأجاب عنها: «فعرفت بطلان نسبة هذا القول إلى ابن مسعود وأبي هريرة، كما عرفت بطلان نسبته إلى عمر» إلى أن قال: «وبعد تحقيقك لما أسلفناه، وإحاطتك علماً بما سقناه تعلم أن هؤلاء الأربعة من الصحابة الذين هم: عمر، وابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد... هم بريئون من هذا القول، ومن نسبة فناء النار إليهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب...» ا.هـ رفع الأستار ص٧٧، ٨٠.

(٥) أخرجه ابن جرير (٤٨٤/١٥)، وأشار له ابن كثير (٤٦٠/٢)، وذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص٢٥٢، ٢٥٣، وعزاه في الدر (٣٥٠/٣) لابن المنذر وأبي الشيخ.
وقال الألباني عن إسناده عند ابن جرير: «وهذا إسناد مظلم» ا.هـ رفع الأستار ص٧٦.

(٦) ذكره البغوي في التفسير (٤٠٣/٢) وابن تيمية في كتاب «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» ص٥٣ وعزاه لعبد بن حميد، كما ذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص٢٤٩ وعزاه لعبد بن حميد، وأشار له ابن كثير (٤٦٠/٢)، وعزاه في الدر (٣٥٠/٣) لابن=

وعبدالله بن عمرو بن العاص[1] أنهم قالوا: «يأتي يوم على النار ـ زمان ـ تصفق أبوابها ليس فيها أحد».

وهذه النار هي في الحقيقة يجب حملها علىٰ الطبقة التي كان بها عصاة المسلمين؛ لأنه ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النار يدخلها بعض عصاة المسلمين ثم يُخرجون منها. هذا ثابت متواتر عن النبي لا نزاع فيه. والنار طبقات وأبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: آية ٤٤] وبيَّن أنها دركات، وأن المنافقين في الدرك الأسفل منها، فالطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين إذا أُخرجوا منها هي التي تفنىٰ، أما النار التي فيها الكفار فالتحقيق أنها باقية لا تفنىٰ، وأنه لم يدل كتاب ولا سنة علىٰ أنها تفنىٰ، فهي باقية لا تزول أبداً؛ لأن الله صرح بذلك في آيات كثيرة، فصرح بأنها لا تفنىٰ حيث قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٧] ومعلوم أن (كلما) تتكرر بتكرر الفعل بعدها[2]. ولو قلت لعبدك: كلما جاءك زيد فأعطه درهماً. وجاءه زيد عدة مرات. فعليه في كل مرة أن يعطيه درهماً؛ لأن (كلما) تتكرر دائماً بتكرر الفعل، فمن ادّعىٰ أن للنار خَبْوَة نهائية ليس بعدها زيادة سعير يُرد عليه بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وبين أنهم لا يخرجون منها بقوله جل وعلا: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: الآية ٢٠] ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: الآية ٣٧] وبين أنهم لا يخفف عنهم عذابُها قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ

المنذر، وعزاه الحافظ ـ كما في تخريج أحاديث الكشاف (١٤٩/٢) لمسند الحارث بن أبي أسامة، وعقبه بقوله: «منقطع، ومراسيل الحسن عندهم واهية؛ لأنه كان يأخذ من كل أحد...» ا.هـ. والأثر ضعفه الصنعاني في رفع الأستار ص٦٥، وكذا الألباني في التعليق على رفع الأستار ص٦٥، والسلسلة الضعيفة (٧٣/٢).

(١) ذكره البسوي في تاريخه (١٠٣/٢)، وأورده القرطبي في التذكرة ص٤٣٧ وابن تيمية في «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» ص٦٩ من طريق حرب الكرماني. كما نقله ابن القيم في حادي الأرواح ص٢٥٢، والذهبي في الميزان (٣٨٥/٤) في ترجمة أبي بَلْج الفزاري الواسطي. وعَدَّ هذا الأثر من بلاياه!! وبعد أن ساق الأثر عقبه بقوله: «وهذا منكر. قال ثابت البناني: سألتُ الحسن عن هذا فأنكره» ا.هـ وأشار له ابن كثير (٤٦٠/٢)، وذكره الحافظ في التهذيب (٤٩/١٢) في ترجمة أبي بَلْج، وانظر: تخريجه لأحاديث الكشاف (١٤٨/٢). وقد ضعفه الألباني في الضعيفة (٧٢/٢) وفي التعليق على «رفع الأستار» ص٨١، ٨٢.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٣٢٤/٤)، الكليات ٧٤٤.

﴿فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: الآية ٣٦] ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ: الآية ٣٠] إلى غير ذلك من الآيات[١]. وهنا سؤالان: أحدهما سؤال علىٰ بابه، سؤال إسلام، والثاني سؤال إلحادي معروف.

أما السؤال الإلحادي المعروف فهو أن يقول الملحد: أنتم تقولون: إنّ ربكم في غاية العدالة والإنصاف ـ ونحن نقول: بلىٰ هو في غاية الكمال والعدالة والإنصاف ـ والمعاصي التي فعلها[٢]، والكفر الذي كان عليه، كان في أيام معدودة، وجزاء النار الذي تقولون إنه لا ينقطع في ملايين السنين، فأين العدالة والإنصاف؟ المعصية كان في وقت قليل معين، والجزاء بهذا الصنف، فأين المعادلة بين العذاب، والذنب، والجزاء، والإنصاف أن يكون العقاب بقدر الفعل؟ هذا سؤال إلحادي معروف، يُدْلي به هنا كل ملحد. والجواب عن هذا السؤال[٣] أن نقول: إن الله (جلّ وعلا) بيّن أن خبثهم وكفرهم الذي جُبلوا عليه باق دائم لا يزول، ولو مرت عليه ملايين السنين، فكان جزاؤه دائماً لا يزول. ومن الآيات الدالة على بقائه أبداً أنهم لما عاينوا العذاب، ورأوا النار، وندموا على الكفر وقالوا: ﴿**يا ليتنا نرد ولا نكذّبُ بآيات ربنا ونكونُ من المؤمنين**﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] وفي قراءة أخرىٰ[٤]: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآية. الله لما تمنوا أنهم يُرَدُّون إلىٰ الدنيا مرة أُخرى ليُصَدِّقوا الرسل بين أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا مرة أخرى وأُمهلوا، وأُرسلت لهم الرسل لبقوا علىٰ خبثهم الذي لا ينفك عنهم أبداً، قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨]. وقال في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ﴾ [الأنفال: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿خَيْرًا﴾ نكرة في سياق الشرط فهي تعمّ[٥]، فهي تدل علىٰ أنّ الله لو يعلم فيهم

---

(١) انظر: حادي الأرواح ص ٢٥٤.

(٢) أي: الكافر.

(٣) انظر: كشف الأستار ص ١٢٦.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من هذه السورة.

(٥) انظر: المسودة ١٠٣، شرح الكوكب المنير (١٤١/٣)، البرهان للزركشي (٦/٢)، أضواء البيان (٣٢٢/٣)، (١٧٤/٤) قواعد التفسير (٥٦٠/٢).

خيراً ما، في وقت ما، كائناً ما كان، فهم منفي عنهم جميع الخير لا يطلبوه أبداً، والخبث باقٍ فيهم أبداً، فكان الجزاء دائماً أبداً، ومن هنا تطابق الجزاء والعمل.

أما السؤال الثاني: وهو السؤال الذي على بابه، وهو أن يقول: إذا قررتم أن النار باقية، وأن الكفار باقون فيها، مخلدون، عذاباً سرمدياً، فما الحكمة في الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] وفي قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: الآية ١٠٧] وفي قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾ [النبأ: الآية ٢٣]؟ وفي هذا أوجه كثيرة[١]، وبحوث كثيرة، نقتصر منها على القليل، وسنبينها جميعاً ـ إن شاء الله ـ في سورة هود. من أحسن الأجوبة: الذي اختاره كبير المفسرين محمد بن جرير الطبري[٢]، ونسبه لقتادة، والضحاك، وخالد بن معدان، وأبي سنان: أن (ما) بمعنى: (مَن) وعليه فلا إشكال، فخالدين فيها إلا من شاء الله عدم خلوده من العصاة الذين أدخلوا فيها لتمحصهم وتطهرهم من الذنوب، وغاية ما في الباب أنه أطلق (ما) وأراد (من)[٣]، وإطلاق (ما) مراداً بها (من) كثيرٌ في القرآن، كقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: الآية ٣] أي: من طاب لكم. وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: الآية ٦] أي: من ملكت أيمانهم.

والآيات موجودة كثيرة غير هذا. أما آية النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾ [عم: الآية ٢٣] فالآية التي بعدها تبينها، بقرينة آيةٍ في سورة (ص) فهي بيان قرآني واضح، وخير ما يُفسر به القرآن القرآن؛ لأن معنى ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ٢٣﴾ أي: لابثين فيها أحقاباً في حال كونهم لا يذوقون فيها برداً وشراباً، إلا حميماً[٤] وغساقاً. [فالآية بينت][٥] أحقاب الحميم والغساق [مع كونهم

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٨١/١٥)، ابن كثير (٤٦٠/٢)، رفع الأستار ٩٠ فما بعدها، حادي الأرواح ٢٥١ فما بعدها.

(٢) انظر: ابن جرير (٤٨١/١٥ ـ ٤٨٣).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٢١/٤)، الدر المصون (١٥١/٥).

(٤) يحتمل أن تكون عبارة الشيخ هكذا: «لا يذوقون فيها إلا برداً وشراباً وحميماً وغساقاً». ولضعف التسجيل لم أجزم بذلك.

(٥) في الأصل قدر كلمتين غير واضحتين. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يستقيم بها الكلام.

يُعذبون][(١)] بأشكال أُخر وأنواع أُخر، غير أنواع الحميم والغسّاق، وهذا التفسير دلت عليه آية (ص) دلالة واضحة؛ لأن الله قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ ثم قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: الآيات ٥٥ ـ ٥٨] وقوله: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ المذكورة في سورة (ص) بينت أن آية: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [عم: الآيات ٢٣ ـ ٢٦] أنها الأحقاب المقصورة عليها الحميم والغساق، وأن هنالك أشكالاً وأزواجاً أُخر لا نهاية لها، كما قال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ قال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾. وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الحكيم: هو الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها، فالله لا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه، فلا يشرع شرعاً إلا لمصلحة، ولا ينهىٰ عن شيء إلا وهو ضار، ولا يعذب إلا من يستحق، ولا يجازي بالخير إلا مَنْ مجازاته له واقعة موقعها. فأحكامه كلها عدل، وأفعاله، وتشريعاته، وجزاؤه. لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لأنه حكيم خبير، والحكمة إنما [تتم وتتحقق][(٢)] بوصف العلم، فترى الرجل القُلّب الحكيم الخبير يفعل الأمر ويظنه سداداً ثم ينكشف الغيب عن أن فيه غيره، ويقول: يا ليتني لم أفعل، ولو لم أفعل لكان خيراً! كما قال الشاعر[(٣)]:

ليتَ شعري وأينَ مني ليتُ إن لَيْتاً وإن لَوّاً عَناءُ

ونهىٰ النبي عن (لو)، وبيّن أنها تفتح باب الشيطان، وقال الشاعر[(٤)]:

---

(١) في الأصل كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يستقيم بها الكلام.

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) البيت لأبي زبيد الطائي، وهو في الشعر والشعراء ص ١٩١ وفي الكتاب لسيبويه (٢٦١/٣) فتح الباري (٢٢٦/١٣).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

ألامُ على (لوْ) ولو كنتُ عالماً   بأذناب (لوْ) لم تفتني أوائله

فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: (ليتني لم أفعل) أو: (لو فعلت كذا لكان كذا) لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تؤول إليه، فحكمته لا اختلال فيها. بخلاف المخلوقين، فقد يفعل الإنسان بوصف يظنه حكمة لجهله بما تنكشف عنه الغيوب؛ ولذا كان الحكيم الحكمة التامة هو وحده جل وعلا. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة مبالغة؛ لأنه (جل وعلا) يحيط علمه بكل شيء.

واعلموا أيها الإخوان أن وصف ربنا لنفسه بأنه عليم هو من أكبر المواعظ، وأعظم الزواجر، فعلينا أن نتبعه، وهو واعظ أكبر، وزاجر أعظم، لا تكاد تخلو ورقة من المصحف منه، كأنه يقول: ﴿عَلِيمٌ﴾ اعلموا يا عبادي أني حكيم في تشريعي، وأني ما أمرتكم إلا بما فيه الخير لكم، وما نهيتكم إلا عمّا فيه الشر لكم، وأنني تقتضي حكمتي أن أُعذب من عصاني، وأُدخل الجنة من أطاعني، واعلموا أني عليم لا يفوتني شيء مما تفعلون، وما تقولون، وما تحدثون به أنفسكم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [ق: الآية ١٩]. وقد قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦].

وقد أطبق العلماء أنه لم ينزل من السماء إلى الأرض واعظ أكبر، ولا زاجر أعظم من واعظ العلم والمراقبة[1]، وقد ضرب العلماء لهذا مثلًا ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ قالوا: لو فرضنا أن هذا البراح من الأرض فيه ملك قتّال للرجال، سفاك للدماء، عظيم الغضب والنكال إذا انتُهكت حرماته ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ وحول هذا الملك زوجاته، وبناته، وجواريه، هل يخطر في قلب أحد من الحاضرين، يمكن أحداً منهم أن يغمز إلىٰ واحدة من تلك النساء أو يشير أو يهم بريبة؟ لا، وكَلّا. كلهم خاضعة أبصارهم، خائفة جوارحهم، غايتهم السلامة. ونحن نقول ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ إن خالق السماوات والأرض أشد اطلاعاً، وأعظم بطشاً في سخطاته، وأشد فتكاً عند سخطه؛ لأن حماه في أرضه محارمه، وأنه لا تخفىٰ عليه خافية. فأهل هذا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

البلد وغيرهم من البلاد لو خافوا أن أمير البلد يعلم كل ما يفعلونه من الخسائس بالليل لباتوا متأدبين هائبين لا يعملون إلا خيراً.

وهذا ملك السماوات والأرض، العظيم الجبار، يُعلم خلقه بأنه مُطَّلع علىٰ كل ما يفعلون من الخسائس، فهذا أكبر واعظ، فعليهم أن يعلموا مراقبة الله، ويعلموا أن الله عليم بما يعملون، فلا يفعلون إلا ما يرضيه، وهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم كان جبريل عليه السلام يعرف قيمته حق المعرفة.

فجبريل يعلم أن الله خلق هذه الخلائق ليبتليها في خصوص إحسان العمل، حيث قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ـ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال في أول الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] ثم قال في الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] فعرفنا أنا خُلقنا لنُبتلىٰ في إحسان العمل، ومن عرف أنه خُلق ليُختبر في شيء تاقت نفسه إلىٰ أن يعرف النجاح في ذلك الشيء ما هو طريقه؟؟. فجاء جبريل يبين هذه النقطة العظيمة للصحابة، لما جاء في صورة الأعرابي، في حديث جبريل المشهور فقال: «يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخبرني عن الإحسان؟» المهم الذي خُلقوا من أجل الاختبار فيه. فالنبي ﷺ بيّن له أن الإحسان لا يقع إلا بملاحظة هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم. فقال له: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1]. فعلينا جميعاً أن نعرف ربنا في القرآن من أن الله عليم خبير، يعلم خائنة الأعين، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: الآية ١٦]. فهذا أكبر زاجر وأعظم واعظ، فعلىٰ المرء إذا همّ بشيء أن يراقب خالق السموات والأرض، ويعلم أنه حاضر يرىٰ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: الآية ٧] ليُحاسِب.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٢٩ ـ ١٣٤].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

في هذه الآية الكريمة أوجه متقاربة من التفسير معروفة عند العلماء، لا يكذب بعضها بعضاً، بل كلها حق. قوله جلّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما سلّطنا شياطين الجن علىٰ شياطين الإنس حتى أغووهم واستكثروا منهم فأدخلوهم النار، كما تقدم في قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ في قوله: ﴿نُوَلِّى﴾ أوجه معروفة[1]:

أحدها: أن معنىٰ: نوليهم عليهم أي: نوليهم ولاية تسليط، أي: نسلط بعض الظالمين علىٰ بعض فيضره ويؤذيه، ثم ننتقم من الجميع.

ومَا مِنْ يدٍ إلا يدُ اللّهِ فوقَها ... ولا ظالمٍ إلا سيُبلى بظالمِ[2]

فكما سلطنا شياطين الجن على شياطين الإنس فأغووهم وأضروهم حتى أدخلوهم النار، كذلك نسلط بعض الظالمين علىٰ بعض، فننتقم من بعض الظالمين ببعضهم، ثم ننتقم من الجميع. واختار أبو جعفر بن جرير الطبري أن معنىٰ: ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ أي: نجعل بعضهم أولياء بعض، فالكافر ولي الكافر حيثما كان، وأينما كان[3]. واستدل له بقوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨]

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١١٨)، القرطبي (٧/٨٥)، البحر المحيط (٤/٢٢٢).
(٢) هذا البيت أورده ابن كثير في التفسير (٢/١٧٦).
(٣) انظر: ابن جرير (١٢/١٢٠).

وكان قتادة يقول: ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: نتابعهم طائفة بعد طائفة في النار يوم القيامة(١)، كما سيأتي في قوله لمَّا ذكر الجن والإنس: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] وكونه يوم القيامة بالموالاة في النار ليس بأظهرها، بل إنما هو تسليط بعضهم علىٰ بعض، فيؤذيه انتقاماً من الله من بعض الظلمة ببعض، أو يُولىٰ بعضهم لبعض؛ لأن الكافرين بعضهم أولياء بعض، كما صرحوا به لله في قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] وجاء في حديث أخرجه ابن عساكر: «**من سلط ظالماً أعانه الله عليه**»(٢) وهو من تولية بعض الظالمين علىٰ بعض. والحديث فيه غرابة معروفة (غريب). ولما سمع عبد الله بن الزبير بقتل عبد الملك للأشدق(٣) ذكر هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾(٤) يريد أن معناها عنده: أن الله ينتقم من بعض الظالمين ببعض. هذا جُلّ أقوال العلماء في معنىٰ: ﴿نُوَلِّي﴾.

وأما (الظالمين) فهو جمع تصحيح للظالم، والظالم: اسم فاعل الظلم، والظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير موضعه، وكل من وضع شيئاً في غير موضعه فهو ظالم في لغة العرب(٥)، ومنه يقولون للذي يضرب لَبَنَه قبل أن يروب: هذا ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضَرْبه قبل أن يروب

---

(١) المصدر السابق (١٢/١١٩).

(٢) لفظه: «من أعان ظالماً سلَّطه الله عليه» وقد أخرجه ابن عساكر (تاريخ دمشق ٣٤/٤) (وانظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٤/١٥٣)، وأورده القرطبي في التفسير (٧/٨٥)، وابن كثير في التفسير (٢/١٧٦). وقال: «هذا حديث غريب» ا.هـ.
وانظر: كشف الخفاء (٢/٢٩٧)، مختصر المقاصد الحسنة ص ١٨٦، وقال: (ضعيف جداً) ا.هـ وضعيف الجامع رقم: (٥٤٥٣)، السلسلة الضعيفة رقم: (١٩٣٧) وقال: موضوع.

(٣) وهو: عمرو بن سعيد بن العاص. انظر ترجمته في مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور (١٩/٢١٤).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٢).

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

يضيع زبده، وفي لُغز الحريري[1] في مقاماته: هل يجوز أن يكون القاضي ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً. يعني بكونه ظالماً: أنه يضرب لبنه قبل أن يروب. وهذا المعنىٰ مطروق في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[2]:

وقائلة: ظَلَمتُ لكم سقائي وهل يخفَىٰ علىٰ العَكَد الظَّليم؟

(ظلمت لكم سقائي) تعني: أنها ضَرَبَتْه لهم فشربوه قبل أن يروب. وقوله: «وهل يخفىٰ علىٰ العَكَدِ الظليم» العَكَد: عَصَب اللسان، لا يخفىٰ عليه اللبن المضروب قبل أن يروب من غيره. ومنه بهذا المعنىٰ قول الآخر في سقاء له فيه لبن[3]:

وصاحبِ صدقٍ لم تَرِبْني شَكَاته ظلمتُ وفي ظَلْمي له عَامِداً أَجْرُ

يعني أنه سقى الناس به قبل أن يروب. وفي هذا الضرب هو يريد الأجر؛ لأنه صدقة منه؛ ولذا قال:

وصاحبِ صدقٍ لم تَرِبْني شَكَاتُه ظَلَمتُ، وفي ظَلمي له عامداً أجرُ

ومن هنا كانت العرب تسمي الأرض التي لم تُحفر، وليست محلّاً للحفر، إذا حُفِرَت: (مظلومة) لأن الحفر وُضِعَ في غير موضعه. ومنه علىٰ التحقيق قول نابغة ذبيان[4]:

إلاَّ الأَوَاريَّ لأياً ما أُبَيِّنُهَا والنُّؤْيُ كالحوضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

أي: بالأرض التي ليست محلّاً لأن يُحفر فيها، وحفر النؤي فيها حفر في غير محله؛ لأنها في فلاة من الأرض. هذا هو التحقيق، دون قول من قال: إن الأرض المظلومة: التي تأخر عنها المطر. هذا ليس بالصحيح في معنىٰ البيت. ومنه تقول العربُ للتراب الذي يُخرج من القبر إذا حُفر، تقول له: ظليم، (فَعِيل) بمعنىٰ (مَفْعُول) أي: مظلوم؛ لأن العادة أن القبور إنما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

تُحفر في المَحَالِّ التي ليس من شأنها أن يُحفر فيها سابقاً، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر يذكر ميتاً[(١)]:

فأصبحَ في غبراءَ بعد إشاحةٍ من العيشِ، مردودٍ عليها ظَلِيمُها

يعني بـ(غبراء): القبر و(مَرْدُود عليها ظَلِيمُها) أي: الأرض التي أُخرجت منها عند الحفر رُدّت عليها عند الدفن. هذا أصل الظلم في لغة العرب، هو وضع الشيء في غير موضعه. وقد جاء في القرآن في موضع واحد معناه: النقص، وهو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: الآية ٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً. إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب هو وضع الشيء في غير موضعه، اعلموا أنّ وضع الشيء في غير موضعه على نوعين:

أحدهما: أن يكون بالغاً في غاية القباحة والشناعة.

والثاني: أن يكون دون ذلك.

أما وضع الشيء في غير موضعه البالغ غاية الشناعة: فهو وضع العبادة في غير خالق السماوات والأرض، فمن عَبَد غير الذي خَلَقَه ورَزَقَه فقد وضع الأمر في غير موضعه، فهو أعظم الظالمين، وأخبث الواضعين للشيء في غير موضعه؛ ولهذا المعنى[(٢)] كثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم مراداً به الكفر، وهو أخبث أنواعه، ومنه قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٦] وقال عن العبد الحكيم لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسر قوله في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأنعام ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: معناه لم يلبسوا إيمانهم بشرك[(٣)].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

النوع الثاني من أنواع الظلم: هو وضع الطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير معصيتها[١] بما لا يؤدي إلى الكفر، كأن يزين لك الشيطان أن تعمل عملًا يخالف الشرع فتطيع الشيطان، وتعصي الله، وأنت عالم أنك عاص مجرم، وأنك فعلت قبيحاً، فهذا ظلم دون ظلم، ووضع للطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها، وليس بكفر، وهو ظلم دون ظلم. ومنه بهذا المعنىٰ: قوله تعالىٰ في سورة فاطر لما نوَّه بشأن القرآن العظيم، وأنه أعظم فضل أُعطيه الخلق، وأن جميع الأمة التي أُعطي لها هي قد اصطفاها الله، وأن كلها في الجنة، قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢] وبين أن هذا النور المنزل لا يعطيه الله إلا لمن اصطفاه واختاره، وهو النصيب الأعظم الأكبر الذي يعطيه الله، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهذا ظلم دون ظلم، كالذي يعصي تارة ويطيع أُخرىٰ، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٢] والعلماء يقولون: «عسى» من الله واجبة[٢]. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: إيراثنا الكتاب إياهم عن نبيهم هو الفضل العظيم عليهم منا؛ فلذا علَّمنا الله أن نحمده علىٰ هذا الفضل العظيم في قوله في أول سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾ [الكهف: الآية ١] أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ما، لا في معانيه، ولا في ألفاظه، ولا في أحكامه، ولا في أخباره. أخباره كلها حق، صدق، وأحكامه كلها عدل، وهو في غاية الاستقامة، لم يجعل الله فيه اعوجاجاً ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً في غاية الاستقامة. ثم لما ذكر هذه الأصناف الثلاثة التي انقسمت إليها أمة الكتاب الذي أُورثت إياه

(١) أي: تكون طاعته تبعاً للنفس، والهوى، والشيطان. وتكون معصية لله بدلًا من أن يعصي هواه وشيطانه.

(٢) انظر: ابن جرير (٥٧٩/٨) (١٦٧/١٤، ٤٤٧)، حجج القرآن ص٨٣، تفسير ابن كثير (٣٩٧/٣)، البرهان للزركشي (٥٧/٤، ١٥٨، ٢٨٨) الإتقان (٢٠٤/٢ ـ ٢٠٥)، الكليات ص٢٩٧، ٦٣٥، فتح البيان (١١٠/٧ ـ ١١١، ١٦٩).

بدأ بالظالم لنفسه في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ثم وعد الجميع بوعده الصادق الذي لا يُخلف دخول الجنة، قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: الآيات ٣٣ ـ ٣٥] فهذا الظالم المعدود ممن أُورثوا الكتاب، الموعود بالجنة، ظُلْمُه: ظُلْمٌ دون ظُلْم. وأصح التفسيرات في (الظالم)، و(المقتصد)، و(السابق)[١]، فيما يظهر:

أن (الظالم) هو من يطيع الشيطان مرة، ويعصيه أُخرىٰ، ويطيع الله مرة، وربما عصاه، من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: الآية ١٠٢].

والمقتصد: هو الذي يمتثل أوامر الله، ويجتنب نواهي الله، ولكنه لا يتقرب بزيادة الطاعات الغير الواجبة.

وأما السابق بالخيرات: فهو الذي يجتنب محارم الله، ويمتثل أوامر الله، ويستكثر من القربات والطاعات الغير الواجبة مرضاةً لله.

وفي آية فاطر هذه ـ التي ذكرناها استطراداً ـ فيها سؤال معروف، وهو أن يُقال: كيف بدأ الله بالظالم في هذه الآية، وقدّمه على المقتصد، وأخّر السابق بالخيرات، مع أنهما خير من الظالم، وخيرهم السابق بالخيرات، ثم المقتصد، ثم الظالم. فَلِمَ قدم هذا الذي غيره أفضل منه؟[٢]

وللعلماء عن هذا التقديم أجوبة معروفة، منها:

أن هذا إظهار كرم من الله يستدعيهم بالقرآن بفضل آثاره علىٰ الأمة التي أُورثت إياه، فبدأ بالظالم لئلا يقنط، وأخّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

وقال بعض العلماء: أكثر أهل الجنة الخَطّاؤون الذين يظلمون أنفسهم، يخالفون مرة ويُنيبون إلىٰ الله. وأما السابقون بالخير فقليل جداً، والمقتصدون أقل من الظالمين؛ ولذا لما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن معنىٰ هذه الآية قالت: المقتصد الذي ربما خالف، مثلي ومثلك(١). ـ جعلت نفسها من الظالمين ـ فقدّم الظالمين لأنفسهم لأنهم أكثر أهل الجنة، والأكثرية لها شأن، فعُلم من هذه الآية أن الظلم قد يكون ظلماً دون ظلم، والظلم معناه: وضع الشيء في غير موضعه، تارة يَعْظُم فيكون كفراً، وتارة يكون ظلماً دون ظلم فلا يكون كفراً. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾ أي: نولي البعض منهم البعض الآخر، كما بينّا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ وهذه التولية بينهم هي: تسليط بعضهم علىٰ بعض ليؤذيه ويضره، أو: جعل بعضهم ولياً للآخر أو قريناً له، كلها بسبب ما كانوا يعملونه، فعلىٰ أنها تسليط فهي انتقام منه لعمله السيىء، وعلىٰ أنها ولاية بعضهم البعض فهي بسبب اتحادهم بالعمل الخبيث والعمل السيء؛ لأن الخبيث ولي الخبيث، والكافر ولي الكافر، والناس يوم القيامة أزواج، أي: أصناف، كل خبيث يُحشر مع من يطابقه من الخبثاء. كما سيأتي في قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: الآية ٢٢] أي: أصنافهم وأشكالهم الملائمين لهم بالخبث ـ والعياذ بالله ـ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩].

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠].

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ٢٠٩ رقم(١٤٨٩)، والحاكم (٤٢٦/٢)، والطبراني في الأوسط رقم (٦٠٩٠) (٥٦/٧)، وذكره السيوطي في الدر (٢٥١/٥) وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه. وسنده ضعيف جداً.

هذا يُقال لهم يوم القيامة، يُقال لأهل النار يوم القيامة من الجن والإنس: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ يا جماعة الجن وجماعة الإنس، الذين طغيتم وكفرتم في دار الدنيا حتى دخلتم النار، وقيل لكم: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٨] ألم تصلكم في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة رسلٌ ينذرونكم من هذا اليوم، ويحذرونكم من العذاب الذي أنتم فيه، ويبينون لكم طرق النجاة من هذا قبل أن تضيع الفرصة، فتكونوا قد حذرتم هذا العذاب، ونجوتم مع من نجىٰ؟ وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾. قال بعض[1] علماء التفسير: كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بـ(لم) إذا تقدمته همزة الاستفهام؛ فيه وجهان معروفان من التفسير في جميع القرآن:

أحدهما: أن الاستفهام استفهام تقرير، وهو الظاهر في هذه الآية. ومعنىٰ استفهام التقرير: هو الاستفهام الذي لا يريد المخاطِب به أن يُفهِم الشيء، وإنما يريد أن يَحْمِل المخاطب علىٰ أن يُقر ويقول: بلىٰ، ويُقر بالحقيقة، كقول جرير لعبد الملك بن مروان[2]:

ألستم خيرَ من ركبَ المطايا وأندىٰ العالمينَ بُطُونَ رَاحِ

مقصود جرير أن يقول عبد الملك: بلىٰ، فيقول: هذه [منزلتكم][3] ما دمتم بهذه المثابة، هذا قصده.

الثاني: أن يَخْتَلِج المُضَارَعَة مَاضَوِيَّة، وينقلب النفي إثباتاً، فيصير المضارع المنفي بـ(لم) معناه الماضي المُثْبَت، كقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الانشراح: الآية ١] معناه: شرحنا لك صدرك، وقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨﴾ [البلد: الآية ٨] جعلنا له عينين، ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أتاكم رسل منكم. وطالب العلم يعرف أن انقلاب المُضَارَعَة مَاضَوِيَّة أنه هنا واضح لا إشكال فيه؛ لأن لفظة (لم) حرف قلب، تقلب المضارع من معنىٰ الاستقبال إلىٰ معنىٰ الماضي. وهذا معروف، كقولك: «لم يأت

(١) (٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

زيد». بمعنىٰ: ما جاء زيد في الماضي. وهذا معروف، فقلب المضارع ماضَوِيّاً ظاهر، ولكن قلب النفي إثباتاً هو الذي يُشكل علىٰ طالب العلم، وإيضاحه علىٰ هذا التفسير: أن همزة الاستنكار المتقدمة علىٰ حرف (لم) أصلها حرف إنكار، فهو مشتمل علىٰ معنىٰ النفي، ويتسلط النفي الكامن في الهمزة علىٰ النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات، ويرجع النفي إلىٰ الإثبات، والمُضَارَعَة إلىٰ المَاضَوِيَّة. ومعنىٰ القولين واحد.

ومعنىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يجئكم في دار الدنيا رسل منكم. الرُّسل: جمع الرسول، والرسول: (فَعُول) بمعنىٰ (مُفْعَل) والمراد بهم هنا: من أرسله الله، فالرسول ـ طبعاً ـ يكون من الإنس، ومن الملائكة، كما سيأتي في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: الآية ٧٥] أما الجن فسنذكر الخلاف فيهم ـ الآن ـ المعروف عند العلماء، فالرسل: جمع رسول، وهو (فَعُول) بمعنىٰ (مُفْعَل) أي: مُرسل، وأصله مصدر، وإتيان المصادر علىٰ (فَعُول) قليل جداً، كالرسول، فأصله من معنىٰ الرسالة، وكالقبُول، والوَلُوع، وكون الرسول أصله مصدر فيه فوائد، تفيد في التفسير؛ لأن أصل الرسول مصدر، تقول العرب: «أرسلتُه رسولاً». أي: رسالة. و«ما أرسلتُه برسول». أي: برسالة: فأصله: مصدر، ومنه قول الشاعر[(١)]:

لقد كذبَ الواشون ما فُهْتُ عندهم بقولٍ ولا أرسلتُهُم برسولِ

أي: برسالة. والمصدر إذا نُعت به ـ بأن أُجري مجرى الوصف ـ جاز إفراده، وربما جاز جمعه وتثنيته نظراً إلىٰ وصفيته العارضة[(٢)]. وتارة يُنظر إلىٰ أصله وهو المصدر، فلا يُجمع ولا يُثنىٰ، وتارة يُنظر إلىٰ ما عرض له من الوصفية فيُجمع ويُثنىٰ. وبهذا التقرير يزول الإشكال في قوله عن موسىٰ

---

(١) البيت لكُثَيِّر عزة. وهو في ديوانه ص١٧٦ اللسان (مادة: رسل) (٧١/٣)، ولفظه في الديوان:

لقد كذب الواشون ما بُحتُ عندهم بِلَيلى ولا أرسلتُهم برسولِ

مشاهد الإنصاف ص ٩٩ وفيه (بِسِرٍّ) بدلاً من (بقول).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

وهارون في الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: الآية ١٦] وفي طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: الآية ٤٧] فَثَنَّىٰ في آية، وأفرد في أخرىٰ، وهما رجلان: موسىٰ وهارون، فإفراد الرسول نظراً إلىٰ أصله وهو المصدر، وتثنيته في قولهم: ﴿إِنَّا رَسُولَا﴾ نظراً إلىٰ الوصفية العارضة له؛ ولذلك جمع الرسل هنا في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ وفي قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣] فيجوز إطلاق الرسول مراداً به الجمع أيضاً، كما أُريد به الاثنان، لكن إطلاق الرسول مراداً به الجمع ما جاء في القرآن، وإنما جاء في كلام العرب بكثرة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي في رائيته المشهورة[1]:

أَلِـكْـنِـي إلـيـهـا وخَـيْـرُ الـر ... سولِ أَعـلَـمُـهـم بنواحي الـخَـبَـر

فرد علىٰ الرسول ضمير الجمع؛ لأن أصله مصدر.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ظاهر قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ أن من الإنس رسلاً ومن الجن رسلاً، هذا هو المتبادر من الآية؛ ولأجل هذا الظاهر تمسك قوم قليلون بأن الله بعث من الجن رسلاً إلىٰ الجن[2]. وزعم بعضهم أنه ما أرسل للجن منهم إلا رسولاً واحداً، واسمه يوسف. والذي عليه جماهير العلماء، خلفاً وسلفاً، أن الرسل جميعهم إنما هم من الإنس، وإنما قال: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ لمجموع الإنس والجن، نظراً إلىٰ أن العرب تطلق المجموع وتريد بعضه. أي: من مجموعكم الصادق بالإنس دون الجن. وهو كثير في القرآن، وفي كلام العرب[3]، فمنه في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: الآيتان ١٥، ١٦] أي: في مجموعهن الصادق بواحدة منها. وأظهر الآيات الدالة عليه في القرآن قراءة حمزة، والكسائي[4]: **﴿وَلاَ تَقْتُلُوهُم عِندَ المَسْجِدِ**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

(٢) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (١٢/١٢١)، القرطبي (٧/٨٦)، ابن كثير (٢/١٧٧)، (٤/١٧٠) البحر المحيط (٤/٢٢٢)، أضواء البيان (٢/٢١٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

﴿الحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُم فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُم فَاقتُلُوهم﴾ [البقرة: الآية ١٩١] لأن المرادَ هنا: بأنه لا يصح أن تقول: «فإن قتلوكم ومتم وخرجتم من الدنيا، فاقتلوهم» [وعلى هذا المعنى يُحمل قول الشاعر:

فـإن تـقـتـلـونـا عـنـد حـرة واقـم فلسنا على الإسلام أول من قُتل][1]

هو حي يتكلم، ويقول: «فإن تقتلونا» يعني: تقتلوا بعضنا. هذا هو المعروف في كلام العرب، أي: من مجموعكم الصادق بالإنس، بناء علىٰ أن الجن لم تُرسل منهم رسل.

وجمع بعض العلماء بين القولين فقال: رسل الإنس هم الذين يرسلهم الله بواسطة الملك، ورسل الجن هم الذين ينذرون قومهم بما سمعوا من الأنبياء، فهم رسل الرسل/ ولذا أطلق عليهم (الرسل) هنا. ١٧/ب
ويطلق عليهم (النُّذر)، كما يأتي في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: الآية ٢٩] فالنُّذر كأنهم جاؤوهم منذرين مُرْسَلين من النبي ﷺ، وقد ثبت في الأحاديث ـ وكما يأتي في سورة الجن ـ أن الجن جاؤوا النبي ﷺ وكادوا يكونون عليه لبداً، وأنه دعاهم إلىٰ الإسلام، وعلمهم الدين، وأمرهم أن يبلغوا قومهم. ومن هنا قال جمهور العلماء: الرسل من الإنس، والجن ليسوا برسل [وإنما يكون منهم نُذر][2] إلىٰ قومهم، كما قال: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

وقد أجمع جميع المسلمين أن نبينا ﷺ مرسل إلىٰ الجن والإنس معاً، وأنه بلّغ الرسالة لمن استطاع أن يبلغه من الجنسين، وأمر كُلّا منهم أن يبلغ من لقي، وقال: «**فليبلغ الشاهد الغائب**»[3]، وقد يأتي صريحاً في سورة الرحمٰن لما قرأ علىٰ الجن سورة الرحمٰن، وقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.
(٣) هذه الجملة جزء من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، وسيأتي عند تفسير الآيتين (٨٩ ـ ٩٠) من سورة التوبة.

تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمٰن: الآية ٣٣] كلما قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ [الرحمٰن: الآية ٣٢] والتثنية للجن والإنس، والجن يقولون: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب[١]. وذكر الله كثيراً من قصصهم في سورة الجن، وبَيَّن أنهم ما كانوا يظنون أن الله يُمَكِّنُ أحداً أن يفتري عليه، قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝﴾ [الجن: الآية ٥] وبينوا أن منهم طيبين وخبثاء: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝﴾ [الجن: الآية ١١] وتحصَّل أن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ جمهور العلماء علىٰ أن الرسل كلهم من الإنس، وأنه أُطلق المجموع مراداً بعضه، لا أن الجن رسل أُرسلوا إلىٰ قومهم. وخالف بعض قليل من أهل العلم وقالوا: أُرسلت للجن رسل منهم لظاهر هذه الآية الكريمة، قالوا: ولأن كون الرسل منهم أدرىٰ بأحوالهم، وأقدر علىٰ تبليغهم، وذلك ليس بقاطع؛ لأن النبي ﷺ لما جاءه جن نصيبين تكلم معهم، وخاطبوه في كل ما يفيد، وأباح لهم ما أباح لهم من الزاد، كما هو معروف في الأحاديث الصحيحة، ودعاهم إلى الإسلام[٢]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

---

(١) ورد ذلك في حديث مرفوع أخرجه الترمذي في التفسير، باب «ومن سورة الرحمٰن»، حديث رقم: (٣٢٩١) (٥/٣٩٩)، والحاكم (٢/٤٧٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. من حديث جابر رضي الله عنه. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند البزار (كشف الأستار ٣/٧٤)، وابن جرير (٢٧/١٢٣ ـ ١٢٤). وانظر: السلسلة الصحيحة رقم: (٢١٥٠)، صحيح الترمذي (٣/١١٢).

(٢) جاء في وفد نصيبين من الجن عدة أحاديث، منها:

١ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في مناقب الأنصار، باب ذكر الجن، حديث رقم: (٣٨٦٠)، (٧/١٧١).

٢ ـ حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، عند الطبري في التفسير (٢٦/٣٠، ٣١، ٣٣).

٣ ـ حديث الزبير بن العوام (رضي الله عنه)، عند الطبراني في الكبير (١/١٢٥) وحسنه الهيثمي في المجمع (١/٢١٠).

٤ ـ حديث ابن مسعود (رضي الله عنه)، وقد جاء بروايات وطرق كثيرة بألفاظ متفاوتة، وممن أخرج حديثه: الإمام أحمد في المسند (١/٤٥٨)، وابن جرير في التفسير (٢٦/٣٢)، والطبراني في الكبير (١٠/٧٧، ٧٩، ٨٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢/٦١١)، والخطيب في تاريخه (٢/٣٩٨). وللوقوف على بعض روايات أحاديث استماع الجن للنبي ﷺ انظر: =

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ معنى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي التي أنزلت، ويبينون لكم ما فيها من العقائد، ومن الحلال والحرام، ومما أمرت به وبيّنت أنه يُدْخِل الجنة، ومما بينت في آياتي أنه سبب لدخول النار - وهي التي أنتم فيها - وحذرت جميعكم على ألسنة الرسل من ذلك الفعل الذي يكون سبباً لدخولها.

وقد أجمع جميع العلماء على أن الكفرة من الجن في النار، هذا لا نزاع فيه بين العلماء، والآيات الدالة عليه كثيرة في القرآن العظيم، كقوله جلّ وعلا: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: الآية ٣٨] فصرح بأن أُمماً منهم كثيرة في النار في آيات كثيرة، وقالوا لقومهم: إنهم إن لم يجيبوا داعي الله يعذبهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾ إلى أن قال: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] فلا خلاف أن الجن يُعذب كافرهم وعاصيهم، كما يُعذب كافر الإنس وعاصيهم، وإنما الخلاف المشهور بين العلماء: هل الجن يدخلون الجنة أو لا يدخلون الجنة؟؟[1] وهذا خلاف معروف قديم بين العلماء، ويُروى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أنه من الطائفة الذين يقولون: لا يدخل الجن الجنة، وأن الجنة لا يدخلها أحد من الجن. وغالب ما استدل به هؤلاء: أن الله جعل جزاءهم هو الإجارة من العذاب فقط، وغفران الذنوب فقط، حيث قال: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١] ولم يقل: ويدخلكم الجنة. بخلاف الإنس، فإنه إذا ذُكر ثواب الطاعة تُذكر الجنة جزاء لها، ولم يذكر الله في القرآن جزاءً للجن إلا غفران الذنوب، والإجارة من العذاب الأليم. ومن هنا قال من قال: إن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة.

والتحقيق الذي عليه جمهور العلماء: أنهم كما أن كافرهم في النار فمؤمنهم المطيع في الجنة، وقد دلت على هذا بعض ظواهر آيات، ومنها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: الآية ٥٦] فعُلم أن في

دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٢٥ - ٢٣٣)، مجمع الزوائد (٨/٣١٣ - ٣١٤)، فتح الباري (٧/١٧١ - ١٧٢)، الدراية (١/٦٣ - ٦٧)، نصب الراية (١/١٣٩ - ١٤٧).

(١) انظر: القرطبي (١٦/٢١٧ - ٢١٨)، ابن كثير (٤/١٧٠ - ١٧١) طريق الهجرتين ٤١٧ - ٤٢٧، أضواء البيان (٧/٤٠٢ - ٤٠٧) دفع إيهام الاضطراب ٢٦٣ - ٢٦٨.

الجنة جاناً يطمثون النساء، ومن أصرح الأدلة في ذلك: قوله تعالىٰ مُخاطِباً الجن والإنس: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن: الآية ٤٦] ثم قال مبيناً دخول الجن والإنس فيه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ [الرحمن الآية ٤٧]. فلو لم يكن من الآلاء على الجن دخولهم الجنة لما قال فيهم وفي الإنس معاً: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ بعد قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ فدل قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ الصادق علىٰ الجن والإنس، علىٰ أن قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ أي: للجن والإنس. وهذا هو الأظهر.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾. (ينذرون) هو مضارع فعل الإنذار. والإنذار في لغة العرب: هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، وكل إعلام اقترن بتخويف وتهديد فهو المسمىٰ بالإنذار[(١)].

ومعنىٰ: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يُعلمونكم بما في هذا اليوم من الأهوال والأوجال وشدّة عذاب النار، في حال كونهم مهددين لكم ومخوفين من الأعمال التي تُؤدي إليه. وهذا [معنى][(٢)] قوله: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وعبّر عن اليوم باللقاء لأنهم يُلاقون ما فيه من الأهوال والأوجال، وعادة العرب أن تذكر اليوم ومرادها ما فيه من البلايا والأوجال[(٣)]، كقول نبي الله لوط: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: الآية ٧٧] والزمن بنفسه كسائر الأزمان، وإنما المراد ما فيه؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: الآية ١٧] والذي يجعل الولدان شيباً إنما هو ما فيه من الأهوال الأوجال؛ لأن نفس اليوم ظرف من الظروف كسائر غيره من الظروف. ومنه قول الشاعر[(٤)]:

وكنت لزاز خصمكَ لم أُعَرِّد وقد سلكُوكَ في يومٍ عَصِيْبِ

---

(١) انظر: المفردات (مادة: نذر) ٧٩٧، القاموس (مادة: النذر) ٦١٩، الأضواء (٢/٢٨٨).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: المزهر (١/٣٣٦).

(٤) البيت لعدي بن زيد. وهو في تفسير ابن جرير (١٥/٤٠٩)، تاريخ دمشق (٤٠/١١٩)، الدر المصون (٦/٣٦١). وقوله: «لزاز» أي: ملازم. وقوله: «لم أعرد» أي: لم أُحجم.

(. . .)[١] هذه عادة العرب والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

لما وبخهم الله هذا التوبيخ، وقرعهم هذا التقريع، أقرّوا نادمين حيث لا ينفع الندم، فبين (جلّ وعلا) في سورة الملك أن ذلك الاعتراف في الوقت الذي لا ينفع فيه الاعتراف والندم ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: الآية ١١]. ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أقروا في ذلك الموضع على رؤوس الأشهاد ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٣٠] أن الرسل بلغونا، وحذرونا، وأنذرونا لقاء هذا اليوم، فحذرونا مما نحن فيه من البلايا غاية التحذير، لكنهم ـ والعياذ بالله ـ عَصَوا، وأَبوا وتمردوا، فأقروا بالحقيقة كما هي.

ثم بيّن الله السبب الذي كذبوا به الرسل ولم يعتنوا بالإنذار، قال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لأن الدنيا دار الغرور، تغر الجاهل فيشتغل بشهواتها ولذاتها وراحتها عن موجبات الجنة؛ لأن ما يُدخل الجنة فيه تكاليف شاقة، تشقّ على من لم يهدهم الله، وإن الصلاة يقول الله فيها: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: الآية ٤٥] فالرجل يكون عزيزاً مطاعاً، فإذا دخل الإسلام كان واحداً من عامة الناس، مأموراً مرؤوساً من غيره، فيشق هذا عليه، وكذلك أوقات التكاليف يتكاسلون عنها ويختارون عنها لذات الدنيا، فالذي يصوم، ويجوع، ويعطش، يفضل على ذلك أن يأكل، ويشرب، ويجامع، إلى غير ذلك من لذات الدنيا، فلذات الدنيا عاجلة، وتشغل الإنسان عن معاده، حتى يضيع عمره فيما لا ينبغي، فيدخل النار، فيندم حيث لا ينفع الندم. وهذا [معنى][٢] قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾والعياذ بالله ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ في دار الدنيا، مع أن الرسل أنذرتهم وحذرتهم الكفر، وقد نص الله على أنهم شهدوا على أنفسهم بالدنيا بالكفر، والظاهر أنها شهادة صريحة منهم، ونص على شهادتهم في دار الدنيا بالكفر أيضاً حيث قال في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.
(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ١٧] وهذه الشهادة قيل: هي شهادة لسان الحال، وقيل أيضاً: شهادة مقال[١]، ونظيره قوله في العاديات: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات: الآيتان ٦، ٧]. بناءً على التحقيق من أن الضمير عائد إلى الإنسان[٢].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: الله في آية الأنعام هذه بيّن أنهم لما سُئلوا اعترفوا، وهذا جاء في مواضع كثيرة ـ هذا الاعتراف ـ كقوله في سورة الزمر التي وصف فيها يوم القيامة كأنك تنظر إليه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: الآية ٦٩] وقال فيه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يعنون في دار الدنيا ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الزمر: الآية ٧١] ولما قالوا في سورة المؤمن لخزنة النار: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: الآيتان ٤٩، ٥٠] وهذه الآيات تدل على أنهم أقرّوا بما كانوا فيه. ونظيرها قوله في النساء: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٤٢] بل يُقرون بكل ما فعلوا. قد يقول طالب العلم: هذه الآيات وأمثالها تدل على أنهم أخبروا بالواقع ففي القرآن آيات أُخر تدل على إنكارهم وحلفهم على الإنكار، كقوله عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] ﴿فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: الآية ٢٨] وقوله جلّ وعلا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر: الآية ٧٤]. فهذه الآيات تدل على إنكارهم لِمَا جاؤوا به من الكفر، وهذه تدل على إقرارهم. وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾

---

(١) انظر: فتح القدير (٣٤٤/٢).

(٢) انظر: أضواء البيان (١٢/١)، قواعد التفسير (١١٦/١، ٢٧٩، ٤١٩).

[النساء: الآية ٤٢] مع قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] فأجاب ترجمان القرآن عبد الله بن عباس قال: إنهم إذا رأوا أهل الشرك لا خلاص لهم قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون[1]. فهذه الأسرار التي يقولها ويفصح عنها إنما هي أيديهم، وألسنتهم، وجلودهم، كما قال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: الآية ٢٢] وقال: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: الآية ٢١] ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: الآية ٦٥] قال ابن عباس: فالاثنان من جهة اللسان، والإقرار والإيضاح من جهة الجوارح، والجلود، والأرجل، والأيدي.

وقال بعض العلماء: وجه الجمع بين الآيات: أن يوم القيامة يوم طويل؛ لأن الله قال فيه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: الآية ٤] ولا خلاف بين العلماء أن اليوم الذي قيل فيه خمسين ألف سنة أنه يوم القيامة[2]. أما يوم الألف السنة في الحج، ويوم الألف السنة في السجدة، ففيهما أقوال غير هذا[3]؛ لأن الله يقول في الحج: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: الآية ٤٧] ويقول في السجدة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: الآية ٥] وقال في سورة المعارج: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج: الآيتان ٤، ٥] ويوم الخمسين ألف سنة: هو يوم القيامة بلا خلاف[4]، إلا أن العلماء ذكروا أنه

---

(١) أخرجه ابن جرير (٨/٣٧٣ ـ ٣٧٤)، وهو في الدر المنثور (٢/١٦٤).

(٢) ذكر فيه ابن كثير (رحمه الله) أربعة أقوال. انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤١٨ ـ ٤٢٠)، القرطبي (١٨/٢٨١ ـ ٢٨٣).

(٣) انظر: القرطبي (١٢/٧٨) (١٤/٨٧)، ابن كثير (٣/٢٢٨، ٤٥٧)، أضواء البيان (٥/٧١٨).

(٤) في الجمع بين هذه الآيات انظر: الأضواء (٦/٥٠٣).

إنما يطول هذا الطول على الكافرين خاصة أما على المؤمنين فهو كنصف نهار، وجاءت آية في سورة الفرقان تدل على ذلك، وهي قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: الآية ٢٤] لأنه سمّاه ﴿مَقِيلًا﴾ والمقيل: الاستراحة بالقيلولة في وسط النهار[1]. وأتبع هذه الآية بأن هذا لخصوص المؤمنين دون الكافرين حيث قال بعد آية الفرقان هذه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: الآية ٢٦] وقال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: الآيتان ٩، ١٠]. فيُفهم منه أنه على المؤمنين يسير. فإذا كان على الكافرين مقداره خمسين ألف سنة فهذه أزمان متطاولة ومواطن متعددة، ففي بعضها ينكرون، وفي بعضها يقرون، ومثل هذا الإقرار الذي أقروا به في بعض المواطن، والإنكار الذي أنكروا به في بعض المواطن، والكلام إذا كان في أزمنة مختلفة لا تناقض بينه أبداً؛ لأن هذا الإثبات في وقت، والنفي في وقت آخر، فلا تناقض بين الآيات[2]. وهذا معنى قوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآيات ١٣١ ـ ١٣٤].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١].

---

(١) انظر: القرطبي (٢٢/١٣)، دفع إيهام الاضطراب ص ٢٢٢، أضواء البيان (٣٠٨/٦ ـ ٣١١).

(٢) انظر: ابن عطية (١٥٣/٦)، البحر المحيط (٢٢٣/٤)، دفع إيهام الاضطراب ص ٨١، ٢٢، أضواء البيان (٧١٨/٥)، (٣٠٨/٦ ـ ٣١١).

اختلفوا في موقع (ذلك) من الإعراب[١]، فعن سيبويه: أنها تتعلق بمحذوف، جملة ـ مبتدأ وخبر ـ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم. وذهب بعضهم إلىٰ أنها في محل نصب، أي: فعلنا ذلك؛ لأجل أن لم يكن ربك مهلك القرىٰ بظلم. و (أَنْ) هنا زعم بعضهم أنها المصدرية الناصبة للمضارع. وزعم بعضهم أنها المُخَفَّفة من الثقيلة. والمعنىٰ متقارب[٢].

ومعنىٰ الآية الكريمة: ذلك الذي ذكرنا من أنَّا أرسلنا إلىٰ معاشر الجن والإنس رسلنا في دار الدنيا لينذروهم ويحذروهم حتىٰ شهدوا علىٰ أنفسهم أن الرسل بلغتهم في دار الدنيا، وأنهم كانوا كافرين، ذلك الإنذار والإعذار علىٰ ألسنة الرسل في دار الدنيا واقع من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرىٰ بظلم، أي: ليهلكها بظلمها بكفرها ومعاصيها. والقول الذي يقول: «ليهلك القرىٰ بظلمه لها قبل أن ينذرها» ليس علىٰ الصحيح، وإنما التحقيق أن المعنىٰ: ذلك الإنذار والإعذار علىٰ ألسنة الرسل في دار الدنيا؛ لأجل أن ربك لم يكن ليهلك القرىٰ بظلمها، أي: بكفرها ومعاصيها، والحال: هم غافلون، لم يُنبهوا برسول ولا بكتاب. بل لا بد من إزالة الغفلة في دار الدنيا بإرسال الرسول والكتاب[٣].

وهذه الآية الكريمة صرح الله فيها بأنه لم يكن ليهلك القرىٰ بظلمها وهي غافلة غير مُنَبَّهَة علىٰ ألسنة الرسل، مُنْذَرَة مُحَذَّرة علىٰ ألسنة الرسل.

فمعنىٰ قوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي: غافلون عن حجج الله وتوحيده، لم يُنبَّهوا عليها بإنذار الرسل، بل لا بد من إنذار الرسل. والنفي هنا في قوله: ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ مُنْصَبٌ علىٰ الحال؛ ولأن المنفي هنا إهلاكهم في حال كونهم غافلين، فالنفي مُنْصَبٌ علىٰ الحال لا علىٰ إهلاك القرىٰ؛ لأن

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٢٥)، القرطبي (٧/٨٧)، البحر المحيط (٤/٢٢٤)، الدر المصون (٥/١٥٥).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/١٢٤)، القرطبي (٧/٨٧)، البحر المحيط (٤/٢٢٤)، ابن كثير (٢/١٧٧ ـ ١٧٨). طريق الهجرتين ٤١٣.

القرىٰ أُهلكوا، فالنفي مُنْصَبٌ علىٰ الحال[١]، ونظيره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: الآية ٣٨] فالنفي منصب علىٰ اللعب الذي هو الحال لا علىٰ خلق السماوات والأرض.

وهذه الآية الكريمة تدل علىٰ أن الله لن يعذب قوماً لا بهلاك مستأصل في الدنيا، ولا بعذاب في الآخرة، حتىٰ ينذرهم علىٰ ألسنة رسله في دار الدنيا، ويكذبوا. والآيات الدالة علىٰ هذا المعنىٰ كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] فبين (جلّ وعلا) أن حكمة إرسال الرسل هي قطع حجة البشر عن خالقهم، حيث قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥]. وهذه الحجة التي كانت تكون للناس علىٰ الله لو لم يرسل الرسل، أوضحها في أخريات (طه)، وأشار لها في (القصص)، قال في (طه): ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: الآية ١٣٤] وقال في (القصص): ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: الآية ٤٧] فهذه الآيات جاءت آيات تُصدقها، أن الله ما عذب أحداً بالنار إلا بعد إنذارهم في دار الدنيا علىٰ ألسنة الرسل، ومن الآيات الدالة علىٰ ذلك قوله تعالىٰ في سورة (الملك): ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ إن كلمة (كلما) تعمّ أزمنة الإلقاء كلها، فتُعمّ جميع المُلْقَيْن من الأفواج في النار، أنهم جاءهم نذير في الدنيا. ونظيرها من الآيات أن الله لما قسم أهل المحشر في سورة الزمر قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ و (الذين) موصول، وقد تقرر في علم الأصول[٢] أن الموصولات من صيغ العموم؛ لأنها تعمّ كل ما تشمله

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢١١).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (١/١٢٣)، نثر الورود (١/٢٥١).

صلاتها، قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وظاهر النص أنه شامل لكل من صدق عليه اسم الكافر. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: الآية ٧١] فمعنىٰ قولهم: (بلىٰ) أي: قد جاءنا نذير، والله ذكره عنهم في معرض التصديق والتسليم، ونظيره في سورة (فاطر) أنه لما قسم الأمة إلىٰ من أورثوا القرآن، وقسمهم إلىٰ الطوائف الثلاثة: مقتصد، وسابق بالخيرات، وظالم، ووعد جميعهم الجنة، لم يبق إلا الكفار، قال في جميعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: الآيتان ٣٦، ٣٧] وقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ راجع لجميع الذين كفروا، المذكورين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ ونظيرها من الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ [غافر: الآيتان ٤٩، ٥٠] أي: جاءتنا رسلنا بالبينات، والآيات بنحو هذا كثيرة.

وهذه الآيات تدل علىٰ أن أهل الفترة معذورون؛ لأن الله يقول: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: الآية ١٣١] ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وتمسك بظاهر هذه الآيات جماعات من أهل العلم.

وذهب جماعات آخرون، إلىٰ أن الكفر وعبادة الأوثان لا يُعذر فيه أحد، وأن كل من مات كافراً يعبد الوثن، أنه في النار، وإن لم يأته نذير. واستدلوا بظواهر آيات من كتاب الله، وبأحاديث جاءت عن النبي ﷺ.

والحاصل أن هذه المسألة مسألة اصطدمت فيها عقول الفحول، واختلف فيها العلماء، وجاء كل منهم بحجج وأدلة، وسنذكر طرفاً من أدلة

الجميع، ومناقشة أدلتهم، ثم نذكر ما يرجحه الدليل إن شاء الله تعالىٰ[(١)].

أما الذين قالوا: إن من مات في الفترة معذور، فدلالة قوله: الآيات - التي ذكرنا - القرآنية، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: الآية ١٣١] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: الآية ١٣٤] وأن الله بيّن أنه ما أدخل أحداً النار إلا بعد الإنذار والإعذار في دار الدنيا ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] إلىٰ آخر ما ذكرنا من الآيات.

أما الذين قالوا: إن الكفر وعبادة الأوثان لا يُعذر فيها أحد، وأن كل من مات كافراً يعبد الأوثان فهو في النار - فاعلموا أولًا: أن الفروع كالصيام، والحج، والصلاة، والواجبات، والمحرمات، فهذا محل إجماع بين العلماء أن الله لا يؤاخذ به أحداً إلا بعد إبانة الرسل، وإنما الخلاف في شهادة أن لا إله إلا الله وعبادة الأوثان من دون الله. هذا محل خلاف العلماء، الذين قالوا: إن كل من مات مشركاً بالله يعبد الأصنام أنه في النار، ولو لم يأته نذير - استدلوا بظواهر آيات دلت علىٰ ذلك، وبأحاديث، وناقشهم فيه خصماؤهم مناقشات سَنُلم ببعضها. قالوا: قال الله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٨]

---

(١) في هذا المسألة راجع: مجموع الفتاوى (٣٠٨/١٧ - ٣١٠) أحكام أهل الذمة (٦٤٨/٢ - ٦٥٦)، لوامع الأنوار البهية (٣٩٨/٢)، تفسير ابن كثير (٢٨/٣ - ٣٢) دفع إيهام الاضطراب ١٧٨ - ١٨٦، نثر الورود (٤٥/١)، أضواء البيان (٤٧١/٣ - ٤٨٤)، نواقض الإيمان الاعتقادية (٢٩٤/١ - ٣٠١)، الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه ٢٠٩ - ٢١٥، منهج الجدل والمناظرة (٨٢٧/٢).
ومما يتصل بهذا الموضوع: مسألة (أطفال المشركين)، وقد أطال الكلام عليها الحافظ ابن عبد البر في التمهيد (٩٦/١٨ - ١٤١)، وفي الاستذكار (٣٩٠/٨ - ٤٠٨)، وابن القيم في طريق الهجرتين ٣٨٨ فما بعدها. وانظر مجموع الفتاوى (٣٧٢/٢٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٩١] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٣١] ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: الآية ٧٢] ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

واستدلوا بأحاديث ثابتة في الصحيح، صرح فيها النبي بتعذيب بعض من مات في الفترة، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبيّ ﷺ سأله رجل فقال: أين أبي؟ قال: «**في النار**»، فلما ولّى الرجل دعاه، فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[1] فهذا ثابت من لفظ النبي في صحيح مسلم. وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ استأذن ربه أن يزور أمه فأذن له أن يزورها، واستأذنه أن يستغفر لها فلم يُؤذن له. وفي بعض رواياته عند مسلم: فزار قبرها فبكىٰ وأبكىٰ، وقال: «**فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة**»[2].

وأمثال هذا من الأحاديث الثابتة في تعذيب بعض أهل الفترة. وهذا القول: أن كل من مات في الفترة علىٰ الإشراك، وعلىٰ دين الآباء، كما قال أبو طالب في آخر كلامه: «إنه علىٰ دين الأشياخ» الذين عاشوا في الفترة، وأنزل الله فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: الآية ٥٦] ولما استغفر له النبي ﷺ وقال: (**لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك**) واستغفر المسلمون لموتاهم، أنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: (بيان أن من مات على الكفر فهو في النار...) حديث رقم: (٢٠٣) (١٩١/١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه (عزّ وجلّ) في زيارة قبر أمه، حديث رقم: (٩٧٦) (٦٧١/٢).

الآية[١] [براءة: الآية ١١٣]. ولما قالوا: «لنا في إبراهيم أسوة حسنة، وقد استغفر إبراهيم لأبيه». أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[٢] [التوبة: الآية ١١٤] والموعدة التي وعدها إياه: هي المذكورة في سورة (مريم): ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: الآيتان ٤٦، ٤٧] ثم إن الله في سورة الممتحنة استثنى الاستغفار للمشركين من أسوة إبراهيم، حيث قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ثم استثنى من هذه الأسوة: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] فلا أسوة لكم بإبراهيم فيه.

وهذا القول الذي يقول: إن كل من مات مشركاً دخل النار، ولو لم يأته نذير، جزم به النووي في شرح مسلم[٣]، وحكى عليه القرافي الإجماع في شرح التنقيح في الأصول[٤].

وأجاب من قال بهذا عن الآيات التي ذكرنا من أربعة أوجه:

قال: قوله مثلًا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] قالوا: يعني عذاب الدنيا، كما وقع لقوم نوح من الإغراق، وقوم هود

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله. حديث رقم: (١٣٦٠) (٢٢٢/٣). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت... حديث رقم: (٢٤، ٢٥) (٥٤/١ ـ ٥٥) من غير الزيادة التي في آخره، وهي قوله: (فاستغفر المسلمون...) وهي عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) أخرج ابن جرير في هذا المعنى جملة من المراسيل عن مجاهد (١٧٣٢٦) وعمرو بن دينار (١٧٣٢٧).

(٣) عبارة النووي: «وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم» ا.هـ شرح مسلم (٤٨٢/١).

(٤) انظر: شرح تنقيح الفصول ص ٢٩٧ .ولا يخفى أن الإجماع لم ينعقد على ذلك.

من الريح العقيم، وقوم لوط من أن الله رفع أرضهم إلىٰ السماء فجعل عاليها سافلها. أما عذاب الآخرة فلم يُقصد، وحكىٰ القرطبي وأبو حيان علىٰ هذا أن عليه إجماع المفسرين(١).

الوجه الثاني: قالوا: إن الواضح الذي لا يلتبس علىٰ أحد، وهو عبادة الأوثان، لا عذر فيها؛ لأن عابديها يعلمون في قرارة أنفسهم أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها حجارة، ومثل هذا لا يُعذر فيه أحد؛ ولذا لما قال إبراهيم لقومه: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٣] أجابوه فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٥] قالوا: والدليل علىٰ أنهم يعلمون أن الأصنام لا تنفع ولا تضر، وأنها جمادات لا يُعذر أحد في عبادتها: أنهم إذا نزلت بهم شدائد، أو قامت عليهم كُربات، تركوا دعاء الأصنام، وأخلصوا الدعاء لله وحده؛ لأنهم يعرفون في أنفسهم أنه النافع الضار، المحيي المميت، الذي بيده الخير والشر، والآيات الدالة علىٰ ذلك كثيرة جداً، كقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: وخافوا الهلاك في البحر ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: الآية ٣٢] وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: وهاجت عليهم أمواج البحر، وخافوا الهلاك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥] وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] وقال جلّ وعلا: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

---

(١) تتبعت جميع الآيات التي لها تعلق بهذا الموضوع في التفسيرين المذكورين فلم أجد لهذا الإجماع ذكراً. ولعله وهم من الشيخ ـ رحمه الله ـ بدليل أنه ذكر جميع هذه التفاصيل في أضواء البيان، وفي هذه الجزئية قال: «ونسب هذا القول القرطبي، وأبو حيان، والشوكاني، وغيرهم في تفاسيرهم إلى الجمهور» ا.هـ. الأضواء (٤٧٦/٣). وانظر: القرطبي (٢٣١/١٠)، والبحر المحيط (١٦/٦).

ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣] والآيات في مثل هذا كثيرة، ومعلوم في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: أن النبي ﷺ لما فتح مكة خرج عكرمة بن أبي جهل لشدة عداوته للنبي ﷺ؛ لأنه قتل أباه يوم بدر. شرد هارباً إلىٰ الحبشة، فركب في قوم سفينةً من البحر الأحمر إلىٰ الحبشة، فلما توسطوا داخل البحر هاجتَ عليهم الريح، واضطربت أمواج البحر، ورأوا الهلاك، وظنوا الموت، فإذا جميع من في السفينة يتنادون ويقولون من أطراف السفينة: ألا فليحذر كل أحد منكم أن يدعو في هذا الوقت غير الله؛ فإنه لا ينقذ من هذه الكربات إلا هو وحده، ففهمها عكرمة، ثم قال: والله إن كان لا ينقذ من كربات البحر إلا هو، فلا ينقذ من ظلمات البر إلا هو. ثم قال: اللهم لك علي عهداً إن أنقذتني من هذه لأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فهدأ البحر وسكنوا، فرجع إلىٰ النبي ﷺ وأسلم، وصار من فضلاء الصحابة[١]. قالوا: كون الكفار يعلمون أن الله هو النافع الضار، وأن الأصنام جمادات لا تنفع ولا تضر، وأنهم إذا كان وقت الشدائد لجؤوا إلىٰ من بيده الأمر والنهي، هذا يدل علىٰ أنهم غير معذورين في عبادة الأوثان.

الوجه الثالث: زعموا أن عندهم بقية نذارة من إرث دين إبراهيم والرسل الذين أُرسلوا قبل محمد ﷺ.

الوجه الرابع: هو ما ذكرنا من الأحاديث عن النبي ﷺ، من أنه ذكر أن بعض أهل الفترة في النار.

وأجاب القائلون [بعذرهم بالفترة][٢] عن هذه الأوجه الأربعة رادّين لها، مجيبين عن كل واحد، فقالوا: قولكم: «إن العذاب يختص بالدنيا». فالدليل علىٰ أنه باطل أمران:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ـ ٤١) من سورة الأنعام.
(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

أحدهما: أنه خلاف ظاهر القرآن، والله لم يخصص بعذاب الدنيا دون عذاب الآخرة. فلم يقل: وما كنا معذبين في الدنيا. حتى تقصروا الظاهر عليه، وظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه[١]، ولا دليل عندكم من ظاهر القرآن.

الوجه الثاني قالوا: إن الله صرح لنا في كتابه أن الذين عذبهم في النار أنذرهم في دار الدنيا على ألسنة رسله، كقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] إلى آخر الآيات التي ذكرناها آنفاً.

وأجابوا عن كون الأمر الواضح لا عذر فيه بأمرين:

أحدهما: أن ظاهر القرآن لم يفرق بين الأمر الواضح وغيره، ولا يجوز العدول عن ظاهره إلا بدليل.

الثاني: أن الله صرح بأنه ما عذب على ذلك الأمر الواضح أحداً إلا بعد إنذار الرسل في دار الدنيا ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩].

أما قول من قال: إنهم كانت عندهم بقية نَذَارَة من نَذَارَة إبراهيم وغيره من الرسل الذين كانوا قبل نبينا ﷺ، فهذا الوجه جزم به النووي في شرح مسلم[٢]، ومال إليه ابن قاسم العبادي في الآيات البينات[٣]، وهو قول باطل بشهادة القرآن، وأنا أستغرب كيف يقوله عالم كالعبادي والنووي؟! مع أن الآيات القرآنية صريحة في بطلانه غاية الإبطال؛ لأن معناه أن الأمة التي بُعث فيها النبي كان مَنْ مات منها يُعذب بسبب نَذَارَة إبراهيم، والله يصرح في آيات كثيرة أن الأمة التي بعث فيها محمداً ﷺ لم تكن عندها نذارة ألبتة من أحد، من ذلك قوله في سورة (يس): ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: الآية ٦] و (ما) في قوله: ﴿مَّآ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة البقرة.
(٢) انظر: شرح مسلم (٤٨٢/١).
(٣) انظر: الآيات البينات (٢٦٢/٤).

أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ نافية قطعاً. ومن قال: إنها موصولة فهو غالط. والدليل على أنها نافية أنه قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: الآية ٦] ولو كانت موصولة لما قال: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾. ومنها قوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: الآية ٤٦] فصرح بأنهم ما أتاهم من نذير، وقد تقرر في علم الأصول: أن النكرة في سياق النفي إن زيدت قبلها لفظة (مِنْ) كانت نصاً صريحاً في العموم[1]، وقاله شيخ النحو سيبويه[2] إنها إن زيدت قبلها (مِنْ) كانت صريحاً في العموم، فهي تعم نفي كل نذير. ومنه قوله تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾ [سبأ: الآية ٤٤] ومنه قوله في سورة السجدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [السجدة: الآية ٣] الله تعالى يصرح بأنهم لم يأتهم نذير، فليس لأحد أن يقول: إن عندهم نَذَارَة باقية
١٨/أ يعاقبون/ عليها. ويقول ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: الآية ١٩] فصرح بأنها فترة.

أما الوجه الرابع، وهو ذَكَرْتُهُ بعض الأحاديث، كحَدِيثَي مسلم الذي ذكرنا، وهو محل مناقشة طويلة عريضة بين العلماء.

أجاب المخالفون قالوا: حديثا مسلم هما خبرا آحاد، فلا يُقَدَّمان على القاطع؛ لأن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] دليل قاطع متواتر محفوظ لا يمكن أن يكون كذباً بحال، وهو صريح الدلالة ظاهرها، وحديث مسلم وما جرىٰ مجراه أخبار آحاد، والمتواترات تُقدم على الآحاد.

وأجاب المخالفون عن هذا، قالوا: لا نُسَلِّم هذا؛ لأن حديثي مسلم ونحوهما أحاديث خاصة، والآيات التي ذكرتم عامة، والخاص مقدم على

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) الكتاب (٢/٣١٥، ٣١٦)، (٤/٢٢٥).

العام؛ لأن المقرر في الأصول: أنه لا يتعارض عام وخاص، بل يقدم الخاص على العام، إلا عند الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله[١] ـ فإن المقرر في أصوله: أن الخاص لا يقدم علىٰ العام؛ لأن دلالة العموم عنده قطعية، فيرجح بينهما[٢]؛ ولذا كان جمهور العلماء، منهم الأئمة الثلاثة، يخصصون عموم: «فيما سقت السماء العشر»[٣] بخصوص: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»[٤] وكان أبو حنيفة يقول: هذا الحديث خاص: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة» لا أقدمه علىٰ العام الذي هو: «فيما سقت السماء العُشر» وقد جهلنا التاريخ، فلم نعرف أيهما المتأخر حتىٰ نقدمه؛ ولذا أوجب الزكاة في كل شيء خرج من الأرض قليلًا أو كثيراً، تبرئة للذمة، وعدم تقديم للخاص علىٰ العام[٥].

وأجاب المخالفون عن هذا بمناقشة أُخرى، قالوا: لو سلمتم هذا الخاص، وقلتم: إن النبي ﷺ ثبت عنه في بعض الأحاديث أن الله عذب أحد أهل الفترة ـ لو قدمنا هذا الخاص ـ لانتفت الحكمة التي تمدَّح الله بها، وأثنى بها علىٰ نفسه، لأن الله تمدَّح وأثنىٰ على نفسه بأنه بالغ من

---

(١) في مسألة تقديم الخاص على العام انظر: الفروق للقرافي (٢٠٩/١ ـ ٢١٢)، البرهان للجويني (٧٧٣/٢، ٧٧٤)، نهاية السول (١٦٢/٢)، (٢٣٩/٣)، إحكام الفصول ١٦٠، إيثار الحق على الخلق ١٠٢. وانظر هذه المسألة وما ينبني عليها من الفروع في كتاب: أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء ص ٢١٥ ـ ٢٢٩، وتفسير النصوص لمحمد أديب الصالح (٨٣/٢) فما بعدها.

(٢) انظر: تيسير التحرير (٢٦٧/١، ٢٧١).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب العشر فيما يُسقى من السماء...، حديث رقم: (١٤٨٣)، (٣٤٧/٣) من حديث عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) بلفظ مقارب لما ذكر الشيخ (رحمه الله) هنا. وأخرج مسلم نحوه من حديث جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما)، كتاب الزكاة، حديث رقم: (٩٨١)، (٦٧٥/٢).

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ما أُدي زكاته فليس بكنز، حديث رقم: (١٤٠٥)، (٢٧١/٣) وأطرافه: (١٤٤٧، ١٤٥٩، ١٤٨٤). ومسلم في الزكاة، حديث رقم: (٩٧٩)، (٦٧٣/٢) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، كما أخرجه من حديث جابر (رضي الله عنه) (٩٨٠)، (٦٧٥/٢).

(٥) انظر: المبسوط للسرخسي (٣/٣).

العدل والإنصاف ما لم يُعَذِّب [معه][١] أحداً إلا بعد الإنذار في دار الدنيا، وأنه لو عذب أحداً لكان بذلك لأحد حجة، حيث قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ [النساء: الآية ١٦٥] قالوا: فلو عذب إنساناً واحداً لانخرمت هذه الحكمة، وقال له ذلك الإنسان: لولا أرسلت إليّ رسولاً فأتبع آياتك قبل أن أذل أو أخزىٰ، وصارت حكمة آية (طه) منخرمة أيضاً، ولا يمكن هذا.

وأجاب المعارضون عن هذا أيضاً، قالوا: كل ما أخرجه الدليل الخاص يخرج من العام، ولا يقدح في حكمة العلّة؛ لأنه قد يكون في ذلك الإنسان خصوصية يعلمها الله، فأخرجه من العموم لأجلها. وهذا مبني على مبحث أصولي عظيم: هل عدم اطراد العلة نقض لها؟ أو هو تخصيص لعمومها[٢]؟ إلى غير ذلك من الأبحاث. فهذا نموذج قليل من مناظرات العلماء في هذه المسألة.

والتحقيق في هذه المسألة ـ إن شاء الله ـ هو ما حققه العلامة ابن كثير في شرح قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٥] وغيره من المحققين: أن الله (جل وعلا) يعذر أهل الفترة في دار الدنيا، ثم إنه يوم القيامة يمتحنهم بالنار، ويقول لهم: اقتحموا في هذه النار، فمن اقتحم فيها دخل الجنة، وهو الذي كان يطيع الرسل لو جاءته، وهو المؤمن في علم الله الداخل للجنة، ومن تمرد وعصاه، وامتنع أن يدخلها دخل النار، وهو الذي كان يعصي الرسل لو جاءته ولا يصدقها، وهو الكافر في علم الله، والله أعلم بما كانوا إليه صائرين. وهذا المعنىٰ جاء عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، منها أحاديث صحاح بشهادة أئمة الحديث الحفاظ، ومنها أحاديث حسان، ومنها أحاديث ضعاف تعتضد بالصحاح والحسان، وهذه الأحاديث الواردة بهذا هي نصٌّ في محل النزاع تجتمع عليها الأدلة. وقد أنكرها ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ[٣] قال:

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (١٣٥/٥ ـ ١٤٢، ٢٦١) فما بعدها، المذكرة في أصول الفقه ٢٧٨، ٢٩٢، نثر الورود (٥٢٧/٢)، الأضواء (٤٧٩/٣ ـ ٤٨١).

هذه الأحاديث لا يمكن أن تصح؛ لأن القيامة دار جزاء وليست دار عمل حتى يُكلفوا فيها فيدخلوا الجنة والنار بالتكليف فيها؛ لأنها دار جزاء لا دار عمل، وهذا الذي قاله ابن عبدالبر لا تُرد به النصوص الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وقد دلّ القرآن والسنة الصحيحة أن الله يكلف خلقه في عرصات المحشر بعض التكاليف، وقد ثبت في سورة القلم أنه يأمر جميعهم بالسجود، وأَمْرُهُم بالسجود تكليف في عرصات المحشر، كما سيأتي في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: الآيتان ٤٢، ٤٣] لأنه قد جاء في الأحاديث الصحيحة أن الله يدعوهم ذلك اليوم إلىٰ السجود، كما دلت عليه الآية. فأما المؤمنون فيسجدون فيرفعون من السجود وعلىٰ وجههم نضرة النعيم، وأما الكافر فيكون ظهره كالصفيحة فلا يستطيع أن يسجد، وإذا أراد تَكَلُّفَ السجود خرَّ على قفاه[1]؛ لأنه لا يستطيع السجود، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الأحاديث الصحاح في قصة الرجل المشهورة الذي هو آخر أهل النار خروجاً من النار أنه يقول: «يا رب أخرني عن النار. يقول: يا بن آدم إن أخرتك لعلك تطلب غير ذلك. فيقول: لك علي من العهود والمواثيق أن لا أطلبك غير ذلك. ثم يمكث ما شاء الله، ثم يقول له: افعل لي كذا، أو: إلىٰ هذه الشجرة. ويقول له: ويلك يا بن آدم ما أغدرك!! فيعطيه من المواعيد والمواثيق أنه لا يطلب شيئاً سوىٰ ذلك، حتى يقول له: رب اصرف وجهي عن النار. إلىٰ أن يدخله الجنة»[2]. والتكاليف إنما هي

---

(١) انظر: التمهيد (١٨/١٣٠)، الاستذكار (٨/٤٠٤). وفيما يتعلق بالتكليف في الآخرة انظر: الفتاوى (١٧/٣٠٩)، (٢٤/٣٧٣)، مختصر الفتاوى المصرية ٦٤٥، أحكام أهل الذمة (٢/٦٥٤ ـ ٦٥٦)، طريق الهجرتين ٣٩٧ ـ ٤٠١، تفسير ابن كثير (٣/٣١)، فتح الباري (٣/٢٤٦ ـ ٢٤٧)، أضواء البيان (٣/٤٨٢ ـ ٤٨٣).

(٢) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ حديث رقم (٧٤٣٩) (١٣/٤٢٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: (١٨٣) (١/١٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ=

عهود ومواثيق تؤخذ على الإنسان أن يفعل أو أن لا يفعل. فهذا هو الصواب في هذه المسألة، أنهم معذورون في الدنيا بشهادة الآيات، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم بالدخول فيها، فمن دخلها دخل الجنة[1]، وظهر فيه علم الله أنه كان يطيع الرسل لو جاءته، ومن امتنع دخل النار، وظهر فيه

رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ حديث رقم: (٧٤٣٧)، (٤١٩/١٣)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٦٥٧٣) ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم: (١٨٢) (١٦٣/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) ورد في ذلك عدة أحاديث من أشهرها:

١ ـ حديث الأسود بن سريع (رضي الله عنه) عند أحمد (٢٤/٤)، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، (٢٨١/٢)، والطبراني في الكبير (٢٨٧/١)، وابن حبان (الإحسان (٢٢٥/٩)، والبيهقي في الاعتقاد ص ٧٦، والبزار (كشف الأستار ٣٣/٣)، والضياء في المختارة (٢٥٤/٤، ٢٥٦). وقد صححه البيهقي في الاعتقاد ص ٧٧، وابن القيم في طريق الهجرتين ٣٩٧، والهيثمي في المجمع (٢١٦/٧)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٩/٣).

٢ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند أحمد (٢٤/٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٧٦/١)، والضياء في المختارة (٢٥٥/٤ ـ ٢٥٦)، والبيهقي في الاعتقاد ص٧٧، والبزار (كشف الأستار ٣٣/٣ ـ ٣٤). وقد صححه البيهقي في الاعتقاد ص٧٧، وابن تيمية في الدرء (٣٩٩/٨)، وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٦٥٤/٢)، والهيثمي في المجمع (٢١٦/٧)، والألباني في تخريجه لكتاب السنة (١٧٦/١)، والسلسلة الصحيحة(٤١٩/٣).

وللحديث طرق وشواهد عن عدد من الصحابة منهم: أبو سعيد الخدري، ومعاذ بن جبل، وأنس بن مالك. انظر في ذلك: مسند أبي يعلى (٢٢٥/٧)، المعجم الكبير للطبراني (٦٠٥/٢٠)، التمهيد (١٢٧/١٨ ـ ١٣٠)، كشف الأستار عن زوائد البزار (٣٤/٣)، الاعتقاد للبيهقي ص ٧٧، مختصر الفتاوى المصرية ٦٤٣، طريق الهجرتين ٣٩٨، أحكام أهل الذمة (٦٥٠/٢ ـ ٦٥٣)، تفسير ابن كثير (٢٩/٣ ـ ٣٠)، مجمع الزوائد (٢١٥/٧ ـ ٢١٧)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٠٣/٥).

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية (رحمه الله): «وقد رُوي بأحاديث حسان عن النبيّ ﷺ أن من لم يكلف في الدنيا من الصبيان والمجانين، ومن مات في الفترة، يُمتحنون يوم القيامة...» ا.هـ مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٣ .وقال ابن كثير في التفسير (٣١/٣): «إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها» ا.هـ وقال الحافظ في الفتح (٢٤٦/٣): «وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة» ا.هـ.

علم الله أنه لو جاءته الرسل لكذبها. وقول ابن عبدالبر: إن هذا تكليف بمحال، وأن القول للرجل: «ادخل النار» هذا تكليف بما لا يطاق!! هذا لا يردّ ـ أيضاً ـ الأحاديث الصحيحة، وقد جاء أمثاله في الشرع، فقد ثبت في الأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ في علامة الأعور ـ المسيح الدجال ـ أن معه جنة وناراً، والنبي يأمر المؤمنين أن يقتحموا في ناره التي معه؛ لأنهم إن اقتحموها وجدوها ماء عذباً وشربوا منه، وأن ماءه نار[1]، ففي هذه الأحاديث الصحيحة أمر النبي ﷺ باقتحام النار التي مع الدجال، وقد أمر الله بني إسرائيل ـ قد بيّنا أنه لا يتوب عليهم حتى يقتلوا أنفسهم، كما قدمناه في سورة البقرة ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤] فلم يقبل توبة أحد منهم إلا بعد أن يُقدِّم نفسه للموت فَيُقتل، فمعنىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فَلْيَقْتُل الذين لم يعبدوا العجل منكم الذين عبدوه، وليس المعنىٰ: أن الإنسان يقتل نفسه بيده. حتى تاب الله عليهم، ورفع القتل عن بقيتهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣١].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢].

قرأه عامة القراء، غير ابن عامر: ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وقرأه ابن عامر: ﴿عما تعملون﴾[2] والمعنىٰ واحد.

---

(١) ورد هذا المعنى في عدة أحاديث، منها:
١ ـ حديث أبي هريرة عند البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾. حديث رقم (٣٣٣٨)، (٦/٣٧٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، حديث رقم: (٢٩٣٦)، (٤/٢٢٥٠).
٢ ـ حديث حذيفة عند البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، حديث رقم: (٧١٣٠)، (١٣/٩٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال، حديث رقم: (٢٩٣٤)، (٤/٢٢٤٨).
٣ ـ حديث أبي مسعود الأنصاري عند البخاري (٧١٣٠)، ومسلم (٢٩٣٥) بمثل حديث حذيفة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٢.

وقوله (جل وعلا): ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ التنوين: تنوين عِوَض. أي: ولكل الناس من كافرين ومؤمنين على التحقيق. خلافاً لمن خصّه بالكافرين[(١)]. لكل واحد منهم درجات.

والدرجات: جمع الدرجة، وهي المرتبة والمنزلة[(٢)]. أي: لكل عامل مطيع وعاص، لكل واحد من المطيعين والعاصين درجات. أي: منازل ومراتب يستحقونها بأعمالهم، فمنهم من هو بدرجته في أعلى الجنان، ومنهم من هو بأعماله في دركات النار، وقد بين (جل وعلا) أن الآخرة يتفاوت أهلها بدرجاتهم[(٣)]، كما في قوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٢١] وبين أن أهل النار يتفاوتون في دركاتهم قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: الآية ١٤٥] وفي القراءة الأخرى: ﴿فِى ٱلدَّرَكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[(٤)] فهم يتفاوتون، ففي أعمال أهل الشر تفاوت، تتفاوت بها منازلهم في النار. ولأعمال أهل الخير تفاوت، تتفاوت بها منازلهم في الجنة. وهذا معنى قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

والآية فيها موعظة عظيمة، يعني: أيها المخاطبون ما دمتم في دار الدنيا فاعلموا أن الدركات في النار والدرجات في الآخرة إنما تُنال بالأعمال في الدنيا، فراقبوا الله واجتهدوا في أن تكون أعمالكم صالحة، لِأَنْ تكون درجاتكم ومنازلكم في الجنة عالية. وكذلك يُحذِّر من أن تكونوا في دركات النار ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، و (ما) نافية، والباء في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ هي لتوكيد النفي؛ لأن للإسناد الخبري المنفي

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٢٤ ـ ٢٢٥).

(٢) انظر: المفردات (مادة: درج) ٣١٠.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/٢١١).

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

توكيداً كما للإيجابي توكيداً، فلو قلت مثلًا: «زيدٌ قائم». فهذا ليس فيه توكيد، ولو قلت في الإثبات: «إن زيداً لقائم». فقد أكّدت إثبات قيامه بـ(إن) واللام. ولو قلت: «ما زيد بقائم». فقد أكدت نفي قيامه بـ(الباء)، والباء في النفي تفيد التوكيد الذي تفيده (إنَّ) في حالة الإثبات. وهي توكيد للنفي، والجار والمجرور في مثل هذا هو مفرد، وليس بشبه جملة؛ ولذا لا يُقدَّر له الكون ولا الاستقرار، فلا يجرىٰ على قول ابن مالك[1]:

وأَخْـبَـرُوا بـظـرفٍ او بـحـرفِ جَـرْ نَـاوِيـنَ مَـعْـنَـى (كـائـنٍ) أو (اسْـتَـقَـرْ)

فهذا لا يُقدَّر فيه كَوْنٌ ولا استقرار؛ لأنه مفرد زِيْدَت به (باء) للتوكيد، ليس بِشِبْه جملة.

والغفلة هي: الغفلة عن الشيء وخروجه عن الذهن للاشتغال بغيره، فالله لا يغفل عما يعمله الظَلَمة، فهو (جل وعلا) لا يغفل عن شيء، ولكنه يُمْهِل ولا يُهْمِل. وقد نهىٰ الله خلقه أن يظنوا به هذه الغفلة، قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٤٢] يعني: على قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2] [الأنعام: الآية ١٣٢] ليس بغافل عما يعملونه من الكفر، فهو مُدَّخِره لهم، ومجازيهم عليه، ومخلدهم به بالنار. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ليس الله غافلاً عما تعملون أيها المسلمون من الخير والحسنات، فهو مُدَّخِره لكم ومجازيكم عليه، فجميع الأعمال تُحفظ عند الله، لا يغفل عن شيء منها، يجازي بها أهلها يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٢].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا

---

(١) الخلاصة ص ١٧، وانظر شرحه في التوضيح والتكميل (١٦٢/١).

(٢) «يعملون» على قراءة ابن عامر.

يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٣].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، وأضاف لفظة الرب إليه إضافة تشريف وتكريم. والرب في لغة العرب: يطلق على عشرة معان[١]: منها: السيد الذي يسوس الناس ويُدبر شؤونها، وكل من يسوس بلداً ويدبر شؤونه تقول العرب: هذا ربه. وتقول العرب: فلان رب بني فلان. أي: سيدهم الذي يسوسهم ويدبر شؤونهم. والعرب تقول: ربَّه يربُّه. إذا أصلح شؤونه، وساسه، وأصلح أموره. فالفاعل: رب، والمفعول: مربوب. ومن إطلاق العرب الرب علىٰ الذي يسوس الأمور ويدبرها: قول علقمة بن عَبَدَة التميمي، قال لرجل ساد قومه[٢]:

وكُنْتَ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رِبَابَتِي وقَبْلَكَ رَبَّتْني فَضِعْتُ رُبُوبُ

أي: سادتني قبلك سادة وساسة، وضيعوني، والآن أفضت إليك ربابتي، فَصِرْتَ ربي الذي يُدبر شؤوني، فلا تضيعني. وتعرفون في السيرة، أن صفوان بن أمية بن خلف كان عدواً للنبي ﷺ؛ لأن النبي قتل يوم بدر أباه أُمية بن خلف، وقتل أخاه علي بن أُمية بن خلف يوم بدر، وقتل عمه أُبي بن خلف يوم أُحد، وهو من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فلما فتح النبي مكة ـ ﷺ ـ وطلب منه إعارة السلاح، المشهورة الثابتة في الحديث، طلب صفوان النبي ﷺ أن يعطيه مهلة ينظر فيها في أمره، فأعطاه النبي مهلة ينظر فيها في أمره، ويتدبر فيما يفعل، وكان في تلك المهلة أن غزىٰ النبي ﷺ هوازن ـ غزوة حنين ـ المذكورة في القرآن، وكانت الرياسة في ذلك الوقت صارت من دُريد بن الصِّمَّة إلىٰ مالك بن عوف النصري، وكان دُريد شائباً أعمىٰ، وكانت فكرته: أن هوازن يفعلون مثل ما فَعَلَت ثقيف، يبقون في ديارهم، ويُخرجون النبال والرماح من كوىٰ الحصون، ويحاصرهم القوم فيرامونهم وهم في مقرهم. وأبى عن هذه الفكرة مالك بن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

عوف النصري سيد هوازن في ذلك اليوم، وقال: إن لم تطيعوني لأتكئنَّ على سيفي (في قصة حنين المشهورة). فخرج بهوازن، بنسائهم، وأطفالهم وأموالهم، حتىٰ نزل بهم في مضيق وادي حنين، في طريق النبي ﷺ، وكان دريد أعمىٰ، فقال: ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير؟ يظن أن الخارجين جيش فقط. فقيل له: خرج مالك بن عوف النصري بالمال، يقول: إن الرجل إذا كان معه أهله وماله وزوجاته لا يفر. فحرك بشفتيه استهزاءً برأيه، وقال: إن الرجل إذا انتفخ سحره ـ أي: رئته ـ من الخوف لا يلوي على مال ولا ولد. ونزلوا مضيق حنين، وصلىٰ النبي ﷺ الصبح في غَلَس من ظلام الليل، ثم انحدر مع وادي حنين هو وأصحابه، فلم يعلموا بشيء حتى أتوا هوازن، وهم أمامهم في مضيق الوادي، فصبوا عليهم النبال والسهام كأنها مطر تزعزعه الريح، فوقع ما وقع، وقصّه الله في سورة براءة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢٥] وفي ذلك الوقت لم يبق مع النبي ﷺ إلا أحد عشر رجلاً، ونزل عن بغلته (دُلْدُل)، بغلة لا تصلح لِكَرّ ولا لِفَرّ، وهو يقول:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»

والشاهد: أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين في أول وهلة، وصفوان بن أُمية حاضر، ومعه رجل يرافقه، قال ذلك الرجل: بطل الآن سحر محمد!! يعني: أن هوازن غلبوه، وأن قومه انهزموا، وأن ما كان عنده سحر، وأنه بطل. فقال له صفوان ـ وهو محل الشاهد ـ: اسكت فُضّ فوك، لئن يرّبني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجل من هوازن[1]!! ومعناه: أن يسودني ويسوسني قرشي، ابن عمي، أحب إليَّ من أن يسودني واحد من ثقيف، أهل الطائف. فهذا يبين أن معنىٰ (ربّه يربّه) أي: ساده وساسه ودبر أموره، وهو بالنسبة إلى الله (جل وعلا): السيد الذي يدبر شؤون الناس، ويسوس أمورها، فلا يستغني عنه العَالَم طرفة عين.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ معناه: هو الذي عنده الغِنى، والله (جل وعلا) غني بذاته غِنىً مطلق، لا يحتاج إلى خلقه، وخلقه محتاجون إليه. والنكتة في الآية: أن الله بما مضى أَمَرَ ونهىٰ، وبيّن ما يُدخل الجنة وما يُدخل النار، ثم نبّه خلقه، فكأنه يقول: يا عبادي: لا تظنوا أنني آمركم وأنهاكم لأجل أن أجرَّ بذلك لنفسي نفعاً أو أصرف عنها ضراً، لا، أنا الغني بذاتي الغِنىٰ المطلق، وإنما النفع لكم لا لي، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: الآية ١٥] وفي الحديث القدسي، الثابت في صحيح مسلم، عن النبي ﷺ، فيما يرويه عن ربه، أن الله (جل وعلا) يقول: «**يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**» **الحديث**[1]. فهو (جل وعلا) لا ينتفع بطاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٨] ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: الآية ٦] ولذا قال هنا: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي لا تنفعه طاعة من أطاع منكم، ولا تضره معصية من عصىٰ منكم، وهو غني بذاته غِنىً مطلق.

﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾: هو الرحيم الذي يرحمكم ـ إن اتبعتم أوامره ـ يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣] أي: يدعوكم إلى طاعته ـ وهو رحيم ـ ليرحمكم ويدخلكم جنته.

وقد قدمنا أن (الرحمٰن) هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، و (الرحيم) هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة[2]،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: (٢٥٧٧) (١٩٩٤/٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) في الفرق بين (الرحمٰن) و(الرحيم) انظر: ابن جرير (١٢٦/١)، القرطبي (١٠٥/١)، ابن كثير (٢٠/١)، مدارج السالكين (٧٥/١)، بدائع الفوائد (٢٤/١)، أضواء البيان (٣٩/١ ـ ٤١).

ومن رحمانيته (جل وعلا): لطفه بالطير الصافات، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: الآية ١٩] أي: ومن رحمانيته: لطفه بالطير صافات وقابضات في جوّ السماء، وإمساكه لها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يعني: ومن شدة غناه عنكم وعن أعمالكم، وعدم حاجته إليكم، ولا إلى طاعتكم، ولا إلىٰ معصيتكم، فهو في قدرته أن يذهبكم جميعاً ويجعلكم أثراً بعد عين، ويأتي بقوم آخرين غيركم، كما جاء بكم أنتم من ذرية قوم آخرين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾.

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم﴾: أي: يجعل خلفاء في الأرض بعدكم خلفاً منكم ﴿مَّا يَشَاءُ﴾ من خلقه. وهذا المعنى تكرر في القرآن، يبين الله للناس أنه قادر علىٰ أن يزيلهم عن بكرة أبيهم، ويستبدل قوماً غيرهم، وقد يكون المستبدلون خيراً منكم أيها المخاطبون، كقوله في سورة النساء: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: الآية ١٣٣] وقوله (جل وعلا): ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: الآية ٥٧] إذا استخلف غيركم فما عليه في ذلك من ضرر، وقوله في سورة فاطر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: الآيات ١٥ ـ ١٧] أي: ليس فيه صعوبة عليه ولا مشقة، بل هو هين عليه يسير. وقوله في أُخريات سورة القتال ـ سورة محمد ـ حيث قال فيها: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: الآية ٣٨] وقد قال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] وقد قال في الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] يعني: فذهابكم جميعاً والإتيان ببدل منكم، سهل علي، خفيف عندي، لا يضرني شيئاً، فأنتم إنما تنتفعون بطاعتكم وتتضررون بمعصيتكم، وأنا الغني بذاتي عنكم، القادر علىٰ أن

أُذهبكم، وآتي بغيركم، وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ المراد هنا: الإذهاب بوقت واحد، بأن يذهبهم جميعاً، وليس المراد أن يذهبهم تدريجاً بالموت[1]، كما هي عادته في القرون أن يفني قرناً تدريجاً بالموت، ثم يأتي بعده بقرن آخر تدريجاً بالولادة؛ لأن هذا هو الواقع، فلو كان هو المراد لما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ لأنه مُذْهِبُهم قطعاً ومستخلف بعدهم ما يشاء على التدريج، هذا واقع قطعاً.

وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ عبّر بـ(ما) هنا للإبهام في الشيء، وإن كان قد يقع على العاقل؛ لأن المقرر في علم النحو: أن الشيء إذا أُبهمت صفاته ـ أي: كان المراد صفاته مثلًا ـ أنه يُعبَّر عنه بـ(ما)[2]. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ كما أنه كان في الأرض قبلكم ناس غيركم ـ قال بعضهم: هم الذين كانوا في سفينة نوح، وقال بعضهم: يعمّ ما قبلهم من القرون. كان قبلكم ناس أهل ثروة وأهل غنى في الدنيا، وأهل تمدن ومكانات[3] ـ أذهبناهم جميعاً، وجئنا بكم، وجعلناكم خلفاء في الأرض بعدهم، كما أذهبنا أولئك وجعلناكم خلفاً بعدهم، فنحن قادرون أيضاً على أن نفعل بكم مثل ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٣٤].

(ما) هنا موصولة، وعائد الصلة محذوف[4]، والتقدير: إن الذي توعدونه لآت لا محالة. اعلموا أولًا: أن ﴿تُوعَدُونَ﴾ هنا يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الإيعاد، والوعد: هو الوعد بالخير،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٢٥/٤).
(٢) انظر: الكوكب الدري ص ٢١٠، التوضيح والتكميل (١١٥/١).
(٣) انظر: البحر المحيط (١٢٥/٤).
(٤) انظر: الدر المصون (١٥٧/٥).

والإيعاد: هو الوعيد بالشر[(١)]، كما قال الشاعر[(٢)]:

وإنـي وإن أوعـدتـه أو وَعَـدتُـه لَمُخلفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

فقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ بناء على أنه من الوعد، فالله (جل وعلا) لا يخلف وعده أبداً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: الآية ٩] أما إخلاف الوعيد ففيه تفصيل غلط فيه جماعات من العلماء، حتى كان من يقول من العلماء بفناء النار، أن الله لو صرّح بأنها [لا] تفنىٰ[(٣)] أن ذلك وعيد، وإخلاف الوعيد من المدح لا من الذم، إذ إنَّ مَنْ أوعدك بشرّ ثم عفا عنك وأعطاك الخير فهذا من الجميل، وإنما المذموم القبيح هو إخلاف الوعد بالخير.

والتحقيق في هذا المقام: أن الله (جل وعلا) إن وعد بخير فإنه لا يخلف وعده أبداً؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وإن أوعد بشر فإيعاده بالشر له حالتان:

تارة يكون وعيداً للكفار. وهذا لا يُبدّل بحال، ويدل عليه قوله هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾؛ لأن الكلام في الكفار الذين يهددهم الله. أي: ما يوعدكم الله من العذاب واقع لا محالة، يدل عليه قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما سنفسره، وقد صرح الله في آيات من كتابه أن وعيده للكفار لا يُخلف حيث قال في سورة (ق): ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: الآيتان ٢٨، ٢٩] والمراد به على التحقيق: ما وعد الكفار به من عذاب النار. وقال جل وعلا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ١٤] حَقَّ: معناه ثبت ووجب، وما قال الله فيه: «إنه ثبت ووجب» لا يمكن أن يتخلف، و(الفاء) في قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ من حروف التعليل، وقد تقرر في الأصول في (مسلك النص)

---

(١) انظر: القرطبي (٨٨/٧).

(٢) البيت لعامر بن الطفيل. وهو في اللسان (مادة: وعد) (٩٥١/٣)، وانظر: المعجم المفصّل في شواهد النحو الشعرية (٢٥٥/١).

(٣) في الأصل: «بأنها تفنى» وهو سبق لسان.

وفي (مسلك الإيماء والتنبيه) أن (الفاء) من حروف التعليل[(١)] كما تقول: «سها فسجد»، أي: لعلّة سهوه. و«سرق فقُطِعَت يده» أي: لعلّة سرقته. و«أساء فأُدِّب». أي: لإساءته. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: وجب الوعيد لأجل تكذيب الرسل، ونظيره قوله في (ص): ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: الآية ١٤].

أما الوعيد الذي يجوز أن يُخلف: هو وعيد الله لعصاة المسلمين، فإن الله أوعد مرتكبي الذنوب الكبائر بأنه يعذبهم، وهذا الوعيد إن شاء الله أنفذه، وإن شاء الله عفا عن أهله. وصرح الله بهذا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] فجعل غير الشرك من الكبائر تحت مشيئته، إن شاء عفا، وإن شاء عذّب. هذا هو تحقيق المقام في الوعد والوعيد[(٢)].

قوله هنا: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾ أي: ما يوعد به من ثواب وخير فهو آتٍ لا محالة، وما يُوعد به الكفار المكذبون للرسل من العذاب والتنكيل فهو آتٍ لا محالة.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ المعجزون: جمع تصحيح للمعجز، والمعجز: اسم فاعل الإعجاز، ومفعول اسم الفاعل هنا محذوف. والمعنىٰ: وما أنتم بمعجزين ربكم. أي: لستم بفائتيه حتىٰ تعجزوه فيعجز عن التمكن منكم وتعذيبكم، بل أنتم في قبضة يده، وتحت قهره وسلطانه، لا تعجزونه ولا تفوتونه، بل أمره واقع فيكم، نافذ فيكم، ليس لكم مفر ولا ملجأ، ولا يمكن أن تُعجزوا ربكم وتفوتوه حتى لا يعذبكم. فعُرف من هذا أن المفعول محذوف، العرب تقول: «طلب فلاناً فأعجزه». أي: فاته ولم يقدر علىٰ إدراكه، والله يقول: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لا تعجزونني فتسبقونني حتىٰ لا أُنفذ فيكم ما أوعدتكم به، بل أنتم تحت قهري وسلطاني، وفي قبضة يدي، وسأنفذ فيكم ما أشاء من وعيدي الذي قلت:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/٦٤٦ ـ ٦٤٩).

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٤﴾.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: الآية ١٣٥].

قرأ هذا الحرف عامة القراء، ما عدا شعبة عن عاصم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأه شعبة ـ وحده ـ عن عاصم: **﴿اعملوا على مكاناتكم﴾** بمدّ النون جمع مكانة. وكذلك قرأ شعبة في جميع القرآن. وقرأ عامة القراء أيضاً ما عدا حمزة والكسائي: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ بالتاء الفوقية في قوله: ﴿مَن تَكُونُ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: **﴿فسوف تعلمون من يكونُ له عاقبة الدار﴾**[1].

ولا إشكال في قراءة شعبة، ولا في قراءة حمزة والكسائي؛ لأن قراءة شعبة أن كل واحد له مكانة يعمل عليها، فَجُمعت المكانات اعتباراً بتعدد المخاطبين. وعلى قراءة الجمهور: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ فالمكانة أُضيفت إلىٰ معرّف وهي مفرد فعمّت جميع المكانات؛ لأن المقرر في الأصول: أن المفرد إذا أُضيف إلى معرَّف صار صيغة عموم يشمل جميع الأفراد[2]، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١٨] أي: نعم الله. وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: الآية ٦٣] أي: عن أوامره ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: الآية ٦٨] أي: ضيوفي كما هو معروف. فكلتا القراءتين معناهما واحد، وكذلك قراءة حمزة والكسائي: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ يجوز فيه التذكير بأمرين:

أحدهما: أن العاقبة تأنيثها مجازي، والتأنيث المجازي إذا كانت (الفَاعِلَة) تأنيثها مجازياً جاز في الفعل التذكير والتأنيث[3].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٣، وانظر توجيه هذه القراءات في حجة القراءات ص ٢٧٢، البحر المحيط (٤/٢٢٦)، الدر المصون (٥/١٥٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٧٢، الكليات ٨١٨.

الثاني: أنه فَصَلَ بين الفعل وفاعله فَصْلٌ، وهو قوله: ﴿من **يكون له**﴾ والفَصْلُ بين الفعل وفاعله يُسَوِّغُ تذكير الفعل، ولو كان فاعله مؤنثاً حقيقياً، كما هو معروف في علم النحو[١].

ومعنىٰ الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) أمر نبيه ﷺ أن يهدد الكفار تهديداً عظيماً بأُسلوب لطيف في غاية الإنصاف واللطافة، مع اشتماله على أعظم التهديد، وأشنع التخويف، وهو قوله: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾. ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟﴾ أصله: (يا قومي) حُذفت ياء المتكلم، وحَذْفُ ياء المتكلم اكتفاء بالكسرة لغة فصحىٰ مطّردة في القرآن وفي لغة العرب[٢].

وقد قدمنا في الدروس الماضية[٣] أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأن معناه في لغة العرب: جماعة الرجال دون النساء، وأن النساء ربما دخلن في اسم (القوم) تبعاً. أما الدليل علىٰ أن لفظ (القوم) في النطق العربي يختص بالرجال دون النساء: فقوله تعالىٰ في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ (...)[٤].

(...)[٥] فيها الربا إجماعاً، التي هي: القمح والشعير والتمر والزبيب، قالوا: كل واحدة من هذه الأربع مُقتاتة مدخرة، معناه أنها قوت يتقوت به الإنسان، وأنه يدخرها أزماناً فلا تضيع، فكل مُقتات مدخر من الحبوب والثمار تجب فيه الزكاة عند مالك والشافعي[٦]. وأنهما اتفقا أيضاً على أن الأشجار ليس في ثمارها شيء مُقتات مدخر إلا الزبيب والتمر خاصة، ولم يوجب مالك والشافعي الزكاة إلا في التمر والزبيب خاصة، أما غيرهما من

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.
(٤) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتمام الآية لا يخفى، ويمكن استدراك باقي النقص فيما يتعلق بمعنى القوم بمراجعة ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الموضع السابق.
(٥) هذا المقطع يتعلق بتفسير الآية رقم (١٤١) ولاستدراك ما ذهب من التسجيل عليك بمراجعة ما كتبه الشيخ رحمه الله في الأضواء (٢/٢١٣ ـ ٢٤٦).
(٦) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، المهذب (١/١٦٣).

ثمار الأشجار فليست عندهما مما يُقتات ويُدخر[١]، ولم يوجبا فيها شيئاً إلا الزبيب والتمر. وأما الحبوب فإن مالكاً والشافعي اتفقا أيضاً على أن كل ما يُقتات ويُدخر من الحبوب أنه تجب فيه الزكاة، وهي العشر ونصف العشر على ما قررنا، والحبوب المُقتاتة المُدَّخرة: كالقمح والشعير اللذين ـ مثلًا ـ دل الإجماع والنص عليهما، ونحوهما من السُلْت[٢]، والعَلَس[٣]، والأرز، والذرة، وأنواع القطاني الثمانية[٤]: كالبَسِيلَة[٥]، والجُلُبَان[٦]، والحِمَّص، والتُرْمُس[٧]، والفول، إلى غير ذلك من أنواع القطاني الثمانية؛ لأن القطاني ثمانية أنواع. وضابطها: ما يثبت فيه الربا من الفول، والحِمَّص، والتُرْمُس، واللوبيا، والجُلُبَان، والجُلْجُلَان[٨]، والبَسِيلَة. أما الكِرْسِنَّة[٩]: فالمشهور في

---

(١) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، المهذب (١/١٦٠).

(٢) السُلْت: قيل: نوع من الشعير ليس له قشر. وقيل: نوع من الشعير رقيق القشر، صغار الحب. وقيل: حب بين الحنطة والشعير، ولا قشر له كقشر الشعير، فهو كالحنطة في ملامسته وكالشعير في طبعه وبرودته. وهي أقوال متقاربة. انظر: المصباح المنير (مادة: سلت) ص ١٠٨ حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٣) العَلَس: قيل هو نوع من الحنطة، يكون في القشرة منه حبتان، وقد تكون واحدة أو ثلاث. وقيل هو حبة سوداء تؤكل في الجدب. وقيل: مثل البر إلا أنه عسر الاستنقاء. انظر: المصباح المنير (مادة: علس) ص ١٦١، حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٤) القطاني: اسم جامع للحبوب التي تُطبخ، كالعدس، والباقلاء، واللوبياء، والحمص، والأرز، والسمسم ويقال لها ـ أيضاً ـ: القِطْنِيَّات، واحدتها قِطْنِيَّة. انظر: المصباح المنير (مادة: قطن) ص ١٩٤ حلية الفقهاء ص ١٠٥.

(٥) قال في اللسان: «والبسيلة: الترمس» ا.هـ. (مادة: بسل) (١/٢١٥).

(٦) هو حب أغبر أكدر على لون الماش، إلا أنه أشد كدرة منه وأعظم جرماً. انظر: اللسان (مادة: جلب) (١/٤٧٨).

(٧) هو حَمْلُ شجر له حب مضلَّع محزَّر. أو الباقلاء المصري. انظر: القاموس (مادة: الترمس) ص ٦٨٨.

(٨) يطلق على السمسم في قشره قبل أن يُحصد، وعلى ثمرة الكزبرة. انظر: المعجم الوسيط (مادة: جلجل) (١/١٢٨).

(٩) قال في القاموس: «شجرة صغيرة لها ثمر في غُلُف، مُصدِّع مُسهِّل مُبوِّل للدم، مسمِّن للدواب، نافع للسعال، عجينه بالشراب يُبرىء من عضة الكلب، والأفعى، والإنسان» ا.هـ. القاموس: (مادة: الكرسنة) ١٥٨٤.

مذهب مالك، أنها لا زكاة فيها لأنها علف، خلافاً لأشهب من أصحاب مالك، إلا أن مشهور مذهب مالك أن الكِرْسِنَّة من أنواع القطاني في باب الربا لا في باب الزكاة[١]. وزعم قوم أن الكِرْسِنَّة هي البَسِيْلَة من أنواع القطاني. هذه الحبوب هي التي تُقتات وتُدخر، وتجب فيها الزكاة: القمح، والشعير، والسُّلْت، والعَلَس، والذرة، والأرز، والدخن، وأنواع القطاني: كالتُّرْمُس، والحِمَّص، والبَسِيْلة، والفول، والجُلُبَان، والجُلْجُلان، واللوبيا، إلى غير ذلك، هذه الحبوب التي تُقتات وتُدخر تجب فيها الزكاة عند مالك والشافعي. وإنما اختلفا في شيئين: أحدهما: أن مالكاً يقول[٢]: إن القطاني يُضم بعضها إلى بعض في الزكاة، وإن القمح والشعير والسُّلْت يُضم بعضها إلى بعض، فمن حصد عند مالك وسقاً من فول، وحصد وسقاً من جُلُبَان، وحصد وسقاً من بَسِيْلَة، ووسقاً من لوبيا، ووسقاً من حِمَّص فإنه تجب عليه الزكاة؛ لأنها خمسة أوسق من جنس واحد. وإن اختلفت أنواعها يضم بعضها إلى بعض ويُخرج من كل نوع بحسبه. والشافعي يقول[٣]: لا يُضم شيء منها إلى شيء، فلا يضم فول إلى لوبيا، ولا تُرْمُس إلى حِمَّص؛ بل كل في جرابه، وإذا حصد خمسة أوسق من واحد وجبت الزكاة، وإلا فلا. كما أن الشافعي يقول: لا يضم قمح إلى الشعير، ولا الشعير إلى القمح، ولا السُّلْت إلى واحد منهما. ومالك يقول: إنه إذا قطع وسقين من قمح، ووسقين من شعير، ووسقاً من سُلْت، أنها تكون خمسة أوسق، يُضم بعضها إلى بعض، فتجب فيها الزكاة، فيخرج عن كلٍ بحسبه.

أما العَلَس عند مالك فلا يُضم إلى هذه الثلاثة.

والحاصل أن مالكاً لا يضم عنده إلا أنواع القطاني الثمانية. يُضم بعضها إلى بعض، ويضم عنده القمح، والشعير، والسُّلْت، هذه الثلاثة

---

(١) انظر: المنتقى للباجي (١٦٨/٢)، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٤٤٧/١)، أضواء البيان (١٩٢/٢).

(٢) انظر: المدونة (٣٤٨/١)، الكافي في فقه أهل المدينة ١٠٣، القرطبي (١٠٧/٧)، الأضواء (٢١٥/٢ ـ ٢١٦).

(٣) انظر: المجموع (٥٠٥/٥ ـ ٥١٣).

بعضها إلى بعض. وأما غير هذا فلا ضمّ، فلا يُضم تمر إلى قمح، ولا سُلْت إلى ذرة، ولا ذرة إلى أرز، بل كل بحسبه. والشافعي لا يرى ضم شيء من هذا إلى شيء. هذا حاصل مذهب مالك والشافعي.

وقد اختلفا في أشياء: منها الزيتون هل فيه زكاة أو لا؟ فمشهور مذهب الإمام مالك (رحمه الله) أن الزيتون تجب فيه الزكاة إذا بلغ حبه خمسة أوسق، ولكنه لا يُخرج إلا من زيته، فإذا كان حب الزيتون خمسة أوسق وجبت الزكاة فيه، ولكن الإخراج من زيته، وهو العُشر أو نصف العُشر. فالوجوب في الحب، والإخراج من الزيت. هذا مشهور مذهب مالك، ومثل الزيتون عند مالك في هذا ـ من أنه يُنظر نصاب الأوسق من الحب، ثم يُخرج من الزيت مثل الزيتون عنده ـ السمسم، وبذر الفجل الأحمر، والقرطم. والقرطم: حب العصفر. هذه الأربعة التي هي: الزيتون، والسمسم، والقرطم، وبذر الفجل الأحمر خاصة، هي عند مالك إذا كانت حبوبها تبلغ النصاب وجبت فيها الزكاة، وأُخرج العشر أو نصفه من زيتها، هذا مشهور مذهبه (رحمه الله)[١]، ولا زكاة عند مالك في كتان ولا في غيره مما ذكرنا.

ومذهب الإمام الشافعي مختلف ـ أيضاً ـ في الزيتون[٢]، فقال في القديم: إن الزيتون فيه زكاة إن صحّ أثر عمر الذي ورد فيه. وقد ورد عن عمر[٣] وابن عباس[٤] أثران أن في الزيتون زكاة، والأثران ضعيفان لا تقوم

(١) انظر: المدونة (١/٢٩٤، ٣٤٩)، الكافي في فقه أهل المدينة ص١٠٠، الاستذكار (٩/٢٥٢)، القرطبي (٧/١٠٣، ١٠٤)، أضواء البيان (٢/٢١٥).

(٢) انظر: المجموع (٥/٤٥٢)، أضواء البيان (٢/٢١٧).

(٣) أخرجه البيهقي (٤/١٢٥ ـ ١٢٦). وعقبه: بقوله: «حديث عمر رضي الله عنه في هذا الباب منقطع، وراويه ليس بقوي» ا.هـ. وقال الحافظ في التلخيص (٢/١٦٦): «رواه البيهقي بإسناد منقطع، والراوي له: عثمان بن عطاء، ضعيف» ا.هـ. وضعفه النووي في المجموع (٤/٤٥٣)، وانظر ابن أبي شيبة (٣/١٤١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/١٤١). وقال الحافظ في التلخيص (٢/١٦٧): «وفي إسناده ليث بن أبي سُليم» ا.هـ. وضعفه أيضاً: النووي في المجموع (٤/٤٥٣).

حجة بواحد منهما؛ ولذا كان مذهب الشافعي في الجديد: أن الزيتون لا زكاة فيه[١]. والخلاف عنده في القِرْطُم[٢] - أيضاً - كالخلاف في الزيتون، فيه الزكاة في القديم، وفي الجديد لا زكاة فيه، وهذا معروف عندهم[٣].

واختلاف العلماء في زكاة العسل معروف، يُذكر في هذا المحل عند الآيات الدالة على هذا، وإن كان العسل ليس في نفسه مما تنبته الأرض، ولكن نحله ترعىٰ فيما تنبته الأرض فتخرجه. وزكاة العسل الخلاف معروف فيها بين العلماء[٤]، فعند مالك لا زكاة في العسل، والخلاف عن الشافعي، في القديم: يُزكَّى العسل، وفي مذهبه الجديد: لا يُزكىٰ، ومذهب الإمام أحمد زكاة العسل، ومذهب أبي حنيفة أنه إن كان في أرض العُشر زُكِّي وإلا فلا.

وقد وردت في زكاة العسل أحاديث متعددة، كحديث بني شبابة، وهم بطن من بني فهم، أنهم كانوا يؤدون زكاة عسلهم إلى النبي ﷺ[٥].

وقال البخاري وغير واحد من المحدثين: إن زكاة العسل لم يثبت فيها

---

(١) انظر: المجموع (٥/٤٥٢ - ٤٥٥)، أضواء البيان (٢/٢١٧ - ٢١٨).

(٢) هو حب العُصْفُر، كما في المهذب (١/١٦١)، القاموس (مادة: القرطم) ص١٤٨٢.

(٣) انظر المجموع (٥/٤٥٢ - ٤٥٣، ٤٥٦)، أضواء البيان (٢/٢١٨).

(٤) انظر: بدائع الصنائع (٢/٦١)، الاستذكار (٩/٢٨٤ - ٢٨٧)، المجموع (٥/٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥ - ٤٥٦)، المغني (٢/٥٧٧)، أضواء البيان (٢/٢٢٠ - ٢٢٢).

(٥) ابن أبي شيبة في المصنف (٣/١٤١)، وأبو عبيد في الأموال ص٤٤٤، وأبو داود في الزكاة، باب زكاة العسل. حديث رقم: (١٥٨٥ - ١٥٨٧)، (٤/٤٨٨ - ٤٩١)، وابن ماجه في الزكاة، باب زكاة العسل. حديث رقم: (١٨٢٤)، (١/٥٨٤)، والنسائي في الزكاة، باب زكاة النحل، حديث رقم: (٢٤٩٩)، (٥/٤٦)، والبيهقي (٤/١٢٦ - ١٢٧).

قال ابن عبدالبر في الاستذكار (٩/٢٨٦): «فأما حديث عمرو بن شعيب فهو حديث حسن» ا.هـ. وقال ابن الملقن في تحفة المحتاج (٢/٥١): «رواه ابن ماجه بإسناد جيد» ا.هـ.

والحديث له طرق وشواهد متعددة، انظر ذلك في: تنقيح التحقيق (٢/١٤١٣)، التلخيص (٢/١٦٧، ١٦٨)، الدارية (١/٢٦٤)، نصب الراية (٢/٣٩١ - ٣٩٢)، إرواء الغليل (٣/٢٨٤ - ٢٨٦)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٦)، صحيح النسائي (٢/٥٢٦).

حديث واحد قائم، ولم يصح فيها شيء عن النبي ﷺ، وجميع الأحاديث الواردة في زكاة العسل لا يخلو إسناد شيء منها من قادح وكلام(١). قالوا: والأصل براءة الذمة، وعَضَّدُوا عدم الزكاة في العسل بالقياس على اللبن، قالوا: إن العسل واللبن كلاهما مائع خارج من حيوان، واللبن لا زكاة فيه، والعسل كذلك.

والحاصل أن العسل وردت في الزكاة فيه أحاديث متعددة. قال بعضهم: بعضها يشدّ بعضاً. وأخذ بمضمونها الإمام أحمد في طائفة من العلماء، فأوجب الزكاة في العسل، والجمهور: منهم الشافعي في الجديد، ومالك، قالوا: لا زكاة في العسل؛ لأنه لم يثبت فيه شيء، والأصل براءة الذمة، وليس هو مما تنبته الأرض مباشرة حتى يدخل في عموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧].

أيضاً كذلك اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في الزيتون(٢)، وروىٰ عنه بعض أصحابه أن فيه الزكاة، وروىٰ بعضهم أنه ليس فيه الزكاة.

وليس عند الإمام أحمد زكاة في العُصْفُر، ولا في الكتان(٣)، وإنما الزكاة عند أحمد ـ رحمه الله ـ بما استوجب ثلاثة أشياء؛ لأن علّة الزكاة عنده مركبة من ثلاثة أوصاف، وهي: أن يكون الشيء مكيلًا، وأن يكون ييبس، لا يبقىٰ مبلولًا دائماً، وأن يكون يبقىٰ ويجوز ادخاره لبقائه، فكل ما جمع هذه الأوصاف الثلاثة، بأن كان يُكال،

---

(١) وقال الترمذي (السنن ٣/١٦): «ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق. وقال بعض أهل العلم: ليس في العسل شيء» ا.هـ. وقال ابن المنذر: «ليس فيه شيء ثابت» ا.هـ. انظر: التلخيص (٢/١٦٨)، تنقيح التحقيق (٢/١٤١٢) وللوقوف على كلام العلماء على الأحاديث الواردة في هذا الباب، انظر: تنقيح التحقيق (٢/١٤١١ ـ ١٤١٤)، التلخيص (٢/١٦٧ ـ ١٦٨)، الدراية (١/٢٦٤)، نصب الراية (٢/٣٩٠ ـ ٣٩٣)، الإرواء (٣/٢٨٤ ـ ٢٨٧).

(٢) انظر المغني (٢/٥٥٣).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٥٥٢).

وييبس، ويبقى، ففيه الزكاة عند الإمام أحمد[١]؛ ولذا قال: إن بعض الأشجار إن ثمارها تُكال وتيبس وتبقىٰ، ولا يُشترط كونها قوتاً، سواء كانت قوتاً أو غير قوت؛ ولذا أوجب الإمام أحمد الزكاة في بعض ثمار الأشجار التي لم يوجبها مالك والشافعي؛ لأن مالكاً والشافعي اشترطا الاقتيات والادخار، وأحمد لم يشترط الاقتيات، قال: إن كان الشيء يُكال وييبس ويبقىٰ وجبت فيه الزكاة؛ ولذا أوجب الزكاة في بعض ثمار الأشجار؛ لأنها تيبس وتبقىٰ، وإن كانت لا يمكن أن تكون قوتاً، فأوجبها في بعض ثمار الأشجار، كالفستق، والبندق، وما جرىٰ مجراهما. هذا مذهب الإمام أحمد. وكذلك أوجب الزكاة في كل حبّ ييبس ويبقىٰ ويكال، وإن كان لا يُقتات، وتجب الزكاة عنده في الأبازير التي تُصلح الطعام، كالكمون بنوعيه: الأحمر والأسود، والكراويا، واليانسون، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. وتجب عنده في كل بذر يزرع، وتجب عنده الزكاة في بذر الكتان، وفي بذر الخيار والقثاء، وكل ما جرىٰ مجرىٰ ذلك؛ لأنها حبوب تيبس وتُكال وتبقىٰ، هذا مذهب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ[٢].

وهؤلاء الأئمة الثلاثة لا تجب عندهم الزكاة إلا فيما بلغ الخمسة الأوسق[٣]. أعني: مالكاً والشافعي والإمام أحمد؛ لأن عموم «**فيما سقت السماء العُشر**»[٤] وعموم: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] يخصصه عندهم حديث: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»[٥] فأقل نصاب الحبوب والثمار أن يبلغ خمسة أوسق.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٤٩/٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٤٩/٢).

(٣) انظر: المدونة (٣٣٩/١)، الكافي لابن عبد البر (١٠١/١، ١٠٣)، المجموع (٤٥٦/٥، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩)، المغني (٥٥٣/٢)، القرطبي (١٠٧/٧)، أضواء البيان (٢٢٥/٢، ٢٢٩).

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٥) السابق.

والوَسْقُ ـ بالفتح والكسر ـ ستون صاعاً بإجماع العلماء[(١)].

والصاع الشرعي النبوي بالتقريب: ملء اليدين المتوسطتين، لا مقبوضتين ولا مبسوطتين[(٢)]، وهو بالضبط[(٣)]: وزن رطل وثلث بالبغدادي[(٤)]، فوزن الرطل وثُلث الرطل بالبغدادي هو الصاع النبوي[(٥)].

فعدة الأوساق بالأمداد: ألف مُدّ ومائتا مدّ[(٦)]، وبالصيعان: ثلاثمائة صاع، وبالأرطال: ألف وستمائة رطل[(٧)]. هذا هو نصاب الحبوب والثمار.

---

(١) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، المجموع (٤٥٨/٥)، المغني (٥٦٠/٢)، حلية الفقهاء ص ١٠٣، المحلى (٢٤٠/٥)، القرطبي (١٠٧/٧).

(٢) في الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، والمحلى (٢٤٠/٥) والأضواء (٢٣٠/٢) وغيرها من المصادر: «والصاع: أربعة أمداد بمد النبي عليه الصلاة والسلام» ا.هـ. ولعل الشيخ رحمه الله أراد المد فسبق لسانه إلى الصاع. ويدل على ذلك قوله في الأضواء (٢٣٠/٢): «واعلم أن الصاع أربعة أمداد بمده ﷺ والمد بالتقريب: ملء اليدين المتوسطتين، لا مقبوضتين ولا مبسوطتين، وتحديده بالضبط: وزن رطل وثلث بالبغدادي. فمبلغ الخمسة الأوسق من الأمداد: ألف مد ومائتا مد، ومن الصيعان: ثلاثمائة، وهي بالوزن: ألف رطل وستمائة رطل. والرطل: وزن مائة وثمانية وعشرين درهماً مكياً، وزاد بعض أهل العلم: أربعة أسباع درهم، كل درهم وزن خَمْسِين وخُمُسَي حبة من مطلق الشعير...» ا.هـ.

ومما يدل أيضاً على أن مراده (المد): أنه ذكر مقداره بعده بقوله: «وهو بالضبط...» إلخ.

(٣) أي (المد) المشار إليه.

(٤) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، حلية الفقهاء ص ١٠٤، القرطبي (١٠٧/٧).

(٥) هذا سبق لسان، والصواب: (المد النبوي) كما في المحلى (٢٤٥/٥)، والكافي لابن عبد البر (ص ١٠٣)، والمغني (٥٦١/٢)، القاموس الفقهي (ص ٣٣٧). وإنما الصاع: خمسة أرطال وثلث من الحنطة.

وقد نقلت لك كلام الشيخ (رحمه الله) في أضواء البيان.

(٦) انظر: الكافي لابن عبد البر (ص ١٠٣)، القرطبي (١٠٧/٧).

(٧) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ١٠٣، المجموع (٤٥٨/٥)، المغني (٥٦١/٢)، القرطبي (١٠٧/٧).

والرطل عندهم عندما حققه مالك وأصحابه ـ وهم أدرىٰ الناس بقدر الصاع والمدّ؛ لأنهم في محل الصاع والمد، قَدْرُه عندهم يعني بالوزن ـ ألف وستمائة رطل.

ووزن الرطل عندهم مائة وثمانية وعشرون درهماً مكياً[(١)]؛ لأن وزن الذهب والفضة وزن مكة، والكيل كيل أهل المدينة[(٢)]، ووزن الرطل: مائة وثمانية وعشرون درهماً مكياً، ووزن الدرهم المكي: خمسون وخُمُسا حبة من مطلق الشعير[(٣)] وزيادة ابن حزم خمسة أسباع حبة[(٤)] ردّها المحققون من علماء المالكية. هذا هو النصاب، وهو خمسة أوسق؛ لأن النبي ﷺ قال: **«ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»**.

والمُزَكَّيَات فيها ـ عندهم ـ تفصيل، فيها نوعان يُخرصان قبل إخراج الزكاة بلا نزاع[(٥)]، وهما: التمر والزبيب. والزبيب: العنب اليابس، فإنه إذا بدا صلاح التمر وتهيأ العنب للأكل يُخرصان، فيرسِل السلطان إليهما خارصاً حازراً يخرصهما، بشرط أن يكون أميناً عدلًا، عارفاً بالخرص، صادق الحزر غالباً، فيأتي لهذا البستان ويخرصه نخلة نخلة، فيقول: في هذه النخلة الآن كذا من البلح من الزهو، ثم يكون فيها من الرطب كذا، فإذا يبست وجفّ رطبها نقص بكذا. فيحصل منها من التمر اليابس قدر كذا وكذا، ثم إذا خرصوا ذلك وحزروا قَدْر ما يحصل منه من التمر اليابس قيدوه على لصاحبه، وقالوا لصاحبه: بينك وبين بستانك، فَكُلْ ما شئت، وبع ما شئت، وتصرف فيه كيف شئت، ولكنه عند الجذاذ أدِّ قدر هذا

---

(١) انظر: المجموع (١/١٢٢)، (٥/٤٥٨)، المغني (٢/٥٦١).
(٢) انظر: المحلى (٥/٢٤٤ ـ ٢٤٥).
(٣) انظر: الأضواء (٢/٢٣٠).
(٤) في المحلى: (٥/٢٤٦): «فوزن الدرهم المكي: سبع وخمسون حبة وستة أعشار حبة وعشر عشر حبة» ا.هـ.
(٥) انظر: المدونة (١/٣٣٩)، التمهيد (٦/٤٦٩ ـ ٤٧٢)، الاستذكار (٢١/٢١٣)، المجموع (٥/٤٧٧، ٤٧٨)، القرطبي (٧/١٠٥)، المغني (٢/٥٦٧ ـ ٥٧٢)، فتح الباري (٣/٣٤٤)، أضواء البيان (٢/٢٣١).

الخرص تمراً يابساً، أو زبيباً يابساً[١]. وهذا لم يخالف فيه إلا القليل من العلماء، فجماهير العلماء على الخرص، وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ في غزوة تبوك، لما مرّ بوادي القرىٰ نزل بحائط امرأة، فقال لقومه: اخرصوا كم يخرج منه؟ فخرصوا، وخرصه النبي ﷺ مع الخارصين، وقال لها: في خرصه: «**أرى أن تحصل منه عشرة أوسق من التمر اليابس، واحفظيه حتى نرجع من سفرنا**» فلما رجعوا من غزوة تبوك سألوا المرأة فقالت: خرج منه عشرة أوسق مطابقة لحزره ﷺ[٢]. مضمون هذا الحديث ثابت في صحيح مسلم والبخاري، وهو يدل على أن الخرص حق، وأنه سُنَّة. والظاهر أنهم ما خرصوه إلا ليأخذوا زكاته إذا كانوا قافلين. والأحاديث الكثيرة في أن النبي ﷺ كان يبعث الخارصين، كعبدالله بن رواحة وغيره إلىٰ يهود خيبر، فيخرص عليهم النخل، ويقول لهم: إن شئتم خذوه بهذا الكيل، وإن شئتم دعوه لنا بهذا الكيل[٣]. هذا معروف.

---

(١) انظر: المجموع (٥/٤٧٧)، المغني (٢/٥٦٩)، القرطبي (٧/١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: خرص التمر، حديث رقم: (١٤٨١) (٣/٣٤٣ - ٣٤٤)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (١٨٧٢، ٣١٦١، ٣٧٩١، ٤٤٢٢). ومسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، حديث رقم: (١٣٩٢) (٤/١٧٨٥).

(٣) في بعث النبي ﷺ عبدالله بن رواحة (رضي الله عنه) خارصاً ورد عدة أحاديث منها:
١ - حديث عائشة (رضي الله عنها) عند أحمد ٦/١٦٣)، وعبدالرزاق (٤/١٢٩)، وأبي عبيد في الأموال ص٤٣٢، وأبي داود في الزكاة، باب متى يخرص التمر. حديث رقم: (١٥٩١) (٤/٤٩٥) وفي البيوع، باب في الخرص. حديث رقم: (٣٣٩٦)، (٩/٢٧٦)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الخرص (٣/٢٨)، والبيهقي (٤/١٢٣)، والدارقطني (٢/١٣٤)، وابن خزيمة (٤/٤١). وقال الألباني: «إسناده صحيح على شرط مسلم» ا.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (٢/١٧١)، والإرواء (٣/٢٨٠).
٢ - حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). عند ابن ماجه في الزكاة، باب خرص النخل والعنب. حديث رقم: (١٨٢٠) (١/٥٨٢). وانظر: الإرواء (٣/٢٨٢)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٥).
٣ - حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند أحمد (٢/٢٤)، والطحاوي في شرح المعاني (٢/٣٨)، وانظر: الإرواء (٣/٢٨١). =

وشذّت طائفة من العلماء[١]، فقال الشعبي: الخرص بدعة[٢]. وقال سفيان الثوري: لا يجوز الخرص؛ لأنه ظن وتخمين، والظن أكذب الحديث[٣]. وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله[٤] ـ قال: الخرص ظن وتخمين لا يثبت به حكم أبداً، وإنما كان النبي يأمر بخرص النخيل تخويفاً للقائمين عليه من أن يخونوا، فالمقصود به عنده تخويفهم من الخيانة. وقالوا: لا يُعمل بالخرص، ولا يثبت به حكم؛ لأنه ظن وتخمين، والظن لا يُغني من الحق شيئاً.

وجمهور العلماء علىٰ أن الخرص حق، ولكن اختلفوا: هل هو واجب أو سنة؟[٥] فبعضهم يقول: واجب؛ لئلا يُضيق علىٰ أهل النخيل في ثمارهم؛ لأنهم يحتاجون إلى الأكل منها، ولا تضيع حقوق الفقراء إذ لو

---

٤ ـ حديث جابر (رضي الله عنه) عند أحمد (٣/٢٩٦، ٣٦٧)، وعبدالرزاق (٤/١٢٤)، وابن أبي شيبة (٣/١٩٤)، وأبي داود في البيوع، باب الخرص، حديث رقم: (٣٣٩٧ ـ ٣٣٩٨) (٩/٢٨٠ ـ ٢٨١)، والدارقطني (٢/١٣٣)، والبيهقي (٤/١٢٣)، والطحاوي (١/٣٨ ـ ٣٩). وانظر الإرواء (٣/٢٨١)، صحيح أبي داود (٢/٦٥٤).

٥ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). عند الدارقطني (٢/١٣٤). وانظر: الاستذكار (٢١/١٩٦).

٦ ـ عامر بن عبدالرحمن. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٤).

٧ ـ عبدالله بن عبيد بن عمير. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٣).

٨ ـ الشعبي. مرسلاً. عند أبي عبيد في الأموال ص٤٣٢، وابن أبي شيبة (٣/١٩٤).

٩ ـ سليمان بن يسار. مرسلاً. عند مالك في المساقاة، باب ما جاء في المساقاة. حديث رقم: (١٣٨٨) ص٤٩٤، والبيهقي (٤/١٢٢). وانظر: الاستذكار (٢١/١٩٦).

١٠ ـ سعيد بن المسيب. مرسلاً. عند مالك في المساقاة، باب ما جاء في المساقاة. حديث رقم: (١٣٨٧) ص٤٩٤، والبيهقي (١/١٢٢).

١١ ـ عطاء. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٢ ـ ١٢٤).

١٢ ـ الزهري. مرسلاً. عند عبدالرزاق (٤/١٢٢، ١٢٣).

(١) انظر: الأموال لأبي عبيد ص٤٣٩ ـ ٤٤١، التمهيد (٦/٤٧٠)، القرطبي (٧/١٠٥)، فتح الباري (٣/٣٤٤)، أضواء البيان (٢/٢٣٢).

(٢) انظر: مصنف عبدالرزاق (٤/١٢٧)، ابن أبي شيبة (٣/١٩٤)، الاستذكار (٢١/٢١٤).

(٣) انظر: الاستذكار (٢١/٢١٤).

(٤) انظر: شرح معاني الآثار (٢/٤١).

(٥) انظر: الأضواء (٢/٢٣٥).

أكلوها قبل الخرص، ولم يُعلم قدر ما فيها لضاع هؤلاء. والخرص يجمع مصلحة الطرفين، بأن يُخلىٰ بين أهل البساتين وبساتينهم، وتُحفظ للفقراء حقوقهم.

وقال بعض العلماء: الوجوب لا يلزم إلا بدليل جازم. وبعضهم يقول: هو سُنَّة.

والدليل علىٰ الخرص: هو حديث عَتَّاب بن أسيد أن النبي ﷺ أمر أن يُخرص العنب كما يُخرص النخل، فتُؤدىٰ زكاته زبيباً عند الجذاذ، كما تُؤدىٰ زكاة النخل تمراً[1]. هذا الحديث من مراسيل سعيد بن المسيب، ورواه سعيد بن المسيب عن عتاب بن أسيد، وسعيد لم يُدرك عتاب بن أسيد رضي الله عنهما؛ لأن سعيداً وُلد في خلافة عمر، وعتاب بن أُسيد توفي في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر رضي الله عنهما فلم يدركه، إلا أن مراسيل سعيد بن المسيب معروف حكمها في علوم الحديث[2]. وقد أقرّ علماء الشافعية أن هذا النوع من مرسل سعيد يتفق الشافعية على قبوله؛ /ولأنه شاع عن الشافعي أنه يقبل جميع مراسيل سعيد بن المسيب؛ لأنها ١٨/أ تُتبعت كلها فَوُجدت مسانيد. وقال النووي في شرح المهذب وغيره: إن الشافعي لم يقل بالعمل بمراسيل سعيد مطلقاً بل بقيد، وهو أن يرِد الحديث مرسلًا من جهة أُخرىٰ، أو مسنداً من جهة أُخرىٰ، أو يعمل به

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٥/٣)، وأبو داود في الزكاة، باب في خرص العنب. حديث رقم: (١٥٨٨ ـ ١٥٨٩)، (٤٩١/٤ ـ ٤٩٢)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الخرص. حديث رقم: (٦٤٤)، (٢٧/٣). وقال: «حسن غريب» ا.هـ. وأخرجه ابن ماجه في الزكاة، باب خرص النخل والعنب. حديث رقم: (١٨١٩)، (٥٨٢/١)، والنسائي في الزكاة، باب شراء الصدقة. حديث رقم: (٢٦١٨)، (١٠٩/٥)، والدارقطني (١٣٢/٢ ـ ١٣٣، ١٣٤)، والبيهقي (١٢١/٤ ـ ١٢٢)، والحاكم (٥٩٥/٣)، وابن خزيمة (٤١/٤)، وابن الجارود (غوث المكدود ١٧/٢)، والطحاوي في شرح المعاني (٣٩/٢)، وابن حبان (الإحسان ١١٨/٥)، والطبراني في الكبير (١٦٢/١٧). وقد ضعفه كثير من العلماء. انظر: تلخيص الجبير (١٧١/٢)، إرواء الغليل (٢٨٢/٣، ٢٨٣).

(٢) انظر: جامع التحصيل ص٩٩، تدريب الراوي (١٩٩/١).

بعض الصحابة، أو يعمل به أكثر العلماء[١]. وهذه الشروط موجودة هنا؛ لأن الخرص عمل به بعض الصحابة، وعمل به أكثر العلماء. فمرسل سعيد هذا اتفق الشافعية على قبوله، مع أن المشهور في مذهب مالك، ومذهب أبي حنيفة، ومذهب أحمد: الاعتداد بالمرسل مطلقاً. فظهر إجماع الأئمة الأربعة على الاحتجاج بمرسل سعيد هذا في خرص التمر والعنب[٢].

ولا يخرص غير التمر والعنب من الأشجار، ولا من الحبوب على التحقيق الذي عليه جمهور العلماء؛ لأن النص إنما ورد بخرص التمر والعنب فقط، ولم يرد في خرص شيء غيرهما. والثاني: أن خرص التمر ممكن لأن أعذاقه تجتمع في رأس النخلة في محل متقارب، فيمكن خارصها أن ينظر جميعها حتى يحزر ما فيها، وكذلك العنب تجتمع عناقيده وتتميز ويمكن خرصها، أما غير ذلك من الأشجار فإن ثماره تتفرق في كل الشجرة وتختلط بأوراقها، والحب مستتر في سنبله، فلا يمكن الخرص فيه[٣].

وكأن الأئمة الثلاثة: مالكاً والشافعي وأحمد، اتفقوا على أن التين لا زكاة فيه[٤] وهذا من الغريب؛ لأن التين ييبس ويُقتات ويُدخر. وكان ابن عبدالبر يقول: أظن أن مالكاً رحمه الله ما كان يعرف التين، ولا يظن أنه ييبس، ويُقتات، ويُدخر، ولو كان يظن ذلك لجعله كالزبيب ولم يعُدّه مع الفواكه.

---

(١) في تحقيق مذهب الشافعي في المرسل انظر: الأم (١٨٨/٣)، مختصر المزني ص٧٨، المجموع للنووي (٦٠/١ ـ ٦٣)، إرشاد طلاب الحقائق للنووي (١٧١/١، ١٧٥ ـ ١٧٩)، الكفاية للخطيب ٤٠٤ ـ ٤٠٥، اللمع ص٧٤، التبصرة ص٣٢٩ (كلاهما للشيرازي).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢٣٣/٢).

(٣) انظر: أضواء البيان (٢٣٧/٢).

(٤) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، الاستذكار (٢٧٢/٩)، المجموع (٤٥٢/٥، ٤٥٣)، المغني (٥٤٩/٢).

أما الفواكه: كالرمان، والتفاح، والفِرْسِك ـ وهو الخوخ ـ والإجّاص[١]، والكمثرى، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، والخَضْراوات: كالقثاء والخيار وأنواع البقول المعروفة من: كَرَفْس ونعناع وما جرىٰ مجرىٰ ذلك، فهذا لا زكاة فيه عند الأئمة الثلاثة[٢]، وقد جاء بعض الآثار وبعض الأحاديث في وجوب الزكاة في الخَضْراوات ولم يصح فيها شيء[٣].

ودليل الجمهور أن الفواكه جميعها، والخَضْراوات جميعها، لا زكاة فيها: أنه لم يؤخذ عن أحد من المسلمين أن النبي ﷺ أخذ في المدينة شيئاً من زكاة الخَضْراوات ولم يتعرض لها أبداً، ولمّا فتحوا الطائف كانت الفواكه فيه بكثرة من غيرها من رمان وفِرْسِك وغير ذلك، ولم ينقل عن النبي ولا عن أحد من أصحابه أن أحداً منهم تعرض للفواكه أو الخَضْراوات وأخذ منها شيئاً.

ومعلوم أن أبا حنيفة يوجب الزكاة في الجميع نظراً للآية التي ذكرنا[٤].

فبهذا تعلمون أن مالكاً والشافعي يوجبان الزكاة في كل مُقتات مُدَّخر، وليس مُقتاتاً عندها من الأشجار إلا التمر والزبيب، وأن الإمام أحمد يوجب الزكاة في كل ما ييبس ويُكال ويبقىٰ.

وكان داود بن علي الظاهري يقول: ما تنبته الأرض إن كان مكيلًا فلا

---

(١) نوع من الثمر، حلو، شجرته من الفصيلة الوردية. ويطلق في بعض البلاد على الكمثرى. انظر: المعجم الوسيط (٧/١).

(٢) انظر: الكافي لابن عبدالبر ص١٠٠، الاستذكار (٢٧٠/٩ ـ ٢٧٥)، المجموع (٤٥٢/٥)، المغني (٥٤٩/٢).

(٣) للوقوف على كلام العلماء على الأحاديث والآثار الواردة في هذا الموضوع، انظر: تنقيح التحقيق (١٤٠٢/٢ ـ ١٤٠٧)، تلخيص الحبير (١٦٥/٢ ـ ١٦٩)، الدراية (٢٦٣/١)، نصب الراية (٣٨٦/٢ ـ ٣٨٩)، إرواء الغليل (٢٧٦/٣ ـ ٢٧٩).

(٤) انظر: المبسوط (٢/٣).

يُزكىٰ حتى يبلغ الخمسة أوسق، وإن كان غير مكيل وجبت الزكاة في قليله وكثيره[١].

والحق أن هذا المذهب لولا أنه عُورض بما هو أقوىٰ منه كان أقرب المذاهب إلىٰ ظاهر النصوص؛ لأن قوله ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»[٢] يدل علىٰ أن الزكاة تختص بما هو موسّق، والوسق يختص بالكيل بإجماع العلماء؛ لأن الوسق معيار كيلي بلا نزاع؛ لأنه ستون صاعاً، والصاع معيار كيلي. وهذا معروف، وإن كان ليس مكيلاً يدخل في عموم: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٧] إلا أن مذهب داود هذا مع اتجاهه وجمعه للنصوص يَرِدُ عليه ما ذكرناه الآن، من أن النبي ﷺ لم يتعرض هو ولا أحد من أصحابه إلىٰ أخذ الزكاة من الفواكه، والخَضْراوات، ولا شيء من ذلك.

وهذا الذي ذكرنا يُعلم منه أن أبا حنيفة (رحمه الله) لا يشترط النصاب، ولا خمسة أوسق، ولا كون النابت في الأرض قوتاً، أو غير قوت، ييبس، أو لا ييبس، مدخراً أو لا، وأن الأئمة الثلاثة اشترطوا كما ذكرنا.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] علىٰ أن المراد بها الزكاة.

وهذا الذي ذكرنا يعرف به الإنسان مذاهب العلماء في كل ما يخرج من الأرض. وقد بينا خلافهم في عين ما تجب فيه الزكاة، وبينا أنه عند الشافعي ومالك: كل ما يُقتات ويُدخر، وأنه عند أحمد: كل ما ييبس ويُكال ويبقىٰ، وأنه عند أبي حنيفة: لا يُشترط فيه شيء. هذا عين الذي تجب فيه الزكاة. وقد بينا أنها عند الجميع القدر الذي تجب فيه هو: خمسة أوسق فصاعداً، وأن أبا حنيفة يوجبها في القليل والكثير، وأن القدر اللازم إخراجه هو العُشر فيما لا يُسقى بكلفة، ونصف العُشر فيما سُقي بهذا[٣].

---

(١) انظر: المحلى (٢١٢/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (١٠٩/٧)، الأضواء (٢٣٠/٢).

هذا هو حاصل كلام العلماء في هذه المسائل الثلاثة. وإذا عرفت عين ما تجب فيه الزكاة، وقدر النصاب الذي تجب فيه، وقدر الزكاة التي تخرج منه، فقد عرفت المسألة.

وقوله: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فيه للعلماء إشكال ـ علىٰ أنه الزكاة [1] ـ لأنه يوم الحصاد لم يكن تمراً يابساً، ولم يكن زبيباً يابساً، والزكاة إنما تُخرج منه بعد أن يكون تمراً يابساً، أو زبيباً يابساً. قالوا: المراد بيوم الحصاد: أن المراد به عند حصاده. ويراد: أن زمن الحصاد قد يطول إلىٰ أن يصح يُبسه من زبيب، وتمر، ونحو ذلك. وهذا يوجد في كلام العرب، يقول: افعله عند كذا. ويريد به الاتساع في الوقت، كما تقول: لقيت زيداً سنة كذا. وتقول: لقيته في يوم أول منها. ويكون جميع السنة بعده لم تلقه فيه. هذا يمكن في كلام العرب. وهذا معنىٰ قوله ـ على هذا القول ـ: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[2]. قرأه أبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ وفَتْح الحاء في (الحصاد) هي لغة التميميين وغيرهم من قبائل نجد. وقرأ الآخرون: ﴿يَوْمَ حِصَادِهِ﴾ بكسر الحاء. وهي لغة الحجازيين. وهما لغتان معروفتان، وقراءتان مشهورتان[3]: كالحَصاد والحِصاد، والجَذاذ والجِذاذ، والقَطاف والقِطاف[4].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ في هذه الآية أوجه معروفة متقاربة من التفسير[5]:

أحدها: كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه، ولا تسرفوا في الإعطاء حتى تتركوا عائلتكم وأولادكم فقراء ليس عندهم شيء يأكلونه. والذين قالوا هذا قالوا: نزلت هذه الآية في المدينة في ثابت بن قيس بن شَمَّاس، كان

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٥٨) فما بعدها.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٣٨)، الدر المصون (٥/١٩٠)، التحرير والتنوير (٨/١٢٢).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٤.

(٤) انظر: حجة القراءات ص٢٧٥، القرطبي (٧/١٠٤)، أضواء البيان (٢/٢٤٦).

(٥) انظر: ابن جرير (١٢/١٧٣)، القرطبي (٧/١١٠)، ابن كثير (٢/١٨٢).

عنده خمسمائة نخلة فجذَّها، وقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته. فلم يزل يُطعم الناس حتىٰ راح وليس عنده ثمر، فنزل: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾[1].

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ في الإيتاء حتى لا تتركوا لأنفسكم ولعيالكم ما يأكلون. وهذا التفسير كقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٩]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: الآية ٦٧].

وقال بعض العلماء: لا تسرفوا في شيء من الأعمال؛ لأن الإسراف كله مذموم.

وقال بعض العلماء: إنه راجع إلى قوله: ﴿وَكُلُوا۟﴾ أي: كلوا من ثمره ولا تسرفوا في الأكل، كما قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: الآية ٣١] وهذا أظهرها؛ لأن الإسراف في الأكل معروف معهود النهي عنه في الكتاب والسنة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المسرفون: جمع المُسرف، اسم فاعل الإسراف. وأصل الإسراف: مجاوزة الحد. تقول: أسرف في الشيء. إذا جاوز به حده. وهو مسرف علىٰ نفسه. إذا كان يتعدىٰ حدود الله إلىٰ ما حرمه الله (جل وعلا)[2]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وهذه الآية كأنّا ذكرنا عندها نوعاً من أنواع الزكاة، وهو ما تنبته الأرض، وسيأتي في سورة براءة زكاة النقود: الذهب والفضة، وما جرىٰ مجراهما من التجارات، والمعادن، والحُلي المباح، وغير ذلك، وسنذكره ـ إن شاء الله ـ عند محله[3]، وسيأتي في بعض المواضع في آيات الزكاة

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/١٧٤) عن ابن جريج مرسلاً. وعزاه في الدر (٣/٤٩) لابن أبي حاتم. والرواية التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/١٣٩٩) إنما هي عن معاذ لا ثابت بن قيس. والله أعلم.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/١٧٦)، القرطبي (٧/١١٠، ١١١)، المفردات (مادة: سرف) ٤٠٧.

(٣) انظر: الأضواء (٢/٤٣٤) فما بعدها.

المطلقة ما تدخل فيه زكاة الحيوانات، وسنتكلم عليه - إن شاء الله - في موضعه. أما هذه الآية فهي خاصة بما تنبته الأرض، وقد تكلمنا على زكاة ما تنبته الأرض عند الأئمة الأربعة، ومع كل واحد منهم موافقون من فقهاء الأمصار، والله (جل وعلا) نسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما يرضيه.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٢].

قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ معطوف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مما قبله[1]. وتقرير المعنى: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. فهو منصوب بالعطف على منصوب. أي: وهو الذي أنشأ جنات معروشات، وأنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام، والمعنى: هو الذي رزقكم أنواع النباتات والحبوب، وأنواع الأنعام، فما كان لكم أن تقولوا: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ ولا أن تجعلوا لشركائه من الأنعام والزروع شيئاً. أي: وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشاً.

التحقيق أن الأنعام: أنها الإبل، والبقر، والغنم بأصنافها الثلاثة[2]. والحمولة: هي ما يُحمل عليه الأثقال، ويُسافر عليها - بها - من بلد إلى بلد[3]، كما قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ النحل: الآية ٧] ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: الآية ٧٢] ومن نقل عن ابن عباس أن الحمولة: الإبل، والبغال، والخيل، وكل ما يُحمل عليه من الدواب[4]؛ فهو قول لا يصح؛ لأن الأنعام لا تطلق إلا على الإبل، والبقر، ونوعي الغنم، فلا تطلق على الخيل، ولا على البغال؛ ولذا فسّر الله الأنعام في هذه السورة بقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣]

---

(١) انظر: القرطبي (١١١/٧)، البحر المحيط (٢٣٨/٤)، الدر المصون (١٩٠/٥).

(٢) انظر: القرطبي (١١١/٧)، (٦٨/١٠).

(٣) انظر: ابن جرير (١٧٨/١٢) فما بعدها، القرطبي (١١١/٧ - ١١٢)، ابن كثير (١٨٢/٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٨٠/١٢) من طريق علي بن أبي طلحة. وهو إسناد جيد. وقول ابن عباس هذا هو الذي رجحه ابن جرير (رحمه الله) في تفسيره (١٨١/١٢).

كما يأتي إيضاحه. أي: وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة. أي: مراكب تحملون عليها أمتعتكم، وتركبون عليها، كالإبل. قال بعض العلماء: وكالبقر في بعض البلاد. وهو صادق؛ لأنَّا شاهدنا بعض الأقطار يحملون الأحمال الثقيلة علىٰ ذكور البقر من بلاد بعيدة إلىٰ بلاد بعيدة، وقد يكون عندهم ذكور البقر يحمل الواحد منهم فوق ما يحمله البعير[(١)]، ويسافرون عليها من بلاد إلى بلاد. وإن كان بعض علماء المالكية أفتى بأن البقر لا يجوز ركوبه، ولا الحمل عليه، ظناً منه أن ركوبه والحمل عليه من تكليفه ما لا يطيقه[(٢)]. ونحن شاهدنا ذي الأيام في بعض الأقطار ذكور البقر تكون معروضة تحمل الأثقال العظيمة من بلاد إلىٰ بلاد رأي العين. وبذلك نعلم أنها داخلة في قوله: ﴿حَمُولَةً﴾ أي: ما يحملون عليه أثقالهم كالإبل، وربما دخل البقر في بعض الأقطار.

وقوله: ﴿وَفَرْشًا﴾ الفرش هنا فيه أقوال متقاربة للعلماء[(٣)]: حكى الفراء إجماع أهل اللغة علىٰ أن الفرش صغار الإبل، وهي الفصلان[(٤)]. وقال بعض العلماء: الفرش: الغنم.

والتحقيق: أن الآية تشمل كل ذلك، وأن الأنعام منها ركوبة كالإبل، ومنها فرش، وهو ما يؤكل، ويُشرب من لبنه، مع أنه ليس صالحاً للركوب، فيدخل في الفرش: الغنم، وفِصال الإبل، وعجاجيل البقر؛ لأن ولد البقرة يُقال له: عِجل. ويُجمع علىٰ: عجاجيل. علىٰ غير قياس[(٥)]. فالغنم، وفِصَال الإبل، وعجاجيل البقر كلها يدخل في الفرش.

---

(١) انظر: الحيوان للجاحظ (٧/١٩٥).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/١١٤٣)، القرطبي (١٠/٧٢، ٧٧)، إكمال إكمال المعلم للأبي (٦/١٩٧).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/١٧٨) فما بعدها، القرطبي (٧/١١٢)، ابن كثير (٢/١٨٢).

(٤) لم يرد ذكر لهذا الإجماع عند تفسير الفراء لهذه الآية في كتابه: (معاني القرآن ١/٣٥٩) وإنما الذي نقل الإجماع في ذلك هو الزجاج في معاني القرآن (٢/٢٩٨) فلعل الشيخ عناه لكن سبق لسانه إلى الفراء.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

قيل: وإنما سُميت هذه الصغار: (فرشاً) لقربها من الفراش والمهاد الذي هو التراب؛ لأنها صغيرة قصار قريبة من الأرض. هكذا قالوا، والله أعلم[1].

وعلى كل حال فجميع الأقوال راجعة إلىٰ أن الله أنشأ الأنعام، وجعل فيها منّة الركوب والأكل.

أما قول من قال: (فرشا) فإنه لا يتناول إلا ما يُصنع منه الفِرَاش، كالضأن الذي يُصنع من صوفها الفراش، والمعز الذي يصنع من بعض شعرها الفراش ونحو ذلك، وأن الفرش هو ما يستمده الخلق من جلود الأنعام، وأصوافها، وأشعارها، وأوبارها[2] ـ كما يأتي في سورة النحل ـ فهذا قول غير متجه؛ لأن المنة تكون بمجرد الأصواف، والأوبار، والأشعار، والجلود، لا بنفس الأنعام، والمعروف في القرآن ـ وإنْ ذَكَر المِنَّة بالأصواف، والأوبار، والأشعار، والجلود في قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ [النحل: الآية ٨٠] وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الآية [النحل: الآية ٨٠] إلا أن المراد هنا: ـ الامتنان بها جميعاً، وأعظم أنواعه: الأكل منها. وهذا المعروف في القرآن، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: الآيتان ٧١، ٧٢] ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: الآية ٥] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [غافر: الآية ٧٩] إلىٰ غير ذلك من الآيات. فتبين أن المنة في الركوب، وغيره من الأكل، وغير ذلك من النعم، يعني: هذا الذي أنشأ لكم الأنعام ـ حمولتها وفرشها ـ هو الله جل وعلا.

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: هذا الذي خلقته لكم، وهي: الأنعام، والفرش، كلوا من الذي

---

(١) انظر: القرطبي (١١٢/٧).

(٢) انظر: القرطبي (١١٢/٧)، البحر المحيط (٢٣٩/٤)، الدر المصون (١٩١/٥).

رزقكم الله من الأنعام، والفرش، والزروع، المعطوف عليها في قوله: ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] فهذا رزق الله كلوا منه، ولا تُحرّموا منه شيئاً علىٰ أنفسكم افتراءً علىٰ الله، ولا تجعلوا منه شيئاً للأوثان، كما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني: كلوا من رزقي ونعمتي، ولا تتبعوا في نعمتي ورزقي تشاريع الشيطان وقوانينه، بأن تُحلّوا هذه وتُحرموا هذه، فتُحرموا البَحِيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وتقولوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا. وتقولوا: هذه أنعام وحرث حجر. كل هذا اتباع خطوات الشيطان.

والآية نص صريح في أن من مشىٰ علىٰ تشريع جعله الشيطان، يُحل فيه ما لا يُحله الله، ويحرم فيه ما لا يحرمه الله، أنه اتبع خطوات الشيطان.

والخُطوة ـ بضم الخاء ـ هي ما بين قدميّ الماشي[١]، فكما بين قدمي الماشي من المسافة: (خُطوة). والمرّة من خَطْوِهِ تُسمىٰ (خَطْوَه) بالفتح. وفيه قراءتان سبعيتان: قرأه ابن عامر، والكسائي، وقُنبل عن ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بضم الطاء إتْباعاً للخاء ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وقرأه باقي السبعة: نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والبَزِّيّ عن ابن كثير، وشعبة عن عاصم: ﴿خُطْوات الشيطان﴾ بسكون الطاء[٢].

والشيطان ـ قبحه الله ـ معروف، وهو هنا: الشيطان الذي سنّ المعاصي. وقد قدمنا مراراً[٣] أن كل متمرد عات شيطان، وذكرنا ـ في الدروس الماضية ـ أن الشيطان فيه قولان للعلماء: هل اشتقاقه من (شَطَنَ الشيء) بمعنىٰ بعُد، أو اشتقاقه من (شَاطَ الشيء) إذا هلك؟ قال بعض العلماء: الشيطان من (شَطَن) تقول العرب: «شَطَنَ، يشطن، فهو شطين». أي: بعيد، ومنه قول الشاعر[٤]:

(١) انظر: المفردات (مادة: خطو) ص٢٨٨.
(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٩.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.
(٤) السابق.

نَأَتْ بِسُعَادَ عنكَ نَوىً شَطُون فَبَانَت والفُؤادُ بها حزين

وهذا القول جاء في شعر العرب ما يدل عليه، فقد قال أُمية بن أبي الصلت الثقفي ـ وهو عربي قُح ـ يمدح سليمان[١]:

أيما شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثم يُلْقَى في السجن والأكبال

فقوله: «أيما شَاطِنٍ»: يعني: أيما شيطان، والشَّاطِن: اسم فاعل من (شَطَنَ) بلا نزاع، فدل هذا البيت علىٰ أن أصله من (شَطَن) فالعرب تقول: «شَطَنَ قَعْرُ البير». إذا بعدت مسافة عمقها.

وعلىٰ هذا القول فاشتقاق الشيطان من (شَطَنَ) بمعنىٰ (بعُد) أي: لشدة بُعده عن رحمة الله ـ والعياذ بالله ـ وعلىٰ هذا القول: فوزن الشيطان بالميزان الصرفي: (فَيْعَال) والياء زائدة، والنون أصلية، بناء علىٰ أنه من (شَطَنَ) بمعنىٰ (بعُد) ذكر هذا سيبويه في موضع من كتابه، ثم ذكر القول الآخر في موضع آخر من كتابه، أن أصل الشيطان من (شَاطَ يشيطُ) إذا هلك. تقول العرب: «شَاطَ الفارسُ يَشِيطُ». إذا هلك[٢]. وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشىٰ ميمون بن قيس[٣]:

قد نَخْضِبُ العيرَ من مكْنُونِ فَائِلِهِ وقد يشيطُ علىٰ أرماحنا البطلُ

أي: يهلك عليها.

وعلىٰ أنه من (شَاطَ يَشِيطُ) فوزنه بالميزان الصرفي (فَعْلان) لأن الألف والنون زائدتان؛ لأن أصل حروفه الأصلية علىٰ هذا: (شَيَط) فاؤها شين، وعينها ياء، وطاؤها لام، والألف والنون زائدتان. فعلىٰ القول الأول فوزنه: (فَيْعَال) وعلىٰ الثاني فوزنه (فَعْلَان) وكل متمرد عات شيطان، سواء كان من الإنس أو الجن أو غيرهما، ومن شعر جرير[٤]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

أَيامَ يَدْعُونَني الشيطانُ من غَزَلٍ وكنّ يَهْوَيْنَني إذْ كُنْتُ شيطاناً

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بيّن العداوة ظاهرها؛ لأن الشيطان هو عدو بني آدم؛ لأن زَعْمَ الخبيث أن سبب شقائه هو آدم، حيث امتنع من السجود له، وقال: ما دام آدم هو سبب شقاء البعيد فسيبذل كل مجهود حتى يُشقي أولاد آدم. وقد أظهر العداوة لله لبني آدم مجاهراً بها، ولم يكتمها، ولم يوارِ حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ الأظهر في تفسيرها أن معنىٰ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: الآية ٦٢] لأقودنهم إلى المهالك بتزييني، من قول العرب: «احْتَنَكَ الرجل البعير». إذا جعل الحبل علىٰ حنكيه فقاده بالحبل علىٰ حنكيه حيث شاء. وقال هذا مراراً: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: الآية ٣٩] ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: الآية ١١٩] فقد أظهر العداوة. فربنا يقول: كونوا عقلاء، واعرفوا عدوكم من صديقكم، واعرفوا أن الشيطان عدوكم، فلا تتبعوا خطوات الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: الآية ٦] ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠] وهذا قد قاله للأب والأم الكبيرين، ولكن الله لم يشأ أن ينفعهما بذلك، حيث قال لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية ١١٧] بين له عداوته، وحذره منها، ولكن قضاء الله غالب، وقدره نافذ. فعلينا معاشر المسلمين أن نعلم أن الشيطان عدونا فنعاديه، ولا ننجر معه إلىٰ ما يريد أن يجرنا إليه من المعاصي والهلكات؛ لأنه عدو طالب ثأر، يريد أن ينتقم منا، فالمسلم الفاهم إذا قرأ آيةً في سورة سبأ ـ إن كان يفهم عن الله ـ عرق جبينه من الخجل، إن كان يتبع الشيطان؛ لأن الشيطان احتقرنا معاشر الآدميين احتقاراً عظيماً لا مثيل له، حيث إنه عدونا، واعتقد

فينا أن عندنا من سذاجة العقول، وعدم الفهم، وعدم عمق العقل أنه إذا أراد أن يجرنا إلىٰ المَهْلَكة بوساوس، وتزيينات، وزخارف فاضية أننا نبلغ من سذاجة العقول، وعدم التفكير، وسوء النظر أننا ننجر معه حتى يدخلنا في المهلكة، ويشفي غيظه منا، وينتقم منا، ظن هذا في بني آدم اعتقاداً منه سوء عقولهم، وعدم نظرهم، إلا القليل منهم؛ لأن قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ظَنٌ منه؛ ولذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٣٩، ٤٠] زعموا أنه خاف أن يظهر عليه الكذب. ومن هنا قال بعض العلماء: لا خصلة أقبح من الكذب؛ لأن الشيطان تحرز عنها حيث قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وما قال هذا إلا ظناً ببني آدم ضَعْفَ العقول، وضَعْفَ النظر، وعدم التفكير، ومع هذا يقول الله في سورة سبأ، وهي الآية التي تُحزن المؤمن المتبع للشيطان: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: الآية ٢٠] هذه الآية إذا تأملها المسلم الذي يعلم من نفسه أنه يتبع الشيطان، عرق جبينه من الخجل، حيث يكون الشيطان يعتقد فيه من السذاجة، وضعف العقل، وعدم النظر والتفكير أن عدوه إذا أراد أن يقوده حتى يوقعه في مَهْلَكَة، ويشفي غيظه منه، ويأخذ بثأره، وينتقم، انقاد معه. قال هذا ظناً، ومع هذا يصدق هذا الظن!! فهذا شيء يُحزن المؤمن، وينبغي التنبه له: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾[1] هم الذين قال فيهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٠]. وكان حُذّاق العلماء يقولون: علينا معاشر الآدميين أن نعتقد أن الشيطان عدونا، وأنه سبانا من دار الكرامة التي كان فيها الأبوان: الجنة، التي قيل لآدم فيها: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: الآيتان ١١٨، ١١٩] فأخرجنا الشيطان من دار الكرامة، فنحن سبي الشيطان، أخرجنا من تلك الدار إلىٰ هذه الدار، التي هي دار الشقاء، والمصائب، والأحزان، والبلابل، لا يكاد إنسان يسلم يوماً ولا ليلة

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٦٣.

من أذيّة من أذاياها، وكان العلاّمة ابن القيم (رحمه الله) يقول في هذا الموضوع[(١)]:

ولكنَّنا سَبيُ العدوِّ فهل تُرىٰ   نُرد إلىٰ أوطاننا ونُسلَّم

فعلينا أن نجاهد العدو ونعاديه، حتى يمكننا الرجوع إلىٰ الوطن الأول؛ لأنه لما وقعت الزلة من الأبوين ـ آدم وحواء ـ حكم الله أنه لا يُدخل أحداً من ذريتهما جنته إلا بعد الامتحان في الأوامر والنواهي. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا تتبعوا خطواته.

والمبين: اسم فاعل (أبان) و(أبان) تأتي في العربية علىٰ لغتين:

أحدهما[(٢)]: (أبان) اللازمة، تقول العرب: «أبان الشيءُ يُبين، فهو مُبين». إذا كان بيناً ظاهراً لازماً غير متعد للمفعول. وهذه لغة فصحىٰ معروفة في كلام العرب، وفي القرآن العظيم، ومن إطلاقها في كلام العرب قول جرير[(٣)]:

إذا آباؤُنَا وأبوكَ عُدُّوا   أَبانَ المُقْرِفَات من العِرَابِ

أبان: أي: ظهر المُقْرِفَات من العِرَاب. وقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[(٤)]:

لو دبَّ ذرٌ فوقَ ضاحي جلدِهَا   لأَبَانَ من آثارِهِنَّ حُدورُ

يعني: لظهر من آثار دبيب النمل ورم لشدة رقة بشرة الجِلْد. فـ (أبان) هنا لازمة لا مفعول لها. ومن إتيان (المُبين) لازماً من اسم فاعل (أبان) اللازمة: قول كعب بن زهير في (بانت سعاد)[(٥)]:

---

(١) طريق الهجرتين ص٥١، شرح القصيدة الميمية ص٣٤، وأول الشطر الثاني: «نعود».
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.
(٥) السابق.

قَنْوَاء في حُرَّتَيْهَا للبصيرِ بها عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخَدَّينِ تَسْهيلُ

عِتْقٌ مُبِيْن: أي: كرم ظاهر.

وعلى أن (مبيناً) هنا من (أبان) اللازمة، والمعنىٰ: إن الشيطان لكم عدو مبين. أي: بيّن العداوة ظاهرها واضحها. من (أبان يُبين) فهو: مبين. لازماً. وقد يحتمل أن يكون من (أبان) المتعدية، والمفعول محذوف، أي: مبين عداوته ومظهرها، حيث صرح بذلك في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: الآية ١٦] ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: الآية ٦٢] ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: الآية ٣٩] فهنا أبان عداوته. وعلىٰ أنه من (أبان) المتعدية: فالمفعول محذوف، وحَذْفُ المفعول إذا دل المقام عليه جائز كما هو معروف في كلام العرب.

في قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] أوجه معروفة من الإعراب[(١)]: أظهرها وأصحها: أنها بدل من قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٢] أي: أنزل لكم من الأنعام حمولة وفرشاً. ثم بيّن الحمولة والفرش ما هي؟ فبينها بالإبدال منها فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

والمراد بالأزواج هنا: الأصناف. وكل شيء يحتاج إلىٰ أن يجتمع مع واحد من جنسه تُسميه العرب: زوجاً[(٢)]. كالخُفّ فإنه يحتاج إلىٰ خُفّ آخر فهو زَوْجُه، وكأحد مصراعيّ الباب فإنه يحتاج إلىٰ مصراع آخر فهو زَوْجُه، وكالذَّكَر فإنه يحتاج إلىٰ الأنثىٰ فهي زَوْجُه؛ لأنهما مزدوجان.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الضأن معروف، وهو نوع الغنم الذي فيه الصوف، ومُقَابِله: المعز. وقرأه عامة القراء: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ بتحقيق الهمزة، وأبدلها السوسي عن أبي عمرو: ﴿مِّنَ ٱلضَّانِ ٱثْنَيْنِ﴾[(٣)].

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٨٣)، القرطبي (٧/١١٣)، البحر المحيط (٤/٢٣٩)، الدر المصون (٥/١٩١).

(٢) انظر: القرطبي (٧/١١٣).

(٣) انظر: الإقناع (١/٤٠٨، ٤٢٥)، النشر (١/٣٩٠).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعَزِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأه نافع والكوفيون الثلاثة ـ وهم: عاصم، وحمزة، والكسائي، قرؤوا: ـ ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ بسكون عين المعز، وقرأه الباقون ـ وهم: ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو ـ ﴿وَمِنَ ٱلْمَعَزِ ٱثْنَيْنِ﴾ بفتح عين المعز[1]. وهما لغتان في (المَعَز، والمَعْز)، وكذلك (الضأن، والضأَن)[2] ولكن (الضأَن) لم يُقرأ بها، إنما قرأوا بـ (الضأْن) بالسكون، وأبدلها السوسي عن أبي عمرو، وأظهر اللغتين: (المَعْز) بالسكون؛ لأن (الفَعْل) قد يُجمع علىٰ (فَعِيل) والمعز يجمع علىٰ مَعِيز، كالعبد، والعبيد، والمعز، والمعيز. ومن جَمْعِه علىٰ (المَعِيز) قول امرىء القيس[3]:

أَبَعْدَ الحارث الملكِ ابنِ عمرو ... له مُلكُ العراقِ إلى عُمانِ
ويَمْنَعُها بنو شَمَجى بنِ جرمٍ ... مَعِيْزَهمُ حَنانَكَ ذا الحنانِ

﴿مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: زوجان، ذكر الضأن وأُنثاه، وهما: الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ ٱلْمَعَزِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكره وأنثاه، وهو: التيس والمعزة. ويقال لها: المعزى والعنز. والمعزى تطلق علىٰ جنس المعز أيضاً، ومنه قول امرىء القيس[4]:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٠٤.
(٢) انظر: القرطبي (١١٤/٧)، الدر المصون (١٩٤/٥).
(٣) ديوان امرىء القيس ص١٦٩. وبين البيتين المذكورين بيت لم يذكره الشيخ (رحمه الله)، وهو قوله:
مُجاورةَ بني شَمَجى بنِ جَرْمٍ ... هَواناً ما أُتيحَ من الهوانِ
وقوله: (الحارث) هو: الحارث الأكرم بن عمرو بن معاوية.
وقوله: (بنو شمجى) حي من طيء. قال ذلك حينما نزل بهم فلم يحمد نزلهم.
وقوله: (حنانك) أي: تحننك وترحمك. يتهكم بهم.
وقوله: (ويمنعها) يرويه بعضهم: (يمنحها).
(٤) ديوان امرىء القيس ص١٧١.
وقوله: (جلتها) أي: كُبراها. والمعنى: إذا لم يكن في اليد إبل مقتناة فإن الاجتزاء بالمعزى فيه سداد من عوز.

أَلاَ إلأَ تــكُــنْ إبــلٌ فــمِــعْــزَى   كــأنَّ قُـرون جِـلـتـهـا الـعِـصـيُ

فهذه أربعة أصناف من الغنم، وهي: الكبش، والنعجة، والتيس، والمعزة - التي هي العنز - هذه أربعة في الغنم من الأزواج الثمانية.

ثم قال بعد هذا: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهما: الجمل والناقة.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر البقر وأنثاه، البقرة والثور. فهذه هي الأصناف الثمانية، التي هي الأنعام، التي يُباح أكلها من الحيوانات، كما سيأتي في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: الآية ٦] وهي هذه الثمانية. وهذا معنىٰ قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ الهمزة الأولى همزة استفهام، والثانية همزة الوصل. والقاعدة: أن همزة الوصل إذا كانت همزة (أل) وجاءت قبلها همزة الاستفهام، أن همزة الوصل تُبدل مدّاً بهمزة الاستفهام[1]، ويجوز تسهيلها بين بين، وبعضهم يُجيز إبدالها هاء. وزعم بعض علماء القراءات أن الذين مدّوها هنا قالوا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ أنهم جاءت عنهم قراءات بتسهيلها بين بين ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ وعلىٰ تسهيلها لم يكن بينهما أَلِف الإدخال؛ لأن الأَلِف في التسهيل بين بين إنما يأتي بالهُمَز المحققة. ومن تسهيل العرب لهمزة الوصل بعد همزة الاستفهام قول الشاعر[2]:

أَيَا ظَبيةَ الـوَعْـسـاء بـيـن جُـلاجـلٍ   وبـيـن الـنـقـا آأنـتِ أَمْ أُمُّ سـالـمِ

هي تمدها العرب وتسهلها، فشاهد مدها - كقوله هنا ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ - قول الشاعر:

أَيَا ظَبيةَ الـوَعْـسـاء بـيـن جُـلاجـلٍ   وبـيـن الـنـقـا آأنـتِ أَمْ أُمُّ سـالـمِ

الأصل: (ءأنت) ولكنها هنا ليست همزة وصل، بل همزة أُخرىٰ،

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (٥٥١/٣)، الإقناع لابن الباذش (٣٥٩/١)، المُوضح لابن أبي مريم (١٩١/١)، النشر (٣٦٢/١) فما بعدها، الكليات ص٢٠ - ٢١، ٩٥٦، معجم الإعراب والإملاء ص٢٨، الهمزة في الإملاء العربي ص٢٢ - ٢٤.

(٢) البيت لذي الرمة. وهو في الكتاب (٥٥١/٣)، الأمالي (٥٨/٢)، الدر المصون (١١٠/١).

وتسهيلها وهي همزة وصل شاهده قول الشاعر(١):

أَأَلْـحَـقُّ إنْ دارُ الـرَّبـابِ تـبـاعَـدَتْ أو انـبَـتَّ حـبْـلٌ أنَّ قَـلْـبَـكَ طـائِـرُ

قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾، ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾: مفعول ﴿حَرَّمَ﴾ مقدم عليه. والمعنىٰ: أحرم الله الذكرين، ذكر المعز والضأن ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرم أُنثيي الضأن والمعز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حرم الذكور والإناث كُلاً. كأنه يقول: تفريقكم بين بعض الذكور وبعض الإناث، وبعض ما في بطون الأنعام بأن تُحِلُّوا بعض هذا، وتُحرموا بعضه، إن كانت العلة في تحريم الذكر الذكورة، فكان اللازم أن يحرم كل ذكر لاطراد العلّة، وإن كانت الأنوثة لزم أن تحرم كل أنثى لاطراد العلّة، وإن كان كونه في البطون - مشتملة عليه الرحم - لزم أن يحرم كل مولود من ذكر وأنثىٰ، وكل لبن؛ لأن الكُلّ اشتملت عليه الرحم!! فكأنه يقول: تفريقكم هذا باطل؛ لأنه لو كانت العلة الذكورة لحرم ذكر الضأن والمعز معاً وأنثاهما كُلاً. ولو كانت التخلق في الرحم لحرم ما اشتملت عليه الرحم مطلقاً. فَلِمَ حرمتم بعض هذا، وحللتم بعض هذا؟ وما الفارق بين ما حللتم وحرمتم؟

ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ الجمل والناقة. ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ البقرة والثور. ثم أعاد القضية ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ عجّزهم في الأول فقال: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أخبروني عن هذا الذي حرمتم، وهذا الذي حللتم، ما وجه تحريمكم لهذا؟ وتحليلكم لهذا؟ مع استواء الجميع!! وقال في الثاني: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ﴾؟.

وآية الأنعام هذه مثال معروف لعلماء الجدل للدليل الذي يسميه الجدليون: (الترديد والتقسيم)(٢)، ويسميه المنطقيون: (الشَّرْطي المُنْفَصل)(٣)

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة. وهو في الكتاب لسيبويه (١٣٦/٣)، النشر (٣٧٧/١).

(٢) انظر: الكافية في الجدل ص٣٩٤ علم الجذل في علم الجدل للطوفي ص٦٠، الإيضاح لابن الجوزي ص٨٠، الجدل لابن عقيل ص١٩، البحر المحيط للزركشي (٢٢٥/٥)، القبس لابن العربي (١٠٧٠/٣) وفي المصدرين الأخيرين تجد النص على هذه الآية.

(٣) انظر: إيضاح المبهم للدمنهوري ص٩٠، تسهيل المنطق ص٤٣.

ويسميه الأصوليون: (السبر والتقسيم)[1]، فكأنه يقول: حرمتم بعض هذه الإناث، وحللتم بعضها، وحرمتم بعض الذكور، وحللتم بعضها، وفرقتم بين ما في بطون الأنعام فقلتم: إنه خالص للذكور، محرم علىٰ الأزواج، فرقتم بين هذه الأحكام، فلا يخلو تفريقكم بينها من أحد أمرين في التقسيم الصحيح:

إما أن يكون مُعَلّلًا بعلة معقولة.

وإما أن يكون تعبدياً.

وهذا الحصر هو المُعَبَّر عنه بالتقسيم في اصطلاح الأصوليين والجدليين، والمْعَبَّر عنه بالشرطي المنفصل في اصطلاح المنطقيين. فكأنه يقول: لا يخلو الحال من أمرين: إما أن يكون مُعَللًا، وإما أن يكون تعبدياً. ثم قال ـ مثلًا ـ بناء علىٰ أنه مُعلل: إما أن تكون العلة في الذكور: الذكورة، وفي [الإناث][2]: الأنوثة، أو التخلق في الرحم. فلو كانت العلة الذكورة لحرم كل ذكر، ولم يحرم الحام دون غيره من الذكور. ولو كانت العلة الأنوثة لحرمت كل أنثىٰ، ولم يختص بالبحيرة والسائبة والوصيلة. ولو كانت العلة اشتمال الرحم، لحرم الجميع، وحرم اللبن أيضاً الذي فرقتم فيه، فحرم الجميع.

ثم قال بناء علىٰ أنه تعبدي أبطله بقوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾ أم كنتم حاضرين حتى قال لكم الله: هذا حلال وهذا حرام؟ فهذا باطل أيضاً. فبين أن جميع دعاويهم أنها باطلة كلها بهذا الدليل الذي هو السبر والتقسيم. وقد بينا أن هذا الدليل من أمهات الجدل العظام، حيث حصر جميع الأوصاف، ثم أبطلها كلها، ولا يكون بهذا المعنىٰ إلا عند الجدليين؛ لأنه عند الأصوليين لا يكون إلا في مسالك العلّة، ولا بد أن يبقىٰ وصف صحيح هو العلّة. كأن تقول: العلّة في تحريم البر: إما أن تكون الطّعم، أو الكيل، أو الاقتيات والادخار. فلا بد أن تُبطل بعض الأوصاف، وتترك وصفاً صالحاً في زعمك، تقول: إنه علّة.

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (١٤٢/٤)، المذكرة في أُصول الفقه ص٢٥٧.

(٢) في الأصل: «الأنوثة».

وقد ذكرنا في كثير من المناسبات[١] وفي بعض ما كتبنا في الكتب[٢] أشياء كثيرة عن هذا الدليل، وذكرنا له آثاراً تاريخية في العقائد، وآثاراً تاريخية في الآداب، وذكرنا له أمثلة قرآنية.

فمن أمثلته القرآنية: هذه الآية، ومن أمثلته القرآنية قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: الآية ٣٥] فكأنه يقول: لا يخلو حالهم من واحدة من ثلاث حالات: إما أن يكونوا خَلَقُوا أنفسهم، أو خُلقوا من غير خالق، أو خَلَقَهم خالق. فهذه ثلاثة أقسام، اثنان منها باطلان بلا نزاع، وهو كونهم خلقوا أنفسهم، أو خُلقوا من غير خالق. فتغلب القسم الثالث أن لهم خالقاً هو رب السموات والأرض، تجب عليهم طاعته وعبادته. ولا نطيل من أمثلته في القرآن، ونقتصر على أن نذكُر له أثراً تاريخياً في العقائد، وأثراً تاريخياً في الآداب.

أما أثره التاريخي في العقائد، فما جاء عن بعض المؤرخين من أن هذا الدليل هو أول مصدر لكبح المحنة العظمىٰ، التي قُتل فيها العلماء، وعُذِّب فيها أفاضلهم، وقُتلوا، وهي: محنة القول بخلق القرآن؛ لأن محنة القول بخلق القرآن نشأت في الدولة العباسية أيام المأمون، واستحكمت أيام المأمون، وأيام المعتصم، وأيام الواثق، فهؤلاء الخلفاء الثلاثة العباسيون مضت مدتهم ومحنة القول بالقرآن قائمة علىٰ ساق وقدم، يُمتحن العلماء، فمنهم من قُتّل، ومنهم من عُذّب، ومنهم من وافق مداهنة خوفاً علىٰ نفسه من الموت. وكان القائم بهذه الدعوة: الخبيث أحمد بن أبي دؤاد الإيادي المشهور، الذي يقدسه العباسيون، وهو العالم الوحيد في نظرهم، وهي التي ضُرب فيها سيد المسلمين في زمانه: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ـ غمده الله برحمته الواسعة، وجزاه خيراً ـ؛ لأنه هو الذي بقي وحده صامداً، وضُرب في أيام المعتصم ضرباً مُبَرِّحاً، حتىٰ يُرفع من محل الضرب لا يدري

---

(١) راجع ما تقدم عن تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٣٠) من سورة التوبة.

(٢) انظر: نشر الورود (٤٨٥/٢)، مذكرة أصول الفقه ص٢٥٧، آداب البحث والمناظرة (٤٧/١)، (٧/٢ ـ ٢٠) أضواء البيان (٣٦٥/٤ ـ ٣٨٤).

ليلًا من نهار، وكلما أفاق وقالوا له: قل القرآن مخلوق!! يقول: لا، القرآن كلام الله غير مخلوق. حتى جاء المتوكل علىٰ الله بعد الواثق، فأزال الله هذه المحنة علىٰ يديه ـ جزاه الله عن هذه الحسنة خيراً ـ وأظهر السنة[١].

ومقصودنا ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه، وذكره غير واحد[٢]، وإن كانت القصة ذكر ابن كثير في تاريخه أن في إسنادها عند الخطيب بعض من لا يُعرف[٣]، فهي قصة مشهورة، تلقاها العلماء بالقبول في أقطار الدنيا، وهي مشهورة، والاستدلال بها صحيح بلا شك، وهو بهذا الدليل، وذلك أنه في أيام الواثق جيء بشيخ من أهل السنة من الشام[٤]، مقيد بالحديد، يُمتحن في القول بخلق القرآن، وَرَدَ الامتحان علىٰ أنه عُزم علىٰ قتله. روىٰ هذه القصة محمد المهدي، ولد الواثق، قال: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلًا أحضرني، فلما أراد قتل هذا الشيخ الشامي أحضرني، وقال: ءإذنوا لأبي عبد الله. يعني: أحمد بن أبي دؤاد، فجاء، فقال الشيخ الشامي المُكَبَّل بالحديد، السني: السلام عليك يا أمير المؤمنين!!

فقال له الواثق بالله ـ وهو غضبان ـ: لا حياك الله، ولا سلمك!!

فقال له: بئس ما أدبك مؤدبك يا أمير المؤمنين، الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: الآية ٨٦] والله ما حييتني بأحسن منها ولا رددتها!!

قال له ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم!!

فقال الواثق: ناظره. وفي بعض روايات القصة: أن الشيخ الشامي

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/٣١٦).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٤/١٥١ ـ ١٥٢)، الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (الكتاب الثالث) (٢/٢٦٩ ـ ٢٧٧)، الشريعة للآجري ص٩١، مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٤٣١ ـ ٤٣٧، محنة الإمام أحمد لعبدالغني المقدسي ص١٦٧ ـ ١٧٥. سير أعلام النبلاء (١٠/٣٠٧ ـ ٣١١)، (١١/٣١٢، ٣١٣ ـ ٣١٦) وأشار إلى ضعفها، وفي تاريخ الإسلام في حوادث (٢٣١ ـ ٢٤٠هـ) في ترجمة الواثق.

(٣) انظر: البداية والنهاية (١٠/٣٢١).

(٤) وهو أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن محمد بن إسحاق الجزري الموصلي الأذرمي.

قال: هو أحقر من أن يُناظرني!! فازداد غضب الواثق عليه، ثم إن ابن أبي دؤاد قال للشيخ الشامي: ما تقول في القرآن؟؟

فقال الشيخ الشامي: ما أنصفتني!! يعني: ولي السؤال. إن المقيد الذين يريدون أن يقدموه للموت أولىٰ بالسؤال!!

فقال: سل!!

فقال: ما تقول أنت يا ابن أبي دؤاد في القرآن؟؟

فقال: مخلوق.

قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها، ويقتل الخلفاءُ العلماءَ بسبب دعوتك إليها، هل كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وأبو بكر وعمر وعلي وعثمان عالمين بها أو لا؟؟

قال ابن أبي دؤاد: لم يكونوا عالمين بها.

فقال الشيخ الشامي: سبحان الله!! جهلها رسول الله، وعلمها أحمد بن أبي دؤاد!!

فقال ابن أبي دؤاد: أَقِلْني، والمناظرة علىٰ بابها.

فقال له: لك الإقالة.

ثم قال: ما تقول في القرآن؟

قال: مخلوق.

قال: هل كان رسول الله وخلفاؤه الراشدون عالمين بدعوتك هذه التي تدعو الناس إليها أو جاهلين؟

قال: كانوا عالمين بها، ولكن لم يدعوا الناس إليها.

فقال له الشيخ الشامي: يا ابن أبي دؤاد، ألم يسعك في أمة رسول الله ما وسع رسول الله؟ ولم يسعك في أمة رسول الله ما وسع خلفاءه الراشدين؟! ففهم الواثق الحقيقة، وقام من مجلسه، واضطجع في محل خلوته واستلقىٰ، وجعل رجله على رجله ثم قال: جهلها رسول الله وعلمتها أنت يا ابن أبي دؤاد!! ثم قال: علمها رسول الله وخلفاؤه الراشدون ولم يدعُوا الناس إليها، ألم يسع ابن أبي دؤاد في أمة محمد ما وسع رسول الله وخلفاءه الراشدين؟! وعلم أن ابن أبي دؤاد مُبْطِل.

قالوا: فمن ذلك اليوم لم يَمْتَحِن أحداً بعدها، ولم يُقَدِّم عالم ليُمتحن في القول بخلق القرآن.

وذكر الخطيب: أن الواثق مات بعد أن تاب منها[١] بسبب قصة هذا الشيخ.

وهذا الشيخ إنما استدل بهذا السبر والتقسيم. كأنه يقول: مقالتك هذه لا تخلو بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما أن يكون النبي وخلفاؤه عالمين أو جاهلين؟ فلا قِسْم إلَّا هذان القسمان. ثم نرجع إلى القسمين فنسبرهما ونختبرهما، ونظنك يا ابن أبي دؤاد ضالّاً على كل تقدير. إذا كان
١/١٩ عالماً ولم يَدْعُ الناس إليها فقد يسعك ما وسعه، /وإن كان غير عالم بها وأنت عالم بها فهذا لا يمكن أن يُقال!! فأنت ضال مبطل على كل تقدير.

ومن آثار هذا الدليل الأدبية: ما ذكره المؤرخون: أن عبدالله بن همام السلولي وشى به واشٍ إلىٰ عبيدالله بن زياد المعروف. ـ زياد ابن أبيه، الذي يقولون له: زياد ابن أبي سفيان؛ لأنه استلحقه معاوية بعد موت أبي سفيان، وهو معروف ـ قال لعبيدالله بن زياد واشٍ من الوشاة: إن ابن همام السلولي يعيبك ويقول فيك كذا وكذا. فأحضر ابنُ زياد الواشي، وجعله في غرفةٍ قريبةٍ، وأحضر السلولي، وقال: لِمَ تعيبني وتقول فيَّ كذا وكذا؟ قال: أصلح الله الأمير، ما قلت شيئاً من ذلك!! ففتح وأخرج الواشي، وقال: هذا أخبرني أنك قلت كذا وكذا!! فسكت ابن همام هُنيهة ثم قال يخاطب الواشي:

وأنت امرؤ إما ائتمنتُك خالياً ... فخنتَ، وإما قلتَ قولاً بلا علم
فأنت من الأمرِ الذي كان بيننا ... بمنزلةٍ بينَ الخيانةِ والإثم[٢]

فكأنه يقول: لا يخلو الحال بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما أن أكون قلت لك سرّاً واستكتمتك إياه، أو قلتَ عليَّ بهتاناً وكذباً، ثم نرجع

---

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٨/١٤).

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور(١٢٧/١٤).

إلى القسمين فنجدك ـ أيها الواشي ـ مُبْطِلًا على كليهما!! إن كنتُ أفشيت لك سرّاً وطلبت منك الستر فما سترتني، فأنت خسيس خائن، وإن كنتَ قُلْتَه عليّ افتراءً فهذا أظهر وأظهر!!

ففهمها ابن زياد، وقال للواشي: اخرج عنّي. ولم يتعرَّض لابن همام السلولي بسوء.

وهذا هو الذي ذكره الله هنا، بأن حصر الأوصاف بالذكورة، والأنوثة، والتخلق في الرحم، وبيَّن بطلان كلها، إذ لو كانت الذكورة لحرم كل ذكر، ولو كانت الأنوثة لحرّم كل أنثى، ولو كانت التَّخَلُّق في الرحم لحرّم الجميع. فتبين كذبهم وبطلانهم. ثم أتبع هذا بقوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: لأنهم لما أعيتهم الحجة، ذكر المؤرخون أن رئيسهم الذي ناظر النبي ﷺ في هذا مالك بن عوف الجُشَمي الهوازني، وأن النبي ﷺ قال له: «**إذا كنتم تحرمون الذكور فَلِمَ فرقتم بين ذكر وذكر؟ وإذا كنتم تحرمون الإناث فما العلة التي فرقتم بها بين أنثى وأنثى، أو الله أمركم بهذا؟**» ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَآ﴾؟ [الأنعام: الآية ١٤٤] فَبُهِتَ وسكت[(١)].

وكانوا إذا عجزوا وغُلبوا بالدليل قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. فقطع الله دابر ذلك أيضاً فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقال: إنه أمره بالباطل ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] لأجل أن يضل الناس بغير علم، أي: بتشريع جاهلي بغير علم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذه الآية يدخل فيها كلّ من قال بأمورٍ لا توافق الشرع، ودعا خلقاً يتبعونه إليها فإنه يدخل في عمومها.

---

(١) هذه الرواية أوردها البغوي في التفسير (١٣٧/٢)، وأبو حيان في البحر (٢٣٩/٤) دون عزوٍ لمن خرّجها.

ولمالك بن عوف مع النبيّ ﷺ حين قدم عليه حديث له تعلق بهذه الآية لكنه بسياق آخر غير هذا. وقد أخرجه أحمد (٤٧٣/٣)، (١٣٦/٤، ١٣٧)، والطيالسي ص ١٨٤، وابن جرير (١٢١/١١، ١٢٢)، والبيهقي في السنن (١٠/١٠)، وابن أبي حاتم (١٢٢٠/٤)، وعزاه السيوطي في الدر (٣٣٧/٢) لعبد بن حميد، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات.

وقوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه سؤال معروف؛ لأن الله ربما هدىٰ بعض الظالمين، كم من كافرٍ ظالمٍ يهديه الله. وللعلماء عنها جوابان[١]:

أحدهما: أنها في خصوص الظالمين الذين سبق لهم في الأزل الشقاء، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧].

القول الثاني: لا يهدي الظالمين ما داموا مصرِّين على ظلمهم، فإن رزقهم الله التوبة والإنابة زال اسم الظلم عنهم، ولم يدخلوا في عداد الظالمين، فصار لا إشكال في هدايتهم. وهذا معنىٰ الآية الكريمة.

يقول الله جل وعلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٥].

تكلمنا بالأمس بعض الكلام علىٰ هذه الآية[٢]، وذكرنا حكم الميتات البرية والبحرية، وذكرنا بعض ما زادته النصوص من المحرمات على هذه المحرمات الأربع، وذكرنا خلاف بعض العلماء في أشياء منه. وسنتكلم - إن شاء الله - الآن بعض الكلام علىٰ بقية الآية.

والمعنىٰ: أن النبيّ ﷺ لما كان المشركون في زمانه يحرمون بعض ما أحلّ الله، وأقام عليهم الحجج الواضحة، وأفحمهم بالمناظرة في قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] كما بينا وجه إفحامهم بالسبر والتقسيم في الآية، أخبرهم أنه لا تحريم إلا بالوحي، لا بالاجتهاد والهوى، فإنما الذي يحرم: الله، والطريق التي يُعرف بها تحريم الله وتحليله هي الوحي، لا اتباع الهوىٰ، أُمِرَ أن يقول: ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ شيئاً من

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢/٢٨٩)، (٤/٢٤٠)، التحرير والتنوير (٨/١٣٥ - ١٣٦).

(٢) الدرس المُشار إليه لم أقف عليه، وللوقوف على كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسائل انظر: الأضواء (٢/٢٤٦) فما بعدها.

هذه المحرمات التي تزعمون أنها حرام، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكما في بطون تلك الأنعام التي قلتم هو محرم. وما حرمتم من الحروث، والزروع، والأنعام، كل هذا لا أجده حراماً علينا فيما أوحىٰ الله إلينا، وإنما أجد فيما أُوحي تحريمه: هذه الأربعة.

﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ لطالب العلم أن يقول: لمّا قال: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ لِمَ لا تكفي عنه قوله: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾؟ وهو أسلوب عربي معروف تذكره العرب في لغتها، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] ومعلوم أنه لا يطير إلا بهما. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: الآية٧٩] ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم[١].

﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ قدمنا فيه أوجه القراءات[٢]، وأحكام أنواع الميتة[٣].

وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ عطف علىٰ قوله: ﴿مَيْتَةً﴾. أما علىٰ قراءة الجمهور[٤] فهو منصوب معطوف علىٰ منصوب ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا﴾. فهو معطوف علىٰ ﴿مَيْتَةً﴾[٥] المنصوب علىٰ أنه خبر كان.

وأما علىٰ قراءة ابن عامر **﴿لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَ أَن تكون مَيْتةٌ أَو دَماً مَّسْفُوحاً﴾** فَعَطْفُ المنصوب علىٰ المرفوع قد يُشكل علىٰ طالب العلم، والجواب[٦]: أن قوله: ﴿أَوْ دَمًا﴾ بالنصب في قراءة ابن عامر معطوف علىٰ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ إلا كونه ميتة أو دماً، هكذا قاله بعض المُعْرِبين.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٣٨/٨) ومضى عند تفسير الآية (١٤٢) من سورة البقرة، (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر القراءات الواردة في الآية في المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.

(٣) انظر: أضواء البيان (٩٠/١) فما بعدها.

(٤) وهي: **﴿إِلاَّ أن يكونَ﴾** بالياء **﴿مَيْتةً﴾** بالنصب. انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٤.

(٥) انظر: ابن جرير (١٩٧/١٢)، البحر المحيط (٢٤١/٤)، الدر المصون (١٩٧/٥).

(٦) انظر: البحر المحيط (٢٤١/٤)، الدر المصون (١٩٧/٥).

والدم المسفوح: المسفوح اسم مفعول (سَفَحَه يَسْفَحه) إذا صبّه[١]. وتقول العرب: «سفح الماءُ فهو سافح، وسَفَحَه بولُه يَسْفَحه فهو سافح». والمفعول: مسفوح. وقد يستعمل متعدياً ولازماً. فمن استعماله متعدياً قوله هنا: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لأن المسفوح اسم مفعول (سَفَحَه يَسْفَحه) فالفاعل سافح، والمفعول مسفوح، إذا أراقه وصبّه، ومن إتيان (السافح) اسم فاعل (سَفَحَ) اللازمة قول ذي الرمة غيلان بن عقبة[٢]:

أَمِنْ دِمْنَةٍ جَرَّتْ بها ذيلَها الصَّبا لصيداء - مهلاً - ماء عَيْنَك سافحُ

أي: جارٍ مُنْصَبّ. وهو هنا من (سَفَحَ) اللازمة.

والدم المسفوح: هو المصبوب من شيءٍ حيٍّ، كما كان يفعله العرب، أو يكون خارجاً من أجل الذكاة أو العقر. كانت عادة العرب إذا جاعوا أن يفصد الواحد منهم عِرْقاً من جَمَله، ثم يجعل تحت الدم إناءً، حتىٰ يجتمع من عِرْق الجمل دمٌ في الإناء، ثم يطبخه بالأبازير ويأكلونه، فحرم الله عليهم أكل الدم. وهو حرام، والانتفاع به حرام.

وأصل الدم: أصله (دَمَيٌ) بالياء على التحقيق، فلامه المحذوفة ياء، وغلط من علماء العربية من زعم أن لامه المحذوفة واو[٣] ووزنه بالميزان (. . . .)[٤].

فتكون بالعين (يَدْمَى) والألف مبدلة من الياء، أصله (يَدْمَي) كما هو معروف.

فَلَسْنَا علىٰ الأعقابِ تَدْمىٰ كُلومُنَا ولكنْ علىٰ أَقْدامِنَا تقطُرُ الدِّمَا[٥]

---

(١) انظر: القاموس (مادة: السفح) ٢٨٧، عمدة الحفاظ (مادة: سفح) ص ٢٤٢، الدر المصون (١٩٨/٥).

(٢) ديوان ذي الرمة (٨٥٩/٢).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٩، وقد ذكر في أصل (الدم) ثلاثة مذاهب للعلماء.

(٤) في هذا الموضع انقطع التسجيل. ويمكن استدراك ذلك بمراجعة أضواء البيان (١٠٤/١ـ١٠٥).

(٥) البيت للحصين بن الحمام المري. وهو في اللسان (مادة: دمي) (١٠١٧/١)، الفروسية لابن القيم ص٤٩٣، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٩٧/١٢).

هَلْ أَنْتِ إلا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سبيل اللَّهِ ما لقيتِ[(١)]

هذا أصل الدم، وهو من الكلمات التي حذفت العرب لامها ولم تُعوِّض عنها شيئاً، وأعربتها علىٰ العين كدمٍ، وغدٍ، ويدٍ، وثدٍ، كما هو معروف[(٢)]. فلامه محذوفة لم يُعوَّض عنها شيء.

والدم المسفوح: هو الذي صُبَّ من شيءٍ حي، كفصد عرق الدابة، أو جرحها فيسيل منها دم، أو هو الذي يسيل عند التذكية، كأن تذبح فيسيل من عروقها، أو عند العقر كأن يرميها بالنبل فيسيل الدم. هذا هو الدم المسفوح.

واعلموا أن الدم نزلت في تحريمه أربع آيات من كتاب الله، ثلاث منها مطلقة لا قيد فيها، وهي قوله في النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١١٥] وقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٣] وقوله في المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: الآية ٣] فقد أُطلق الدم عن قيد المسفوحية في النحل والبقرة والمائدة، وجاء مقيداً في الأنعام بكونه مسفوحاً. وجماهير العلماء علىٰ أن المطلق يحمل علىٰ المقيد، ولا سيما إن اتحد سببهما وحكمهما كما هنا[(٣)]، سواءً كان المقيد هو الأول في النزول، أو هو الآخر؛ لأن المقيد هنا هو المتقدم في النزول؛ لأن سورة الأنعام نازلة قبل السور الأُخر الثلاث التي حرم فيها الدم، التي هي النحل، والبقرة، والمائدة[(٤)]. أما كون الأنعام قبل البقرة والمائدة فهو واضحٌ لا يخفىٰ؛ لأن الأنعام مكية بالإجماع، والبقرة والمائدة مدنيتان بالإجماع، فهذه قبل

---

(١) عن جندب بن سفيان (رضي الله عنه) قال: «دميت إصبع رسول الله ﷺ في بعض تلك المشاهد فقال...» وذكره. وهو في البخاري (٢٨٠٢، ٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦).
وساق الذهبي بإسناده إلى جندب بن سفيان (رضي الله عنه) وفيه أن الذي قاله إنما هو أبو بكر (رضي الله عنه) حينما دخل الغار فأصاب إصبعه شيء. (السير ٥٢٨/٩).

(٢) انظر: أضواء البيان (١٠٤/١ ـ ١٠٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٨) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

الهجرة، وهاتان بعدها، فكونهما بعدها لا إشكال فيه. أما النحل فالتحقيق أنها مكية، وزعم بعضهم أنها مدنية، وهو غلط ممن زعمه، والذي سبَّب هذا الغلط: أن خواتيم سورة النحل نزلت في المدينة في شهداء أُحد لما مثَّل المشركون بحمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وعبد الله بن جحش وغيره من شهداء أُحد، فقد قطّعوا آنافهم وآذانهم، وأخذت هند بنت عتبة بن ربيعة ـ وهي يوم أُحد كافرة ـ نظمت قلادةً من آذان الصحابة وآنافهم، كما هو معروف في السيرة، وتقلدتها، وأخذت قلادتها وجعلتها في عنق الوحشي، عبد جبير بن مطعم بن نوفل بن عديٍ النوفلي؛ لأنه هو الذي قتل حمزة، ثم رقيت على صخرةٍ من صخرات أُحد وبكت؛ لأنهم كانوا اشترطوا يوم بدر ألاَّ يبكي أُحدٌ منهم على قتيله حتىٰ يقتصوه، فلما قُتل حمزة وعبد الله بن جحش، هذا عم النبي، وهذا ابن عمته، وقتل شماس بن عثمان من المهاجرين، ومن الأنصار سبعون من خيارهم، رقيت علىٰ صخرةٍ من صخرات أُحدٍ وبكت تقول:

نحنُ جزيناكُمْ بيومِ بدرِ ... والحربُ بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ
ما كان عن عتبةَ لي من صبر ... ولا أخي وعَمِّهِ وبِكْري
شَفَيْتُ نَفْسي وقَضَيْتُ نذري ... شَفَيْتَ وحشيُّ غليلَ صدرِي
فَشُكرُ وحشيٍّ عليّ عُمْري ... حتَّى تَرِمَّ أَعْظُمي في قَبْري[1]

يذكرون في سبب نزولها أن النبي ﷺ لما وقف علىٰ عمه حمزة ـ رضي الله عنه ـ قتيلًا وقد مُثِّل به، أنه قال: لئن أظفرني الله بقريشٍ لأمثلنَّ بكذا وكذا رجلًا منهم. وأن الله أنزل في ذلك خواتيم سورة النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٦] هكذا ذكره بعض العلماء[2]، والمشهور عند المفسرين

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٨٧٢ ـ ٨٧٣).

(٢) ورد في هذا المعنى أحاديث وروايات متعددة لا تخلو من ضعف إلا أن الحديث يتقوى بها. والله أعلم.

ومن ذلك: =

في أسباب النزول أن خواتيم (النحل) هذه مدنية، أما نفس سورة النحل فهي مكية.

وقد نزلت سورة النحل في مكة بعد سورة الأنعام، ودلّ القرآن في موضعين علىٰ أن النحل نازلة بعد الأنعام، أحد الموضعين: أن الله قال في النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: الآية ١١٨]، والمحرم المُحال عليه المَقْصُوص من قبل هو المذكور في الأنعام إجماعاً في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ الآية [الأنعام: الآية ١٤٦].

الموضع الثاني من الموضعين الدّالين علىٰ نزول الأنعام قبل النحل: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] فبين أنهم سيقولونها في المستقبل، فعُلم أنهم لم يقولوها فعلاً في ذلك الوقت، وبيَّنَ في سورة النحل أنَّ ذلك القول الذي كان موعوداً بأنه يُقال: أنه قيل ووقع في سورة النحل، حيث قال في النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا﴾ الآية [النحل: الآية ٣٥]، فدلّ هذا علىٰ أن النحل بعد

---

١ ـ حديث ابن عباس (رضي الله عنهما)، عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٢، ٢٨٤، والدارقطني (٤/١١٦)، (١١٨)، والطبراني في الكبير (١١/٦٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٨٨) وعزاه في الدر (٤/١٣٥) لابن المنذر، وابن مردويه. وانظر: مجمع الزوائد (٦/١٢٠)، تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني للغساني ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٢/٢٥٠). تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر (٤/٩٧).

٢ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٣، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٨٨)، والحاكم (٣/١٩٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/٧)، والبزار كما في (كشف الأستار ٢/٣٢٦ ـ ٣٢٧) وعزاه في الدر (٤/١٣٥)، لابن المنذر وابن مردويه. وانظر: مجمع الزوائد (٦/١١٩)، تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٢/٢٥١)، ولابن حجر (٤/٩٧)، الفتح السماوي (٢/٧٦٠ ـ ٧٦١).

وقد ورد في هذا المعنى جملة من المراسيل. انظر: ابن جرير (١٤/١٩٥ ـ ١٩٦)، دلائل النبوة للبيهقي (٣/٢٨٦)، الدر المنثور (٤/١٣٥).

الأنعام[١]، وأن السور الثلاث ـ أعني النحل، والبقرة، والمائدة ـ جاء فيها تحريم الدم مطلقاً من غير قيد. وجاء في السورة النازلة أولاً وهي الأنعام تقييده بكونه مسفوحاً بقوله هنا: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾.

فجماهير العلماء من الصحابة وفقهاء الأمصار علىٰ أن تلك الآيات المطلقة في النحل، والمائدة، والبقرة، تُقَيَّد بقيد (الأنعام) هذه[٢]، فلا يحرم الدم غير المسفوح؛ ولذا أطبق العلماء علىٰ أن الحُمْرة التي تعلو القِدْر من أثر تقطيع اللحم وهي من الدم أنها معفوٌ عنها وليست بنجس؛ لأنها ليست من الدم المسفوح. ويدخل في غير المسفوح: الكبد والطِّحال[٣].

والحاصل أن الذي يظهر من الدم عند تقطيع اللحم وفصل الأعضاء بعضها عن بعض أن جمهور العلماء علىٰ أنه ليس بحرام، وليس من المسفوح. وأن الخارج عند الذكاة، أو المُخْرَج من شيءٍ حي، أو عند العقر أنه هو الدم المسفوح.

واختلف العلماء في الدم الذي يتجمد في القلب عند ذبح الشاة، والذي ينقع في جوفها، خلاف معروف، ومنهم من يقول: هما حلالان، ومنهم من يقول: هما مسفوحان، وفَصَّل علماء المالكية قالوا: الذي يتجمد في القلب طاهر؛ لأنه ليس بمسفوح، والذي ينقع في الجوف مسفوح؛ لأنه منعكس إليه من العروق التي سُفح منها وقت الذبح. وهذا أظهر والله تعالىٰ أعلم.

هذا معنىٰ قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ جميع هذه الآيات إنما صرحت بتحريم لحم الخنزير. والخنزير حيوانٌ معروف خسيس قبحه الله. ولم تتعرض آية من كتاب الله إلىٰ حكم شحم الخنزير، والعلماء مجمعون علىٰ أن شحم الخنزير حكمه حكم لحم الخنزير[٤].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٤٨).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (١/٥٣)، القرطبي (٢/٢٢٢).

(٣) انظر: القرطبي (٢/٢٢١) (٧/١٢٤).

(٤) انظر: مراتب الإجماع ص١٤٩، أحكام القرآن لابن العربي (١/٥٤)، القرطبي (٢/٢٢٢).

واستُدِل بهذا علىٰ بطلان دعوىٰ ابن حزم أنه لا يحرم شيءٌ إلا ما نص الله علىٰ تحريمه؛ لأن ابن حزم توسع توسعاً شنيعاً اجتنىٰ به علىٰ الشرع، مع علمه وقوة ذهنه، وزعم أن كل ما [لم ينص][1] الله علىٰ أنه حرام أنه لا يمكن أن يكون حراماً، ومن هنا حمل علىٰ الأئمة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، وغيرهم من فقهاء الأمصار، وتكلم عليهم كلاماً شديداً شنيعاً غير لائق، وزعم أنهم مشرعون، يشرعون من تلقاء أنفسهم، ولما احتُج عليه بإجماع العلماء علىٰ أن شحم الخنزير حرام، والله لم يذكره في كتابه قياساً علىٰ لحمه الذي نُصَّ علىٰ تحريمه، أجاب ابن حزم عن هذا بأن قال: الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ عائد علىٰ الخنزير، فيدخل فيه شحمه ولحمه[2]. وخالف في هذا القاعدة العربية المعروفة، لأن الضمائر في الأصل إنما ترجع للمضاف لا المضاف إليه؛ لأن المضاف هو المُحَدَّث عنه[3]، فلو قلت: جاءني غلامُ زيدٍ فأكرمته. يتبادر أن المُكْرَم هو الغلام لا نفس زيد، وكذلك قوله: ﴿لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ﴾ أي: لحم الخنزير؛ لأنه هو المُحَدَّث عنه.

وربما رجع الضمير علىٰ المضاف إليه نادراً[4]، وجاء في القرآن رجوع الضمير إلىٰ المضاف إليه لكن مع قرائن تدل علىٰ ذلك، كقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ [غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧] أي: موسىٰ. وهو المضاف إليه هنا. فهذا قد يقع، وجاء في القرآن قليلاً، إلا أنّ القرينة تُعَيِّنُه، أما الأصل اللغوي العربي فهو رجوع الضمائر والإشارات إلىٰ المضاف لا المضاف إليه، وإتيان الأحوال من

(١) في الأصل: «ما نص» وهو سبق لسان، والصواب: أن كل ما لم ينص... إلخ.

(٢) انظر: المحلى (٣٩٠/٧ ـ ٣٩١).

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢٤١/٤)، البرهان للزركشي (٣٩/٤)، الإتقان (٢٨٤/٢)، الكوكب الدري ٢٠٢، مختصر من قواعد العلائي ١٠١، الكليات ١٣٤ ـ ١٣٥، ٥٦٩، قواعد التفسير (٤٠٢/١).

(٤) انظر قواعد التفسير (٤٠٣/١).

المضاف لا المضاف إليه، إلا إذا كان عاملاً فيه، أو جزءاً منه، أو كجزءٍ منه، كما هو معروف في النحو.

والحاصل أن القرآن سكت عن شحم الخنزير وحرم لحمه، وأجمع العلماء علىٰ تحريم شحمه قياساً علىٰ لحمه. وفيه أمور كثيرة يغلط فيها ابن حزم ومن وافقه من المتشددين؛ لأنه في الآونة الأخيرة صار يطلع طلبة علم صغار، قليلة بضاعتهم من العلم، ينظرون شيئاً قليلًا من الحديث، ويطعنون في الأئمة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ ويقولون: قال في الحديث الفلاني، وشرعوا من أنفسهم اعتماداً علىٰ كتب ابن حزم، وكل هذا غلط، وكثيرٌ من الأشياء يدعي ابن حزم أن الله سكت عنها، وأن الوحي لم يتعرض لها، ويستدل بحديث: «إن الله أباح أشياء، وحرم أشياء، وسكت عن أشياء لا نسياناً، فما سكت عنه فهو عفوٌ»[1] فيدعي أنه سكت عنه[2]، وهو قد يكون لم يسكت عنه. وسلفه الذي هو داود بن علي الظاهري ما كان يبالغ هذه المبالغة، ولا يغلو هذا الغلو.

---

(١) ورد في هذا المعنى عدة أحاديث، وهي وإن كانت لا تخلو من ضعف إلا أن بعضها يتقوى بغيره، والله أعلم. فمنها:

١ ـ حديث سلمان (رضي الله عنه) (مع الخلاف في رفعه ووقفه) عند الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء. حديث رقم: (١٧٢٦)، (٢٢٠/٤)، وابن ماجه في الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن. حديث رقم: (٣٣٦٧)، (١١١٧/٢)، والحاكم (١١٥/٤)، والبيهقي (٣٢٠/٩)، (١٢/١٠). وانظر: صحيح الترمذي (١٤٥/٢)، وصحيح ابن ماجه (٢٤٠/٢)، غاية المرام ص ١٥، المشكاة (١٢٢٠/٢).

٢ ـ حديث أبي ثعلبة الخشني (رضي الله عنه) (مع الخلاف في رفعه ووقفه). عند الدارقطني (١٨٤/٤)، والحاكم (١١٥/٤)، والبيهقي (١٢/١٠ ـ ١٣). وانظر مجمع الزوائد (١٧١/١) وهو أضعف هذه الأحاديث.

٣ ـ حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عند الدارقطني (٢٩٧/٤ ـ ٢٩٨) والبزار كما في (كشف الأستار (٨٥/٣، ٣٢٥)، والحاكم (٣٧٥/٢)، والطبراني في الصغير (١٢٢/٢). وانظر: مجمع الزوائد (١٧١/١)، (٥٥/٧، ٢٠٨). وقد حسنه الألباني في غاية المرام ص ١٤.

(٢) انظر: الإحكام ١٠٥٨ ـ ١٠٧٠.

والحاصل أن ما يسميه علماء الأصول: (الإلغاء بنفي الفارق)، ويسمونه نوعاً من تنقيح المناط. وهو المعروف عند الشافعي في كتبه القديمة بـ (القياس في معنىٰ الأصل)[١] أجمع جميع العلماء علىٰ أن المسكوت عنه فيه يلحق بالمنصوص؛ لأنه لا فرق بينهما يؤثر، وما كان داود ينكر هذا.

ومعروف أنه عند علماء الأصول ينقسم إلىٰ أربعة أقسام[٢]؛ لأن المسكوت عنه: إما أن يكون أولىٰ بالحكم من المنطوق به، وإما أن يكون مساوياً له، وبكل منهما إما أن يكون وجه الفرق بينهما مُحَقَّقاً يقيناً، وإما أن يكون مظنوناً ظناً غالباً مزاحماً لليقين، فالمجموع أربعة، من ضرب اثنين في اثنين.

الأول: ما كان المسكوت عنه أولىٰ بالحكم من المنطوق به، ونفي الفارق بينهما في الحكم مُحَقَّق لا شك فيه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، فالمنصوص عنه هنا النهي عن التأفيف أمام الوالدين، والمسكوت عنه ضرب الوالدين، وهذا المسكوت عنه ـ الذي هو الضرب ـ أولىٰ بالحكم الذي هو التحريم من هذا المنطوق به الذي هو التأفيف؛ لأن الضرب أشد أذيةً من التأفيف، فابن حزم يقول هنا: إن الضرب مسكوت عنه، ولم يؤخذ حكمه من هذه الآية[٣]. ونحن نقول: لا، الضرب ليس مسكوتاً عنه في هذه الآية، بل هو مفهوم من باب أولى من النهي عن [التأفيف][٤]. ونظيره قوله تعالىٰ في الرجعة والطلاق: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: الآية ٢]

---

(١) انظر: الرسالة للشافعي ٥١٢ ـ ٥١٦، شرح الكوكب المنير (٤٨١/٣)، (٢٠٧/٤ ـ ٢٠٩)، المذكرة في أصول الفقه ٢٣٧، ٢٧١، نثر الورود (١٠٢/١ ـ ١٠٣)، (٥٢٢/٢ ـ ٥٢٣، ٥٥٨).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٤٨٦/٣)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢٣٧، نثر الورود (١٠٤/١).

(٣) انظر: الإحكام ص ٨٩١.

(٤) في الأصل: «التحريم» وهو سبق لسان.

فالمنطوق: شهادة العدلين، والمسكوت عنه: شهادة أربعة عدول، فلو أشهد رجل أربعة عدول على رجعته أو طلاقه فلا شك أن ذلك نافذ، ولا نقول: إن المنصوص عليه الاثنين، والأربعة غير منصوصة؛ لأن هذا المسكوت عنه الذي هو الأربعة أولى بالحكم من هذا المنطوق به الذي هو الاثنان، ونفي الفارق هنا مُحقَّق لا شك فيه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى في الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]، فالمنطوق به المجازاة بمثقال ذرة، والمسكوت عنه المجازاة بمثقال الجبل. ولا شك أن هذا المسكوت عنه أولى بالحكم ـ الذي هو المجازاة ـ من المنطوق به، ونفي الفارق مُحقَّق.

الثاني: أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق به في الحكم، ونفي الفارق بينهما مُحقَّق. كالتنصيص على لحم الخنزير، والسكوت عن شحمه، ولا فرق بين لحمه وشحمه؛ لأنه كله رجس، وحكم شحمه حكم لحمه. ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: الآية ١٠] فالمنطوق به أكل مال اليتيم، والمسكوت عنه إغراقه في البحر، وإحراقه بالنار، ولا شك أن إحراق مال اليتيم، وإغراقه أنه حرام، لا فارق بينه وبين أكله، ونفي الفارق هنا مُحقَّق. وكقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: الآية ٢٣] فإن الآية إنما نصت على أن يكون القاذفون ذكوراً، والمقذوفات إناثاً؛ لأنه قال: ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بصيغة الذكور، ثم قال: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ بصيغة الإناث، فمنطوق الآية: أن يكون القاذف ذكراً، والمقذوف أنثى، وقد أجمع العلماء على أنه لا فرق في ذلك بين قذف الذكر للذكر، وقذف الأنثى للأنثى، وقذف الأنثى للذكر، وقذف الذكر للأنثى. فهذا المسكوت مُلحق بهذا المنطوق به إجماعاً. ومحاولة ابن حزم أن يجيب عن هذه الآية، قال: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: الآية ٢٣]، أي: يرمون الفروج المحصنات. فشمل فروج الرجال والنساء، فلم يكن فيه إلحاق، مردودٌ؛

لأن المحصنات في لغة القرآن لم تطلق على الفروج قط، وإنما تطلق على النساء. كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: الآية ٢٣] فهل يمكن قائلاً أن يقول: إن الفروج مؤمنات غافلات؟ هذا مما لا يقوله أحد. ومن هذا: أن الله تبارك وتعالى نصَّ في سورة البقرة على أن الرجل إن طلق امرأته ثلاثاً، ثم تزوجت زوجاً بعده - وبيّن النبيُّ ﷺ اشتراط أن جامعها ذلك الزوج - ثم طلقها هذا الزوج الثاني بعد أن جامعها حلت على الأول. وإنما نصَّ على الطلاق وحده، ولم يتكلم على ما لو مات عنها إذا كانت مطلقةً ثلاثاً، ثم تزوجت زوجاً جامعها وأحلّها، ثم مات الزوج الأخير ولم يطلقها، فإن الله لم يقل: إنه إذا مات إنها تحل للأول. ولكن قال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: الزوج الثاني بعد أن جامعها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: الآية ٢٣٠] أي: على المرأة المبتوتة التي كانت حراماً، والزوج الأول الذي بتَّها أن يتراجعا؛ لأنها حلت لوطء الثاني، وطلقها الثاني، ولم يتكلم هنا على ما إذا مات عنها الزوج الثاني بعد أن جامعها، وقد أجمع العلماء أن موته عنها كطلاقه. وأمثال هذا كثيرة.

الوجه الثالث: أن يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به، ولكن نفي الفارق بينهما مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين. ومن أمثلته في السنة: ما جاء عن النبيّ ﷺ أنه نهى عن التضحية بالعوراء[1]. فالمنطوق به هنا منع التضحية بالعوراء، والمسكوت عنه مَنْع التضحية بالعمياء التي هي عمياء العينين؛ لأنها أولى بالحكم من المنطوق بها؛ لأن العوراء عميت لها عين واحدة، والعمياء عميت عيناها معاً، فالعمياء مسكوت عنها في الحديث، وهي أولى بالحكم من المنطوق به التي هي العوراء، ونفي الفارق هنا مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين، وقد يظهر لطالب العلم أن نفي الفارق هنا قطعي، ونحن نقول: ذكر غير واحدٍ من علماء الأصول أن نفي الفارق هنا ظني،

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

وإنما قالوا إنه ظني لأن الغالب علىٰ الظن غلبةً مزاحمةً لليقين، أن علة منع التضحية بالعوراء أن العور عيب ناقصٌ لثمنها، وقيمتها، وذاتها، وهذه العلة موجودة في العمياء بلا خلاف، فهي مثلها. ولكن هنالك احتمال ضعيف مرجوح هو الذي منعنا من أن نجزم باليقين، أن علة منع التضحية بالعوراء أن العور مظنة الهزال، لأنَّ العوراء لا ترىٰ من المرعىٰ إلا ما يقابل عينها المبصرة، وما يقابل عينها العوراء لا تراه، فناقصة البصر ناقصة الرعي، ونقص الرعي مظنة لنقص السِّمَن، وعلىٰ أن العلة هذه فلا تشاركها العمياء؛ لأن العمياء يعلفها ذو عينين فيختار لها أحسن العلف وأجوده، فهي مظنة السِّمَن، فلا تكون كالعوراء. إلا أن هذا الاحتمال ضعيف.

الرابع: أن يكون المسكوت عنه مساوياً للمنطوق في الحكم، ولكنه مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين. ومثاله في السنة: قوله ﷺ: «**من أعتق شِرْكاً له في عبدٍ قُوِّمَ عليه قيمة عبد فأعطىٰ شركاءه حصصهم...**» الحديث المشهور(١). أي: إن النبي نصَّ في سراية العتق هنا علىٰ العبد الذكر، وسكت عن الأَمَة الأنثىٰ، ولم يقل: من أعتق شِرْكاً له في أَمَة، فالأَمَة مسكوتٌ عنها هنا، وعامة العلماء علىٰ أن العِتْق يسري في الأَمَة كما يسري في الذَّكَر، إلحاقاً للمسكوت عنه بالمنطوق به، ونَفْي الفارق هنا مظنون ظناً قوياً مزاحماً لليقين؛ لأن الذكورة والأنوثة في باب العتق أوصاف طردية، أعني لا يُفرق بينهما في الأحكام، ولا يُعلل بهما أحكام مختلطة في باب العتق، مع أن هنالك احتمالاً ضعيفاً أن النبي ﷺ نصَّ علىٰ العبد، وجعل سراية العتق فيه دون الأمة؛ لأن عتق الذكور يحصل به من الفوائد ما لا يحصل في عتق الإناث؛ لأن الذكر إذا عتق فهو شهادته شهادة عدل عند من لا يقبل شهادة العبيد. وصار يزاول مناصب الرجال، كالإمامة،

---

(١) أخرجه البخاري في الشركة، باب تقويم الأشياء بين الشركاء، حديث رقم: (٢٤٩١)، (١٣٢/٥)، ومسلم في العتق. حديث رقم:(١٥٠١)، (١١٣٩/٢).

والجهاد، وغير ذلك مما يختص بمناصب الرجال التي لا تصلح لها الإناث، ولكن هذا يبقى احتمالاً ضعيفاً.

فمثل هذه الأشياء يزعم ابن حزم أن الوحي سكت عنها، ونحن نقول: لا، لم يسكت الوحي عنها، ولكنه دل عليها، وكذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: **«لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»**[(١)] هذا حديث صحيح ثابت في الصحيحين، نهى به النبي ﷺ القاضي أن يحكم بين الخصمين في حالة غضبه؛ لأن الغضب يُشَوِّش فكره، فيمنعه من أن يستوفي النظر في دعاوي الخصوم، وفي الأحكام المترتبة على دعاويهم. وقد أجمع العلماء على أن كل مشوش للفكر كتَشْويش الغضب أو أشد غير مسكوت عنه، فلا يجوز للقاضي أن يحكم بين الخصمين في حالة العطش والجوع المُفْرِطَين، ولا في حالة الحزن والسرور المُفْرِطَين، ولا في حالة الحَقْن والحَقْب المُفْرِطَين، والحَقْن: مدافعة البول، والحَقْب: مدافعة الغائط. فكل هذه الأمور التي تُشَوِّش فكره لا نقول هي مسكوت عنها، بل هي منطوقة؛ ولأجل هذا كان العلماء أجمعوا على إلحاق المسكوت عنه بالمنطوق به إذا تحققنا وغلب على ظننا أنه لا فرق بينهما.

فعُلم أن دعوى ابن حزم على العلماء أنهم حرموا هذا من تلقاء أنفسهم وشرعوه من غير دليلٍ أنه ليس بصحيح، وأن الأئمة ـ رضي الله عنهم ـ ما فعلوا إلا شيئاً واقعاً في موقعه؛ لأن هذا المنطوق به والمسكوت عنه لا فرق بينهما البتة.

فالنبي ﷺ ربما نبهنا بالنظير على النظير. وقد أجمع العلماء على أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فإلحاق النظير بالنظير من الحق الذي شهد له القرآن والسنة والعقل الصحيح، وقد نبّه النبي ﷺ

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

في أحاديث متعددة علىٰ أن إلحاق النظير بنظيره من الحق لا من الباطل؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن سأله رجل، وثبت في الصحيحين أنه سألته امرأة عن حج كان علىٰ أبيها أو أمها هل تقضيه عنها. قالت: أمي ماتت وعليها حج أفأقضيه عنها؟ فالنبي ﷺ قال: **«أرأيت لو كان علىٰ أبيك دَينٌ فقضيتيه أكان ينفعه؟»** قالت: نعم. قال: **«فَدَيْن الله أحق أن يُقْضَىٰ»**. والحديث ثابت في الصحيح في رجلٍ، وثابت في الصحيح في امرأة(١). وهي قصص متعددة لا اضطراب في الحديث؛ لأنه ثابت في الصحيحين. فنبه النبي ﷺ بإلحاق دَيْن الله بديْن الآدميين بجامع أن الكل دَيْن ينفع صاحبه قضاؤه عنه ويؤدى بدفعه لمستحقه. وهو تنبيه بأن النظير له حكم النظير. وقد ثبت في الصحيحين أيضاً أن النبيّ ﷺ جاءه رجلٌ ـ هذا الرجل كان أبيض، وكانت امرأته بيضاء، فولدت له غلاماً أسود، ففزع من سواد الغلام، واعتقد أن امرأته زنت بأسود، وجاءت بهذا الغلام، فجاء للنبي فزعاً، والظاهر أنه كان يريد اللعان لينفي عنه هذا الولد الأسود ـ فأخبر النبيَّ أن امرأته ولدت أسود!! فالنبي ﷺ قال لهذا الرجل: **«ألك إبل؟»** قال: نعم. قال: **«ما ألوانها؟»**. قال: حمر، قال: **«هل فيها من أورق؟»** قال: نعم. ـ والأورق: الذي لونه الوُرْقة. وأشبه شيء بلون الوُرقة هو لَوْن حمام الحرم هذا؛ ولذاكم تسمى الواحدة منه بالورقاء. ويسمىٰ جمعه بالوُرق، أي: أخضر اللون ـ قال: نعم، إن فيها لَوُرْقاً. قال: **«من أين جاءتها تلك الوُرْقَة والسواد؟ مع أن أباها أحمر وأمها حمراء»**. قال: لعل عِرْقاً

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت. حديث رقم: (١٨٥٢)، (٦٤/٤). وأخرجه في مواضع أخرى. انظر الحديثين رقم: (٦٦٩٩، ٧٣١٥). وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (في سؤال المرأة الجهنية). وقد ورد عنه، وعن أخيه الفضل، وعن غيرهما أحاديث في الصحيحين وفي غيرهما من غير موضع الشاهد هنا. وقد تكلم الحافظ على هذه الأحاديث والروايات المتعددة بكلام طويل راجعه ـ إن شئت ـ في الفتح (٦٥/٤ ـ ٦٦، ٦٨ ـ ٧٠).

نَزَعَها. يعني جَدّاً بعيداً كان أسود نزعها. قال له: **«وهذا الغلام لعل عرقاً نزعه»**[١]. لعل أحد أبويه كان عنده جد أسود من بعيد فنزعه. فاقتنع الأعرابي لما جعل له النبي ـ قاس له ـ النظير بالنظير فكما أن أولاد الإبل تنزعها عروق فتصير بها سوداً، فكذلك أولاد الآدميين قد تنزعها عروقٌ بعيدة. وهو إلحاق النظير بالنظير.

ومن هذا المعنىٰ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سأل النبي ﷺ عن الصائم يقبل امرأته؟! فقال له: **«أرأيت لو تمضمض؟»** وهذا الحديث في سنن أبي داود بسندٍ أقل درجاته القبول[٢]. فقال له: **«أرأيت لو تمضمض؟»**. فكأن النبي يشير إلى أن التقبيل إذا لم يُنْزِل منه صاحبه، ولم يخرج منه شيء أنه كالمضمضة، بجامع أن كلاً منهما مقدمة الإفطار. وليس في واحدٍ منهما إفطار؛ لأن المضمضة مقدمة الشرب، والتقبيل مقدمة للجماع. فألحق النظير بنظيره. وأمثال هذا كثيرةٌ جداً.

ومن هنا نعلم أن قول ابن حزم: إن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ عائدٌ إلىٰ الخنزير كله ـ ليكون الشحم داخلاً في النص، لا مسكوتاً عنه ملحقاً بالمنطوق به ـ أنه غير صحيح، وأن الضمير راجع إلىٰ لحم الخنزير الذي هو المُحدَّث عنه، وأن الشحم مسكوت عنه، ولكنه أُلحق به، والشحم هو واللحم قد يفترقان في الأحكام، كما سيأتي في فيما حُرِّمَ على اليهود: أنه قد يُحرم عليهم هذا دون هذا.

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب إذا عرَّض بنفي الولد. حديث رقم: (٥٣٠٥)، (٤٤٢/٩)، ومسلم في اللعان. حديث رقم: (١٥٠٠)، (١١٣٧/٢، ١١٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢١/١، ٥٢)، وابن أبي شيبة (٦٠/٣ ـ ٦١)، والدارمي (٣٤٥/١)، وأبو داود في الصوم، باب القُبلة للصائم. حديث رقم: (٢٣٦٨)، (١١/٧)، والنسائي في الكبرى، كتاب الصيام، باب المضمضة للصائم. حديث رقم: (٣٠٤٨)، (١٩٨/٢ ـ ١٩٩)، وابن خزيمة (١٩٩٩)، (٢٤٥/٣)، وابن حبان (الإحسان ٢٢٣/٥)، والحاكم (٤٣١/١)، والبيهقي (٢١٨/٤، ٢٦١)، والطحاوي في شرح المعاني (٨٩/٢). وانظر: صحيح سنن أبي داود (٤٥٣/٢).

١٩/ب وقد يُجاب في خصوص آية لحم الخنزير هذه جواب آخر، /هو معروفٌ عند العلماء، لكن ابن حزم لم يهتد للاحتجاج به، أن اللحم أعم من الشحم، فإن العرب تقول: «اكْتَل لي لحم هذه الشاة». وقد يكون لحمها معه شحم كثير وهو داخل فيه. فهذا الجواب لو أجاب به ابن حزم لكان مقبولًا[١]، وهو مذهب مالك ـ أن [اللحم] أعم من [الشحم][٢] ـ ولذا لو حلف في مذهب مالك لا يأكل اليوم لحماً فأكل شحماً فإنه يحنث، بخلاف ما لو حلف لا يأكل شحماً وأكل لحماً أحمر غير شحم فإنه لا يحنث[٣]؛ لأن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، كما هو معروف[٤].

والحاصل أن العلماء مجمعون علىٰ إلحاق النظير المسكوت عنه بالنظير المنطوق به، وأنه من الحق، وأنه غير مسكوت عنه، بل النص يدل عليه. فمن قال لك: «لا تقل لوالديك أف». فكأنه قال لك من باب أولىٰ: لا تضربهما. ومن قال ـ مثلًا ـ لك: لا تضح بعوراء. فكأنه قال لك: لا تضح بالعمياء من باب أولىٰ، وهكذا.

وهذا معنىٰ قوله ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾. الله (جل وعلا) حرم هذه الأشياء التي هي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير. ومعروف أن الله لا يحرم شيئاً إلا لحِكْمَة، ولا يحرم شيئاً إلا للضرر، فقد يهتدي بعض الناس إلىٰ حِكْمَة ذلك الشيء، وقد يعجز البشر عن إدراكها. فالله (جل وعلا) محيط علمه بكل شيء، ولا يحرم إلا لحكمة. لا يحرم شيئاً إلا وهو متضمنٌ أضراراً عظيمة، وهذه الأضرار قد يتحصلها البشر،

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي (٥٤/١)، القرطبي (٢٢٢/٢).

(٢) في الأصل: «أن الشحم أعم من اللحم». وهو سبق لسان.

(٣) انظر: القرطبي (٢٢٢/٢).

(٤) انظر: البرهان للزركشي (٤٠٢/٣)، الاتقان (٢٣٢/٣)، الكليات ٨٨٩، قواعد التفسير (٥٢١/٢).

وقد يعجز عنها إدراك البشر؛ لأن علم الخالق (جل وعلا) محيط بكل شيء، يعلم أشياء يتقاصر عنها فهم البشر.

وتحريم هذه الأشياء بعضهم يقول: إنه يفهم علته. وقال بعض العلماء: تحريم الميتة من جهة الطب[1]؛ لأن الدم الذي يسيل عنها بالذكاة يطيِّب لحمها ويصححه، فإذا ماتت فسد ذلك الدم واختلط في اللحم. بدليل أنك لو فصدت عرقاً من الميتة لا يقطر منه دم، فذلك الدم قد يختلط بذلك اللحم، واختلاطه به فيه نوع من السلب له، يسبب بعض الأمراض؛ ولذا لم يبحه الله إلا للمضطر. قالوا: لأن شدة حرارة الجوع وألمه وشدته قد يقاوم تلك الأضرار فلا تهلكه، ولم يبحه إلا عند الضرورة التي يخاف صاحبها الموت.

وزعموا[2] أن تحريم الدم لأنه لا فائدة فيه ألبتة، لا يستفيد الإنسان من أكل الدم في جوفه شيئاً؛ لأنه إما أن [يستقر][3] في المعدة فيضرها، ولا يتسرب في العروق، ولا يستفيد صاحبه منه شيئاً عن طريق الفم.

قالوا: وتحريم الخنزير[4] لأن الخنزير قد تكون فيه مضار جدِّية، قالوا: ومن نتائج أكله أن صاحبه يصير ديوثاً غالباً، تُنزع منه غيرة الرجال، وغيرة الإنسانية التي تكون في الرجال، وهذا كالمشاهد، فإن الذين يأكلون لحم الخنزير لا تكاد تجد فيهم غيرة الرجال المعروفة، كالشهامة المعروفة عند العرب، فتجد زوجة الرجل تمشي من عنده مع الذكور، وتنفرد معهم!! هكذا قاله بعضهم، والله تعالىٰ أعلم.

والله (جل وعلا) كأنه علَّله، قال: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا

---

(١) انظر: تفسير المنار (٦/١٣٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٤) المصدر السابق (٦/١٣٥).

﴿مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وقد تقرر في الأصول، في مسلك النص، وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من حروف العلة[1]. كقولهم: «سهىٰ فسجد» أي: لعلة سهوه، «سرق فقُطعت يده» أي: لعلة سرقته. «حُرّم لحم الخنزير فإنه رجس» أي: حرم لكونه رجساً.

والرجس في لغة العرب: النجس القذر الذي تعافه النفوس، الذي هو بالغٌ في غاية الاستقذار الغاية القصوىٰ[2]. وقال بعض العلماء: أصله من (الرِّكْس) والعرب ربما بادلت بين الحروف. و (الرِّكْس) بالكاف في لغة العرب: عَذرِة الناس وفضلاتهم - أكرمكم الله[3] - هذا معنىٰ قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.

وقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ أو فسقاً: منصوب قبله مرفوع، إلا أنه عَطْفٌ علىٰ المنصوبات قبله. ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾. فهو معطوف علىٰ قوله: ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾[4].

والمراد بهذا الفسق: هو ما ذبح لغير الله. وسماه الله (فسقاً) جعله كأنه بعينه هو عين الفسق. لتَوَغُّلِه في الفسق الذي هو: الخروج عن طاعة الله؛ لأن النحر وإراقة الدم من أعظم القربات التي يُتقرب بها إلىٰ الله (جل وعلا). وهي من الحِكَم التي نادىٰ فيها للحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: الآية ٢٧] ثم بين الحِكَم فقال: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: الآية ٢٨]. ذكرها عند التذكية تقرباً بها إلىٰ الله، وقد بين الله (جل وعلا) أن من تقرب بالدماء يريد وجه الله أن ذلك من التقوىٰ الذي يرضي الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المفردات (مادة: رجس) ٣٤٢، المصباح المنير (مادة: رجس) ٨٣.

(٣) انظر: المصباح المنير (مادة: ركس) ص ٩٠.

(٤) انظر: الدر المصون (١٩٨/٥).

مِنكُمْ﴾ [الحج: الآية ٣٧] ولذا كان الشيء إذا ذُبح لغير الله كان ذلك من أكبر الكفر، وكانت تلك الذبيحة من أخبث الخبث، وذلك الفعل من أفسق الفسق؛ ولذا سماه الله فسقاً.

وأصل الإهلال في لغة العرب هو رفع الصوت[1]. تقول: استهلَّ المولود صارخاً. إذا رفع صوته عند الولادة، وإنما سُمي الشهر (هلالًا) لأنهم كانوا يرفعون أصواتهم عند رؤيته، وإنما قيل له: ﴿أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم كانوا إذا ذبحوا لغير الله رفعوا أصواتهم باسم الأصنام، فصار يُطلق على كل ما ذُبح لغير الله: (أهل لغير الله به).

ثم بين (جل وعلا) أن هذه المحرمات الأربع، التي هي: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، أن محل تحريمها ما لم تدعُ الضرورة الفاحشة إليها، أما إن دعت الضرورة إليها فإنها تباح للضرورات؛ لأن هذا النبي الكريم ـ سيد الرسل، الذي اختاره الله لهذه الأمة، وجعلها به خير أمةٍ أُخرجت للناس ـ بُعث بالحنيفية السمحة، ورُفعت عنه التكاليف، والآصار، والأثقال التي كانت علىٰ من قبله فجاء بها سهلة حنيفية سمحة، إذا اضطر الإنسان إلى هذا الحرام رُخص له فيه، كما قدمنا إيضاحه، وأنه عامٌّ في كل ما دعت الضرورة الملجئة إليه في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩].

قرأه بعض السبعة في جميع القرآن: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ بكسر النون، كما قرأه عاصم وأبو عمروٍ وغيرهما. وأكثر القراء: ﴿فمنُ اضْطُرَّ﴾ وكل هذا في كل ساكنين بعدهما ثالث مضموم، فإنه في جميع القرآن يُقرأ بالكسر، علىٰ عادة التخلص من التقاء الساكنين بكسر الأول، والضم إتْبَاعاً للضمة بضمة الطاء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾[2].

---

(١) انظر ابن جرير (٣/٣١٩)، المفردات (مادة: هلل) ٨٤٣، القرطبي (٢/٢٢٤).
(٢) انظر: السبعة لابن مجاهد ١٧٤ ـ ١٧٦، الكشف لمكي (١/٢٧٤ ـ ٢٨٠).

والطاء في قوله: ﴿اَضْطُرَّ﴾ أصلها مُبْدَلَة من تاء الافتعال. وأصل حروف الكلمة الأصلية: (ضَرَرَ). ففاؤها ضاد، وعينها راء، ولامها راء: (ضَرَرَ)، فدخل عليها تاء الافتعال، كما تقول في قرب: اقترب. وفي كسب: اكتسب، وفي ضرر: اضْترر[1]. والمقرر في علم النحو: أن تاء الافتعال إذا جاءت بعد حرفٍ من حروف الإطباق كالصاد، والطاء، والضاد أنها تُبدل طاءً[2]، فأُبدلت تاء الافتعال طاءً، وبُني الفعل للمفعول، فقيل: ﴿فَمَنِ اَضْطُرَّ﴾ أي: فمن أُلجىء.

ولم يبين هنا هذه الضرورة المُلْجِئَة، وقد بين في موضع آخر أنها الجوع، كما قال: ﴿فَمَنِ اَضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: الآية ٣] والمَخْمَصَة: الجوع[3]. والقرآن يبين بعضه بعضاً. يعني: فمن ألجأته الضرورة إلىٰ أكل الميتة، أو ما أُهل به لغير الله، أو لحم الخنزير، فإن ذلك يباح.

والضرورات المُلْجئة عند العلماء هي: أن يخاف علىٰ نفسه الموت، أو يظن ذلك ظناً قوياً[4].

وقد قدمنا في سورة البقرة مسائل متعددة من الاضطرار إلىٰ الميتة، منها: إذا اضطر إلىٰ الميتة بأن خاف علىٰ نفسه الهلاك إن لم يأكل، هل يجوز له أن يشبع؟ أو لا يأكل إلا قدر ما يسد الرَّمَق ويُمْسِك الحياة[5]؟ فذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن له أن يشبع ويتزود، وهو المشهور المعروف من مذهب مالك[6].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: المفردات (مادة: خمص) ٢٩٩.

(٤) انظر: أضواء البيان (١٠٩/١). وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٥) انظر: السابق (١٠٧/١). وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.

(٦) انظر: الموطأ ص ٣٣٤، أحكام القرآن لابن العربي (٥٥/١)، القرطبي (٢٢٧/٢).

أما قول خليلٍ في مختصره: «وللضرورة ما يسد» فذلك مشهور مذهب مالك، وليس هو المروي عن مالك، وإنما هو قول لبعض أصحابه. فمذهب مالك المعروف، أنه يأكل، ويشبع، ويتزود. فإن وجد عنها غِنىً طرحها. ووجه هذا القول: أنه لما اضطر إليها صارت حلالاً بالنسبة إليه، والحلال يشبع صاحبه ويتزود.

وقالت جماعة أخرىٰ من أهل العلم من الأئمة الأربعة وفقهاء الأمصار[١]: لا يجوز له أن يأكل إلا قدر ما يسد الرَّمَق ويُمْسِك الحياة؛ لأنه إذا أكل ما يسد الرَّمَق ويُمسك الحياة فقد زال الضرر الذي هو خوف الموت، والميتة إنما أُبيحت لخوف الهلاك، وقد زال بأكل ما يسد الرَّمَق، فلا يشبع ولا يتزود. وهي أقوالٌ معروفةٌ في فروع المذاهب.

ومن هذا: إذا تيسرت لك ميتة ومال غير وأنت مضطر، فهل تتعدىٰ وتأكل مال الغير أو تقدم الميتة؟ اختلف العلماء في هذا[٢]. فذهب جماعة إلىٰ أنه يقدم مال الغير، وهو مذهب مالك إذا كان يأمن من أن يجعله سارقاً ويقطع يده. أما إذا كان يخاف أن يجعله سارقاً وتُقطع يده فإنه يأكل الميتة، فإن أَمِنَ أن يجعله سارقاً قدم مال الغير علىٰ الميتة. وكثيرٌ من العلماء يقدمون الميتة علىٰ مال الغير [ونظير][٣] هذه المسألة ما إذا كان مُحْرِماً، واضطر إلىٰ الميتة، وخاف الهلاك من الجوع، ووجد صيداً وهو مُحْرِم: هل يصطاد الصيد ويقدمه علىٰ الميتة؟ أو يأكل الميتة؟ في هذا خلاف معروف[٤]. وأكثر أهل العلم

---

(١) انظر: المحلى (٧/٤٢٦)، الاستذكار (١٥/٣٥١) فما بعدها. المغني (١١/٧٣)، أضواء البيان (١/١٠٧).

(٢) انظر: الاستذكار (١٥/٣٥٧)، القرطبي (٢/٢٢٥)، المغني (١١/٧٨)، أضواء البيان (١/١١٢).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٤) انظر: المغني (١١/٧٨)، أضواء البيان (١/١١٤).

علىٰ أنه يقدم الميتة علىٰ الصيد؛ لأنه إن قَتَل الصيد وهو مُحْرِم صار ميتة، ورجعت المسألة في حافرتها(١). واجتمع عليه أنه قاتل صيد وآكل ميتة. أما إن أكل الميتة فقد أكل الميتة ولم يقتل صيداً. وفي قولٍ عن الشافعية: أنه يقدم الصيد، بناءً علىٰ أن المضطر إذا قتل صيداً لم يكن ميتة، والأكثر علىٰ خلافه. وقد أشبعنا الكلام علىٰ هذه المسألة في سورة البقرة في الكلام علىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: الآية ١٧٣].

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ دل القرآن في موضع علىٰ أن الاضطرار هنا: الجوع، وأن الباغي والعادي هما المائلان لإثم يخالف الشرع، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المائدة: الآية ٣] أي: غير مائلٍ للحرام، وهكذا قَدْرُ بيان القرآن.

واختلف العلماء في ذلك الإثم الذي يُتجانف إليه الذي استُثني بقوله هنا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾(٢). فذهبت جماعة من أهل العلم ـ وهو القول المشهور عند الفقهاء والمفسرين ـ أن معنىٰ الباغي: الخارج عن طاعة إمام المسلمين، والعادي: الذي يعدو علىٰ الناس فيقطع عليهم الطريق، ويخيفها عليهم. وعلىٰ هذا القول فالباغي: الخارج عن طاعة الإمام، والعادي: الذي يخيف الطريق، ويقطع الطريق علىٰ الناس، لا يباح لهم أكل الميتة؛ لأن هؤلاء غالباً هم الذين يضطرون إلىٰ الميتات؛ لأنهم لا يقدرون أن يخالطوا الناس فيشتروا منهم زاداً ولا طعاماً. فيضطرون غالباً إلىٰ الميتات. وعلىٰ هذا فمن كان خارجاً عن طاعة إمام المسلمين، أو قاطعاً طريق المسلمين، مخيفاً لها، لا يجوز له الأكل من الميتة إلا أن يتوب. فإن لم يتب فلا يجوز له

---

(١) يُشير إلى المثل «رجع على حافرته» أي: إلى حالة الأولى، أو الطريق الذي جاء منه. انظر: المُجمل ص١٧٨، المفردات ٢٤٤.

(٢) انظر: الاستذكار (٣٥٤/١٥)، ابن جرير (٢٢٢/٣)، أحكام القرآن لابن العربي (٥٧/١)، القرطبي (٢٣١/٢، ٢٣٢)، المغني (٧٥/١١)، أضواء البيان (١٠٥/١).

الأكل ولو مات. فلو قيل: كيف تبيحون له ترك الأكل ولو مات؟ قالوا: لأنه قادر على أن يبيح ذلك بالتوبة. وهو الذي أصرَّ وامتنع أن يتوب إلى الله، فلو تاب إلى الله أجاز له ذلك.

وأجاز الإمام مالك وأصحابه أكل الميتة للمضطر، ولو كان قاطع طريق، أو خارجاً على الإمام؛ لأنهم فسَّروا الباغي والعادي بتفسير غير هذا، قالوا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير باغ مُتَشَهٍّ لأكل الميتة وهو قد يجد غِنىً عنها. ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: جاوز إلى الحرام. وهو في غِنىً عنه بالأكل بالحلال. وعلى هذا التفسير فهي كالتكميل لقوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ والقول الأول أولى؛ لأن التأسيس مقدم على التأكيد(١).

وقال بعض العلماء: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي باغٍ: مُتَشَهٍّ في نيل الحرام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: مجاوز قدر سد الرمق إلى الشبع. إلى آخر الأقوال التي قدمناها في البقرة. هذا معنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

قال بعض العلماء: يلحق بالباغي والعادي كل مسافر سفراً حراماً، فإنه لا يترخص في أكل الميتة، كالذي يسافر لقطيعة الرحم، أو يسافر ليقتل رجلاً مُعَيَّناً مسلماً، ونحو ذلك من السفر الحرام، فإنه لا يباح له أكل الميتة وإن ألجأه الجوع(٢). والذين يقولون هذا يقولون: كذلك لا يترخص بقصر الصلاة، فعليه أن يصليها رباعية؛ لأن الرخصة وُجِدَت من باب التسهيل فكأنه إعانة له على ظلمه، والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: الآية ٢] فكأن إباحة الميتة له والتسهيل له بقصر الصلاة إعانة له على ظلمه. وهذا معنى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ

---

(١) في هذه القاعدة انظر: البحر المحيط للزركشي (١١٧/٢، ١٢٠)، شرح الكوكب المنير (٢٩٧/١) شرح مختصر الروضة (٧٤٧/٣ ـ ٧٤٨)، أضواء البيان (٣٥٥/٣)، (٧٥٩/٥)، (٢٤٤/٦ ـ ٢٤٥، ٦٩٢)، (٤١٤/٧، ٨٢١).

(٢) انظر: المغني (٧٥/١١)، القرطبي (٢٣٢/٢)، أحكام القرآن لابن العربي (٥٨/١).

غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: خالقك وسيدك. ﴿غَفُورٌ﴾. ومن مغفرته أنه يبيح له الأكل عند الضرورات. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده، ومن رحمته: أنه أباح لهم ما اضطروا إليه، وألجأتهم إليه الضرورات. وهذا معنىٰ قوله جل وعلا: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٦].

لمَّا بيَّن الله (جل وعلا) أشياء حرمها علىٰ هذه الأمة علىٰ لسان نبيه ﷺ، وكان حرمها عليهم لمصالح معلومةٍ عنده (جل وعلا)، بيّن أنه حرم علىٰ اليهود بعض الأشياء مؤاخذة لهم وجزاءً لهم باجترامهم السيئات، قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ المراد بالذين هادوا هنا: اليهود، والعرب تقول: «هاد يهود» إذا تاب من ذنبه ورجع إلىٰ الصواب. وهذا معروفٌ في كلام العرب، ومنه قول الله في الأعراف عن نبيه موسىٰ: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] أي: تبنا ورجعنا منيبين إليك. فمعنىٰ (هاد، يهود): إذا رجع تائباً إلىٰ الحق، متنصلاً من ذنبه[(١)]. واسم فاعله: (هائد)، ويُجمع علىٰ (هُوْد)، ومنه: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: الآية ١٣٥] وجَمْعُ (الفاعل) علىٰ (فُعْل) مسموعٌ في أوزانٍ قليلة، كهائدٍ وهُود، وحائلٍ وحُول، وعَائِذٍ وعُوْذ، وبَازِلٍ وبُزْل[(٢)]. وقد قال بعض الأدباء[(٣)]:

---

(١) انظر: الدر المصون (٤٠٥/١).

(٢) انظر: السابق (٦٩/٢). والحائل: الأنثى التي لم تحمل. (المصباح المنير، مادة: حول. ص٦٠). والبازل: البعير الذي فَطَرَ نابُه بدخوله في السنة التاسعة. (المصباح المنير، مادة: بزل. ص١٩).

(٣) نسبه المرزوقي للزمخشري كما في شواهد الكشاف ص ٢٩. وهذه النسبة غير صحيحة؛ لأن الزمخشري حينما أورده في الكشاف (٩٦/٢) قال: «ولبعضهم» وذكره. وأوله: «يا راكب...».

يـا صـاحـبَ الـذنـبِ هُـدْ هُـدْ واسـجُـد كـأنـكَ هُـدْهُـدْ

فقوله أولًا: «هُدْ، هُدْ» معناه: تُبْ، تُبْ. «واسجد كأنك هُدْهُد» وهو الطائر المعروف. يعني: وإنما قيل لليهود: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ لأنه في تاريخهم توبة عظيمة سجلها لهم القرآن، وهي توبتهم من عبادة العجل، لما رجع موسىٰ من الميقات من الطور، ووجدهم يعبدون العجل، جاء الوحي بأن الله لا يقبل توبة أحدٍ منهم حتىٰ يقدم نفسه للموت، كما قدمنا إيضاحه[1] في البقرة في قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٤] أي: فقدمتم أنفسكم فتاب عليكم. هذه التوبة التي تجر الإنسان إلى أن يقدم نفسه لله صابراً محتسباً علىٰ الموت توبة عظيمة سجلها لهم القرآن؛ ولذلك ربما أُطلق عليهم اسم: (الذين هادوا): تابوا. أي: بتلك التوبة المعروفة، وإن كانت هذه حسنة فخسائسهم المذكورة في القرآن لا تكاد أن تحصر.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ معناه: أن كل حيوانٍ له إصبع فيها ظفر؛ حرام علىٰ اليهود، ومن ذلك: الإبل، والنعام، والإوَز، والبط، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك؛ لأن كل هذه من ذوات الظفر، فكل حيوانٍ ذي ظفر كان محرماً علىٰ اليهود جميعه، شحمه ولحمه، كالنعام، وكالإبل، وكالبط، والإوَز، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك[2].

وقول بعض العلماء: الظفر: الحافر، فإنه يحرم عليهم كل ذات حافر[3]. غير صحيح؛ لأنهم يعدّون أظلاف البقر والغنم من ذوات الحوافر، ولحومهما مباحة لهم كما سيأتي.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٢) انظر: ابن جرير (١٢/١٩٨)، القرطبي (٧/١٢٥).
(٣) انظر: القرطبي (٧/١٢٥).

وقول بعضهم: المراد بذات الظفر هي: ذات المخالب، أو ذات السباع من الطير[١]. لا يساعده لفظ القرآن، فالصحيح أنه ما كالبعير، وما كالنعامة، وما كالبط، وما كالإوز، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ أي: حرمنا عليهم شحوم البقر والغنم لا لحومهما.

والتحقيق: أن الشحوم المحرمة عليهم من البقر، والغنم مقصورة علىٰ الثروب، وشحم الكليتين[٢].

والثُّرُوب: جمع ثَرْب؛ وهو الغطاء ـ الغشاء ـ من الشحم الرقيق الذي يغطي الجوف فيكون علىٰ الكرش والمصارين[٣]. هذا هو وشحم الكُلَىٰ هو الحرام عليهم، أما غيره فيدخل في الاستثناءات الآتية؛ ولذا قال: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ قرأ بعض السبعة: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ بإظهار التاء، وقرأ بعضهم: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَت ظُّهُورُهُمَآ﴾ بالإدغام ـ الإدغام الصغير[٤] ـ يعني: أن ما عَلق بظهر البقر والغنم من الشحوم، كالشرائح التي تكون علىٰ الظهر من الشحم، فإنها مباحة لهم[٥].

وقوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ التحقيق أن ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ في محل رفع معطوف على الظهور[٦]، يعني: إلا ما حملت ظهورهما أو ما حملته

---

(١) المصدر السابق. ولفظه: «وقيل: يعني كل ذي مخلب من الطير، وذي حافر من الدواب» ا.هـ.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠١)، القرطبي (٧/١٢٥).

(٣) انظر: القرطبي (٧/١٢٥)، المصباح المنير (مادة: ثرب) ص ٣١.

(٤) انظر: السبعة لابن مجاهد ص ١٢٤، الكشف لمكي (١/١٣٥).

(٥) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٢).

(٦) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٣)، القرطبي (٧/١٢٥)، البحر المحيط (٤/٢٤٤)، الدر المصون (٥/٢٠٣).

الحوايا، فهو مستثنىٰ بالتحريم، خلافاً لمن زعم أن الحوايا يعني منصوباً معطوفاً علىٰ شحومهما، حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا، فهي محرمة، فهذا القول ضعيف مرجوح[1]. والمعنىٰ: أن ما حملته الظهور من الشحوم حلالٌ لهم، وما حملته الحوايا.

والحوايا: تختلف فيها عبارات المفسرين بألفاظٍ متقاربة، معناها راجعٌ إلىٰ شيءٍ واحد[2]. منهم من يقول: هي المبَاعِر، أي: المَحَالّ التي يجتمع فيها البَعْر والزِّبل. ومنهم من يقول: هي بنات اللبن، ويسمونها بأسماء، والتحقيق: أنها كل ما كان مُدَوَّراً في البطن مما يُسَمَّىٰ: الدُّوَّارَة، والمصارين، ومحل البعر الذي يخرج منه. ما تعلق بذلك الجوف من الشحوم غير الثُّرُوب التي هي غشاء فوق الجوف، كل ما تعلق بذلك فهو حلال لهم. وهذا معنىٰ: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهو جمع (حاوية)، كقَاصِعَة وقَاصِعَاء[3]. وقيل: جمع (حويَّة) كـ: (فَعِيْلَةٍ) و(فَاعِلَة)[4]. وهي ما احتوت عليه البطن من الأمعاء، وما جرىٰ مجراها من الدُّوَّارَة، والمباعر، ونحو ذلك. فالمتعلق بهذا من الشحم لا يحرم عليهم، وإنما يحرم عليهم الثُّرُوب، وهي الغشاء الذي فوق الكرش والأمعاء من الشحم، وشحم الكُلَىٰ. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾.

والتحقيق أن: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾ معطوف علىٰ المستثنىٰ الحلال[5]، أي: فما اختلط بالعظم فهو حلالٌ لهم، فكل شحم مختلط بعظم كالشحم الذي يكون في عظام البقرة والشاة فكله حلاَلٌ لهم.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢٠٣).

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٣)، القرطبي (٧/١٢٦)، الدر المصون (٥/٢٠٦).

(٣)(٤) في القرطبي (٧/١٢٦): «وواحد الحوايا: حاوياء، مثل: قاصعاء وقواصع. وقيل: حاوية. مثل: ضاربة وضوارب. وقيل: حويَّة، مثل: سفينة وسفائن» ا.هـ. وانظر: الدر المصون (٥/٢٠٦).

(٥) انظر: ابن جرير (١٢/٢٠٥)، القرطبي (٧/١٢٥)، البحر المحيط (٤/٢٤٤ ـ ٢٤٥)، الدر المصون (٥/٢٠٧).

ويدخل فيه الذَّنَبُ الكبير السمين الذي يسمىٰ الإلية فإنه مختلط بعظم؛ لأنه مختلط بعظم العصعص، وهو عجب الذنب المعروف. ويدخل في ﴿مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾: شحم العينين، وشحم الأذنين، وكل شحم اختلط بعظم فإنه حلالٌ لهم. وهذه الاستثناءات تبين أن الحرام عليهم إنما هو الثروب، وشحم الكُلَىٰ فقط. وهذا معنىٰ قوله: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾.

ثم بيَّن الله أنه حرَّم عليهم بعض هذه المحرمات بسبب ظلمهم، فضيق عليهم بالتحريم لمخالفتهم واجترامهم، كما بينه في النساء بقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ﴾ [النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١] أي: وقتلهم الأنبياء، وتحريفهم للكتب، كل هذه الذنوب حُرم عليهم بسببها بعض الطيبات؛ ولذا كان نبي الله عيسى ابن مريم (عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام) بُعث بأن يكون جميع عمله وأحكامه في الغالب عملاً بالتوراة، ولا يزيد إلا أن يُحلل لهم بعض ما حرم عليهم بسبب ذنوبهم، كما سيأتي في قوله عن عيسىٰ ابن مريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران: الآية ٥٠] فجاء تخفيف وتحليل علىٰ لسان عيسىٰ ابن مريم، ولكنهم - قبحهم الله - لعداوته لم يقبلوا منه شيئاً، وزعموا أنه ابن زانية!!

وقد يشكل علىٰ كثيرٍ من الناس أن من يزعمون أنهم علىٰ دين النصرانية دائماً يَفْصِلُون الدين من السياسة، ويزعمون أن الدين مقتصر علىٰ الكنيسة، وأنه لا دخل له في تنظيم العلاقات البشرية، والأعمال الدنيوية!! وسبب ذلك: أن النصارىٰ يزعمون أنهم علىٰ دين عيسى ابن مريم، ودين عيسىٰ ابن مريم جُلّ شريعته التي فيها الحلال، والحرام، والحدود، وإقامة صلاح المجتمع إنما هو بالكتاب الذي هو التوراة، وفي الإنجيل زيادات ليس فيها شرعٌ قائمٌ مستقل، فالنصارىٰ لشدة بغضهم لموسىٰ كذبوا بكتابه، ولم يأخذوا من شريعة عيسىٰ إلا

ما اختص به الإنجيل، وتركوا ما في التوراة مما بُعث عيسىٰ بالعمل به، وصارت ليس في الإنجيل شريعة كاملة وافية يُفَصَّل فيها الحلال والحرام وأحكام علاقات الدنيا، فاضطروا إلىٰ أن يجعلوا تشريعاً سموه (الأمانة الكبرىٰ) وهي الخيانة العظمىٰ!! كما هو معروف في تاريخهم(١). أما التوراة فهو كتابٌ فيه شرعٌ واضح تُبَيَّنُ فيه العقائد، والحلال والحرام، وكل شيء، كما قال الله (جل وعلا) عن التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥] مع أن الإنجيل جاء به بعض الأحكام: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٧]. وكثيرٌ من أحكام الإنجيل يُحال فيها علىٰ ما أنزل الله علىٰ موسىٰ في التوراة، كما قال الله في التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم﴾ ذلك التحريم والتضييق جزيناهم بسبب بغيهم، أي: كفرهم، وظلمهم، وعدوانهم، كما بينه بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٦، ١٥٧] وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١] وكقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: الآية ١٥٥] وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: الآية ٢١] هذا الظلم والبغي حرم الله عليهم بسببه بعض ما كان حلالاً عليهم، كما قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٦/١).

وفي إعراب (ذلك) وجهان معروفان[١]:

أحدهما: أنها في محل رفع. الأمر ذلك الذي قصصنا عليك جزيناهم ذلك الجزاء ببغيهم.

الثاني: أنها في محل نصب بمصدر، أي: جزيناهم ذلك الجزاء. وهذا الإعراب اختاره غير واحدٍ. ولكن ابن مالك قال: إن اسم الإشارة لا يكون منصوباً علىٰ المصدر إلا إذا ذُكر بعده المصدر، كأن تقول: قمت هذا القيام، وقعدت ذلك القعود. أما لو لم تَذكر بعده المصدر كأن قلت: «قمت هذا» تعني: القيام، أو «جلست هذا» تعني: الجلوس. يزعم ابن مالك أن هذا لا يجوز[٢]. وقال بعض العلماء: هي مفعول أول لـ(جزيناهم)؛ لأن (جزىٰ) تتعدىٰ لمفعولين، تقول: جزيت عمراً خيراً، وجزيته شراً، فتكون (ذلك) أحد مفعولي (جزىٰ)، أي: جزيناهم ذلك الجزاء ببغيهم، فتكون مفعولًا به مقدماً، وعليه فلا إشكال.

والبغي: أصله الإرادة[٣]، وكثيراً ما يستعمل في إرادة الظلم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ صيغة الجمع للتعظيم. والله يقول: إني لصادق. معظماً نفسه، ومعلوم أن الله صادق علىٰ كل حال، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٨٧]. والسبب في هذا أن اليهود زعموا أن هذا الذي حُرم عليهم لم يكن جزاءً ولا عقوبة، بل إنما كان حراماً علىٰ إسرائيل، حرمه إسرائيل علىٰ نفسه فاقتدوا به[٤]. وقد تقدم أن الله أكذبهم في هذه الدعوىٰ وألقمهم فيها حجراً في سورة آل عمران، في قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٤٥/٤)، الدر المصون (٢٠٧/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٤٥/٤)، الدر المصون (٢٠٨/٥).

(٣) انظر: المفردات (مادة: بغى) ١٣٦.

(٤) انظر: ابن جرير (٢٠٦/١٢).

فَأْتُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ٩٣] فلما أفحمهم وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ خجلوا ولم يأتوا بالتوراة، وعلموا أن القرآن مهيمنٌ علىٰ الكتب، كما قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٨] ولذا قال هنا: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، فيما ذكرنا من أنَّا حرمنا عليهم ذلك لظلمهم، لا أنه حرمه إسرائيل علىٰ نفسه، والذي حرمه إسرائيل علىٰ نفسه قد قدمنا في سورة آل عمران أن المفسرين يذكرون أن نبي الله يعقوب أصابه المرض المسمَّى بعرق النَّسا وآلمه جداً، فنذر لله إن شفاه الله لَيُحَرِّمن علىٰ نفسه أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان هذا النذر سائغاً في شرعهم إذ ذاك، فشفاه الله، فإذا أحب الشراب إليه لبن الإبل، وأحب الطعام إليه لحم الإبل، فَحَرَّمَهما علىٰ نفسه لذلك النذر[1]. وأن هذا معنىٰ: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: الآية ٩٣] أي: وهو لبن الإبل ولحمها. وقد قدمنا في تفسير البقرة أن سيد اليهود المسلمين عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ أنه لمَّا أسلم فحَسُن إسلامه كان يتقي [أكل] لحم الإبل[2] لِمَا كان متمرناً عليه من تحريمه، فنزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[3] [البقرة: الآية ٢٠٨]. أي: ادخلوا في فروع الإسلام وأحكامه بجميعها، لا تحرموا شيئاً أحله الإسلام، ولا تمتنعوا من أكل شيءٍ أحله الإسلام، وإن كان محرماً في شرعٍ قبله. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

ومن أعظم بغيهم: افتراؤهم علىٰ مريم البتول، ودعواهم عليها أنها زانية، حيث قالوا لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: الآية ٢٨] يعنون: لم يكن أبوك فاحشاً زانياً، ولم تكن أمك بغياً زانية، فمن أين أتيت بهذا الغلام؟ يعنون رميها بالفاحشة، كما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «الحكم أكل» وهو سبق لسان.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٦٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده ضعيف. وذكره الحافظ في العُجاب منبهاً على ضعفه (٥٢٩/١).

بينه الله بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: الآية ١٥٦] ومن أعظم بغيهم - قبحهم الله - زعمهم أنهم قتلوا المسيح ابن مريم، وأنهم صلبوه، وتصديق الجهلة النصارىٰ لهم في ذلك؛ ولذا كان شعارهم الصليب، يزعمون أنها الخشبة التي صلب عليها عيسىٰ (عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام)، والله - وهو أصدق من يقول - يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٧].

واعلموا أن كثيراً من طلبة العلم من المسلمين استحوذت عليهم آراء الإفرنج، فزعموا أن عيسىٰ مات، وأن اليهود قتلوه، وأنه ليس حياً الآن، وأنه لا ينزل في آخر الزمان. وكل هذه أكاذيب إنما حمل عليها ضعافَ طلبة العلم اغترارُهم بآراء الكفرة، وظواهر بعض النصوص. والحق الذي لا شك فيه أن الأخبار متواترة[1] عن الصادق المصدوق (صلوات الله وسلامه عليه) أن الله رفع عيسىٰ إليه حياً، وأنه حيٌّ عند الله، وأنه ينزل في هذه الأمة في آخر الزمان، وأن الله ينسخ علىٰ لسانه بعض الأحكام التي كانت مشروعةً علىٰ لسان النبي، وهو أنه لا يقبل الجزية من أحد، فلا يبقى في زمنه إلا السيف أو الإسلام، ويقتل جميع الخنازير، ويضع الجزية. والتحقيق أن القرآن دلَّ علىٰ أنه حيٌّ، وأنه سينزل، وأن أهل الكتاب يؤمنون به؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٥٩] التحقيق أنه عيسىٰ، والمعنىٰ: أنهم يؤمنون بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ بعد نزوله. هذا التفسير هو الصحيح، وسياق القرآن يدل عليه، والأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ تدل عليه، والدليل علىٰ أنه سياق القرآن: أن الله قال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي: عيسىٰ ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي:

---

(١) انظر: إتحاف الجماعة بما جاء من الفتن والملاحم وأشراط الساعة (١٢٨/٣)، إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان ص٧، أشراط الساعة للوابل ص٢٧٢، وقد نقل عن جماعة من أهل العلم القول بتواتر هذه الأحاديث.

عيسىٰ ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: عيسىٰ. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: عيسىٰ ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: عيسىٰ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ [النساء: الآيات ١٥٦ ـ ١٥٩] أي: عيسىٰ. لتكون الضمائر علىٰ نسقٍ واحد(١).

أما الرواية الأخرىٰ التي جاءت عن ابن عباس أن المعنىٰ: لا أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسىٰ قبل موت أحد أهل الكتاب، لا قبل موت عيسىٰ، وأنهم قالوا لابن عباس: إذا قُطع رأسه غفلةً فأين له أن يؤمن به قبل موته؟ وأنهم زعموا أنه قال: ينطق لسانه بعد أن فارق رأسُهُ جُثَّته بالإيمان بعيسى(٢).

هذا لا يخفىٰ ضعفه، وبطلانه، وعدم مساعدته علىٰ سياق القرآن، وكم من كتابي يموت فجأةً لا يؤمن بعيسى. فالتحقيق هو الأول، وقد دلت عليه الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ.

نعم يبقى لطالب العلم هنا سؤال معروف وهو أن يقول: إن الله قال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
١/٢٠ [آل عمران: الآية ٥٥] فيقول:/ إن الله قال: إنه متوفيك، وقال بعد ذلك: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فهذا دليل علىٰ أنه توفاه. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: الآية ١١٧]. أما قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فلا يستدل به إلا جاهل؛ لأن هذا من كلام عيسىٰ يوم القيامة، ومعلوم أنه لا يأتي يوم القيامة إلا وقد مات عيسىٰ. وإن كان حياً إلىٰ آخر هذه الأمة؛ لأن ذلك يوم القيامة، يقول الله له: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: الآيتان ١١٦، ١١٧] كل هذا قوله يوم القيامة،

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/٢٦٣ ـ ٢٦٥)، قواعد التفسير (١/٤١٥).

(٢) هذا القول ثابت عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من وجوه وطرق متعددة. وقد أخرج جملة منها ابن جرير في التفسير (٩/٣٨٢ ـ ٣٨٦)، وابن أبي حاتم (٤/١١١٣، ١١١٤)، وذكرها ابن كثير (١/٥٧٦ ـ ٥٧٧).
وقال: «فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وكذا صح عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، وبه يقول الضحاك، وجويبر» ا.هـ.

ومعلوم أنه يوم القيامة لا بد أن يكون توفاه الله، بل آية المائدة هذه تدل على أنّ توفيه الذي توفاه به ليس قبض روح؛ لأنه لم يقابله بالحياة؛ لأنه قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ولم يقل ما دمت حيًا. وقابل ديمومته فيهم بقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فعلمنا أنها وفاة جسد وروح لا وفاة روح فقط، إذ لو كانت وفاة روح لما قابلها بقوله: ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ولقابلها بقوله: «ما دمت حيًا» لأن الذي يُقابل بوفاة الروح إنما هو الحياة كما قال ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: الآية ٣١]. ولم يقل: «ما دمت فيهم».

والجواب عن قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] من أوجه متعددة[١]:

أولها: أنه أجمع أهل اللسان العربي الذي نزل به القرآن أن العرب تقول: «توفّاه، يتوفاه» إذا قبضه إليه كاملًا تاماً، كما تقول العرب: توفيتُ دَيْني من فلان. أي: قبضته. ولكن إطلاق التوفي على خصوص قبض الروح دون البدن اصطلاح عرفي لا لغوي، فالاصطلاح اللغوي: يطلق على التوفي وقبض الشيء ببدنه وروحه جميعاً[٢]، وإطلاقه على الروح دون البدن إطلاق عرفي لا لغوي، ومع أن المعروف في الأصل عند أكثر العلماء أن الحقيقة العرفية مقدمة على الحقيقة اللغوية[٣]، وأن الله إذا قال: «توفى الله فلاناً». أن الأغلب الذي يسبق إلى الذهن أنها الروح دون الجسم؛ لأن هذا هو العُرف، والعُرف ينسخ الحقيقة اللغوية، ولكن الحقيقة اللغوية هنا التي هي ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إلي كاملًا، ورافعك إلي بروحك وجسمك. هذه الحقيقة اللغوية وإن كانت تقدم عليها العُرفية التي هي (قبض

(١) انظر: ابن جرير (٦/٤٥٥)، القرطبي (٤/٩٩)، ابن كثير (١/٣٦٦)، أضواء البيان (١/٢٨٠).

(٢) انظر: اللسان (مادة: وفى) (٣/٩٦١).

(٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٤٧٣ ـ ٤٧٦)، شرح الكوكب المنير (٣/٤٣٣ ـ ٤٣٦)، المذكرة في أصول الفقه ١٧٤ ـ ١٧٥، أضواء البيان (٣/١٠٠)، (٦/٥٢٢)، (٧/٢٦٨)، نثر الورود (١/١٥٦)، قواعد التفسير (١/١٥١).

الروح دون البدن) إلا أنها اعتضدت بأحاديث صحيحة عن النبي ﷺ، فصارت حقيقة لغوية معتضدة بأحاديث متواترة، ولا إشكال في ذلك.

الثاني: أن الله لما أراد قبض عيسى إليه ألقى عليه النوم لئلا يزعجه الارتفاع إلى العالم العلوي، فقال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: منيمك وقابضك في نَوْمَه. والعرب تطلق الوفاة على النوم، وجاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في موضعين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يعني في النوم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: الآية ٦٠].

الثاني: قوله في الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: الآية ٤٢].

الجواب الثالث: أن الله نعم قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: الآية ٥٥] وهو متوفيه قطعاً يوماً ما، ولكنه لم يبين وقت ذلك التوفيّ هل هو فيما مضى أو سيأتي بعد آلاف السنين؟ والتَّحكُّم على الله بأنه أوقعه تَحَكُّم بلا دليل، والله متوفيه قطعاً وليس بمخلده، ولكن لم يُعَيِّن ذلك التوفي.

فإن قال قائل: هذا التوفي قبل الرفع؛ لأنه قال بعده: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

فالجواب: أن جماهير علماء العربية أن الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تقتضي التشريك[1] فيجوز بإجماع أهل اللسان العربي أن يكون المعطوف بها سابقاً على المعطوف عليه. تقول: «جاء زيدٌ وعمرو» ويكون عمرو هو الأول؛ لأن الواو إنما تقتضي التشريك فقط؛ ولذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: الآية ٧] فقدم النبي، وعطف عليه نوحاً بالواو، ونوح قبل النبي. وهذا لا نزاع فيه بين العلماء.

---

(١) انظر: الصاحبي ١٥٦، البحر المحيط للزركشي (٢/٢٥٣)، شرح الكوكب المنير (١/٢٢٩)، مجموع الفتاوى (١٦/٧٧)، أضواء البيان (٧/٢٦٩).

فإن قال قائل: قد جاء عن النبي ﷺ حديث يدل على أن الواو تقتضي الترتيب، وهو تفسيره للواو في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨] فبدأ بالصفا، وقال: «**نبدأ بما بدأ الله به**»(١) وفي بعض رواياته: «**ابْدَؤُوا بما بدأ الله به**»(٢).

فالجواب عن هذا هو ما أجاب به غير واحد من علماء العربية: أن الواو من حيث وضعها العربي لا تقتضي تقديماً ولا تأخيراً، وإنما تقتضي مطلق التشريك، سواء كان المعطوف بها هو الأول، أو هو الآخر، أو كانا مجتمعين في وقت واحد، كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: الآية ١٥] لأن إنجاءهما في وقت واحد، إلا أنه إذا دلّ دليل خارجي على أنها يراد بها الترتيب فلا مانع، ولكن الترتيب بذلك الدليل الخارجي لا لأصل الواو في نفسها، ومنه قول حسّان ـ على من رواه بالواو(٣) ـ:

هَجَوْتَ مُحمداً فأَجَبْتُ عنه وعند الله في ذَاكَ الجَزاءُ

لأن الإجابة إنما هي بعد الهجاء لا مانع من أن تقتضي الترتيب إذا دل عليه دليل خارجي. وهنا لم يدل عليه دليل خارجي. وجماهير المفسرين ـ كما قاله كبير المفسرين أبو جعفر الطبري ـ أن معنى ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: قابضك إليّ كاملاً وافياً بجسدك وروحك. وإنما كانت الحقيقة اللغوية هنا مقدمة على العُرفية ـ التي هي قبض الروح ـ [لأمرين](٤):

أحدهما: أن الله قد ثبت أنه رفع جسم عيسى إليه، والأحاديث الدالة المتواترة عن النبيّ أن الله رفع عيسى.

وعلى كل حال فالمعروف عن الذين قتلوه أنهم قتلوه بأن صلبوه،

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ. حديث رقم: (١٢١٨) (٢/٨٨٦).

(٢) الحديث بهذا اللفظ: أخرجه أحمد (٣/٣٩٤)، الدارقطني (٢/٢٥٤)، والبيهقي (١/٨٥). وقد حكم بعض العلماء على هذه اللفظة بالشذوذ. انظر: التلخيص الحبير (٢/٢٥٠)، خلاصة البدر المنير (٢/١١)، نصب الراية (٣/٥٤)، إرواء الغليل (٤/٣١٦).

(٣) انظر: ديوان حسان ص ٢٠.

(٤) في الأصل: أمران.

والله نفى هذا الصلب نفياً باتاً، قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨] فنفى أنهم قتلوه نفياً يقيناً، وهم معذورون؛ لأنهم ظنوا أنهم قتلوه، والله بين السبب الذي جاءهم منه الكذب والغلط؛ لأنه قال: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٥٧] لأن الله ألقى شبهه على رجل فصار مَنْ نظر إلى ذلك الرجل يجزم بأنه عيسى؛ لأن الله ألقى شبه عيسى عليه، فصار الناظر إليه لا يشك في أنه عيسى، فقتلوا ذلك الرجل وصلبوه، واعتقدوا أنه عيسى. فبين الله سبب كذبهم، وعُذرهم في غلطهم فقال: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أما هو نفسه فقد رفعه الله إليه، وهو عند الله (جل وعلا)، وسينزل في هذه الأمة آخر الزمان، ويقتل الدجال، وهذا ثابت عن النبي ﷺ ثبوتاً لا مطعن فيه، وإن أحيا الله من أدركه من هذه الأمة سيجد أخبار الصادق المصدوق حقاً، وسيجد خرافات الكذابين من أتباع الإفرنج باطلاً؛ لأن الله أصدق من يقول، وهو يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ويقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: الآيتان ١٥٧، ١٥٨]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: الآية ٨٧] الله أصدق من يقول.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٧].

الواو في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ قال بعض العلماء[1]: راجعة إلى اليهود؛ لأنهم أقرب من ذُكر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ فإن كذبوك وقالوا: لم تُحرم علينا هذه الأشياء جزاءً ببغينا، بل ما كان حراماً علينا إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾.

الوجه الثاني: أنه راجع إلى كفار مكة الذين أُرسل إليهم النبي ﷺ، وبين لهم أن شركهم بالله باطل، وأن تشريعهم الحلال والحرام بالكذب باطل. فإن كذبوك وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم

(١) انظر: ابن جرير (٢٠٧/١٢)، البحر المحيط (٢٤٥/٤ ـ ٢٤٦)، الدر المصون (٢٠٩/٥).

على أزواجنا، والبَحِيْرَة حق، والسائبة حق، وما جرى مجرى ذلك، فقل: ربكم ذو رحمة واسعة.

وقال بعض العلماء: يرجع إلى الجميع، فإن كذبك الكفرة المعادون المعاندون من مشركين ويهود فقل لهم: ربكم الذي أنشأكم وأوجدكم ذو رحمة واسعة، إلا أن هذه الرحمة الواسعة ذكر الله في سورة الأعراف أنها مخصوصة بالمتقين حيث قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] لا لكل كافر وفاجر.

وقد قدمنا في تفسير (البسملة) و(الفاتحة) أن (الرحمة) صفة من صفات الله، اشتق لنفسه منها اسم (الرحمٰن) و(الرحيم)، وأن (الرحمٰن) هو: ذو الرحمة الشاملة في الدنيا لجميع المخلوقين [في الدنيا، و(الرحيم): هو الذي يرحم عباده المؤمنين في الآخرة] (...)(1).

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤] ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦] ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٤] وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: الآية ٦٥] ولا شك أن لله كلاماً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوقين كلام مناسب لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

هذه صفات المعاني السبع(2) الذي أقرّ بها من جحد كثيراً من الصفات.

---

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وجرت عادة الشيخ رحمه الله في مثل هذا الموضع أن يذكر عقيدة أهل السنة في باب الصفات، وأنها تنبني على ثلاثة أسس، ثم يذكر عقيدة المتكلمين في هذا الباب وتقسيمهم الصفات قسمة سُداسية، ثم يرد عليهم. وهو كلام طويل أكتفي بالإحالة عليه في أحد المواضع، وذلك عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام، وكذا محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات، وهي مطبوعة بعنوان: (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات). انظر ص ١٣ ـ ١٦، ١٩ ـ ٢٢ من المطبوع.

تنبيه: ما بين المعقوفين زيادة تم بها استدراك بعض النقص المتعلق بالكلام على صفة (الرحمة) وقد نقلته من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (١٣٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: شرح المواقف ص ٧٥ فما بعدها، الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٣ فما بعدها، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ١٣.

كذلك الصفات التي يسمونها السَّلْبية، والصفة السَّلْبِية في اصطلاح المتكلمين: هي التي لا تدل بدلالة المطابقة علىٰ معنىٰ وجودي، وإنما تدل علىٰ سلب ما لا يليق بالله عن الله. وهي عند المتكلمين خمس صفات[(١)]: وهي: البقاء، والقِدَم، والغِنَى المطلق - الذي يسمونه: القيام بالنفس، يعنون به: الاستغناء عن المحل والمُخَصِّص - والمخالفة للخلق، والوحدانية. أما القِدَم، والبقاء: فالمتكلمون أثبتوهما لله، وقد قال بعض العلماء: إنه ورد في مثل ذلك حديث، وبعضهم ينفي صحته. والمتكلمون يقصدون بهما معنىً صحيحاً؛ لأن القِدم عندهم: هو سَلْب العدم السابق، والبقاء: هو سَلْب العدم اللاحق. زاعمين أن الله أثبتهما لنفسه في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: الآية ٣] أي: الأول الذي لا ابتداء لأوليته، والآخِر الذي لا انتهاء لآخِرِيَّتِه. قالوا: هذا معنىٰ القِدم والبقاء.

فنقول: القِدَم وَصَفَ الله به المخلوقين، قال: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: الآية ٣٩] ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: الآية ٩٥] ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: الآية ٧٦] والبقاء وَصَفَ به الحادث حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: الآية ٧٧] ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: الآية ٩٦] والوحدانية وَصَفَ بها نفسه: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: الآية ١٦٣] ووصف بعض المخلوقين بها قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: الآية ٤] والغِنَىٰ وَصَفَ به نفسه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٨] ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: الآية ٦] وقال في بعض المخلوقين: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: الآية ٦] ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النور: الآية ٣٢]. ولا شك أن ما وُصِفَ به الله من هذه الصفات مخالف لما وُصف به المخلوق، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق، فلا مناسبة بين الذات

(١) انظر: شرح المواقف ص ٢٩ فما بعدها، منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ١٧.

والذات، ولا بين الصفة والصفة، فالله حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، إلا أن صفة كل بحسبه، فصفة الله بالغة من الكمال والتنزيه ما تتعاظم أن تُشبِه صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق تتعاظم أن تشبه ذوات المخلوقين.

وهذه الصفات الجامعة:[1] كالعلو، والكِبَر، والعِظم، والمُلك، والجبروت، كل هذا جاء في القرآن العظيم وَصْفُ الخالق والمخلوق به، فقد وصف تعالىٰ نفسه بالعلو والكِبَر والعِظَم، قال في وصف نفسه بالعلو والعِظَم: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥]. وقال في وصف نفسه بالعلو والكِبَر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: الآية ٣٤] ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: الآية ٩]. (. . .)[2] فإن كذبوك، وتمردوا، وكفروا فقل لهم، رغِّبهم ورهِّبهم، واجمع لهم بين الوعد والوعيد، فأخبرهم أن ربك واسع الرحمة لمن أطاعه، يرحمه ويدخله جنته، شديد العقاب والنكال لمن عصاه؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما جلب النفع ودفع الضر، ومن أمثال العرب: (سَوْط وتمرة)[3] ليكون الخوف والرجاء جناحين يطير بهما الإنسان إلى امتثال أمر الله. هذا الملك الجبار الذي أدعوكم إليه رحيم عظيم الرحمة الواسعة لمن أطاعه، شديد النكال والبأس لمن عصاه، فعليكم أن تخافوا بأسه ونكاله، وتطمعوا في رحمته فتطيعوه.

قال بعض العلماء: ومن معاني قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾

---

(١) انظر الكلام على هذا النوع من الصفات في محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات (ص ٢٣ ـ ٢٥).

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. ويمكن استدراك النقص بمراجعة محاضرة الشيخ (رحمه الله) في الأسماء والصفات (ص ١٧ ـ ١٩) مع مراجعة كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة في هذا التفسير عند الآية (١٣٣) من سورة الأنعام وغيره من المواضع بالإضافة إلى محاضرة (منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات).

(٣) الذي وقفت عليه في كتب الأمثال: «تمرة وزنبور». كما في المستقصى في الأمثال للزمخشري (٣٢/٢)، معجم الأمثال العربية (٢٧٠/١)، (٣١١/٢).

[الأنعام: الآية ١٤٧] حيث أمهلكم، وأغدق عليكم نعمه، وأعطاكم العافية والإمهال، وأنتم تكذبون رسله، وترتكبون مساخطه، وتتمردون عليه، فما أرحمه، وما أعظم لطفه (جل وعلا)!! إلا أنه قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمْ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إذا أراد بطشاً بقوم مجرمين لا يُرد بأسه عنهم، ﴿بَأْسُهُمْ﴾ أي: عذابه ونكاله، لا يقدر أحد أن يردّه، لا بقوة ولا بشفاعة، ولا بغير ذلك، كبأس غيره من ملوك الدنيا الذي يُردّ بأسه بالقوة، ويُردّ بالشفاعة من غير إذن، فهو إذا أراد بقوم سوءاً فلا مردّ له.

وكثيراً في القرآن أن يجمع الله بين الوعد والوعيد، يجمع بين الخوف والطمع، كقوله هنا: ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمْ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وقوله في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٥] ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: الآيتان ٢، ٣] وقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: الآية ٦] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن لفظ (القوم) قال بعض العلماء: إنما سُمّي قوم الرجل (قوماً) لأنه يرجع إليهم فيكونون قواماً له؛ لأنه لا يستغني الإنسان عن جماعة يستند إليهم فيساعدوه في أموره.

وقد قدمنا مراراً(١) أن القوم في الوضع العربي مُختص بالذكور، وأنه ربما دخل فيه الإناث بحكم التبع، وبينّا أن الدليل علىٰ اختصاص القوم بالذكور: قول الله في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء على القوم يدل علىٰ المُغايرة، ونظيره قول زهير(٢):

وما أدري وسوفَ إخَالُ أدري ... أقَومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من هذه السورة.
(٢) السابق.

والدليل علىٰ دخول النساء في القوم بحكم التبع: قوله في بلقيس ملكة اليمن: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: الآية ٤٣].

وقوله: ﴿بَأْسُهُۥ﴾ أي: عذابه ونكاله.

وقوله: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هو جمع تصحيح للمجرم، والمجرم: اسم فاعل الإجرام، والإجرام ارتكاب الجريمة. والجريمة: الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه العذاب[1]. كالذين كفروا بالله، وجعلوا له الشركاء، وسَاوَوا به شركاءه، وحَرَّمُوا ما رزقهم افتراء عليه، وحرّموا وحلّلوا بالباطل، وفعلوا الفواحش، وقالوا: الله أمرنا بها. هؤلاء كلهم من القوم المجرمين.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

هذه الآية الكريمة من معجزات النبيّ ﷺ؛ لأنه أخبر فيها عن أمر غيب، ثم تحقق ذلك الغيب طبقاً لما ذكر، قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ ذكر أنهم سيقولونه في المستقبل، وهو أمر غيب، ثم بيّن الله أن إخباره عن ذلك الغيب وقع كما قال، بيّنه في (النحل) و(الزخرف)، حيث قال في (النحل): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فتحقق ما قال: إنهم سيقولونه[2].

وهذه شبهة جاء بها الكفار ـ عليهم لعائن الله ـ وتمسّك بها المعتزلة، فهذه الآية محطّ رِحَال عند المعتزلة في أن العبد يخلق عمل نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها[3] ـ سبحانه وتعالىٰ عن قولهم وافترائهم ـ وكلام الزمخشري في هذه الآية في غاية الخبث والقبح؛ لأنه يزعم أن هذه الآية تُبرِّىء الله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: أضواء البيان (٢/٢٧٧).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

وتنزهه من أن يكون شيء من الشرّ بإرادته أبداً، وأن جميع الشرّ بإرادة العباد. في كلام قبيح خبيث(١).

ولما أفحم القرآن الكفار في تحريم ما حرموه بالأدلة والمناظرات، حيث قال: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣] وأفحمهم بالحجة في أنه لم يحرم هذا، وأفحمهم أنه ليس له شركاء، قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١] وهو الخالق الصانع المدبر الذي لا حرام إلا ما حرمه، ولا حلال إلا ما أحلّه، ولا معبود إلا هو، لما أفحمتهم الأدلة، وألقمتهم البراهين الحجر [قالوا كلمة](٢) حق أرادوا بها باطلاً، قالوا للنبيّ ﷺ: هذا الكفر والتحريم، وتحريم البحائر والسوائب، وهذه الأنعام والحرث التي قلنا: إنها حِجْر، وهذا جَعْل النصيب لغير الله، هذا الكفر، وهذا التحريم، كله بمشيئة الله؛ لأن الله لو شاء أن يمنعنا منه فهو قادر؛ لأنه قوي ونحن ضعفاء، فهو قادر جداً علىٰ أن يمنعنا، فلما كان قادراً علىٰ مَنْعِنَا ولم يمنعنا عرفنا أنه راضٍ بفعلنا؛ لأنه إن رآك تفعل شيئاً قبيحاً وهو قادر علىٰ أن يمنعك وتركك تفعله، ولم يمنعك منه، معناه: أنه راضٍ بفعلك، وأنه حسن عنده!! هذا مقصودهم ـ قبحهم الله ـ كما أنهم لما قيل لهم: تصدقوا علىٰ المساكين!! قالوا: الرزق أكثر عند الله، وهو الذي خلقه، والطعام أكثر عنده، فلو كان يحب أحداً أن يطعمه لأطعمه هو!! كما يأتي في (يس) في قوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية ٤٧] فقد احتجوا بهذه الحجة الباطلة، والكلام الذي هو من جهةٍ حق أُريد به الباطل ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالوا: نعم، إنَّ شركنا كفر، وأنه مودي للنار، وإن ما حرمنا تحريمٌ افتراءً علىٰ الله، وأنّا ندخل به النار، هذا الذي فعلنا بمشيئة الله، لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا، ولو شاء أن لم نحرم شيئاً ما حرمنا شيئاً، فلما كان قادراً على منعنا ولم يمنعنا

(١) انظر الكشاف (٤٦/١).

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

دلّ ذلك على أنه راضٍ بفعلنا؛ ولذا قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم إشراكنا ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: ولا أشرك آباؤنا. وإنما سوّغ العطف هنا على ضمير الرفع المنفصل: الفصلُ بين العطف والمعطوف بـ (لا)، وهو مذهب الكوفيين، وهو صحيح؛ لأن القرآن جاء بمذهب الكوفيين هنا، وفي مذهب البصريين في (النحل)؛ لأن مذهب البصريين: أن ضمير الرفع المتصل لا يُعطف عليه إلا في الإتيان بضمير رفع منفصل كـ (نحن) في قوله في (النحل): ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: الآية ٣٥] والكوفيون يقولون: يكفي أي فاصل[(١)] و (لا) هنا فاصلة، فهي تكفي. وهو الحق؛ لأن القرآن نزل به.

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] يعني هذا التحريم الذي فعلنا، والشرك الذي فعلنا، هو بمشيئته، ولو شاء لمنعنا، فلما لم يمنعنا عرفنا أنه راضٍ بفعلنا. وهذه الجُمل، قولهم منها: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام صحيح لا شك فيه، ولكنه كلام حق أُريد به باطل؛ لأنهم يزعمون أنه لما كان قادراً على منعهم ولم يمنعهم أن ذلك رضاً منه، والله يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧] فهو لا يرضىٰ بذلك الفعل، فهو أنذركم وحرمه عليكم، وإن ارتكبتموه فلا يرضىٰ بذلك الفعل بل يدخلكم به النار. وحاصل هذا: أن الكفار احتجوا بأن الله قادر على أن يمنعهم [من الوقوع فيما وقعوا فيه][(٢)] من الشرك وتحريم ما حرموا، دلَّ ذلك على أنه راضٍ بذلك. فالله كذبهم في هذه وقال: إن عدم منعه لهم مع قدرته على ذلك لا يدل على رضاه؛ لأن الله (جل وعلا) يأمر خلقه جميعاً بالدعوة، ويوفّق من شاء، ويخذل من شاء، فالذي وفّقه للخير يرضىٰ بفعله، والذي لم يوفقه للخير لم يرض الله (جل وعلا) بالكفر، والإرادة الكونية القدرية لا تستلزم الرضا[(٣)]،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٦)، الدر المصون (٥/٢١٠)، التوضيح والتكميل (٢/١٨٤)، النحو الوافي (٣/٦٣٠).

(٢) في هذا الموضع وُجد مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٤٧٥)، شرح الطحاوية ص ٣٢٤.

فالله (جل وعلا) قد أراد كوناً وقدراً كفر الكافرين؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] وهذا الكفر بمشيئته ولكنه ليس برضاه، والإرادة الكونية القدرية لا تستلزم الرضا، وإنما يستلزم الرضا: الإرادة الشرعية الدينية، فما أحبه الله شرعاً، ورضيه ديناً، وأراده ديناً هذا هو الذي يلازم الرضا. أما الإرادة الكونية القدرية فإنها لا تستلزم الرضا، فقد يريد الله كوناً وقدراً ما يرضاه، كإيمان المؤمنين، وقد يريد كوناً وقدراً ما لا يرضاه ككفر الكافرين، وقد بينّا احتجاج المعتزلة بهذا، وذكرنا بعض المناظرات التي توضح هذا[1]. والحاصل أن الله تبارك وتعالىٰ خلق خلقه، وسبق في سابق أزله أن قوماً صائرون إلىٰ الجنة، وقوماً صائرون إلىٰ النار، ثم إن الله صرف بقدرته وإرادته قُدرهم وإراداتهم إلىٰ ما سبق به العلم الأزلي، فأتوه طائعين: **«اعملوا فكل ميسر لما خُلق له»**[2].

وقد بينا أن عبد الجبار المعتزلي لما جاء يتقرب بهذا المذهب ويقول: «سبحان من تنزه عن الفحشاء». يعني: أن الله لا يشاء السرقة والزنى؛ لأنهم يزعمون ـ في زعمهم الباطل ـ أن الله أكرم، وأنزه، وأجل من أن تكون هذه القبائح بمشيئته؛ ولذا قال معبراً عن هذا: «سبحان من تنزه عن الفحشاء».

فناظره أبو إسحاق الإسفراييني فقال: «سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء».

فقال عبد الجبار: «أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه»؟

فقال أبو إسحاق: «أتراك تفعله جبراً عليه، أأنت الرب وهو العبد»؟

فقال عبد الجبار: «أرأيت إن دعاني إلىٰ الهدىٰ، وقضىٰ علي بالردىٰ، دعاني إلىٰ الخير، وأوضح لي طريق الخير، ولكن سدّ بابه دوني، أتراه أحسن إلي أم أساء»؟!

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

قال: «إن كان الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان مُلكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل». فَبُهِتَ عبد الجبار، وقال الحاضرون: «والله ما لهذا جواب»[١].

وهذه المسألة بعينها هي التي ذكرنا أن البدوي الجاهل أسكت بها كبير المعتزلة عَمْرَ بن عبيد المشهور، الذي رثاه أبو جعفر المنصور؛ لأنه لما سُرقت له دابة كان يعمل عليها، فجاء لعمرو بن عبيد فقال: ادع الله أن يردّها لي. قالوا: إنه قام يتقرب بهذا المذهب فقال: اللهم إنها سُرقت، ولم تُرد سرقتها؛ لأنك أكرم، وأجل، وأنزه من أن تريد هذه الخسيسة القبيحة!! فالبدوي الجاهل قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يريد ردّها ولا تُرد[٢]!! فهم حاولوا أن ينزهوا الله عن أن تكون القبائح بمشيئته فَقَدَحُوا في قدرته وإرادته، وجعلوا الخلق يفعلون شيئاً بلا قدرة الله ولا إرادته، أرادوا أن يُنزهوه فَقَدَحُوا في ربوبيته ـ والعياذ بالله ـ فمن كان منهم حسن الظن فقد وقع في أمر عظيم، ومن كان سيء الظن فهو سيء الظن، والإنسان قد يُحسن الظن ويريد البرّ ويقع في آثام عظيمة كبيرة، وقد قال الشافعي رحمه الله[٣]:

رَامَ نفعاً فَضَرَّ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ وَمِنَ البِرِّ ما يكُونُ عُقُوقاً

والحاصل أن الله (تبارك وتعالىٰ) أعلم بخلقه، فخلق خلقه، وقدّر مقادير الكائنات قبل أن يخلقها، ثم إنه خلق قوماً جبلهم علىٰ القبح، والخساسة، والخبث ـ عياذاً بالله ـ وخلق قوماً جبلهم علىٰ الطهارة، ويسر كُلّاً لما خلقه له، فصرف الطيبين ـ صرف قدرتهم وإرادتهم ـ بقدرته وإرادته إلىٰ ما شاء من خير، فأتوه طائعين، فأدخلهم جنته، وصرف قدرة قوم آخرين وإرادتهم بمشيئته وقدرته إلىٰ ما سبق به علمه فأتوه طائعين فدخلوا النار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]. فالله (جل وعلا)

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) ديوان الشافعي ص ٦٧.

يصرف قُدر الخلق وإراداتهم حتى يأتوا ما سبق به العلم الأزلي، يأتوه طائعين؛ ولذا قال ﷺ: «**كلٌّ ميسر لما خُلق له**»[1].

ولا شك أن الجاهل يقول هنا: ما الحكمة عند الله وهو الرؤوف الرحيم الكريم أن يخلق قوماً ويجبلهم علىٰ الخبث، ويصرف إراداتهم إلى ما يستوجبون به العذاب الأليم مع أنه الرحمٰن الرحيم؟؟.

هذا سؤال إلحادي قد يقع في قلوب كثير من الملاحدة.

والجواب عن هذا: إن خالق السماوات والأرض، الجبار (جل وعلا)، غني عن جميع الخلائق، غني بذاته الغنىٰ المطلق ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٨] وإنما خلق الخلق ليُظهر فيهم بعض أسرار عظمته، وأسرار أسمائه وصفاته، فلو لم يخلق إلا المطيعين، ولم يكن ـ أبداً ـ إلا الثواب كان ذلك إدلالاً عليه، وسبباً للجراءة علىٰ الجناب الكريم؛ لأن الذي لا يخاف يدل بمحبته، وقد يقع في الجناب الأعظم بما لا يليق، ولما خلق قوماً أشقياء ظهر فيهم ما عنده من الإنصاف والحكمة البالغة، وظهر فيهم بعض أسرار أسمائه كالجبار، والقهار، وظهر فيهم عظمته، وقوته، وشدة عقابه ونكاله؛ ليحصل الخوف من جانب، وخلق قوماً آخرين ووفقهم إلى الخير؛ ليظهر فيهم بعض أسرار أسمائه وصفاته، من الرأفة، والرحمة، والحلم، والكرم، والجود؛ ليجمع بين المحبة والخوف، فلو كانت محبة لا خوف فيها لكان لا عظمة في القلوب، ولوقع الناس في الجناب الإلٰهي؛ لأنهم لا يخافون من شيء. ولو كان خوفاً محضاً لا محبة معه ولا رحمة لكان الكل يمقتون الله ويكرهونه، وكان ذلك غير لائق، فاقتضت الحكمة أن يقسم الخلق إلى صنفين؛ ليظهر في هؤلاء بعض أسرار أسمائه وصفاته، من الرأفة، والرحمة، والكرم، والجود، وجبل قوماً آخرين علىٰ خلاف ذلك؛ ليُظهر فيهم بعض أسرار صفاته وأسمائه من القوة، والبطش، والقهر، والعظمة، والجلال ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وله الحكمة البالغة في ذلك، وقد

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

خلق خلقاً وقال: هؤلاء للنار ولا أُبالي، وخلق قوماً وقال: هؤلاء للجنة ولا أُبالي.

يقول الله جل وعلا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

قد ذكرنا بالأمس أن الكفار ـ قبحهم الله ـ لما أفحمتهم براهين القرآن وحججه في إشراكهم بالله، وتحريمهم ما أحل الله، وأفحمتهم براهين القرآن التجؤوا إلىٰ شبهة كافرة ضالة ملحدة، وقالوا: هذا الإشراك الذي تنهانا عنه يا نبي الله ﷺ، وهذا التحريم الذي نحرمه، كالبحيرة والسائبة، الذي تنهانا عنه، وتُقيم الحجج أنه حرام، نحن ما فعلناه إلا بمشيئة ربنا، فهو قادر علىٰ أن يمنعنا منه، لو شاء لمنعنا. ولمَّا تركنا عليه وهو قادر علىٰ منعنا عرفنا أنه راضٍ عنا، وأن هذا الذي نفعل يرضيه؛ إذ لو كان لا يرضيه لمنعنا منه؛ لأنه قادر علىٰ منعنا منه، إما منع قهر، وإما منع لطف وتوفيق، فيلطف بنا ويوفقنا!! فصارت هذه المقالة شبهة فيها كلام حق أُريد به باطل. فقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام حق لا شك فيه؛ لأنه لا يقع في الكون خير ولا شر، ولا تحريكة ولا تَسكينه إلا بمشيئة الله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] فقول الذين أشركوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ هذا كلام صدق وحق لا شك فيه.

فلطالب العلم أن يقول: ما دام كلامهم حقاً، وهم صادقون في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ـ أي: ولا أشرك آباؤنا ـ ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ أي: نحن ولا آباؤنا شيئاً لم يحرمه الله، كالبحيرة والسائبة. وهذا الكلام الذي ذكر هنا أن الكفار سيقولونه في المستقبل صرح بأنهم قالوه في (النحل) و(الزخرف)، هو بالنظر إلى ذاته كلام حق لا شك فيه؛

لأن الله لو شاء ألا يشركوا ما أشركوا، ولو شاء ألا يحرموا شيئاً ما حرموا شيئاً.

ولطالب العلم أن يقول: إذا كان كلامهم هذا حقاً ـ فَلِمَ قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وفي بعض القراءات ـ وقد تمسك بها المعتزلة لمذهبهم ـ قال: (كذلك كَذَبَ الذين من قبلهم) بالتخفيف[1]. فما وجه هذا التكذيب؟؟ وما قالوا إلا حقاً.

الجواب: أنها كلمة حق أُريد بها باطل؛ لأنهم قالوا ذلك يستدلون به على أن الله راضٍ عنهم بفعلهم هذا، وهذه المقالة الكاذبة الكافرة هي التي أرادوها بكلامهم، فصار التكذيب مُنْصَبّاً عليها. المعنىٰ عندهم: لو شاء الله أن لا نشرك ما أشركنا، فلما تَرَك بيننا وبين الشرك دلّ على رضاه به عنّا!! فادعاؤهم أن ذلك دال علىٰ الرضا هو محل الكذب، وهو الباطل الذي أرادوه بهذا الحق، وهو الذي ينصبّ عليه التكذيب؛ ولذا قال لما قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ قدمنا أن هذه من المعجزات؛ لأنه أخبر عن غيب أنه سيقع قبل أن يقع جازماً بذلك ثم وقع كما قال، فتبين أنه لو لم يكن عالماً أنه وحي من الله لما تجرأ أن يقول: إنه سيقع، خوفاً من أن لا يقع فيقولون: كذاب، فلما أخبر بأنه سيقع جازماً بذلك غير مُحجم، ووقع فعلاً دل ذلك علىٰ أنه نبي صحيح، وأن الله أوحىٰ إليه أن هذا الأمر سيكون فكان، وبين أنه كان بالفعل في سورة النحل في قوله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآيــــة [النحل: الآية ٣٥] وقال في (الزخرف): ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: الآية ٢٠] فبيّن أن ذلك الذي ذكر أنه سيقع أنه وقع بالفعل. وحاصل الآيات أن الكفار استدلوا بأن كفرهم واقع بمشيئة الله علىٰ أنه راضٍ به منهم[2]، وهذا الاستدلال باطل، وكونه واقعاً بمشيئته حق، وكون ذلك يدل علىٰ رضاه به هو محل الكفر. فالله لا يرضىٰ الكفر، كما قال: ﴿وَلَا

(١) وهي قراءة شاذة. انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٧)، الدر المصون (٥/٢١١).

(٢) مضى قريباً.

﴿يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧]، والله قد يريد بإرادته الكونية القدرية ما لا يرضىٰ؛ لأنه لا يرضيه إلا العمل الصالح، مع أنه خلق الخلق أزلاً، وقدّر عليهم أعمالهم التي هم سيعملونها ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٦٣] ثم يسّر كُلاً لما خلقه له، فَصَرَفَت قُدْرَتُه وإرادتُه أَهَلَ الجنة صَرَفَت قُدَرَهُم وإراداتهم إلى فعل الخير، طبقاً لما سبق به العلم الأزلي، وصَرَفَت إرادات وقُدر غيرهم إلىٰ ما سبق به العلم الأزلي، فوجّهت قدرةُ الله وإرادتُه كلَّ مخلوق لما سبق له به العلم الأزلي، فأتاه طائعاً ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠]/. ٢٠/ب

ومن هنا يظهر سقوط استدلال المعتزلة بهذه الآية[1]؛ لأن هذه الآية عندهم هي محل خصب عظيم لدعواهم أن الإشراك ليس بمشيئة الله؛ لأنهم زعموا أن الكفار لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ كذّبهم الله في أن الشرك بمشيئته وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ولم يتفطنوا؛ لأن المنفي في الحقيقة هو استلزام تلك المشيئة بالرضا. هذا هو المنفي حقاً. وقد قدمنا حلّ هذه الشبهة مراراً، فالمعتزلة ـ قبحهم الله ـ أرادوا أن ينزهوا الله عن شيء فقدحوا في ربوبيته (جل وعلا)، فوقعوا في أعظم مما فروا منه، أرادوا أن يجعلوا القبائح كالشرك، والردة، والزنى، والسرقة أنها ليست بمشيئة الله، وأنها بمشيئة العبد، يزعمون أنهم ينزهون الله عن غير اللائق، فقدحوا في ربوبية الله، وجعلوا خلقه وكونه يقع فيه شيء من غير مشيئته، فوقعوا في أعظم مما فرّوا منه بأضعاف.

والتحقيق الذي لا شك فيه: أنه لا يمكن أن يقع في العالم تحريكة ولا تسكينة، ولا خير ولا شر، إلا بمشيئة الله (جل وعلا). وادعاء المعتزلة أن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها لا يخفى أنه قدح في ربوبية الله، إذ لا شيء أعظم من أن يكون خالق الكون يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته. هذا أعظم الكفر والقدح بالله ـ عياذاً بالله ـ ففروا من شيء فوقعوا في أعظم مما فروا منه، والله (جل وعلا) يقدر الأشياء ويخلقها،

(١) مضى قريباً عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

وتضاف لمكتسبيها. فالسرقة والزنى لا تكون إلا بمشيئة الله، وكل شر لا يكون إلا بمشيئة الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: الآيتان ١، ٢] لأن كل ذلك الشر إنما خلقه الله، فالله (جل وعلا) خالق، والعبد كاسب وفاعل، فلا تضاف السرقة إلى الله، فلا يجوز أن تقول في حقه: سارق ـ سبحانه جل وعلا عن ذلك علواً كبيراً ـ وإنما السارق من أوجد الله منه الفعل وقَدَّره عليه، فالله (جل وعلا) يوجه إرادات المخلوقين وقدرتهم إلى ما سبق به علمه الأزلي مما هم صائرون إليه، فيتوجهون إليه بمشيئة الله طائعين فيعملونه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] وهذه المسألة قد سأل عنها الصحابة النبي ﷺ كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما ـ أنهم سألوه: هذا العمل الذي نعمل أنعمله لأمر مُؤْتَنَف، ونُحْدِث به سعادة لم تكن سابقة، أو شقاوة لم تكن سابقة؟ فأخبرهم بأن الأمر ليس بأُنف، وأنه مفروغ منه، وأن القلم جرى بما هو كائن، وأن السعيد من كُتب عند الله سعيداً، والشقي من كُتب شقياً. فسألوه لِمَ لا يتكلون على الكتاب الذي كتبه الله، ويتركون الأعمال، فمن كُتبت له الجنة فهو داخلها، ومن كُتبت له النار فهو داخلها؟ فبين لهم ﷺ أن كلاً ميسر لما خُلق له، فالذين سبقت لهم السعادة يستعملهم الله بقدرته وإرادته في فعل الخيرات، ويوجه قدرتهم ومشيئتهم إلى الخير بقدرته وإرادته، والعكس بالعكس[1] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠].

وقد بينا مراراً[2] القصص والمناظرات التي تدل على إفحام المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الأعمال السيئة بمشيئة العبد لا بمشيئة الله. وهذا تلزم عليه محاذير عظيمة: أحدها: القدح في علم الله؛ لأن الله (جل وعلا) عالم بما سيفعله خلقه، وما هم عاملون إلى يوم القيامة، مقدر ذلك في أزله، فلو فرضنا ـ والعياذ بالله ـ قول مجوس هذه الأمة ـ المعتزلة ـ أن العبد يستقل بعمل فعله، فلو كان سبق علم الله أن هذا العبد لا يزني يوم كذا وكذا، وأراد العبد بمشيئته

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

أن يخترع ذلك الزنى، فإذا فعله بدون مشيئة الله فقد انقلب علم الله جهلاً ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ بل هو المحيط علمه بكل شيء، المقدر كل شيء في الأزل، الذي يقضي الأمور في أوقاتها التي قدرها لها ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: الآيتان ٤٩، ٥٠]. فالمُجْبِرَة ضُلاَّل حيث ينفون عن العبد أن له فعلاً، والقدرية ضُلاَّل حيث ينفون أن هذا بمشيئة الله. ومذهب أهل السنة والجماعة خارج من بين المذهبين خروج اللبن من بين الدم والفرث لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، فهو لا كما تقوله الجبرية، ولا كما تقوله المعتزلة، فكل شيء بمشيئة الله، والله يصرف مشيئات الخلق إلى ما سبق به علمه الأزلي، فيأتونه طائعين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠] والمعتزلة يقولون: إن الله يجب عليه أن يفعل الأصلح، وإذا فعل للعبد غير الأصلح فقد أخل بالواجب عليه؛ ولذا عندهم لا يفعل للعبد إلا الأصلح. وسبب ترك أبي الحسن الأشعري لمذهبهم؛ لأنه كان على مذهب المعتزلة زمناً طويلاً، وألّف فيه مئات الكراريس، ينصر مذهب المعتزلة، وكان شيخه الجبائي كبيرَ المعتزلة؛ لأنه كان زوج أمه، والأشعري ربيب الجبائي، وكان يوماً معه يقرر أن الله يجب عليه فعل الأصلح، فقال الأشعري للجبائي: إذا كان يجب عليه فعل الأصلح فَلِمَ قَتَلَ الغلام صغيراً؟ ولِمَ لا تركه يكبر حتى يعمل كثيراً من عمل الخير فينال الدرجات العالية في الجنة؟

فقال له الجبائي: يقول له الله: قد سبق في علمي أني لو تركتك تكبر كنت كافراً فمت على الكفر، فكان الأصلح لك أن قتلتك صغيراً.

فقال له الأشعري: إذاً يحتج عليه الكافر الكبير الذي مات، ويقول له: يا رب لمّا سبق علمك أن البعيد سيموت كافراً لِمَ لا تفعل له الأصلح فتقتله صغيراً قبل أن يكتب عليه، كما فعلت الأصلح لذلك الصغير؟ فانقطع الجبائي، وقال للأشعري: أبك جنون؟ قال: لا، ولكن وقف حمار الشيخ في العَقَبَة. ثم ترك مذهب المعتزلة، ورجع إلى مذهب أهل السنة[1]. وهذا من مذاهب المعتزلة الباطلة.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨٩/١٥).

وقد قدمنا مراراً، وكررنا بعض المناظرات الدالة على إدحاض مذهبهم، كمناظرات الإسفرائيني لعبد الجبار، كررناها مراراً[١]؛ لأن العاقل إن نظر فيها يعلم أن أبا إسحاق الإسفرائيني اهتدى إلى مذهب أهل الحق فأفحم به مذهب أهل الباطل على لسان عبد الجبار من كبار المعتزلة المشهورين، جاء يتقرب بهذا المذهب كما يقوله الزمخشري هنا: إن الله قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ يعني: أن شركهم بمشيئته. وأنه كذبهم في هذا وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وقال ـ ولا سيما القراءة الأخرى[٢] ـ: (كذلك كَذَب الذين من قبلهم) فجعل أن من قال: إن الشرك بمشيئة الله أنه كاذب عند الله، وأن الله نص على كذبه!! وهذا تحريف في آيات الله، وقَدْح في ربوبية خالق السماوات والأرض، سبحانه أن يقع في ملكه شيء دون مشيئته (جل وعلا)؛ لأن من يقع في ملكه شيء بغير مشيئته صار ليس برب، ناقص القدرة الكاملة، والله يتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فلما جاء عبد الجبار يتقرب بهذا المذهب في مجلس الإسفرائيني، أبي إسحاق، الشافعي المعروف، فقال عبدالجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء. يعني أن السرقة، والزنى، والشرك ليست بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل. ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني أنا عليه؟!

فقال له أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟! أأنت الرب وهو العبد؟!

فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى علي بالردى. بيَّن لي الخير، ودعاني إليه، وسد الباب دوني، أتراه أحسن إلي أم أساء؟!

قال: أرى أن الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان مُلكه المحض، فإن منعك فعدل، وإن منحك ففضل.

---

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

فبُهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.

وذكرنا مراراً أن رئيسهم الكبير عَمْرَ بن عبيد ـ الذي يطريه الزمخشري غاية الإطراء، والذي رثاه أبو جعفر المنصور؛ لأنه توفي في خلافته، وهو من رؤساء وكبراء المعتزلة المشهورين ـ أفحمه بدوي جاهل، لا يعرف شيئاً؛ لأن الكبير العالم من أهل الإلحاد والضلال قد يفحمه العامي من أهل الحق؛ لظهور دلالة الحق؛ ذلك لأنه لما سُرقت دابته، وجاءه يسأل منه الدعاء أن يردها الله عليه، وأراد التقرب بهذا المذهب، وقال: اللهم إنها سُرقت ولم تُرد سرقتها، ولم تكن سرقتها بمشيئتك؛ لأنك أنزه، وأعظم، وأكرم، وأجل من أن تكون هذه الخسيسة بمشيئتك. ففهم البدوي الجاهل، وقال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت قد سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يُريد ردها ولا تُردا! فإن كان أول الأمر ليس بمشيئته فَلَسْتُ بواثق منه في آخر الأمر؛ لأن الرب لا بد أن يكون كل شيء بمشيئته أولًا وآخراً. فأفحمه وألقمه الحجر[1].

والحاصل أن هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام أخبر الله فيها أن الكفار سيقولون: إن كفرهم وتحريمهم للحلال بمشيئة الله، وأن وقوعه بمشيئة الله دليل على رضاه به! فكذبهم القرآن، والتكذيب منصب على أن كون ذلك بمشيئته لا يدل على رضاه، فلا يقع شيء إلا بمشيئته، ولا يرضيه إلا ما كان طاعة له، كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧] لأنه صرف قُدر الخلق وإراداتهم إلى ما سبق به العلم الأزلي، فأتوه طائعين، فما كان إيماناً وطاعة فهو مرضي عند الله، وما كان كفراً وعصياناً فهو غير مرضي عند الله، وإن كان كل شيء من خير أو شر بإرادته الكونية القدرية، فالله (جل وعلا) يعم جميع الخلق بدعوتهم إلى الدين، ثم يخصص من شاء للتوفيق، فالدعوة إلى الخير عامة، والتوفيق خاص، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: الآية ٢٥]. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ يعني: ولا

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

أشرك آباؤنا من قبلنا. والذي سوَّغ العطف هنا على الفاعل الذي هو ضمير الرفع المتصل: الفصلُ بلفظة (لا) وكل فاصل مسوِّغ، وهو مذهب الكوفيين، وهو الصواب، خلافاً لمذهب البصريين القائلين: لا بد من ضمير منفصل مُسَوِّغ للعطف، كما في آية النحل(١). وهذا معنى قوله: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: ولا أشرك آباؤنا من قبلنا، ولا حرمنا من شيء. أي: لا من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام، ولا من أنعام، ولا من حرث، إلى غير ذلك.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أصله مفعول (حرّمنا) وقد تقرر في علم الأصول أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة (مِنْ) نقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم(٢). وذكره الشيخ سيبويه في كتابه.

والنكرة في سياق النفي قد تُزاد قبلها لفظة (مِنْ) فتنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم ويكون ذلك قياساً مطرداً في ثلاثة مواضع لا رابع لها(٣):

أحدهما: أن تُزاد لفظة (مِنْ) قبل النكرة التي هي فاعل، كقوله: ﴿مَّآ أَتَنٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: الآية ٤٦] الأصل: ما أتاهم نذير.

أو أن تكون قبل المفعول، كقوله هنا: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] الأصل: «ما حرمنا شيئاً». ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٥] أي: ما أرسلنا قبلك رسولاً.

الثالث: أن تُزاد قبل المبتدأ، نحو: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: الآية ٧٣] الأصل: وما إله إلا إله واحد. فزيدت قبلها (مِنْ) لتنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٣) السابق.

قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ الشيء يطلق في اصطلاح الشرع على كل موجود حتى الله (جل وعلا) قد يطلق عليه اسم الشيء[١]، كما قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: الآية ٨٨] وقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] والمعتزلة يزعمون أن الشيء يطلق على المعدوم، ومناقشاتهم في هذا لأهل السنة معروفة[٢]. والدليل على أن المعدوم ليس الشيء، ولا يطلق عليه اسم الشيء: آيات قرآنية كثيرة، كقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: الآية ٩] فنفى عن العدم أن يكون شيئاً، وكقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: الآية ٦٧] فنفى عنه في حال عدمه اسم الشيء، والمعتزلة يزعمون أن الشيء يطلق على المعدوم، وبعضهم يقول: المعدوم قسمان:

معدوم ممكن، كإيمان أبي لهب، فإن إيمان أبي لهب معدوم قطعاً؛ لأن الله يقول: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد: الآية ٣] مع أن هذا المعدوم يمكن عقلاً؛ لأن إيمانه يجوز عقلاً، إذ لو كان مستحيلاً عقلاً لكان تكليفه بالإيمان تكليفاً بالمحال، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

الثاني: أن يكون الشيء المعدوم مستحيلًا عقلًا، كشريك الله ـ جل وعلا سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ـ.

وبعضهم يقول: إن الشيء يطلق على المعدوم مطلقاً.

وبعضهم [يقول][٣]: يُطلق على المعدوم الممكن دون المعدوم المستحيل. واستدلوا بأدلة لا تنهض، منها: قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن﴾ [يس: الآية ٨٢] قالوا: فسماه (شيئاً) قبل أن يقول له: (كن). وهو إذ ذاك معدوم. فدل على تسمية المعدوم (شيئاً). وهذا يناقضه قوله:

---

(١) قال الإمام البخاري في صحيحه: «باب: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾. فسمى الله (تعالى) نفسه شيئاً، وسمى النبي ﷺ القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله. وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾». البخاري مع الفتح (١٣/٤٠٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: الآية ٩] وإنما أطلق عليه اسم الشيء نظراً إلى عادة العرب أنهم ينزلون الواقع المتحقق وقوعه كالواقع بالفعل، كما قال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: الآية ١] ذكر أنه أتى فعلاً وهو لم يأت بالفعل؛ لأن تحقق وقوعه كوقوعه بالفعل. وهذا كثير في القرآن ـ فقد ذكر الله منه في سورة الزمر ـ جداً: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ معناه: سيكون ذلك يوم القيامة ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الزمر: الآيات ٦٩ ـ ٧٣] كل هذه الأفعال الماضية إنما هي بمعنى المستقبلات التي ستقع يوم القيامة؛ لأن تَحَقُّقَ وقوعها نزّلها منزلة الواقع فعلاً، كما هو معروف في فن المعاني[1]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾.

ثم قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذب هؤلاء الكفرة الفجرة رسولي محمداً ﷺ في أن الله واحد لا شريك له، وأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، كما كذبوه وادّعوا أن وقوع ذلك بمشيئة الله دليل على رضاه، كما كذبوه بهذه الشُّبَه الكافرة الملحدة ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الرسل، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب، ولم يزالوا مكذبين ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] أي: ذاقوا ألم عقابنا وشديد نكالنا، وقد يكون ذلك بهم في الدنيا كما وقع لقوم نوح حيث استأصلهم الطوفان بالغرق، ووقع لقوم هود حين أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. قال الله فيهم: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي: قتلى أمواتاً ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: الآيتان ٧، ٨] وكما فعلنا بقوم صالح حيث أُرسلت عليهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وكما أحرق قوم شعيب بالظلة، وكما رفع الأرض بقوم لوط وجعل عاليها سافلها، وكما أغرق فرعون وقومه في البحر. هذا من نكال العذاب الدنيوي، ويتلوه العذاب الأخروي ـ والعياذ بالله ـ كما قال تعالى في التنكيل بالمشركين يوم بدر

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن ٢٩٥، الصاحبي ٣٦٤، فقه اللغة للثعالبي ٣٠١، البرهان للزركشي (٣/٣٧٢)، المزهر (١/٣٣٥)، قواعد التفسير (١/٢٩٢).

مع اتصال العذاب الأخروي على ما ذكره بعض أهل العلم: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: الآية ٢١].

ومعنى: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ لم يزالوا مصرين على تكذيب الرسل معاندين ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: ذاقوا طعم ألم العذاب والنكال الكائن مما في الدنيا، المتصل بعذاب الآخرة ـ والعياذ بالله ـ قل لهم يا نبي الله: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ دعواكم أن كل ما وقع بمشيئة الله هو راضٍ به حسن عنده؟ هل عندكم من علم بهذا أن الكفر الواقع بمشيئته أنه لما كان بمشيئته كان برضاه، وكان حسناً عنده؟ هل عندكم على هذه الدعوى الفاجرة من علم فتخرجوه لنا؟ أي: تبرزوه لنا. الفعل هنا منصوب، وأصله: (تخرجونه) إلا أن المقرر في علم النحو أن فاء السببية إذا جاء بعد طلب أو نفي محضين فإنه ينصب بـ (أن) مضمرة[1]. والطلب هنا محض؛ لأنه استفهام ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: الآية: ١٤٨]، ولو كان استفهام التقريع يقتضي النفي، فالنفي أيضاً محض، فعلى كل حال فهو منصوب، كقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف: الآية ٥٣].

هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى خَمْرٍ فأَشْرَبَهَا أم هل سبيلٌ إلى نَصْر بن حَجَّاجِ[2]

وما جرى مجرى ذلك.

وقوله: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أصله مبتدأ جاءت قبله (مِنْ) والأصل: (هل عندكم علم). فالعلم: مبتدأ استند على الظرف قبله، وهو خبره[3]. ويجب تقديم المبتدأ هنا؛ لأن الذي سوَّغ الابتداء به: النكرة التي كانت خبراً[4]، إلا أنَّا ذكرنا ـ الآن ـ أن زيادة لفظة (مِنْ) قبل النكرة في

---

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٢٩٦). مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.
(٢) البيت لفريعة بنت همّام، وهو في اللسان (مادة: مني) (٣/٥٣٩).
(٣) انظر: الدر المصون (٥/٢١١).
(٤) قوله: «ويجب تقديم المبتدأ ـ إلى قوله: ـ التي كانت خبراً» هذه الجملة فيها اضطراب في المعنى والصواب أن يُقال: «يجب تأخير المبتدأ هنا؛ لأن الذي سوَّغ الابتداء به ـ وهو نكرة ـ تقدم الخبر وهو شبه جملة».

سياق النفي - الذي ينقلها من الظهور في العموم - إلى التنصيص الصريح في العموم مطرد في ثلاثة مواضع[١]: تُزاد قبل الفاعل، وتزاد قبل المفعول، وقبل المبتدأ، كما هنا. والأصل: هل عندكم علم فتخرجوه لنا؟ ولو قال: (هل عندكم علم) لأن الاستفهام هنا استفهام إنكار مشتمل على معنى النفي.

﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي: فتبرزوه لنا وتظهروه لنا. وهذا - مَثَلاً - إعجاز؛ لأن الله يعلم أنهم ليس عندهم علم، وإنما قالوه تخرصاً وكذباً.

ثم قال: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ والمعنى: لا علم عندكم ألبتة.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ما تتبعون في هذه الأمور إلا الظن. وأصل الظن في الاصطلاح: جُل الاعتقاد. والعرب تطلقه على الشك[٢]. وجدتُم آباءكم يقولون شيئاً فاعتقدتموه، باطلاً وتقليداً أعمى، من غير دليل.

﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ معناه: وما أنتم إلا تكذبون.

الخرص هنا معناه: الكذب، ومنه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٠] لُعن الكذابون، وأصل اشتقاقه من الخرص الذي هو الحزر؛ لأن الكذاب لا يتحرى حتى يتحقق، وإنما يقول حزراً وتخمينا، ومن هنا أُطلق الكذب على الخرص[٣]. وقوله: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ معناه: وما أنتم إلا تكذبون، كَذَبَة فَجَرَة حيث زعمتم أن شرككم وإن كان واقعاً بمشيئة الله أن الله راضٍ به، وأنه حسنٌ عنده، كلا، لا دليل، ولا علم بذلك، وإنما هو افتراء، وكذب، وتخرص على الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: والظنّ لا يغني من الحق شيئاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: الآية ٣٦] وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[٤]، وهذا في الظن فيما يُطلب فيه اليقين، كعبادة الله (جل وعلا) وحده، فإن هذه أمور يقينية لا تختلجها ظنون.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

وتمسك ابن حزم بظاهر هذه الآيات أن كل اجتهاد باطل، وأن كل اجتهاد ظن، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً[١]. فهذا ليس على بابه؛ لأن الأمور العملية إنما يُعمل فيها بالظنون، وقد يكون الظاهر قطعياً لا شك فيه وباطن الأمر مظنون لا ندري أحق هو أم كذب؟ وقد دلَّ القرآن في بعض المواضع أن الظاهر يكون قطعياً لا شك فيه، والباطن باطن[٢] لا شك فيه. وهذا الشرع الكريم لا يأمر في نفس الواقع بمعرفة الواقع، فنحن جميعاً هؤلاء موجودون، كل واحد منا يُقال له فلان بن فلان، يُنسب إلى أبيه، وتكون أخوات أبيه عماته، ويرث في أبيه، ونحن لا نجزم قطعاً بأن كل واحد منا مخلوق من ماء أبيه، فقد تكون بعض النساء فاجرة، وتدخل لزوجها ولداً من غيره. وهذا الظن يُحكم له بالقطع، والله أمرنا بالبينة، قال: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: الآية ٢] فنحن نُشهد العدلين، ونقتل المسلم بشهادة عدلين، ولو سُئلنا: هل أنتم جازمون في نفس الأمر أنهما صادقان؟ لقلنا: لا والله، لا نجزم؛ لأنهما غير معصومين، ويجوز في حقهما الكذب، ولكننا نظن ظناً غالباً لعدالتهما أنهما صادقان، فإن كانا صادقين فذلك، وإن كانا كاذبين فعليهما، ونحن نبرؤ من ذلك.

ومن هذا المعنى ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أم سلمة، أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ هند بنت أمية، أن النبيّ ﷺ قال: «**إنما أنا بشر، وإنكم لتختصمون إليَّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً، فكأنما أقطع له قطعة من نار**»[٣] هذا حديث ثابت في الصحيحين، بين فيه النبيّ أنه ليس على يقين أن ما

---

(١) انظر: المحلى (١/٦٨، ٧١).

(٢) يحتمل أن تكون: «باطل».

(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب: إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه. حديث رقم: (٢٤٥٨)، (٥/١٠٧)، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة. حديث رقم: (١٧١٣)، (٣/١٣٣٧).

يقضي به مطابق للواقع في نفس الأمر، بل هو يقضي على نحو ما يسمع من ظواهر الدعاوي والبينات، وقد يكون الأمر مخالفاً في باطن الأمر؛ ولذا قال: «**فمن قضيتُ له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً، فكأنما أقطع له قطعة من نار**».

وقد بين الله في سورة النور أن هذا التشريع الذي يُراعى فيه الظاهر ـ ولو كان الظاهر باطلًا ـ أن الله إنما قَبِلَه رأفة بهذه الأمة، وتسهيلًا عليها، أوضح ذلك في آية اللعان؛ لأنه لما جاء هلال بن أُمية[١]، وعويمر العجلاني[٢]، ورمى كلّ منهما زوجته بالزنى لرجل، وقال هلال: رأت عيني وسمعت أذني، وأنزل الله آية اللعان. قام الرجل فحلف أَيْمَانَه، وخمَّس باللعنة. يقول في الأَيْمَان الأربعة: أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به من الزنى، ثم خمَّس في الخامسة باللعنة، لعنة الله عليه إن كان كاذباً فيما رماها به من الزنى. ثم قامت المرأة فحلفت أَيْمَانَها، وخمَّست بغضب. تقول: أشهد بالله إنه لكاذب عليّ فيما رماني به من الزنى. ثم قالت في الخامسة: غَضِبَ الله عليها إن كان صادقاً فيما رماها من الزنى. فلما انتهت الأَيْمَان قال لهما الشرع الكريم: أنت مُصَدَّق، وأنتِ مُصَدَّقَة. ليس عليكَ أنت قَذْفُ مُحْصَنَة، وليس عليكِ أنتِ حد الزنى. فصارت المرأة لا شيء عليها، والرجل لا شيء عليه، ونحن نتيقن يقيناً جازماً أن باطن هذه القضية خراب!! لأنه لا بد أن واحداً منهما كاذب. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**الله أعلم إن أحدكما لكاذب**». ولو لم يقلها ﷺ فنحن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين) حديث رقم: (٤٧٤٧) (٤٤٩/٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في اللعان، حديث رقم: (١٤٩٦) (١١٣٤/٢) من حديث أنس رضي الله عنه مختصراً.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ حديث رقم: (٤٧٤٥) (٤٤٨/٨)، وانظر حديث رقم: (٤٧٤٦). ومسلم في اللعان. حديث رقم: (١٤٩٢)، (١١٢٩/٢) من حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه). وقد جاء نحوه عن ابن عمر وابن عباس (رضي الله عنهما).

نعرفها كل المعرفة، ونجزم كل الجزم أن الكاذب منهما في ظهره حد من حدود الله، فإن كانت كاذبة فعليها حد الزنى، وإن كان كاذباً فعليه حد القذف، هذا لا محيص منه.

وهذا الحكم السماوي الذي أنزله خالق السماوات والأرض فيه هذا الحكم لهذه الأمة، صدّق الرجل، وصَدَّق المرأة، وذهبا مُصَدَّقين، لم يثبت على أحدهما شيء. ونحن نعلم أن واحداً منهما خائن كاذب. ومحل الشاهد: أن الله لما فَصَّل هذا في آية اللعان أتبعه بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: الآية ١٠] أي: لولا فضله عليكم، ورحمته بكم، وتوبته عليكم، وحكمته في تخفيف التشريع عليكم. وحذف جواب (لولا)، أي: لَمَا قَبِلَ منكم هذا. أو: لَفَضَح الكاذب على رؤوس الأشهاد. فهذا تسهيل، وهذا مما يدل على أنَّا في الشرائع العملية، لسنا مكلفين بمعرفة الباطن في نفس الأمر، فالباطن عند الله. فعلينا أن نعمل بما ظهر من الظنون الغالبة على الظن، وإن كنا لا نجزم بالواقع في نفس الأمر، فتبين أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: الآية ٣٦] فيما يُطلب فيه اليقين، كعبادة الله (جل وعلا) وحده، وتنزيهه عن الأولاد والشركاء، وأنه لا حرام إلا ما حرمه، ولا حلال إلا ما أحله مما يجب فيه القطع والجزم اليقيني. أما المسائل العملية فما في باطن الأمر لا نجزم به. وكذا بأنّا نعمل بأخبار الآحاد بإجماع من يُعتد به من العلماء، ولو سُئلنا عنهم: أيجوز في حقهم الكذب؟ لقلنا: نعم؛ لأنهم غير معصومين!! وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] إن احتججتم بأمور باطلة وشُبَه كاذبة، فللّه الحجة البالغة على خلقه، وليس لأحد حجة على الله. والبالغة معناه: هي التي يبلغ بها صاحِبُهَا غَرَضَه لإفحام خصمه، وإظهار الحق. والعلماء يقولون: هذه الحجة البالغة هي إرسال الرسل، وإقامة المعجزات، وبيان أنه (جل وعلا) واحد لا شريك له.

وظاهر القرآن يدل على أن هذه الحجة البالغة على مذهب الجبرية هي قوله جل وعلا: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا داخل فيها دخولاً أولياً؛ لأن مُلْك التوفيق حجة بالغة على الخلق، وهذه الآية هي التي احتج بضمنها أبو إسحاق على عبد الجبار؛ لأنه كأنه قال له: مُلكه تعالى للتوفيق حجة بالغة على خلقه، فتمام الحجة البالغة أنك إذا قارنت بين سُنّي - مثلاً - وجبري، فقال الجبري: إن كفره - والعياذ بالله - ومعاصيه كُتِبَ عليه في الأزل قبل أن يُولد، وإن الأقلام جفت، والصحف طُويت، وما كان فقد كان، ولم يبق شيء حادث إلا وقد سبق في الأزل. فيقول هذا الجبري الكافر: إن كفر البعيد قد كتبه الله عليه أزلاً، وإنه لو شاء أن يتخلص من ذلك المكتوب أزلاً لما كانت له القدرة؛ لأن علم الله الأزلي لا يتغير. فيقول البعيد: هو مقهور، وإذاً هو مجبور!! فله حجة في زعمه على ربه، فكأن ربه يقول: جميع الأسباب التي اهتدى بها المهتدون أعطيتك إياها، فالأعين التي أبصروا بها سمائي، وأرضي، وجبالي، وبحاري، وحدائقي، وحيواناتي حتى عرفوا بها قدرتي، وأني رب كل شيء، وأني المعبود وحده، أعطيتك عيوناً مثلها، والآذان التي سمعوا بها مواعظي، وآياتي، وكتبي عن الرسل أعطيتك مثلها، والقلوب التي عقلوا بها عن الله، وعرفوا مخالفة الخالق للمخلوق، وعرفوا بها عظمة جبار السماوات والأرض، وأنه جدير بأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى أعطيتك قلباً مثل قلوبهم، فكل ما أعطيت المهتدين من أسباب الهداية أعطيتك مثل ما أعطيتهم، إلا خصوصية التوفيق، فقد تفضلت به على قوم ولم أتفضل به على آخرين، فمن تفضلت به فهو فضل مني، ومن لم أتفضل به فهو عدل مني. كما قال أبو إسحاق: «إن كان الذي منعك حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك، وإن كان مُلكه المحض فإن منعك فَعَدْل، وإن مَنَحك ففضل»[1]. ولذا قال هنا: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ﴾ على خلقه، وهي ما أنذرهم به من الإنذار، وما أرسل لهم من الرسل، وما أعطاهم من العقول، والأسماع، والأبصار ﴿وَٱللَّهُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من هذه السورة.

أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: الآية ٧٨] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩] لأنه قطع عُذر عبده بأن أعطاه كل ما أعطى المهتدين: إلا خصوص التوفيق، فهذا الذي منعه. وبملكه للتوفيق قامت حجته البالغة؛ ولذا أَتْبَعه بقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلو شاء لمنحكم التوفيق كُلاً، ولكنه تفضل به على بعض، ولم يتفضل به على الآخرين، فمن تفضل به عليهم فهو فضل، ومن منعهم إياه فهو عدل لا ظلم فيه؛ ولذا قال: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومفعول المشيئة محذوف، وقد ذكرنا مراراً أن فعل المشيئة إن كان معلقاً بشرط فإنه يكفي عن مفعوله جزاء الشرط[1]. والأصل: فلو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم أجمعين، ولكنه لم يشأ، كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: الآية ١٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

وهذه تقضي على مذهب المعتزلة؛ لأن الله صرح بأنه لو شاء لهداهم أجمعين، فعُرف بأن شركهم بمشيئته، وأنه لو شاء أن لا يُشركوا ما أشركوا ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: الآية ١٣] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧] ونحو ذلك من الآيات.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٥٠].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ﴾ قل يا نبي الله لهؤلاء الذين حرموا السائبة والبحيرة والوصيلة والحام، وقالوا: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩] ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٨] أي: حرام.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من هذه السورة.

قل للمُحَرِّمين هذه الأشياء، الزاعمين أن الله أمرهم بتحريمها، كما صرح به في (الأعراف) في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٨] قل لهم يا نبي الله: هذا الذي ادعيتم على الله من أنه حرم هذا وأمركم بتحريمه هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون لكم على الله أنه حَرَّم هذا.

و(هَلُمَّ) معناه: أَحْضِرُوا وقَرِّبُوا. وهذه الكلمة - كلمة (هَلُمَّ) - فيها خلاف، هل هي مفردة، أو مركبة؟ لا يعنينا بحثه الآن. وهي فيها لغتان[١] -:

لغة الحجازيين التي نزل بها القرآن: أن لفظة (هَلُمَّ) اسم فعل لا فعل أمر؛ ولذا إذا خاطبوا الأنثى قالوا لها: «هَلُمَّ يا فلانة». ولم يقولوا: «هَلُمِّي» بياء المؤنثة. فيقول الحجازيون للذَّكَر الواحد: «هَلُمَّ» وللذَّكَرين: «هَلُمَّ». وللذكور: «هَلُمَّ». وللإناث: «هَلُمَّ». فهي اسم فعل. وهي لغة القرآن؛ لأن المخاطب هنا جماعة، والأصل لو مشى على لغة التميميين من النجديين لقال: «هَلُمُّوا شهداءكم».

أما لغة التميميين، وبعض القبائل النجديين: فـ(هَلُمَّ) فعل أمر لا اسم فعل؛ لأنهم يقولون للجماعة: «هَلُمُّوا» وللإثنين: «هَلُمَّا» وللأنثى: «هَلُمِّي» فإذا قالوا لها: «هَلُمِّي» دخلتها ياء المؤنثة المخاطبة، وهي من علامات الأفعال، كما قال في الخلاصة[٢]:

(بِتَا فَعَلْتَ، وَأَتَتْ، وَيَا افْعَلِي) ....

فهي في لغة الحجازيين اسم فعل، وفي لغة التميميين وبعض القبائل النجديين فعل أمر. ويظهر الفرق في كونها اسم فعل، وبين كونها فعل أمر: أنها إن كانت فعل أمر اتصلت بها ضمائر المخاطبين، نحو: (هلموا) للرجال و (هَلْمُمْنَ) للنساء، و (هَلُمَّا) للاثنين، و (هَلُمِّي) للواحدة. والقرآن جاء فيها على لغة الحجازيين، أنها اسم فعل لا فعل أمر.

---

(١) انظر: القرطبي (١٢٩/٧)، الكليات: ص ٩٥٩، القاموس (مادة الهليم) ١٥١١، الدر المصون (٢١١/٥)، معجم الإعراب والإملاء ص٤٣٨.

(٢) الخلاصة ص٩.

وتأتي متعدية ولازمة، فمن إتيانها متعدية قوله هنا: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٠] أي: أَحْضِرُوا شهداءكم وقَرِّبُوهم. ومن إتيانها لازمة قوله في الأحزاب: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: الآية ١٨] أي: اقربوا قريباً منا. ولم تكن هناك متعدية. والمعنى: أَحْضِرُوا شهداءكم الذين يشهدون لكم أن الله حرم هذا الذي ادعيتم أنه حرام.

ثم قال لنبيه: فإن تجرؤوا على الشهادة الكاذبة الباطلة ـ شهادة الزور على الله ـ فلا تشهد معهم؛ لأنهم كلهم كَذَبَة فَجَرَة مُتَعَاضِدُون على الكذب، يُصَدِّق بعضهم بعضاً في الكذب ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ فالخطاب للنبي ﷺ، ومعلوم أن النبي لا يتبع أهواء الذين كذبوا بآيات الله. هذا أمر لا شك فيه، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٤]. ومعلوم أنه لا يطيع آثماً ولا كفوراً، هذا معروف، فالله (جل وعلا) يخاطب النبي ﷺ مخاطبة السيد لعبده، ومراده بخطابه ـ في أشياء لا تقع منه ﷺ أبداً ـ ليشرع على لسانه لأمته، كما بيناه مراراً[1]. ومن أمثال العرب: (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)[2] معناها: إياكِ أعني، والمقصود عندي هي جارتك الأخرى. وهذا مَثَل معروف، وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أنه أصل هذا المثل من أبيات رَجَز لرجل من بني فزارة يُسمَّى: سهل بن مالك الفزاري، نزل في بيت حارثة بن لأم الطائي المشهور فوجده غائباً، فأنزلته أخت حارثة وأكرمته، وأُعجب بجمالها، فخاطب داية[3] من داياتها لا أهمية فيها؛ لأنها من خَدَمِها، وقال لهذه التي هي من الدايات والخدم قال لها:

يا أخت خير البدو والحضارة كيف ترين في فتى فزارة
أصبح يهوى حُرَّةً مِعْطَارَة إياكِ أعني واسمعي يا جارة

ففهمت الطائية أنه يريد خِطَابها، فأجابته جوابها المعروف:ـ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام.
(٣) الداية: المرضع الأجنبية، والحاضنة، والقابلة (المعجم الوسيط، مادة: دوى) (٣٠٦/١).

إنـي أقـول يـا فـتـى فـزارة لا أبـتـغـي الـزوج ولا الـدعـارة
ولا فـراق أهـل هـذي الـحـارة فـارحـل إلـى أهـلـك بـاسـتـحـارة

ومن هنا صار بيت الرجز هذا مثلًا عند العرب (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)[1].

٢١/أ والمعنى: إنك تخاطب واحداً ومقصودك /أن تُفهِم ذلك الآخر. فالله يخاطب النبي ومقصوده إسماع أمته، والتشريع لهم. والدليل القاطع على هذا: أن النبي ﷺ مات أبواه وهو صغير؛ لأن أباه مات وهو حَمْل في بطن أمه، وأمه ماتت وهو صغير. ومعلوم أنهما وقت نزول سورة بني إسرائيل ماتا منذ سنين كثيرة والله يقول للنبيِّ مخاطباً له ببر الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ثم قال مخاطباً للرسول: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] كل هذا في الرسول ﷺ وأبواه قد ماتا من زمان، فدل على أن قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ أي: يبلغ عندك الكبر أحد والديك فبرهما وقل لهما قولًا كريماً، أي: المراد خطابه ليُشرع لأمته. ومن زعم من الناس أن هذا الخطاب ـ أي: قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ـ أنه يخاطب به مطلق الإنسان المُخاطَب، وليس النبي؛ فهذا غلط محض؛ لأن كل هذه الخطابات للنبي ﷺ ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: آية ٢٨] والدليل عليه أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: آية ٣٩]، فدل أن الخطاب للمُوحَى إليه لا إلى مطلق الواحد من الناس.

وآية الإسراء هذه نص صريح في أنَّ النبيَّ ﷺ يُخاطَب بالخطاب ليس هو المراد به، بل المراد التشريع لأمته؛ لأنه ﷺ هو المشرِّع لهم بأقواله وأفعاله. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ككفار

(١) راجع ما تقدم في الحاشية قبل السابقة.

قريش، الذين كذبوا بآيات الله، لا تتبع أهواءهم في الشرك، ولا في تحريم ما أحل الله.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ظاهر العطف أنهما طائفتان، والتحقيق: أنهما طائفة واحدة(١)، إلا أن المعروف في علم العربية: أن الشيء يُعطف على نفسه بألفاظ مختلفة إذا كانت الصفات مختلفة. نزّلوا تَغَايُر الصفات منزلة تغاير الألفاظ، فعطفوه على نفسه نظراً إلى تَغَايُر الصفات(٢)؛ لأن صفة التكذيب بآياتنا، وصفة عدم الإيمان بالآخرة متغايرتان. فصار الموصوف كأنه متغاير لتغاير الصفات. ومن أمثلة هذا في كلام العرب قول الشاعر(٣):

إلى السيد القَرْمِ وابن الهُمَام وليثِ الكتيبةِ في المُزدَحَم

وهو واحد. ومن أمثلته الواضحة في القرآن - غير هذا الموضع - قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى: الآيات ١ - ٤] وهو واحد (جلّ وعلا). وإنما عطف بعضها على بعض لتغاير الصفات، وهذا هو التحقيق، أنهما طائفة واحدة، تغايرت صفاتها فعُطفت على نفسها نظراً لتغاير الصفات. كما قررنا.

والأهواء: جمع (هوى، هوىً) بفتحتين، وألفه مبدلة من (ياء) لأن أصله (هَوَيٌ) على وزن (فَعَل) والياء المتطرفة بعد ألف زائدة يجوز إبدالها همزة، كما هو معروف في فن التصريف(٤).

والهوى: ميل النفس. وأكثر ما يُستعمل في ميلها إلى ما لا ينبغي(٥). وهو المُراد هنا. أي: لا تتبع مهوياتهم الزائغة من الإشراك بالله، وتحريم ما

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٨).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة. وصدره: «إلى الملك...».
(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.
(٥) السابق.

أحل الله، وجَعْل بعض الأرزاق التي خلقها الله جَعْلها للأصنام. لا تتبع مهوياتهم في شيء من ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ فهم جامعون بين التكذيب بالقرآن والتكذيب بالبعث والآخرة ـ عياذاً بالله ـ وقد صرح (جل وعلا) بأن المكذب بالبعث أنه من أهل النار الذين يُجَرُّون بالسلاسل في أعناقهم في غير ما آية، من أصرحها آية الرعد؛ لأن الله (جلّ وعلا) لما بين في سورة الرعد ـ في أولها ـ عظمته، وبراهين كماله، وقدرته، وأنه المعبود وحده، وأبطل فيها أدلة الطبائعيين إبطالًا كلياً لا شبهة فيه، حيث قال في السورة ـ في أولها ـ: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزرع وَنَخِيلٍ﴾ ـ وفي القراءة الأخرى ـ: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾[1] ﴿صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ﴾ ـ وفي الأخرى ـ: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾[2] ﴿**تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل**﴾ ـ وفي الأخرى ـ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ﴾[3] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أتبع هذا بقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ ـ في البعث ـ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ هذا تعجب منكري البعث من البعث الذي هو خلق جديد. ثم قال مخبراً عن هؤلاء الذين شكوا في البعث وأنكروه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: الآيات ١ ـ ٥] والعياذ بالله. فهؤلاء جمعوا بين التكذيب بالقرآن

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٥١.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

والتكذيب بالبعث. ثم قال جل وعلا: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العرب تقول: «عدل به، يَعْدِل به». إذا جعل الشيء عديلًا ونظيراً له يماثله ويعادله. وهم يعدلون بالله أي: يجعلون له العديل، والنظير، والمثيل حيث قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٣٦] فجعلوا له النظراء، والعديلين بسبب عبادتهم له مثله، وجَعْلهم له مثل ما جعلوا. والعرب تقول: «أعَدلْتَ بفلان فلاناً»؟ إذا جَعلْتَه عِدلاً ونظيراً له. وهو مشهور في كلام العرب، ومنه قول جرير(١):

أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسَ أَمْ رِيَاحاً عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشَابَا

أي: جعلتهم نظراء وأمثالًا لهم وليسوا كذلك.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: الآيات ١٥١ ـ ١٥٣].

يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ [الأنعام: آية ١٥١] كان بعض السلف يقولون: من سرّه أن ينظر إلى وصيّة محمد ﷺ عليها خاتمها لم يُفك فليقرأ هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام: ﴿قُلْ

(١) البيت في ديوانه ص٥٨، الكتاب لسيبويه (١٠٢/١) (١٨٣/٣).

تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام هي المحكمات المذكورات في آل عمران ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] [آل عمران: آية ٧] لم ينسخ الله حكماً من أحكامها في شريعة من الشرائع قط بل أحكامها مثبتة في جميع التشاريع السماوية منذ خلق الله الدنيا، فهي محكمات؛ ولذا قال ابن عباس: إنها المذكورة في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كما قدمنا في آل عمران.

وهذه الآيات تضمنت أصول الشرائع من عقائد ومعاملات واجتماعيات. كما سيأتي إيضاحه في محله.

قل لهم يا نبيّ الله، الظاهر أنه خطاب لجميع الخلق، وإن كان الكلام السابق مع المشركين. قل لجميع البشر الذين أُرسلت إليهم: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (تعال) التحقيق أن (تعال، وهات) فعلا أمر، وغلط فيهما جماعة من علماء العربية [فزعموا][3] أنهما اسما فعل[4]. والدليل على أن (هات) و (تعال) فعلا أمر: أنهما تلحقهما ياء المؤنثة المخاطبة، وياء المؤنثة المخاطبة من علامات الأفعال، ولا تلحق أسماء الأفعال. فالعرب تقول للأنثى: «تعالي يا فلانة» بياء المؤنثة المخاطبة. ومنه قول نابغة ذبيان[5]:

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة الأنعام. رقم: (٣٠٧٠)، (٥/٢٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠/١١٤)، والأوسط (٢/٤٣)، والبيهقي في الشعب (١٤/٦٣ ـ ٦٤)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥/١٤١٤)، وابن جرير في التفسير (١٢/٢٢٧ ـ ٢٢٨)، وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٤) وعزاه للترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب من قول ابن مسعود (رضي الله عنه). وقد أخرج ابن جرير (١٢/٢٢٧)، نحوه عن الربيع بن خثيم. وذكره السيوطي في الدر (٣/٥٤) وعزاه لعبد بن حُميد، وأبي عبيد، وابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/٢٢٦)، والحاكم في المستدرك (٢/٢٨٨) وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضاً بإسناد آخر (٢/٣١٧) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ا.هـ ووافقه الذهبي. كما أخرجه ابن أبي حاتم (٥/١٤١٤).

(٣) في الأصل: «فزعما».

(٤) انظر: التوضيح والتكميل (١/٢٠).

(٥) ديوان النابغة ص (١٢١) وصدره: «فقال».

فَقُلْتُ: تَعَالَيْ نجعلِ اللَّهَ بيننا على ما لنا، أو تُنجزي ليَ آخِرهْ

وكذلك (هات) فالعرب تقول للذكر: (هاتِ) بلا ياء، وللأنثىٰ: (هاتي) بياء المؤنثة المخاطبة، فدلَّ أيضاً على أن (هات) كـ: (تعال) فعل أمر لا اسم فعل، خلافاً لمن زعم ذلك. ومن دخول ياء المؤنثة المخاطبة على (هات) قول امرىء القيس[1]:

إذا قلتُ هاتي نَوِّليني تَمَايَلَت عليَّ هضيم الكشح ريَّا المُخَلْخَلِ

وهذه الكلمة أصلها خاص، ثم صار استعمالها عاماً؛ لأن أصل (تعال) يقولها الذي هو مرتفع إلى من هو أسفل منه، فيقول له: تعال. أي: ارتفع حتى تحضر عندي، هذا أصلها، إلا أن العرب توسعت فيها فصارت تطلق (تعال) على: احضر عندي. ولو كان الآمر أسفل والمأمور أعلى، فيقول الرجل في الأرض لمن على السطح: تعال عندي. وهو في الحقيقة تَسَافَلْ إليّ، إلا أن العرب صارت تطلق (تعال) بمعنى: احضر. من غير نظر إلى أصل العلو والسفل[2]. فمعنى ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ احضروا عندي، وادنوا مني، واقربوا مني ﴿أَتْلُ﴾ عليكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿أَتْلُ﴾ معناه: أقرأ وأقص. والمضارع مجزوم في جواب الأمر. وعلماء العربية يقولون: إن المضارع المجزوم في جواب الأمر أنه في الحقيقة مجزوم بشرط مقدر دل عليه الأمر، وتقريره: إن تتعالوا[3]، أي: إن تحضروا عندي أتل عليكم ما حرم ربكم. و (أتل) معناه: أقرأ وأقص. وأصل (التلاوة) من: (تلاه يتلوه) إذا تبعه؛ لأن (التلاوة) مصدر سيال لا تحصل إلا من حرف يتلوه حرف، يتلوه حرف، وهكذا. فأصلها من: (تلاه يتلوه) إذا تبعه، والعرب تسمي التابع: تالياً، والمتبوع: متلواً. والتَّبَاعَة تلاوة، ومنه سموا الجمل: تالياً؛ لأنه يتبع النوق فيشمها ليعرف منها المستعدة للقاح

(١) ديوان امرىء القيس ص (١١٥).

(٢) انظر: القرطبي (١٣١/٧)، المصباح المنير (مادة: علو) ص (١٦٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

واللاقح كما هو معروف[١]. ومنه قول غيلان ذي الرمة[٢]:

إذا الجَافِر التالي تَنَاسَينَ عهده وعَارَضْنَ أنفَاسَ الرياحِ الجَنَائِبِ

أصل (التلاوة) مصدر سيال؛ لأنها من مقاطع حروف يتلو بعضها بعضاً.

والمصادر قسمان: مصدر سيال، ومصدر غير سيال. فالمصدر الذي ليس بسيال هو الذي يحصل بأدنى مرة، كالضرب، فإنك لو ضربت شيئاً بشيءٍ مرة واحدة حصلت ماهية الضرب. فالضرب مصدر غير سيال، بخلاف التلاوة والكلام، فلو نطقت بحرف واحد لم تحصل التلاوة؛ لأنها مصدر سيال لا بد من بعض يتبع بعضاً حتى يتم معنى المصدر.

قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (ما) هنا: موصولة، وهي على التحقيق في محل المفعول، مفعول (أتل). معناه: اقرأ وأقص عليكم الذي حرمه ربكم عليكم. وقيل: إنها استفهامية مُعَلِّقة للفعل. وهو ضعيف؛ لأن المعروف في علم العربية أن الاستفهام إنما يعلق أفعال القلوب، والتلاوة ليست من أفعال القلوب، فالتحقيق أن (ما) موصلة، وأنها في محل المفعول. أي: تعالوا اقرأ وأقص عليكم الذي حرم ربكم عليكم[٣].

والتحريم في لغة العرب معناه: المنع. وهو يطلق في الشرع وفي اللغة. يطلق في الشرع على ما حرمه الله، أي: منعه على لسان نبيه، وتوعد مرتكبه بالعقاب[٤]. ويطلق في اللغة على منع الشيء، فكل شيء منعته بالقوة فقد حرمته[٥]. ومن إطلاقه بمعناه الشرعي: قوله هنا: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فهو تحريم شرعي. ومن إطلاق التحريم بمعناه

---

(١) انظر: المفردات (مادة: تلى) (١٦٧)، القاموس (١٦٣٤).
(٢) البيت في ديوانه ص (٩٦). وفيه: «وصله» بدلاً من: «عهده».
(٣) انظر: القرطبي (١٣١/٧)، البحر المحيط (٢٤٩/٤)، الدر المصون (٢١٣/٥).
(٤) انظر: الكليات ص (٤٠٠).
(٥) انظر: المقاييس في اللغة (كتاب الحاء، باب الحاء والراء وما يثلثهما) ص (٢٥٦)، المصباح المنير (مادة: حرم) ٥١.

اللغوي في القرآن: قوله في بني إسرائيل وهم في التِّيه، قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: آية ٢٦] فإنه تحريم كوني قدري؛ لأن الله منعهم إياه، لا تحريم شرعي على التحقيق. ومن إطلاق العرب التحريم على التحريم بمعنى المنع لا بمعنى الشرع قول امرىء القيس[1]:

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي
إِنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ

أي: لا تقدرين عليه. ومنه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٩٥] فهو من التحريم الكوني القدري لا الشرعي، ومنه قول الشاعر[2]:

حَرَامٌ عَلَى عَيْنَيَّ أَنْ تَطْعَمَا الكَرَى
وَأَنْ تَرْقَآ حَتَّى أُلاقِيكِ يَا هِنْدُ

والتحريم هنا[3] شرعي. ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وجهان[4]:

أحدهما: أنه يتعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾، (حرمه عليكم) أو يتعلق بـ ﴿أَتْلُ﴾ أتلو عليكم ما حرم ربكم.

والثاني: سيأتي في الجواب عن الإشكال الذي في لفظة (لا) من قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾.

و ﴿رَبُّكُمْ﴾ معناه: سيدكم وخالقكم المدبر لشؤونكم.

وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ بدأ هذه الوصية بعدم الإشراك بالله؛ لأن إخلاص العبادة لله، وعدم الإشراك به هذا رأس الأمر، وهو الذي بعث الله جميع الرسل من أجله، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل والأمم، والله قد أوضح

---

(١) ديوان امرىء القيس ص (١٥٧).

(٢) البيت في الكشاف (٦٥/٢)، مشاهد الإنصاف ملحق في آخر الكشاف ص (٢٩)، البحر المحيط (٣٠٥/٤)، الدر المصون (٣٣٥/٥).

(٣) يعني في آية الأنعام.

(٤) انظر: القرطبي (١٣١/٧)، البحر المحيط، (٢٤٩/٤)، الدر المصون (٢١٣/٥).

في كتابه ذلك إجمالًا وتفصيلًا، قال على سبيل الإجمال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ بِمَ بعثنا؟ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: آية ٣٦] وقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هو حظ الإثبات من (لا إله إلا الله)، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هو حظ النفي من (لا إله إلا الله) وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَى إليه﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾[(١)] ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: آية ٢٥]، وقوله: ﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: آية ٤٥] هذه الآيات الإجمالية ونظائرها في القرآن.

أما التفصيل: فإنَّا إذا نظرنا إلى دعاوى الرسل وقصصهم مع أممهم وجدنا هذا هو دعوة كل نبيّ[(٢)]، فأول من بُعث بعد الكفر في الأرض: نوح يقول الله فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ماذا قال نوح؟ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٥٩] ثم قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا. ماذا جاءهم به؟ اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ماذا قال؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٧٣] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ماذا قال؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: آية ٨٥]، وهكذا على سبيل التفصيل. فالسماوات والأرض إنما قامت على أشرف كلمة، هي كلمة (لا إله إلا الله) هي التي خُلقت من أجلها الجنة والنار، وامتُحن الخلق فيها، ودخل من دخل الجنة بالعمل بها، ودخل من دخل النار بعدم العمل بها، وهي مركبة من جزأين: نفي وإثبات.

فمعنى نفيها: خلع جميع أنواع المعبودات في جميع أنواع العبادات غير خالق السماوات والأرض (جل وعلا).

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٣٠١.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

ومعنى إثباتها: إفراده (جل وعلا) وحده بالعبادة التي هي التقرّب إلى الله بما أمر أن يُتقرب إليه به على وجه الذل، والخضوع، والمحبة. فلا يكفي الذل والخضوع عن المحبة، ولا المحبة عن الذل والخضوع. وضابط هذا: من أراد أن يخلص هذه الكلمة لله فلينظر إلى كل شيء أمر الله أن يتقرب إليه به، وأن يتعبد به خلقه، وليخلص في هذا لله، فإنه يلقى الله مسلماً موحداً، وليحذر كل الحذر من أن يصرف شيئاً من حقوق الخالق للمخلوق؛ لأن من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، والأحاديث في ذلك في حكم المتواترة لكثرتها.

من أشهرها: حديث أبي ذر الثابت في الصحيحين: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**»، قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**» قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**». حتى قال في الثالثة: «**وإن رغم أنف أبي ذر**».

وكان أبو ذر إذا حدَّث بالحديث يقول: «**وإن رغم أنف أبي ذر**»(١) والعبد إذا لقي ربه بقراب الأرض ذنوباً ولم يشرك به شيئاً لقيه بقرابها مغفرة. وهو يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨]، وفي بعض الروايات عن سبب إسلام الوحشي ـ وإن زعم قوم أنها غير ثابتة، إلا أنها ذكرها بعض العلماء ـ أن الوحشي، عبد جبير بن مطعم، لما قال له: إن قتلت عم محمد ﷺ ـ يعني حمزة ـ بعمي طُعَيْمَة بن عدي الذي قتله يوم بدر فأنت حر. وحضر الوحشي، وأصله عبد حبشي، مملوك لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، حضر أُحداً لا يريد إلا حمزة؛ لأجل أن يعتقه سيده، فأخذ حربة حبشية ذات حدَّين، وكمن في صخرة من صخرات سفح جبل أُحد،

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله. حديث رقم: (١٢٣٧)، (١١٠/٣) وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (١٤٠٨، ٢٣٨٨، ٣٢٢٢، ٥٨٢٧، ٦٢٦٨، ٦٤٤٣، ٧٤٨٧). ومسلم في الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. حديث رقم: (٩٤)، (٩٤/١).

حتى رأى حمزة، فرماه فأصابه في ثُنّتِه تحت السرة، فخر صريعاً (رضي الله عنه وأرضاه). بعد أن قتل حمزة لم يف له سيده بوعده بالعتق، فغاضب سيده، وهَمَّ أن يأتي النبي ويسلم. زعموا في هذه القصة أنه كاتَبَ النبي ﷺ وقال: يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إني أردت الدخول في دينك فمنعتني آية مما أُنزل عليك، قَنَّطتني من رحمة الله، وهي قول ربك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: الآيتان ٦٨، ٦٩] قال: ربك صادق لا يكذب، وقد قال: إن من فعل هذه الثلاث إنه يلقى العذاب ويخلد فيه مهاناً، فإذاً لا فائدة لي في الإسلام، ولا طمع لي في الخير بعد أن فعلت الثلاثة ـ يعني نفسه البعيد ـ قالوا: فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: آية ٧٠] زعموا أن النبي بعث بها إليه، وأنه لما نظرها رد إليه الجواب وقال: ربك يقول: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فهذه على شرط قوي، ومن يقدر على العمل الصالح؟ فقد لا أقوم بهذا الشرط. فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: آية ٤٨] فأرسل إليه بها، فلما تأملها قال: هو يعلق على مشيئته، يقول: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ ومن هو الضامن والكفيل لي أنه يشاء؟ فأرسل بها إليه، فأنزل الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: آية ٥٣] قالوا: فتأملها فقال: أما هذه فنعم. وأسلم[١].

---

(١) أخرجه بهذا السياق: الطبراني في الكبير (١١/١٩٧)، ح(١١٤٨١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/٤١٣) وانظر: (مختصر ابن منظور (٢٦/٢٦٢ ـ ٢٦٣) عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، وعزاه الهيثمي في المجمع (٧/١٠١) للطبراني في الأوسط، وقال: «وفيه أبين بن سفيان ضعفه الذهبي» ا.هـ كما أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص (٣٣٦)، وقد أورده السيوطي في أسباب النزول ص (٢٤٥) وأشار لضعفه.

هكذا قاله بعض العلماء مع أن غيره يقول: لم يثبت ترتيب النزول على هذا الوضع.

والحاصل أن هذه الآية من أعظم الآيات التي خاطب الله بها هذه الأمة؛ لأن الخطاب بها لخصوص المسرفين على أنفسهم، لم يقل: «يا عبادي الذين آمنوا» بل قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ وهذا يستثنى منه الشرك، فإن الله لا يغفره، كما صرح به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: آية ٤٨] فحقه في العبادة لا مسامحة فيه ولا مُهاوَدَة، ولا يقبل إشراك أحد معه فيه. وغير ذلك من الذنوب إن شاء عفاه عن صاحبه، وإن شاء أخذه به، كما هو معلوم.

فعلينا أن نتأمل هذه الآيات، ونحذر كل الحذر من أن نصرف شيئاً من حقوق الله لأحد من خلقه، بل نفرق بين حقوق الخالق وحقوق المخلوق، ونُفْرِد الخالق بحقوقه، ونُعطي المخلوقين حقوقهم. ومن حقوق الله التي غلط فيها كثير من عوام المسلمين، فصرفها لغير مستحقها ودخل بذلك أمراً هائلًا عظيماً، هو أنه قرر الله في كتابه في آيات واضحة: أن الإنسان إذا أنزل الله به الكروب والشدائد التي لا يقدر على رفعها إلا الله، فالالتجاء في هذا الوقت من خصائص الربوبية، وحقوق خالق السماء الخالصة.

فنحن علينا معاشر المسلمين ـ ونسأل الله العافية ـ إذا نزل بأحدنا كرب، أو مكروه، أو داهية، أن يعلم أن الالتجاء في ذلك الوقت من خصائص الربوبية، كخلق السماوات والأرض، وقد أوضح الله هذا في آيات كثيرة، ومن أصرح الآيات التي أوضح فيها أن الالتجاء وقت نزول الكروب والشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله: آيات في سورة النمل؛ لأن الله

كما ذكر نحوه (مختصراً) في الدر المنثور (٧٨/٥) عن سعيد بن جبير مرسلاً، وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وأخرج ابن جرير (١٤/٢٤) نحوه مختصراً عن عطاء بن يسار مرسلاً.

بين ما يختص به، وما يلزم لربوبيته من الحقوق فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تشركون ﴿٥٩﴾﴾ وفي قراءة أخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١] ثم قال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ثم قال وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يستحق هذه الحقوق؟ ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: الآيات ٥٩ ـ ٦٤].

فهذه حقوقه الخالصة، وسيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لعلمه بالوحي، ونور بصيرته بالقرآن، كان إذا نزلت به الشدائد والكروب، عرف مَنْ صاحب هذا الحق، وصرف هذا الحق لمن هو له؛ ولذلك لما نزلت به أعظم كربة يوم بدر، وكانت معه طائفة قليلة من المسلمين، كما قال الله ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ﴾ [آل عمران: آية ١٢٣] ولو قُتلت تلك الطائفة لم يُعبد الله في الأرض قط، كما صرح به النبيّ ﷺ في الأحاديث الصحيحة: «**اللهم إن تهلك هذه الطائفة فإنك لن تعبد في الأرض**»[٢] والمشركون في قوة عَددهم وعُددهم، وهذا أعظم الكرب، ولا يقدر على كشفه إلا الله، وهو ﷺ على وعد من الله أن يعطيه إحدى الطائفتين ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: آية ٧] وهو يتضرع إلى الله: (رب أنجز ما وعدتني، رب أنجز ما وعدتني) حتى يسقط رداؤه عن ظهره، فيأتي أبو بكر (رضي الله عنه)، ويجعل الرداء على ظهره ويقول: حسبك،

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٣٣٤).

(٢) سيأتي تخريجه قريباً ـ إن شاء الله ـ.

فإن ربك لن يخلفك. وأنزل الله في هذا، كما ثبت في الصحيح: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾(١) [الأنفال: آية ٩].

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعلم حقوق خالقنا، وأن نكون لمحبة رسولنا وتعظيمه ﷺ واتباعه نقر عينه بإفراد خالق السماوات والأرض بحقوقه (جل وعلا)؛ فإن الشيطان يدخل لبني آدم من طرق خفية. فإذا قيل للجهلة: هذا حق خالص لله كخلقه للسماوات والأرض، وخلقه للبحار، وسيد الخلق كان يصرف هذا الحق لله، فنحن اتباعاً له ﷺ ومحبة وتعظيماً نصرف هذا الحق لمن هو له، كما كان ﷺ يصرفه فالشيطان يُرْدِيه هذا الإخلاص لله، ويعلم أنه إقرار لعين الرسول، ومرضاة لله، وتعظيم لرسول الله ﷺ، ومحبة له واتباع. وهذا يغيض الشيطان ويبغضه، فيقول: من يقول لك هذا فهو من الذين لا يعظمون الرسول ولا الصالحين، ويمنعونك من أن تصرف لهم هذه الحقوق. هذه فلسفة شيطانية، والقرآن يبيِّن أن هذا الحق من خصوص الربوبية حق خالص لله، والرسل يصرفونه لله، فنحن إنما علينا ـ لمحبة الرسل وتعظيمهم ـ الاقتداء بهم، وأن نخلص لله حقه كما كانوا يخلصونه له، والكفار ـ مع جهلهم ـ صرحت عنهم الآيات التي لا تكاد تحصى في المصحف أنهم كانوا يعرفون هذا، فإذا نزلت بهم الكروب والشدائد العظام صرفوا الحق في ذلك الوقت لمستحقه تماماً، فإذا أَمِنوا رجعوا يصرفونه لغيره!! والآيات في المصحف الدالة على هذا لا تكاد أن تحصيها ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يعني: إذا ركبوا في السفن، واضطربت عليهم أمواج البحر، ورأوا الكروب، وخافوا الموت دعوا الله مخلصين له الدين ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: آية ٦٥]، ويصرفون الحق لغير من هو له ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: آية ٣٢]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن

(١) البخاري في الجهاد، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب. حديث رقم: (٢٩١٥)، (٦/٩٩)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث: (٣٩٥٣، ٤٨٧٥، ٤٨٧٧).

تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٦٧ ـ ٦٩] ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يصرفون الحق لغير صاحبه، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣]، والآيات بمثل هذا لا تحصى في المصحف. وقد قدمنا مراراً[١] أن المعروف في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل (رضي الله عنه) أنه كان شديد العداوة في الجاهلية للنبيِّ ﷺ، وهو من الجماعة الذين جاؤوا من وراء الصحابة يوم أُحد ـ لما تركوا المركز في سفح الجبل، وبقي أميرهم عبدالله بن جبير وطائفة حتى قُتِلُوا ـ هو وصفوان بن أمية في الجماعة الذين جاؤوا من وراء ظهور المسلمين حتى دارت رحى الحرب على المسلمين، وجرح النبي ﷺ، وشُج حتى غاصت فيه حِلَق المغفر، وكُسرت رَبَاعيته، وشُقت شفته، ومُثِّل بعمه وابن عمته، وقُتل سبعون من خيار الأنصار. وكذلك هو يوم فتح مكة من أشد الناس [حماسة] للقتال[٢]؛ ولذلك قال حِمَاس بن قيس الذي كان يقول لامرأته: سأجعل لك خدماً من نساء محمد، وإذا جئتك هارباً فأغلقي الباب دوني. فجاء هارباً يوم فتح مكة!! فقالت له: أين ما كنت تقول؟ فقال رجزه المشهور[٣]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠ ـ ٤١) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «عداوة» وهو سبق لسان.

(٣) الأبيات في السيرة لابن هشام ص (١٢٥٠). معجم البلدان (٣٩٣/٢). وقد وقع هنا في الأبيات الثلاثة بعد الأول شيء من التقديم والتأخير. والذي في المصدرين السابقين.

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة
لهم نَهِيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الْخَنْدَمَة إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وفَرَّ عِكْرِمَة
وأَبُو يزِيدَ قائمٌ كالمُؤْتِمَه واستقبلتنا بالسيوفِ المُسْلِمَة
لَهم نَهِيتٌ خَلْفَنا وَهَمْهَمَة يَقْطَعْنَ كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمَة
ضَرْباً فلا تسمعُ إلا غَمْغَمَة لم تَنْطِقِي باللومِ أدنى كَلِمَة

كان عكرمة بالغاً هذا من معاداة النبي ﷺ، فلما فتح النبي ﷺ مكة، وعرف عكرمة أن النبي ﷺ استتب له الأمر في مكة، فرَّ هارباً إلى الحبشة بغضاً للنبي ﷺ، فركب في سفينة في البحر الأحمر ذاهباً إلى الحبشة، فلما توسطت بهم بطن البحر الأحمر هاجت عليهم عواصف الريح، وهاجت عليهم الأمواج، وأيقنوا بالهلاك، فإذا جميع من في السفينة ينادي بعضهم بعضاً من أطراف السفينة: احذروا في هذا الوقت أن تدعوا غير الله لئلا تهلكوا؛ لأنه لا ينقذ من هذه الكروب والأهوال إلا هو وحده (جل وعلا). فجاءت في رأس عكرمة، ثم قال: والله إن كان لا ينجي من ظلمات البحر إلا هو فلا ينجي في كربات البر إلا هو. ثم قال: اللهم لك عليَّ عهد إن أنقذتني من هذه فلأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً.

وعلى كل حال فإخلاص حقوق الله لله مرضاة لله، ومرضاة للرسول، وإقرار لعين الرسول، واتباع له وتعظيم، وعمل بالعلم والقرآن. وهذا مما ننصح به أنفسنا وإخواننا على ضوء كتاب الله تعالى.

وقوله جل وعلا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام فيها إشكال معروف مشهور، وأجوبة العلماء عنه معروفة مذكورة مشهورة.

اعلموا **أولاً**: أن قوله هنا: ﴿شَيْئًا﴾ فيه وجهان من الإعراب[١]:

أحدهما: أنه ما ناب عن المصدر، فهو مفعول مطلق في المعنى. أي: لا تشركوا بالله شيئا من الإشراك، أي: لا إشراكاً صغيراً كالرياء، ولا إشراكاً كبيراً. فعليه يكون اسم (الشيء) واقعاً على الإشراك/ فيكون في معنى ٢١/ب

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢١٨).

المصدر، ويُعرب ما ناب عن المطلق. أي: لا تشركوا بالله شيئاً. أي: لا تشركوا به إشراكاً. أي: شيئاً من الإشراك، قليلاً أو كثيراً.

الثاني: أنه مفعول به بـ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ أي: لا تشركوا به شيئاً من الشركاء؛ لأن حقوقه الخالصة لا يُشْرَكُ معه فيها أحد كائناً ذلك الأحد من كان، سواء كان نبياً؛ أو مَلَكاً، أو غيرهما. وأكره ما يكره الأنبياء والملائكة أن يُشرك بالله غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: آية ٨٠] وقد أمر الله سيد الخلق أن يصدع بذلك الأمر المؤسف العظيم[١] في آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: آية ٦٤] أي: مخلصون لله العبادة وحده، لا نتخذ غيره رباً، ولا نشرك به غيره.

أما محل السؤال والإشكال في الآية: فهو في لفظة (لا) لأنه يقول: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فمعناه: أن هذا الذي يتلوه محرم، وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ عدم الشرك ليس بمحرم بل هو واجب حتم ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بر الوالدين ليس بمحرم بل هو واجب حتم. فصار الإشكال في لفظة (لا) وهو إشكال معروف عند العلماء.

وللعلماء عنه أجوبة كثيرة[٢]: منها ما ذكره جماعة من العلماء أن من أساليب اللغة العربية زيادة لفظ (لا) لتوكيد الكلام وتقويته إذا كانت القرينة تدل على أنها لا يُقصد بها نفي[٣]، وزيادة لفظة (لا) لتوكيد الكلام وتقويته أجمعَ عليها جميع علماء العربية في الكلام الذي فيه معنى الجحد ـ أعني الكلام المُشم برائحة النفي ـ لا خلاف في هذا بين العلماء، وهو كثير في

---

(١) أي: يصدع في بيان بطلانه، ويعلن منابذته، أي: الشرك.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢١٥)، القرطبي (٧/١٣١)، البحر المحيط (٤/٢٤٩ ـ ٢٥٠)، الدر المصون (٥/٢١٣ ـ ٢١٨).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

القرآن، ومنه قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: الآيتان ٩٢، ٩٣] يعني: ما منعك أن تتبعني. وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: آية ١٢] أي: ما منعك أن تسجد. على أصح التفسيرين[١]، بدليل قوله في (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: آية ٧٥]، ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: آية ٢٩] أي: ليعلم أهل الكتاب. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، [النساء: آية ٦٥] أي: فوربك لا يؤمنون ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: آية ٣٤] أي: ولا تستوي الحسنة والسيئة ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٠٩] على أحد التفسيرين[٢]. وهو كثير في كلام العرب معروف، ومن أمثلته في كلام العرب قول أبي النجم[٣]:

وما ألومُ البيضَ ألاَّ تَسْخَرَا ... لما رَأَيْنَ الشَّمَطَ القَفَنْدَرَا

وقول الآخر، وأنشده ابن هشام لهذا المعنى في المغني[٤]:

وتَلْحَيْنَنَي في اللَّهو أن لا أُحبّه ... ولِلَّهوِ داعٍ دائب غير غافلِ

(. . . .)[٥] وأنشد الفراء لزيادة (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد قول الشاعر[٦]:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله دينهم ... والأطيبان أبو بكر ولا عمرُ

يعني والأطيبان أبو بكر وعمر.

وأنشد الجوهري لزيادة (لا) في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد

---

(١) انظر: فتح القدير (١٩١/٢).
(٢) انظر: المصدر السابق (١٥٢/٢).
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة.
(٤) المغني (٢٠٠/١).
(٥) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وهو غير مؤثر هنا.
(٦) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة وأورده الفراء في معاني القرآن (٨/١).

قول الراجز[١]:

فـي بئـرِ لا حُـورٍ سَـرَى ومـا شَـعَـر بـإفـكـه حـتـى رَأَى الـصـبـحَ شَـجَـر

لأن الحور هو الهلكة معنى. والمقصود: في بير هلكة وقع. و (لا) زائدة، والكلام هنا ليس فيه معنى الجحد. وأنشد الأصمعي لزيادة (لا) لتقوية الكلام في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد. قول ساعدة بن جؤية الهذلي[٢]:

أَفَـعَـنْـكَ لا بـرقٌ كـأنَّ ومِـيْـضَـهُ غـابٌ تَـسَـنَّـمَـهُ قِـرَابٌ مُـثْـقَـبُ

يعني: أَفَعَنْكَ برق، كما هو معروف. وأنشد بعضهم له قول الآخر[٣]:

تـذكـرتُ لـيـلـى فـاعـتـرتـنـي صَـبَـابَـةٌ وكَـادَ صَـمـيـمُ الـقـلـبِ لا يـتـقـطَّـعُ

أي: كاد يتقطع. قالوا: هذا أُسلوب معروف، و (لا) هنا صلة دل المقام عليها. وهي تفيد تقوية الكلام، والنهي عن الشرك. هذا قول بعض العلماء.

وقال بعض العلماء: (أنْ) هنا تفسيرية. وهو التحقيق، وهي مُفَسِّرَةٌ لـ(حَرَّم)[٤]، وإذا فسرنا التحريم كان ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ هو معنى التحريم؛ لأن ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ هو معنى تحريم الشرك. وضابط (أنْ) التفسيرية عند علماء العربية: أن تتقدمها جملة فيها معنى القول وليس فيها حروف القول[٥]،

---

(١) البيت للعجاج، وهو في الخصائص (٤٧٧/٢)، معاني القرآن للفراء (٨/١)، اللسان (مادة: حور) (٧٥٠/١)، الصحاح (مادة: حور) (٦٣٩/٢)، الخزانة (٩٥/٢ ـ ٩٨)، (٤٩٠/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من هذه السورة، وفيه: «وكاد ضمير...».

(٤) انظر: البحر المحيط (٢٤٩/٤)، الدر المصون (٢١٣/٥).

(٥) انظر: البحر المحيط (٢٥٠/٤)، الدر المصون (٢١٣/٥). الكليات ص١٩٣، معجم الإعراب والإملاء ص٨٨.

فتكون (أنْ) مفسرة للتحريم، وما بعدها هو تفسير التحريم؛ لأن النهي عن الشرك هو معنى تحريم الشرك بعينه، وعلى هذا فلا إشكال. فـ (أَنْ) يُفَسِّر ما بعدها ما قبلها، وهي (أَنْ) التفسيرية كما هو معروف.

وقال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ انتهى الكلام. وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ابتداء كلام. و ﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل، كما قال في الخلاصة[1]:

والفعلُ من أَسْمَائِه عَلَيْكَا...

والمعنى: عليكم ألا تشركوا بالله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

الزموا واحتزموا وعليكم ألا تشركوا بالله، وعليكم أن تُحسنوا بالوالدين إحساناً، وعليكم ألا تقتلوا أولادكم من إملاق، إلى آخره.

وقال بعض العلماء - وهو ليس بوجيه -: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أتلوه عليكم لئلا تشركوا بالله شيئاً.

وأظهر الأوجه وأحسنها: هو ما دل عليه القرآن؛ لأن خير ما يُفَسَّر به القرآن: القرآن، أن معنى قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما حرمه عليكم فعلًا وتركاً، وأن التحريم فعلًا وتركاً هنا مُضَمَّن معنى: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾[2] فكأنه يقول: أتلو ما وصاكم ربكم به تحريماً وإباحة. والدليل على هذا: أن الله لما علم أن في الآية شِبْه إجمال أوضحه في آخرها فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعرفنا أن ذلك التحريم هو معنى الوصية، فيكون معنى: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حرم عليكم فعلًا وتركاً. أي: وصاكم بأن تفعلوه أو تتركوه، كما فسره بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ونظيره في كلام العرب قول الراجز[3]:

حَجَّ وأَوْصَى بِسُلَيْمَى الأَعْبُدَا أَنْ لا تَرَى ولا تُكَلِّم أَحَدَا
وَلَا يَزَلْ شَرَابُها مُبَرَّدَا

(١) الخلاصة ص (٥٤) انظر: شرح الأشموني على الألفية (٢/٢٠١).
(٢) وهو اختيار ابن جرير. انظر جامع البيان (١٢/٢١٥)، وانظر: أضواء البيان (٢/٢٧٨).
(٣) وهو في ابن جرير (١٢/٢١٦).

وهذا معنى قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً. جرت العادة في القرآن أن الله يقرن بر الوالدين بتوحيده (جل وعلا) في عبادته كقوله هنا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: آية ٢٣] ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] إلى غير ذلك من الآيات، ولا شك أن الله لم يجعل بر الوالدين مقروناً بتوحيده دائماً إلا لعظمة بر الوالدين، فإن بر الوالدين من أعظم الحسنات والقربات عند الله، وعقوق الوالدين من أخبث الخبائث، وأكبر الذنوب، فعلينا معاشر المسلمين أن من كان عنده إما والد أو والدة أن يتحمل أذاه، ويبره، ويحسن إليه، ويسارع في مرضاته الأيام القليلة من الدنيا، حتى يموت وهو عنه راض. واعلموا أن من أعطاه الله شائباً أو شائبة، أباً أو أماً، فكأنه أعطاه وسيلة الجنة سهلة، ومن قَصَّر فيها فهو مُفَرِّط مُضَيِّع، مع أن عقوق الوالدين مع ما فيه من إسخاط الله وإغضاب خالق السماوات والأرض، وسبب دخول النار، وفيه أيضاً القُبْح، وعدم الإنسانية، وخساسة فاعله.

فعلينا معاشر المسلمين أن نفهم هذا، وأن نعلم أن ربنا يجعل بر الوالدين دائماً مع توحيده ومن كان منا عنده والد أو والدة فَلْيَسْعَ كل السعي في أن يبره، وليعلم أن الكبير لا يتحمل على أذاه إلا من عنده تقوى؛ لأنه إذا شاب وكبرت سنه كان لا يُتَحَمَّل؛ لأنه يكثر سؤاله عن الأشياء التي لا تعنيه، وتكثر أغراضه فيما لا تعنيه، وهذا يستلزم صبراً. فعلى الولد أن يتحمل، ويثابر على أن يفتيه في كل ما سأل مما لا يعنيه، ويصبر على جميع أذاه، ويحسن إليه، ويبره حتى يموت وهو عنه راض؛ لأن النبيَّ ﷺ جاءت عنه الأحاديث التي لا تُحصى في الترغيب في بر الوالدين واسْتِجْلَابِهِ الجنة، والترهيب من عقوق الوالدين، وما فيه من العقوبات، ونحن لا نحتاج أن نُنَوِّه بشيء من هذا بعد أن نرى خالق السماوات والأرض يجعل بر الوالدين مقروناً بتوحيده في عبادته جل وعلا.

فعلينا جميعاً معاشر المسلمين أن نعتبر بهذا، وأن نبر أمهاتنا وآباءنا،

ونصبر على أذاهما، ولا نُغلظ لهما القول، ولا نمنعهما من شيء يحبانه، بل نسارع في مرضاتهما بحسب الإمكان. ويكفيكم على هذا دليلًا هو نص القرآن العظيم على أن الوالد يبره ولده وإن كان الوالد كافراً، لأن آية العنكبوت نزلت في أُميمة والدة سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه وأرضاه)[١]، فإنه لما أسلم حلفت أمه أُميمة أن لا تأكل، ولا تشرب، ولا تدخل الظل حتى يرجع عن دين الإسلام، فمكثت في الشمس ما شاء الله حتى خَرَّت مغشياً عليها، وجاؤوه وقالوا له: أمك ستموت!! فجاءها ثم قال لها: والله لو كانت لك مائة نفس، ومتِّ مائة موتة بكل نفس من تلك الأنفس فإني لا أرجع عن دين الإسلام أبداً، إن شئت فكُلي وإن شئت فموتي!! فأنزل الله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ [العنكبوت: آية ٨] ثم قال[٢]: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[٣] [لقمان: آية ١٥] فأمره بأن يصاحبهما بالمعروف وهما كافران، فما بالك بالمُؤمِنَيْن؟.

وقد جاء عن بعض العلماء أن سبب نزول الآية التي في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: آية ٨] أن أسماءَ بنت أبي بكر ـ أسماءُ بنت أبي بكر (رضي الله عنها) ـ ليست شقيقة عائشة وعبدالرحمن، لأن عائشة وعبدالرحمن شقيقان، أمهما أم رومان الفراسية من بني فراس، من بطون كنانة، وأسماء أمها امرأة أُخرى تسمى: قَيْلَة ـ وقد جاءت إلى المدينة زائرة ابنتها أسماء، والأم كافرة، فما رضيت أسماء أن تُنزل أمها حتى تستشير النبي ﷺ، مع أنها جاءت زائرة!! ومعها

---

(١) أمه هي حمنة بنت سفيان بن أُمية بن عبد شمس. انظر: الآحاد والمثاني (١٦٦/١)، (مختصر تاريخ دمشق لابن منظور) (٢٥٣/٩)، السير (٩٦/١)، فتح الباري (٨٤/٧). وفي الآحاد والمثاني: «حمنة بنت أسد».

(٢) هذه ليست من آية العنكبوت كما لا يخفى، وإنما هي من سورة لقمان. وقد جاء في بعض الروايات ما يدل على أن الآيتين نزلتا فيه.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، حديث رقم: (١٧٤٨)، (١٨٧٧/٤).

هدايا من هدايا البادية، فأمرها النبي أن تنزلها وتحسن إليها[١]. قال بعض العلماء: وفيها نزلت: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٢].

فالحاصل أن على المسلم أن يبر والديه، ولا يعقهما، فبر الوالدين من أعظم الذخائر عند الله، ومن أعظم أسباب دخول الجنة، وعقوق الوالدين من كبائر الذنوب الموجبة لسخط الله ولدخول النار مع قبحها في الدنيا.

وقوله: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ مصدر. قال بعض العلماء: منصوب بفعل محذوف ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا[٣].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] قال هنا في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل - وهي سورة الإسراء -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: آية ٣١] قال بعض العلماء[٤]: بين الآيتين فرق؛ لأن آية الأنعام تدل على أن الرجل يكون فقيراً في هذا الوقت ويقتل ولده للفقر الحاضر، وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من أجل الإملاق، وهو الفقر الحاضر.

الثانية: أن يكون غير فقير، ، ولكنه يخاف الفقر في المستقبل، فيقتله لئلا يفتقر في المستقبل. وهي قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

وجماهير علماء العربية على أن (الإملاق) أصله مصدر: (أملق

---

(١) البخاري في الهبة، باب الهدية للمشركين. حديث رقم: (٢٦٢٠)، (٥/٢٣٣). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٣١٨٣، ٥٩٧٨، ٥٩٧٩). ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين...، حديث رقم: (١٠٠٣)، (٢/٦٩٦).

(٢) صرح بذلك سفيان بن عيينة عقب رواية الحديث، كما عند البخاري في كتاب الأدب (١٠/٤١٣). وقد ورد ذلك صريحاً من طريق آخر لا تخلو من ضعف.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٢١٥)، القرطبي (٧/١٣٢).

(٤) انظر: البحر المحيط (٤/٢٥١)، الدر المصون (٥/٢١٩)، أضواء البيان (٢/٢٧٨).

الرجل، يُمْلِق، إملاقاً) إذا كان فقيراً. قال بعض العلماء: واشتقاقه من (المَلَقَات)[١]، و(المَلَقات): الحجارة الضخام[٢]، وهو معروف [في كلام][٣] العرب، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٤]:

أُتِيحَ لَهَا أُقَيْدِر ذُو حَشِيفٍ إذا سَامت على المَلَقَاتِ سَامَا

فكما يقولون: «تَرِبَتْ يداه» لم يبق عنده إلا التراب، يقولون: «أملق» لم يبق تحت يده إلا الجبال والصخور العظام التي لا يقدر أن يحصل منها شيئاً.

وقال بعض العلماء: كانت لغة لخم من قبائل قحطان أنهم يطلقون (الإملاق) على الجوع[٥].

وقال بعض العلماء: الإملاق يطلق على الإنفاق. تقول العرب: «أملق ماله». إذا أنفقه[٦]، قالوا: ومنه: (التَّمَلُّق) في الكلام؛ لأن الإنسان يعطي باللسان ما ليس عنده في قلبه في الحقيقة.

والمشهور الذي عليه جمهور المفسرين وعلماء اللغة: أن (الإملاق) هنا هو الفقر[٧]. وكان العرب يئدون بناتهم خوف أن يفتقروا فتجوع بناتهم؛ لأن جوع بناتهم قد يسبب لهن أن يزوجوهن من غير الأكفاء، وأن يقعن في معرات لا تليق، وقد يخافون عليهن من السبي. فكانوا يقتلوهن لهذا السبب!! يقولون: إذا جاعت ابنته اضطرت إلى أن تتزوج غير كفء. وكانوا يتشددون في مصاهرة غير الأكفاء، ويقتلون البنات خوفاً من هذا. وإذا خاف

---

(١) انظر: اللسان، (مادة: ملق) (٥٢٧/٣).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) البيت لصخر الغي الهذلي، وهو في اللسان (مادة: ملق) (٥٢٧/٣)، القرطبي (٢٥٢/١٠).

(٥) انظر: القرطبي (١٣٢/٧)، الدر المصون (٢١٨/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢).

(٦) انظر: القرطبي (١٣٢/٧)، الدر المصون (٢١٨/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢).

(٧) انظر ابن جرير (٢١٧/١٢)، القرطبي (١٣٢/٧)، الدر المصون (٢١٨/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢).

الرجل أن يفتقر وتبقى ابنته في جوع وبؤس، فإنها إذا كانت في جوع وبؤس قد تضطر إلى أن تتزوج غنياً ليس بكفء لها، فيئدونهن.

وقد ذكرنا مراراً أن عقيل بن عُلَّفة المري لما خُطِبَت عنده ابنته الجرباء أنشد رجزه المشهور[(١)]:

إنِّي وإنْ سِيقَ إلَيَّ المهرُ عبد وألفان وذَود عَشْر
أحبُّ أصْهَاري إليَّ القبرُ

وكانوا يقولون: إن الزوج الذي يسترها ويكفي عارها تماماً إنما هو القبر، كما قال الشاعر وعنده ابنة تُسمى مودة[(٢)]:

مودَّةُ تهوى عُمْرَ شيخٍ يسرُّهُ لها الموتُ قبل الليل لو أنها تدري
يخافُ عليها جفوة الناس بعده ولا خَتَن يُرجى أَوَدّ من القبرِ

والخَتَن في اللغة: زوج البنت[(٣)].

يعني: لا زوج للبنت يُرجى أرجى من القبر؛ لأنه يستر عارها، ويمنعها من تزويج غير الأكفاء، ومن الإهانات على زعمهم الفاسد. ولما كان صخر أخو الخنساء كل عام يُقاسم الخنساء ماله، ويجعله شطرين، ويعطيها الشطر الأوفى، وقالت له امرأته: تقاسم مالك كل سنة مع الخنساء وزوجها مِتْلَاف سفيه يُضيع مالك: أنشد راجزاً[(٤)]:

وكيف لا أمنحُهَا خِيَارَهَا وهي حَصَانٌ قد كفتني عَارَهَا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: المصباح المنير (مادة: ختن) ص (٦٣).

(٤) في الشعر والشعراء ص (٢٢٠) هكذا:

والله لا أُمْنَحُها شرارَها ولو هَلَكتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا
وجَعَلَتْ من شَعَر صِدَارَهَا

وفي الإصابة (٢٨٩/٤):

والله لا أمنحُها شِرَارَهَا وهي التي أَرْخَصُ عني عارها
ولو هلكتُ خَرقَت خِمَارَهَا واتخذت من شَعَر صِدَارَهَا

ولــو هــلــكــتُ لَــبِــسَــتْ إزارهَــا

فعندهم الشهامة العربية، والغيرة الكاملة على الحريم، إلا أن كل شيء إذا زاد عن قدره صار بلاء وخسيساً. فالأمور ينبغي أن لا تزاد ولا تنقص عن حدودها.

فلا تَغْلُ في شيءِ من الأمر واقتصِد كِلاَ طَرفي قَصْدِ الأمورِ ذميم[1]

فالغلو في الغيرة جَرَّهُم إلى أن دفنوا بناتهم خوف أن يجوعوا وتجوع البنات فَيَضْطَرِرْنَ بذلك إلى الوقوع فيما لا ينبغي، أو إلى الزواج من غير الأكفاء. هكذا زعمهم الفاسد، وقد صح عن النبيِّ ﷺ من حديث ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ سُئل: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**». قيل: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**»[2]. وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ فالحديث كأنه مطابق لآية الفرقان. ثم إن الله قال هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ كأنه يقول لهم: يا سفهاء العقول، يا مجانين، تقتلون أفلاذ أكبادكم خوفاً من الفقر؟! فرزقهم علينا، نحن نرزقكم ونرزقهم، ورزق الجميع علينا. قال هنا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنهم فقراء في الحين حيث قال: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: من فقر واقع. وقال هناك لما أرادوا أن يقتلوهم من خشية فقر مستقبل: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ بدأ بالأولاد ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٣١].

وهذه الآيات تدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يستثقل كثرة أولاده خوفاً من الجوع والفقر؛ لأن خالق السماوات والأرض يرزق الجميع. وهذه

---

(١) البيت لمحمد بن مسلمة، وهو في الخزانة (١/٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. حديث رقم: (٤٤٧٧)، (٨/١٦٣)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢). ومسلم في الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده. حديث رقم: (٨٦)، (١/٩٠).

من أوضح الآيات على أن ما يتلاعب به الشيطان على المتسمين باسم الإسلام مما يسمونه (تحديد النسل) وأن يمتنعوا من أن تكثر أولادهم، أن هذا جهل واقتفاء ـ في الجملة ـ للجاهلية الذين يقتلونهم؛ وذلك لأنهم مشتركون في العلة، والعلة قد تُعَمِّم معلولها؛ لأن الله صرح بأن الجاهلية إنما قتلوهم من خشية الإملاق، وهؤلاء يريدون من تقليل عددهم من خشية الإملاق، فالعلة هي العلة. وكأن قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لم يطرق أسماعهم ـ أبداً ـ ضمان خالق السماوات والأرض لأرزاق الجميع، كأنهم لم يسمعوه، وكأنهم في جاهلية جهلاء، وظُلمة ظلْمَاء؛ لأن الله ضامن رزق الجميع. وكلما كثر النسل، وكثرت الأيدي العاملة كثر الإنتاج، وكثرت خيرات الله وأرزاقه؛ لأن الله ينزل رزقه بعدد خلقه، وصرح بهذا وهو لا يخلف الميعاد ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فهذه الآيات تدل على أن القائلين بتحديد النسل أنهم شاركوا الكفار في العلة، وإن لم يشاركوهم في الحكم، والعلة تكون واحدة وتكون لها أحكام متعددة، كما تقرر في الأصول[1]. فالسرقة علة واحدة، وقد تتعدد أحكامها؛ لأن من أحكامها ما هو قطع اليد، ومن أحكامها ما هو غُرْم المال ـ عند من يقول بِغُرْم المال ـ فعلة الجميع واحدة، وهي خوف الفقر، وضيق المعاش، هذه هي علة الكفار التي قتلوا من أجلها أولادهم، وعلة التابعين لأذناب الإفرنج في تقليلهم عددهم وعُددهم. والنبي ﷺ يقول: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**»[2] والكثرة خير من القلة، والله (جل وعلا) بارىء لكل ذي نسمة شق فاها بارىء لها رزقها كما

---

(١) انظر: نثر الورود (٢/٤٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٥٨، ٢٤٥)، وابن حبان (الإحسان ٦/١٣٤)، والبيهقي (٧/٨١) من حديث أنس (رضي الله عنه). وأبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم: (٢٠٣٥)، (٦/٤٧)، والنسائي في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم (٦/٦٥)، حديث رقم: (٣٢٢٧)، والحاكم (٢/١٦٢)، والبيهقي (٧/٨١)، والطبراني في الأوسط (٥٧٤٢). وانظر: صحيح النسائي (٢/٦٨٠)، صحيح أبي داود (٢/٣٨٦)، آداب الزفاف (٨٩، ١٣٢)، إرواء الغليل (٦/١٩٥)، المشكاة (٣٠٩١).

صرح بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: آية ٦] فهؤلاء شاركوهم في العلة وخالفوهم في الحكم، مع أن هناك بعض المقاربة.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعلم أولًا أن كل ما أراد الله أن يخلقه من النسمات لا بد أن يخلقه، ولو حاول الخلق ما حاول من تقليل النسل، ثم إن كل نسمة خلقها الله فهو رازقها إلى أن تموت، وإلى أن تستكمل رزقها، وأن دعوى تحديد النسل خوف الفقر أنها أذهان الكفار، وأقوال الكفار، وعقول الكفار التي لم تستضيء بضوء القرآن العظيم؛ لأن الله يقول ـ يفند هذا الرأي ـ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: آية ٣١]، فلا تضق أذهانكم يعني من الرزق، فالرزق عندنا كثير، ونحن سنرزق الجميع من خزائن رزقنا؛ ولذا لما أراد المنافقون أن يحاصروا أصحاب النبي ﷺ حصاراً اقتصادياً وقالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ قال الله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: آية ٧] أي: ومن كانت عنده خزائن السماوات والأرض لا يُضَيِّقُ رزق أحد شاء أن يرزقه. وهذا معنى قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

والرزق عند الجمهور: هو ما رزقه الله للإنسان، سواء كان حلالًا أو حراماً[1]. فالله يرزق الإنسان بالحلال الطيب الهنيء، ويرزقه بالحرام، ثم يؤاخذه عليه. خلافاً للمعتزلة القائلين: إن الرزق من الله إنما هو الحلال، وإن الحرام لا يُسمى رزقاً؛ لأن العبد أخذه بمشيئته لا بمشيئة الله. كما كنا نقرر ونوضح، وبَحْثُ المتكلمين في الرزق هل يختص بالحلال أو الحلال والحرام معروف ومن يخصه بالحلال فهو مبني على مذهب الاعتزال؛ لأن الله (تبارك وتعالى) كما يشاء من العباد أن يقعوا في المعاصي وتذهب إرادتهم ومشيئتهم إلى المعاصي، كذلك إلى أن يرتزقوا بالحرام فذلك

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/١٣٢، ٥٤١ ـ ٥٤٦).

بمشيئته وجّه قدرتهم ومشيئتهم إليه، وهو مؤاخذهم عليه بأعمالهم، وكل مُيَسَّر لما خُلق له. وهذا معنى قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا من وصية محمد ﷺ التي لم يُفك عنها خاتمه هي هي كما أُنزلت مما أوصى به ﷺ مبلغاً تلك الوصية عن الله نهي جميع الخلائق عن أن يقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ فيه سر عظيم، وتعليم كبير؛ لأنه لم يقل: «وَلَا تفعلوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» لم ينه عن فعلها فحسب بل نهى عن قربانها؛ لأن من قرب من الشيء قد يقع فيه، والراتع حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه. فبيَّن في هذه الآية أن الفواحش - وسنبين معناها - أن الإنسان منهي عن أن يقربها؛ لأن القرب منها مظنة للوقوع فيها، كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه(١). وهذه الآية الكريمة من الأدلة القرآنية على وجوب سد الذرائع؛ لأن القرب من الشيء ذريعة للوقوع فيه، فإذا نُهي عن القرب منه كان ذلك سداً لذريعة الوقوع فيه، وقد أجمع العلماء على وجوب سد الذرائع في الجملة، ودل عليه في الجملة الكتاب، والسنة، والإجماع(٢). وتفصيل ذلك: أن الذرائع عند علماء الأصول ثلاثة أقسام: قسم يجب سده بإجماع المسلمين، وقسم لا يجب سده بإجماع المسلمين، وواسطة هي محل الخلاف، هي المعروفة عند أهل الأصول بـ (الذريعة الوسطى) التي لم تبلغ درجة المُجْمَع على سده، ولم تتنازل إلى درجة المُجْمَع على عدم سده. أما المُجْمَع على وجوب سده فهو الذي يكون ذريعة إلى الحرام، ويكون ارتكابه مظنة للوقوع في الحرام. وهذا ممنوع بإجماع العلماء. ومن أمثلة هذا القسم المجمع على سده: سب الأصنام إذا غلب على ظن من سبها أن عَبَدَتَها يسبون الله. وقد قدمنا هذا في هذه السورة في قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

(١) انظر: فتح المجيد ٣٨٩.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من هذه السورة.

[الأنعام: آية ١٠٨] فسب الأصنام بالنظر إلى ذاته طيب حلال كماء المزن، إلا أنه إن كان ذريعة لأن يسب عبدتُها اللَّهَ كان حراماً؛ لأنه ذريعة إلى أن يُسب الله، والذريعة إلى هذا المنكر الأكبر يجب سدها. ومن هذا القسم: أن يشتم الرجل أبا رجل أو أمه، وهو عالم أن ذلك الرجل ينتقم منه فيسب أباه ـ انتقاماً ـ وأمه؛ لأن هذه ذريعة إلى أن يتسبب الرجل في أن يُذم أبوه أو أن تُذم أمه، والواجب عليه برهما لا عقوقهما بالتسبب في ذمهما. وقد ثبت في الحديث المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من العقوق شتم الرجل والديه**». قالوا: يا رسول الله ﷺ وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[1] فهذا حديث صحيح لا مطعن فيه، صرح فيه النبيّ ﷺ بأن ذريعة السب: الشتم، وسب الوالدين حرام، فالذريعة إليه حرام. ومن أمثلة هذا النوع من الذريعة التي يجب سدها بالإجماع: أن يحفر الرجل بئراً في طريق المسلمين، ويغطي وجهه بغطاء ليتردى فيه المار، فنفس حفر البئر ليس هلاكاً لمسلم ولا لماله، ولكنه ذريعة للتردي الذي فيه الإهلاك. فهذا النوع من الذريعة يجب سده بإجماع المسلمين؛ لأنه يؤدي إلى محذور تَأْدِيَةً معلومة أو غالبة على الظن، فهذا يجب سده؛ لأن الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ومنه: القرب من أسباب الذنوب، فإنه يكون ذريعة للوقوع فيها.

أما الذريعة التي أجمع العلماء على أنها لا يجب سدها، وأنها تُلغى وتُهدر: هي أن تكون الذريعة إلى المفسدة تُعارضها مصلحة عظمى أكبر منها، فإن المصالح العظام الكبار تُقدم على المفاسد الصغيرة. وتحرير هذا المقام: إنه إن تعارضت مفسدة أو مصلحة، فإن كانت المفسدة أكبر حُرِّم الفعل إجماعاً؛ لأن مفسدة سب الله أكبر من مصلحة سب الأصنام. وإن كانتا متساويتين وجب إلغاء المصلحة إجماعاً. أما إن كانت المصلحة راجحة هي أكبر وأرجح، والمفسدة صغيرة مرجوحة، ففي هذا تُلغى المفسدة، ويُلغى سد الذريعة إليها تقديماً للمصلحة الكبرى. ومن أمثلة هذا النوع الذي لا يجب سده؛ لأن

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

المصلحة فيه أعظم من المفسدة: غرس أشجار العنب، فإن غرس شجر العنب ذريعة إلى عصر الخمر منه، وهي أم الخبائث ـ قبحها الله ـ إلا أن هذه المفسدة أرجح منها عموم جميع الخلق بالزبيب والعنب في أقطار الدنيا.

وانظر تَدلِّي دَوَالي العِنَبِ   في كل مشرقٍ وكل مغربِ[1]

لأن العنب والزبيب منفعتان ينتفع بهما جميع الناس، وعصر الخمر من العنب إنما يفعله أفراد قليلة، فذلك الضرر القليل يُلغَى في جنب تلك المصلحة العامة العظمى. ومن أمثلة هذا النوع من الذرائع الذي أجمع العلماء على أن سده لا يجب؛ لأن المصلحة أرجح من المفسدة: مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد؛ لأن مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد بأن تكون هذه الدُّور متجاورة، هذه الدار فيها هذا الرجل، وبناته، وزوجاته، وأخواته، وجاره الذي بجنبه معه أيضاً بناته، وزوجاته، وأخواته؛ لأن المعاونة بين الرجال والنساء مصلحة عامة لا يستغني عنها العالم، فإن المرأة تقوم بشؤون خدمات البيت في خدرها وبيتها، فترضع الرضيع من الأولاد، وتحنو على الفطيم، وتؤانس المريض، وتقوم على شؤون البيت، وتكنس، وتعجن، وتخبز، فيأتي الرجل من عمله، أو من جهاده فيجد قرينه الآخر الكريم ـ الذي هو امرأته ـ قام له بجميع مصالح الدنيا، فهم محتاجون إلى هذا التعاون والاجتماع، مع أن اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون ذريعة إلى وقوع الزنى من بعض الأفراد؛ لأن الرجل يمر من الطريق فتلقي إليه المرأة من الطاقة ورقة فيها موعد يجتمعان فيه، أو يعلو إلى السطح وهي على سطح فيتسايران كما قال نصر بن حجاج السلمي[2]:

لَيْتَني في المؤذنين نَهَارَا   إِنَّهم ينظرون من في السطوحِ
فيشيرونَ أو يُشارُ إليهم   حبذا كل ذاتِ دَلٍ مليحِ

فهذا قد يقع منه الوصول إلى الزنى من بعض الأفراد، إلا أن هذه

---

(١) هذا البيت من منظومة مراقي السعود. وهو في المتن ص (١٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من هذه السورة.

المفسدة التي تنشأ من اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد تنشأ من أفراد قليلة، وهي مغمورة في المصلحة العامة بمعاونة الجنسين التعاون الكريم كما بينا؛ ولهذا لم يقل أحد من العلماء في جميع الدهر إنه يجب سد هذه الذريعة فيجب أن يُعزل جميع الإناث من القرية، وأن يُعزل جميع الذكور إلى جهة، وأن يكون جميع الإناث في حصن من الحديد عليه أبواب حديد قوية وأسلاك شائكة، لا يستطيع أحد خرقها، وتكون المفاتيح في يد رجل شائب ذي زوجات معروف بالتقى والعفاف. لم يقل هذا أحد من العلماء!! فهذه الذريعة أُلغيت لهذه المصلحة التي هي أعظم منها.

أما الذريعة الوسطى التي اختلف فيها العلماء: فكبيوع الآجال المعروفة في عرف أصحاب مذهب مالك ببيوع الآجال، ويسميها الشافعيون والحنبليون: (بيوع العينة) فإن العلماء اختلفوا فيها[١]، كأن تبيع سلعة بعينها لرجل إلى أجل ـ كأن تبيع له السلعة بأجل إلى شوال ـ ويكون الثمن عشرة مثلًا، ثم تشتري عين السلعة من ذلك الرجل بدين وأجل مسمى إلى جمادى مثلًا. فإن السلعة الخارجة من اليد، العائدة إليها ملغاة، فالسلعة رجعت ليد صاحبها، فكأنه آل الأمر أنه يأخذ عشرة في شوال، فإذا كان جمادى أخذ عشرين عن العشرة التي أخذ في شوال[٢]. فهذا بالنظر إلى ما يؤول إليه عين الربا، وهو عشرة بعشرين مؤجلة. أما بالنظر إلى ذات العقدين فالعقد الأول عقد على سلعة بأجل دَيْن إلى أَجل مسمى، والعقد الثاني عقد أيضاً على سلعة بأجل إلى أجل مسمى. وكان الشافعي (رحمه الله) يجيز مثل هذا ويقول: إن هذا مباح؛ لأن كلا العقدين مباح في ذاته. وكان غيره يحرمه سداً

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) في المثال المذكور هنا شيء من الاضطراب، وقد ذكر الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة ص ومثّل لها بقوله: «كما لو باع إنسان سلعة إلى أجل معين بعشرة دراهم مثلاً، ثم اشتراها بثمن أكثر لأبعد من الأول، أو بثمن أقل من الثمن الأول بدون الأجل» ا.هـ. والعلماء مختلفون في تفسير العينة، والمشهور في معناها: أن يبيع سلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها من المشتري قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر. انظر: نيل الأوطار (٥/٢٠٧)، القاموس الفقهي ص٢٧٠.

للذريعة لئلا يقصد ببيع السلعة وشرائها أن تكون السلعة أداة لأن يأخذ عشرة ويأخذ بعدها عشرين، وكانت عائشة ترى أن هذا حراماً، وكان زيد بن أرقم (رضي الله عنه) من أصحاب رسول الله ﷺ يرى - رأي الشافعي في هذا - أنه حلال. قالت عائشة لامرأته: قولي لزيد: إن لم يرجع عن هذا الربا فإنه يبطل جهاده مع رسول الله[1]. وكان الشافعي (رضي الله عنه) يقول: اختلف زيد وعائشة، والقياس يؤيد قول زيد؛ لأن كلا العقدين سلعة بيعت بثمن إلى أجل معين. وغيرهم من العلماء - وهم الأكثر - يقولون: هذا قد يكون ذريعة إلى الربا فيجب سدها؛ لأن بيع السلعة بعشرة إلى شوال، ثم شراءها بعشرين إلى جمادى، فترجع السلعة إلى موضعها، فكأنها لم تخرج، فيؤول الحال إلى أن يستلم عشرة في شوال، ثم يأخذ عوضاً عنها عشرين في جمادى، فهذا ذريعة إلى الربا يجب أن تُسد. فهذا هي الواسطة المُخْتَلَف فيها، فالشافعي وأصحابه وزيد بن أرقم من الصحابة يرون جواز مثل هذا، وأن هذه ذريعة لا يجب سدها. ومالك وأحمد وعائشة وطوائف من العلماء يرون وجوب سد هذه الذريعة. فهذا هو الكلام باختصار على أنواع الذرائع، وما يجب سده منها بالإجماع، وما لا يجب بالإجماع، وما اختُلف فيه.

ومن الأدلة على سد الذريعة في الجملة هذه الآية الكريمة؛ لأن الله لما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ولم يقل: «لا تفعلوا الفواحش» علمنا أنه أراد سد الطريق إليها بعدم القرب منها؛ لأن القرب من الشيء ذريعة إلى الوقوع فيه.

٢٢/أ / والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه. والخطاب لعامة الناس.

والفواحش: جمع فاحشة. وقد تقرر في علم النحو أن (الفَاعِلَة) تُجمع جمع كثرة - جمع تكسير - على (فَوَاعِل) بقياس مطرد[2]، والواو في (الفواحش) مبدلة من الألف التي في مفرد الفاحشة[3]. ف (الفَاعِلَة) تُجمع على (فَوَاعِل) بقياس مطرد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأشموني (٤٤٩/٢).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص (٢١٢).

ومعنى الفاحشة: أصل الفُحْش في لغة العرب: هو كل شيء بلغ نهايته تسميه فاحشة[١].

والفاحشة في اصطلاح الشرع: الخصلة المتناهية في القبح[٢]. فكل خصلة تناهت وبلغت غايتها في القبح [تُسميها][٣] العرب فاحشة. ومن قال: «إن أكثر إطلاقها في القرآن على الزنى ودلالة اللسان[٤]». فهو خلاف التحقيق؛ لأن الفاحشة تطلق على كل خصلة رديئة بالغة في القُبح، والفُحش. هذه هي الفاحشة. وكل بالغ غايته في الشيء فهو فاحش. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[٥]:

أرى الموتَ يعْتَام الكرامَ ويصطَفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المُتَشَدِّدِ

يعني بقوله: «الفاحش» البالغ غاية الحرص على ماله. و (الفواحش) هنا: هي السيئات العظام المتناهية في القبح. نهى الله خلقه عن أن يقربوا من كل خصلة سوء قبيحة يحرمها الشرع ويحذر الله منها. ثم عمم هذا تعميماً عظيماً فقال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] فقوله: ﴿مَا﴾ بدل من (الفواحش) و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ عطف عليه، والمعنى: احذروا كل الحذر، وتجنبوا كل التجنب، جميع الفواحش، سواء في ذلك ما هو ظاهر منها، وما هو باطن منها، كما قدمنا في قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٠].

واعلموا أن في ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ تفسيرات خاصة لبعض السلف، ليس المراد بها الحصر، وإنما المراد بها التمثيل، للظاهر

---

(١) انظر: المصباح المنير (مادة: فحش) ص (١٧٦)، المفردات (مادة: فحش) (٦٢٦).

(٢) انظر: الكليات ص (٦٧٥).

(٣) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) انظر: الكليات ص (٦٧٤).

(٥) شرح القصائد المشهورات (٨٣/١).

والباطن[(١)]، كقول بعض العلماء: إن العرب كانوا على قسمين فيهم أراذل أنذال يزنون بالنساء في الحواري، من غير محافظة من مرأى الناس، وفيهم ناس لهم نخوة، يجتنبون الزنى بمرأى من الناس، فيتخذون الصديقات والخدينات، ويزنون بهن سراً من غير أن يطّلع الناس. فنهى الله عن باطن الزنى وعن ظاهره. وكقول بعض السلف: إن ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: هو ما تفعله الجوارح من سرقة، وزنى، وغصب، وغير ذلك. و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو ما يحتوي عليه القلب من الكبائر القلبية، كالعُجْب، والرياء، والكبر، والحسد، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك من أمراض القلوب. كل هذا من الأمثلة.

والتحقيق: أن الآية الكريمة عامة، والخطاب بها عام، فيجب على كل مكلف أن يتباعد من كل معصية خسيسة، سواء كان ذلك ظاهراً بمرأى الناس، كالذي يزني والناس ينظرون، أو يقتل والناس ينظرون، أو يرتكب محرماً ظاهراً علناً يراه الناس، وكالذي يفعل الفواحش سراً من غير اطلاع الناس، سواء الذي يزني من غير أن يراه الناس، والذي يسرق خفية من غير أن يراه الناس، وهذا لا يفعله إلا من هو في غاية الجهل؛ لأنه إذا خاف أن يطّلع الناس عليه، وترقّب للفاحشة أن تكون باطنة لا يراها الناس، أليس هو يعلم أن خالقه يراه؟ وأن الحفظة الملائكة الكرام حاضرون معه، يُسَجّلون عليه ما فعل؟! فعلى المسلم إذا خلا بالأمر، وسوّل له الشيطان أن يفعل تلك الفاحشة؛ لأن الناس لا يرونه، وأنه لا يطّلع عليه أحد، كالذي يخلو بامرأة في محل مقفول، يأمن عيون الناس فيه، فيخوِّل له الشيطان الريبة معها، عليه أن ينظر أن الله رقيب عليه، وأن الملائكة الكرام معه ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: آية ٧]، وعلى الشخص أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: الآيات ١٠ ـ ١٢] فالذي يستحيي من البشر الضعاف الذين لا يقدرون أن يضروه، ولا يستحيي من خالق السماوات والأرض، فهو مجنون جاهل.

---

(١) انظر: ابن جرير: (١٢/٢١٨ ـ ٢٢٠).

واعلموا أولًا أنّا نذكر أشياء في ضوء آيات القرآن عامّة، على سبيل النصيحة والإرشاد لعموم إخواننا المسلمين، في ضوء القرآن العظيم، من غير أن نقصد التعريض بشخص معين، ولا بجهة معينة.

وإذاً فإنّا نعلم أن من الفواحش الباطنة أكل الرُّشَا. فهذا الإنسان الخسيس، الذي يخاف أعين الناس، ثم يأخذ الرّشوة بحيث لا يراه أحد، ظلماً وعدواناً، خيانة لولي أمر المسلمين، الذي ولاه المركز على أنه يكون ناصحاً في غاية النصح والنزاهة والأمانة، وخيانة لربه المطّلع عليه، حيث يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله!!

وعلى هذا فاعلموا أن الرشوة أقسام: منها ما يُراد به إبطال حق أو إحقاق باطل، كالذي يدفع مالًا لمسؤول بيده الأمر، ولّاه إياه ولي أمر المسلمين، ليُبطل له حقاً أو يُحقّ له باطلًا، فهذا النوع من أخبث الرُّشَا وأخسّها، وصاحبه من أهل النار؛ لأنه أخذ هذا الأخذ الخسيس الخبيث الخائن، وهذه الفاحشة الباطنة، يريد أن يحقق بها ما أبطله الله، ويبطل بها ما أحقه الله، فعلينا جميعاً أن نعلم أن مثل هذه الأفعال بالغة من الخساسة والانحطاط ما ينبغي لمن كان له [عقل][1] حتىٰ ولو لم يكن له دين، وله نخوة وإنسانية وضمير أن يتباعد عن هذا الخلُق الخسيس المنحط؛ لأن أكبر نعمة في الدنيا يراها الإنسان أن يكون إذا راجع نفسه فيجد نفسه مرضياً ضميره، لم يرتكب خسيسة، ولا شيئاً يفضحه، هذه أكبر نعمة. وأخسّ الأشياء: الذي يرتكب الخسائس والفواحش الباطنة، مستخفياً بها من الناس، ولم يستخف بها من الله، يتجرأ على خالق السماوات والأرض، ويستخفي من الناس [وكان الواجب عليه أن يراقب ربه، ويجتهد في أن يُقدم للناس][2] خدمة نزيهة إنسانية، يلقى بها ثوابه عند الله، ويرضي بها ضميره، ويرضي بها الحَفَظَة الملازمين له، مع أنه يتقاضى من بيت مال المسلمين

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

على ذلك شيئاً يسد أَوَدَه وخَلَّته، لئلا يضطر إلى ما لا ينبغي، فعلى هذا المسلم أن ينزه ضميره، ويكرم ربه، ويكرم الملائكة الذين معه، وأن يكرم ولي أمر المسلمين الذي حطّه في ذلك الموضع، ولا يخون؛ لأن الإنسان إذا كان يجيئه مسكين ضعيف، له حق ثابت له شرعاً، سواء كان إدارياً أو قضائياً، ثم إنه يُسوِّفه، ويقول له: بعد بُكْرَة، ثم بعد بُكْرَة، ثم بعد أسبوعين!! وهو حقه جاهز لا شيء دونه ولا عقبة، ولم ينقصه إلا التوقيع، يريد بذلك أن يضطر المسكين إلى أن يعتصر منه فلوساً ظلماً بسطوة الحكومة وسلطتها، خيانة ومكراً وغدراً!! فهذا الشيء الذي يعرق منه الجبين، فعلى الإنسان أن يتجنبه كل التجنب؛ لأنه مما بَطَنَ من الفواحش، ومع شدة حرمته عند الله، وخساسته من جميع الوجوه، وأن صاحبه لم يتق الله، بل خاف الناس، ولم يفعله أمام الناس خوفاً من الناس، ولم يتق خالقه الذي شق عينيه، وفتح فمه وأنفه، ولم يتق الحَفَظَة الكاتبين معه. فهذه أمور فظيعة شنيعة، نرجو الله أن ينقذنا وإخواننا المسلمين من الوقوع في أمثالها من السفالات التي تربأ الحمير عنها بأنفسها؛ لأن هذا أمر قبيح، والأمر إذا كان جامعاً بين شدة القبح وشدة التحريم عند الله فلا ينبغي للعاقل أن يرتكبه.

إن للعارِ فاخْشَها مُوبِقَاتٍ تُتَّقى مثل موبقاتِ الذنوبِ[1]

وعلى كل حال فهذه الآية الكريمة ـ من سورة الأنعام ـ نهى الله فيها جميع خلقه عن أن يقربوا من خصلة خسيسة محرمة، أن يقربوا منها فضلًا عن أن يرتكبوها، سواء كان في الظهور والعلن بحيث يراه الناس، أو في الباطن بحيث لا يطلع عليه إلا الله والحفظة الكرام الكاتبون معه، والله (جل وعلا) يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: آية ١٨] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: آية ١٦] فعلى كل مسلم إذا قام بخدمة لأمته أن يخدم أمته بشرف وكرامة ونزاهة؛ ليرضي

(١) لم أقف عليه.

بذلك الله، ويرضىٰ عنه الحفظة الذين معه، ولا يرفعوا عنه في ليله ونهاره إلى السماء إلا عملا يبيض وجهه، ويرضي الله، ثم يكون مُرضياً ضميره، أما الذي يُلغي هذه الأوامر، ويتنازل إلى هذه الخسة لينال عرضاً قليلاً من الدنيا فهذا ساقط المروءة والدين، وهو عند الله في شرّ مكانة - والعياذ بالله - ألا ترون أن عنترة بن شداد كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولم يأته نذير، بل هو جاهلي، إلا أن عنده ضميراً حياً، وشيمة عربية، يقول في معلقته(١):

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظَلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكَلِ

فالذي يكون غير محتاج، وهو يقع في هذه المآثم الخسيسة، هذا لا ينبغي، فنحن نحذر منه إخواننا، ونرجو الله لنا وللجميع أن يوفقهم إلى ما يرضيه من نزاهة تليق، ومعاملة سليمة، والقيام بالخدمة على الوجه اللائق الذي يرضي الله، ويرضي الضمير الإنساني، ويرضي ولي الأمر الذي جعل الشخص ممثلًا له في ذلك المحل. والآية عامّة.

هذا معنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] لا شك أن قتل النفس التي حرم الله أنه داخل في (الفواحش). إن فعله علناً أمام الناس فهو داخل فيما ظهر، وإن قتله غيلة من حيث لا يراه الناس فهو داخل فيما بطن؛ لأن قتل النفس من الفواحش، والله (جل وعلا) خصّه مع أنه داخل في العموم، وفي ذلك حكمتان(٢):

أحدهما: تفظيع القتل وتهويل أمره؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: آية ٩٣].

النكتة الثانية: أن القتل منه ما هو بحق، فلا بد أن يُستثنىٰ بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] والاستثناء

---

(١) ديوان عنترة ص (٩٨).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٥٢/٤)، الدر المصون (٢١٩/٥).

الذي هو ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لا يمكن حتى يُخرج القتل من عموم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: التي حرم الله قتلها بأن جعلها معصومة. والنفس المعصومة: هي المعصومة بـ (لا إله إلا الله) من أنفس المسلمين. والمعصومة بأداء الجزية كالذميّين الذين يُؤَدُّون الجزية عن يد وهم صاغرون. فَعِصْمَة دمائهم وأموالهم كالمسلمين. وكذلك المعاهدون الذين يعطيهم الإمام أو غيره من المسلمين عهداً؛ لأن المسلمين يقوم أدناهم - يعني - بعهدهم، فلو أعطى الإمام عهداً لمعاهد يدخل (. . .)[1] فهو إذاً من النفس المحرمة. وجاء في قتله أحاديث مشددة، أن صاحبه لا يشم ريح الجنة.

فالنفس التي حرم الله: إما بالإسلام، وإما بالذمة، وإما بالمُعَاهَدَة.

فقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا تقتلوها إلا بالطريق الحق الموجبة لقتلها[2] شرعاً عند الله، وهذه الطريق حصرها النبي ﷺ في حديث ابن مسعود المتفق عليه في ثلاث حيث قال: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[3] يعني: المرتد؛ لأن في الحديث الصحيح: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[4] هذا الحديث الصحيح حصر قتل النفس بالحق في ثلاثة أشياء، وزاد العلماء على هذه الثلاثة أشياء أخرى دلت عليها نصوص[5]، منها ما هو مختلف فيه.

زاد بعضهم على هذا: المحاربين، على قول مالك ومن وافقه أن آية

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، والمعنى مستقيم بدونها.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/٢٢٠)، القرطبي (٧/١٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ . . .﴾ حديث رقم: (٦٨٧٨)، (١٢/٢٠١). ومسلم في القسامة، باب ما يباح به دم المسلم. حديث رقم: (١٦٧٦)، (٣/١٣٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما.
وقد جاء نحوه من حديث عائشة وعثمان (رضي الله عنهما) مع تغاير في الألفاظ، وليس شيء منها في أحد الصحيحين.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم (١/٣٢٣ - ٣٣٥)، الفتح (١٢/٢٠٢ - ٢٠٤).

المحاربين لم تتنزل على أحوال؛ لأن مالكاً لا يقول ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: آية ٣٣] أي: إذا قتلوا ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ إذا قتلوا وأخذوا المال ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إذا أخافوا الطريق ولم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا. التنزيل على هذه الأحوال، يقول مالك وجماعة من فقهاء الأمصار[1]: إن هذا ليس بصحيح، وإن القرآن العظيم لا يجوز أن تُزاد فيه قيود لم يدل عليها كتاب ولا سنة. وهذه القيود التي عليها جماهير من العلماء لم يأتِ بها نص صحيح، وإنما جاء فيها حديث عن أنس ضعيف، لم يقل أحد بصلاحيته للاحتجاج[2]. فقولٌ عند مالك ومن وافقه في التخيير يقولون: إن الإمام مُخيّر بين هذه الثلاثة، إن شاء قتلهم وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا، وإن شاء قطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا مالًا، وإن شاء نفاهم من الأرض. وعلى هذا القول فقتل النفس بالحرابة جائز على الثلاثة.

ومما يزداد على الثلاثة ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»[3] هذا نص من النبي ﷺ على أن الناس إن بايعت خليفة ثم جاء واحد آخر فبويع له فإنه يُوجب شق العصا وإراقة دماء المسلمين، فيُقتل الأخير ليستتب الأمن، وتتفق كلمة المسلمين على الأول الذي بايعوه. وفي صحيح مسلم من حديث عرفجة (رضي الله عنه): «**من أتاكم وأمركم واحد، على رجل واحد، يريد شق عصاكم، وتفريق جماعتكم، فاقتلوه**» وفي رواية: «**فاضربوا عنقه**»[4]، وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن

---

(١) انظر: القرطبي (٦/١٥٢).

(٢) وفيه: «قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله...» أخرجه ابن جرير ـ وأشار لضعفه ـ في التفسير (١٠/٢٥٠، ٢٦٧) وفي سنده ابن لهيعة، والكلام فيه معروف. وانظر النسائي (٧/٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب إذا بُويع لخليفتين. حديث رقم: (١٨٥٣)، (٣/١٤٨٠).

(٤) مسلم في الإمارة، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع. حديث رقم: (١٨٥٢)، (٣/١٤٧٩).

عمرو بن العاص: «**من بايع إماماً وأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**»(١)، هذه أحاديث ثابتة عن صحابة بقتل هذه النفس، زيادة على الثلاث المذكورة.

وزاد جمهور العلماء عليها تارك الصلاة(٢)، فإن جمهور العلماء ـ منهم مالك، والشافعي، وأحمد ـ على أن تارك الصلاة يُقتل. واستدلوا على قتله بمفاهيم كثيرة من أحاديث كثيرة وآيات، كقوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] وكقصة الرجل الثابتة في الصحيح، الذي تكلم في النبي ﷺ وقال: قِسْمَة ما أُريد به وجه الله!! فقال بعض الصحابة: دعني أضرب عنقه. قال: «**أليس يُصلي**»؟! قال: يُصلي ولا صلاة له!! قال: «**أولئك الذين نهيت عن قتلهم**»(٣) يعني: المصلين. فدل

---

(١) مسلم في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. حديث رقم: (١٨٤٤)، (٣/١٤٧٢).

(٢) انظر: التمهيد (٤/٢٢٤) فما بعدها، الاستذكار (٥/٣٤١) فما بعدها، المغني (٢/٢٩٨ ـ ٣٠٢)، (١٠/٨٥)، نيل الأوطار (١/٢٨٧)، كتاب الصلاة لابن القيم.

(٣) ما ذكره الشيخ (رحمه الله) هنا مركب من حديثين وَهِمَ الشيخ (رحمه الله) فأدخل أحدهما في الآخر.

أما الأول: فمن حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) ولفظه: قسم النبي ﷺ قَسْماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «**يرحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر**».

وقد أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخُمس ونحوه. حديث رقم: (٣١٥٠)، (٦/٢٥١). وأطرافه في: (٣٤٠٥، ٤٣٣٥، ٤٣٣٦، ٦٠٥٩، ٦١٠٠، ٦٢٩١، ٦٣٣٦). ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم. حديث رقم: (١٠٦٢)، (٢/٧٣٩).

وأما الحديث الثاني: فهو من حديث عبدالله بن عدي الأنصاري (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ بينا هو جالس بين ظهراني الناس جاء رجل يستأذنه أن يُسَارّه، فأذن له فَسَارّه في قتل رجل من المنافقين يستأذنه فيه، فجهر رسول الله ﷺ بكلامه فقال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟**» قال: بلى، ولا شهادة له. قال: «**أليس يشهد أن محمداً رسول الله؟**» قال: بلى، ولا شهادة له. قال: «**أليس يصلي؟**» قال: بلى، ولا صلاة له. قال: «**أولئك الذين نُهيت عن قتلهم**».

وهذا الحديث بعضهم يرويه موصولاً مسنداً، وبعضهم يرويه عن عبيدالله بن عدي بن الخيار ـ وهو الذي رواه عن عبدالله بن عدي الأنصاري ـ مرسلاً.

بمفهومه على أن الذي لا يُصلي أنه يُقتل، وفي الحديث المشهور في صحيح مسلم أن النبي ﷺ لما ذكر أئمة السوء، وأنه سيلي عليكم قوم تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قالوا له: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**»[١]، فدل على أن المانع من قتلهم إقامة الصلاة. والأحاديث في مثل هذا كثيرة؛ ولذا كان ثلاثة من الأئمة على أن تارك الصلاة يُقتل. ومشهور مذهب مالك، ومذهب الشافعي، أنه يقتل حداً لا كفراً، بناء على حديث عبادة بن الصامت الذي يقول فيه: «**إنها خمس صلوات كتبهن الله**» ـ إلى أن قال في آخر الحديث ـ: «**ومن لم يأتِ بها فأمْرُه إلى الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه**»[٢]. وكان الإمام أحمد في أصح الروايتين يرى أن تارك الصلاة يُقتل كفراً[٣]. وقد دلت على ذلك أحاديث كثيرة: «**من ترك الصلاة فقد كفر**»، «**العهد الذي بيننا وبينهم ترك الصلاة**»[٤]

وقد أخرجه مالك في الموطأ (١١٩)، والشافعي في الأم (١٥٧/٦)، وعبدالرزاق (١٦٣/١٠)، وأحمد (٤٣٢/٥ ـ ٤٣٣)، وعبد بن حميد (١٧٧/١)، والبيهقي (٣٦٧/٣)، وابن حبان (الإحسان ٥٨٤/٧)، والمرزوي في تعظيم قدر الصلاة (٩١٢/٢ ـ ٩١٤). وللحديث شواهد، انظر: التمهيد (١٤٩/١٠).

(١) مسلم في الإمارة، باب: خيار الأئمة وشرارهم. حديث رقم: (١٨٥٥)، (١٤٨١/٣).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، في صلاة الليل، باب الأمر بالوتر. حديث رقم: (٢٦٦) ص (٩٠)، وعبدالرزاق رقم: (٤٥٧٥) وأحمد (٣١٥/٥ ـ ٣١٦، ٣١٩)، وابن أبي شيبة (٢٩٦/٢)، والحميدي رقم: (٣٨٨)، والدارمي (٣٧١/١)، وأبو داود في الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات. حديث رقم: (٤٢١)، (٩٣/٢) وفي باب: فيمن لم يوتر، حديث رقم: (١٤٠٧)، (٢٩٤/٤)، والنسائي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات الخمس. حديث رقم: (٤٦١)، (٢٣٠/١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في فرض الصلوات الخمس. حديث رقم (١٤٠١)، (٢٤٩/١)، والبيهقي (٣٦١/١)، (٨/٢، ٢١٥، ٤٦٧).

والحديث صححه ابن عبدالبر في التمهيد (٢٨٨/٢٣)، وساق طرقه في الاستذكار (٢٦١/٥) وانظر: صحيح أبي داود (٨٥/١، ٢٦٦)، صحيح النسائي (١٠٠/١)، المشكاة رقم: (٥٧٠).

(٣)(٤) الجملتان من حديث واحد عن بريدة (رضي الله عنه) مرفوعاً. أخرجه أحمد (٣٤٦/٥)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة. حديث رقم: (٢٦٢١)، (١٣/٥ ـ ١٤)، والنسائي في الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة. حديث=

في أحاديث تُصرح بأنه كافر. وأكثر العلماء على أن قتله حد. وأصرح الأدلة تدل على أنه كافر. وهي أكثر وأشهر من حديث عبادة بن الصامت، إلا أن الجمهور الذين قالوا: إن قتله ليس بكفر، قالوا: إن النبيَّ ﷺ سماه كفراً، ولكنه قد يجيء في الشرع تسمية أشياء بالكفر وليست بمُخرجة عن الإسلام، كقوله: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(١) والمراد: أنه ليس بكفر حقيقي. وكقوله ﷺ: «**إني رأيت النار، ورأيت أكثر أهلها النساء**». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «**بكفرهن**» هذا ثابت في الصحيح. فلما استُفسر عن كفرهن قال: «**يكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن كذا وكذا ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط**»(٢) واستدلوا بعموم الآيات، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

رقم: (٤٦٣)، (٢٣١/١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة. حديث رقم: (١٠٧٩)، (٣٤٢/١)، والحاكم (٧/١).
وانظر: صحيح الترمذي (٣٢٩/٢)، صحيح ابن ماجه (١٧٧/١)، المشكاة، رقم: (٥٧٤) تخريج الإيمان لابن أبي شيبة (٤٦).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. حديث رقم: (٤٨)، (١١٠/١)، وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديث: (٦٠٤٤، ٧٠٧٦). ومسلم في الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**». حديث رقم: (٦٤)، (٨١/١).

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:
١ ـ ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات. حديث رقم (٧٩)، (٨٦/١).
٢ ـ أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في كتاب الحيض، باب: ترك الحائض الصوم. حديث رقم: (٣٠٤)، (٤٠٥/١). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (١٤٦٢، ١٩٥١، ٢٦٥٨)، ومسلم في صلاة العيدين، حديث رقم: (٨٨٩)، (٦٠٥/٢).
وراجع في حديث أبي سعيد أيضاً: البخاري، الأحاديث: (١٠١، ١٢٤٩، ٧٣١٠)، ومسلم حديث رقم: (٢٦٣٣).
٣ ـ زينب امرأة ابن مسعود، عند الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة الحلي. حديث رقم: (٦٣٥، ٦٣٦)، (١٩/٣).
وأصله في الصحيحين، البخاري في الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر. حديث رقم: (١٤٦٦)، (٣٢٨/٣)، ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين. حديث رقم: (١٠٠٠)، (٦٩٤/٢).

لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: آية ٤٨] فالحاصل أن جمهور العلماء وفقهاء الأمصار ـ منهم الأئمة الثلاثة ـ على أن تارك الصلاة يُقتل؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

أما مانع الزكاة فإنه يقاتل. يُقال له: أخرج الزكاة. فإن أبىٰ أُخرجت قسراً عليه. فإن منعها قُوتل دونها[١]. والقتال غير القتل، وهو الذي فعله أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) مع مانع الزكاة، قاتلهم. فالذي يُفعل بمانع الزكاة قِتال لا قتل؛ لأنه يُؤمر بإخراجها، فإن أبى أُخِذَت منه قهراً، فإن جاء دونها قُوتل حتى يُقتل. هذا هو المعروف.

وفي كون تارك الصلاة يُقتل عند الجمهور، عند من يقول إنه يُقتل كفراً، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد، وهو رواية عن مالك، ودلت عليه أحاديث صريحة صحيحة في صحيح مسلم وغيره، أنه كافر. وعلى قول مالك والشافعي: أنه يُقتل حداً، قالوا: لم يُعرف عن السلف أن الذي كان لا يصلي أنهم لا يرثون بعده، ويجعلونه كالكافر المرتد الذي يُرد نصف ماله إلى بيت مال المسلمين. هكذا قالوا، والخلاف مشهور. فبهذا نعلم أن تارك الصلاة: الشرع يقتله، وأن الحياة التي يعيش بها ليست حياة شرعية، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حسّاً. فمثال تارك الصلاة عند أرباب العقول مثال الميتة الإنسان الميت الذي هو منتن في ريحه، فيمشي بين الناس يأكل ويشرب؛ لأن حياته التي يعيش بها ليست حياة شرعية، وإنما هي حياة غير شرعية، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً.

وخالف في هذا أبو حنيفة الجمهور، فقال: لا يُقتل تارك الصلاة[٢]. واستدل بحديث ابن مسعود أن النبيَّ ﷺ حصر القتل في ثلاث «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث**»، قال أبو حنيفة: هذا حصر من النبي ﷺ في ثلاث، ولم يذكر فيها تارك الصلاة، فلا

---

(١) انظر: المغني (٤٣٥/٢ ـ ٤٣٨).

(٢) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

يمكن أن نخرق هذا الحصر، مع أن قتل تارك الصلاة أغلب أدلته مفاهيم الأحاديث، وظواهر من آيات لا تكون مثل الصريح في قوله: «**لا يحل قتل امرىء مسلم، إلا بإحدى ثلاث**»(١) هذا مذهب أبي حنيفة ووجهة نظره.

وزاد بعض العلماء أشياء أُخر، منها: الساحر، فإنه يُقتل عند العلماء(٢)، وجاء في بعض روايات البخاري من حديث بَجَالَة: «**اقتلوا كل ساحر وساحرة**»(٣) وثبت عن ثلاثة من الصحابة قتل الساحر، عن عمر بن الخطاب(٤)، وحفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب(٥)، وجندب (رضي الله عنه) في قتلته المشهورة للساحر الذي كان عند الوليد بن عقبة بن أبي معيط في أيام عثمان بن عفان (رضي الله عنه)(٦).

وزاد بعض العلماء: من زنىٰ ببهيمة من البهائم. فإن بعض العلماء

---

(١) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

(٢) انظر الفتح (١٠/٢٣٦)، الاستذكار (٢٥/٢٣٧) فما بعدها.

(٣) هذا الأثر قطعة من كتاب عمر لبعض عماله، فهو موقوف عليه. وقد أخرجه عبدالرزاق (٩٩٧٢، ٩٩٧٣، ١٨٧٤٥ ـ ١٨٧٤٦، ١٨٧٤٨، ١٨٧٥٦)، وأحمد (١/١٩٠ ـ ١٩١)، وأبو عبيد في الأموال رقم: (٧٧) ص (٣٥)، وأبو داود في الخراج والفيء والإمارة، باب في أخذ الجزية من المجوس. رقم: (٣٠٢٧)، (٨/٢٩٤)، وأبو يعلى رقم: (٨٦٠، ٨٦١)، (٢/١٦٦ ـ ١٦٣)، والبيهقي (٨/١٣٦، ٢٤٧ ـ ٢٤٨)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٤، ٣٩٧)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٣٧٩٤٢ ـ ٣٧٩٤٣). وقد أخرج البخاري أصل الحديث من غير موضع الشاهد، كما في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. رقم (٣١٥٦)، (٦/٢٥٧). كما أخرجه مختصراً من غير موضع الشاهد آخرون كالشافعي في الرسالة، والأم، والدارمي، والترمذي، والطيالسي، وغيرهم.

(٤) راجع الأثر المتقدم. وورد من فعله ـ أيضاً ـ عند عبدالرزاق، رقم: (١٨٧٥٥)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٧).

(٥) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر. رقم: (١٥٨٥) ص (٦٢٨). عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة بلاغاً. وقد جاء موصولاً عند عبدالرزاق رقم (١٨٧٤٧، ١٨٧٥٧)، والبيهقي (٨/١٣٦)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٣٧٩٢١ ـ ٣٧٩٢٤)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٤، ٣٩٥).

(٦) أخرجه عبدالرزاق (١٠/١٨١ ـ ١٨٢)، والبيهقي (٨/١٣٦)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٥/٢٤٠)، وابن حزم في المحلى (١١/٣٩٦).

يقول: من وقع على بهيمة من البهائم قُتل هو وقُتلت هي. وهذا ورد فيه حديث أخرجه أبو يعلىٰ وابن ماجه، قال صاحب مجمع الزوائد في السند الذي أخرجه به أبو يعلىٰ: فيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رواته ثقات، فهو صالح للاحتجاج[١]. أما حديث ابن ماجه، وهو من رواية داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس[٢]. وبعض علماء الحديث يقولون: داود بن الحصين ثقة في غير عكرمة. كما هو معروف في محله[٣]. ففي ظاهر حديث ابن عباس هذا الذي أقلّ درجاته الحُسْن أخذ بعض العلماء، فقال: يُقتل الزاني بالبهيمة، وتُقتل البهيمة معه. ومن العلماء من يقول: لا يُؤكل لحمها. ومنهم من يقول: يُؤكل لحمها. كما هو معروف في الفروع[٤]. وأكثر العلماء يقولون: من زنىٰ ببهيمة لا يُقتل؛ لأن حديث ابن مسعود الذي حصر أكثر القتل في ثلاث لا يُنقض حصره بهذا الحديث الذي سنده أضعف منه[٥].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٥٩٨٧)، (٣٨٩/١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحافظ في التلخيص (٥٥/٤): «وفي إسناده كلام» ا.هـ. وقال الهيثمي (٢٧٣/٦): «رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» ا.هـ. وانظر: الإرواء (١٥/٨).

(٢) أخرجه عبدالرزاق (١٣٤٩٢)، وأحمد (٢٦٩/١، ٣٠٠)، وأبو داود في الحدود، باب فيمن أتى بهيمة. حديث رقم: (٤٤٤٠)، (١٥٧/١٢) وقال: «ليس هذا بالقوي» ا.هـ. والترمذي في الحدود، باب ما جاء فيمن يقع على البهيمة. حديث رقم: (١٤٥٥)، (٥٦/٤)، وابن ماجه في الحدود، باب من أتى ذات محرم، ومن أتى بهيمة. حديث رقم: (٢٥٦٤)، (٨٥٦/٢)، والبيهقي (٢٣٢/٨، ٢٣٣، ٢٣٤)، والحاكم (٣٥٥/٤) والدارقطني (١٢٦/٣ ـ ١٢٧)، وأبو يعلى (٢٤٦٢، ٢٧٤٣)، (٣٤٦/٤ ـ ٣٤٧، ١٢٨/٥ ـ ١٨٩) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال الحافظ في التلخيص (٥٥/٤): «وفي إسناد هذا الحديث كلام» ا.هـ وانظر: الدراية (١٠٤/٢)، نصب الراية (٣٤٢/٣)، الإرواء (١٣/٨)، صحيح أبي داود (٨٤٤/٣)، صحيح ابن ماجه (٨٣/٢)، صحيح الترمذي (٧٥/٢).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب (١٥٧/٣)، التقريب ص (٣٠٥).

(٤) انظر: المغنى (١٦٤/١٠ ـ ١٦٥).

(٥) المصدر السابق: (١٦٣/١٠ ـ ١٦٤).

وزادوا أيضاً: فاعل فاحشة اللواط، فإنه جاء حديث عن النبيِّ ﷺ: «**من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١) وهذا الحديث أخرجه أحمد، والترمذي، والبيهقي، والحاكم، وغيرهم، وصحَّحه بعض الحفاظ، وبه عمِل جماعة من العلماء، قالوا: إن من فعل فاحشة قوم لوط إنه يُقتل الفاعل والمفعول معاً. ففي هذا الحديث زيادة على الثلاثة. فهذه أشياء دلت عليها نصوص أُخر اختلف فيها العلماء، فمن يقول: «إن صاحبها يُقتل». يقول: «هي داخلة في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾». ومن يقول: «إن صاحبها لا يُقتل». يقول: «لم تدخل في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لأنها عارضها ما هو أقوى منها، وهو حديث ابن مسعود المتفق عليه: «**لا يحل دم امرىء مسلم**» الحديث»(٢). وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: آية

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (١٣٤٩٢)، وأحمد (٣٠٠/١)، وأبو داود في الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط. حديث رقم: (٤٤٣٨)، (١٥٣/١٢)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي. حديث رقم: (١٤٥٦)، (٥٧/٤)، وابن ماجه في الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط (٢٥٦١)، (٨٥٦/٢)، والدارقطني (١٢٤/٣)، والبيهقي (٢٣٢/٨)، والحاكم (٣٥٥/٤)، وأبو يعلى (٢٤٦٣، ٢٧٤٣)، (٣٤٨/٤، ١٢٨/٥ ـ ١٢٩)، وابن الجارود (١١٩/٢ ـ ١٢٠) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما).
وانظر: الدراية (١٠٣/٢)، نصب الراية (٣٣٩/٣)، الإرواء (١٦/٨ ـ ١٧)، صحيح أبي داود (٨٤٤/٣)، صحيح الترمذي (٧٦/٢)، صحيح ابن ماجه (٨٢/٢ ـ ٨٣)، المشكاة (٣٥٧٥). وضعفه الحافظ في الفتح (٢٠٤/١٢).
وجاء نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند الترمذي في الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي (٥٨/٤). وقال: «هذا حديث في إسناده مقال، ولا نعرف أحداً رواه عن سهيل بن أبي صالح غير عاصم بن عمر العمري، وعاصم بن عمر يُضعف في الحديث من قِبَل حفظه» ا.هـ.
قال الحافظ في التلخيص (٥٤/٤): «وإسناده أضعف من الأول ـ يعني حديث ابن عباس ـ بكثير» ا.هـ. وقال أيضاً (٥٥/٤): «وحديث أبي هريرة لا يصح» ا.هـ. وكذلك ضعفه في الفتح (٢٠٤/١٢).
وانظر: نصب الراية (٣٤٠/٣)، الدراية (١٠٣/٢)، الإرواء (١٧/٨).
(٢) مضى قريباً عند تفسير هذه الآية.

١٥١]. الإشارة مفردة، والمُشار إليه كثير؛ لأن هذا شامل لـ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ هذه الآية الأولى من هذه الآيات المحكمات تضمنت خمسة أحكام شرعها الله في جميع الأديان، ولم يَنْسَخ شيئاً منها في لسان نبي. والمعنى: ذلكم المذكور؛ لأن (ذا) إشارة إلى مفرد، والمشار إليه جماعة. وهذا معروف في كلام العرب أن يُشيروا إلى التثنية أو الجمع بإشارة المفرد؛ لأن المقصود: (ذلكم المذكور) وقد أوضحنا هذا في البقرة[1]، في الكلام على قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [البقرة: آية ٦٨] أي بين ذلك المذكور من الفارض والبكر فرجع المفرد على الاثنين ونظيره من كلام العرب: قول عبدالله بن الزبعرى[2]:

إن للخيرِ وللشرِّ مَدَى وكِلاَ ذلك له وجهٌ وقَبَل

فأشار بـ (ذلك) إلى اثنين. ولمّا سُئل رؤبة بن العَجاج في رَجَزِيَّتِه القَافِيَّة المشهورة، قال فيها[3]:

فيها خُطوطٌ من سَوادٍ وبَلَق كأنه في الليل تَوْليعُ البَهَق

فقال له قائل: لِم قلت: «كأنه» بإفراد الضمير المذكر، إن كنت تعني الخطوط كان اللازم أن تقول: «كأنها» وإن كنت تعني السواد والبلق كان اللازم أن تقول: «كأنهما» فمن أين جئت بقوله: «كأنه»؟ قال: أعني (كأنه) أي: جميع ما ذُكر. ولذلك قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: جميع ما ذُكر من الأحكام الخمسة وصى به الله. وهذه الآية الكريمة فيها سرّ لطيف؛ لأن الذي يوصيك كأنه يعتني بك، ويجعل الأمر إليك.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

والوصية في لغة العرب: هي الأمر المؤكد[١]. تقول: «أوصيتُ فلاناً على كذا». أمرته به أمراً موكداً.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّىٰكُم﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾ على لسان نبيّه محمد ﷺ، أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (لعل) في القرآن فيها أقوال معروفة للعلماء[٢]، أقربها وأشهرها قولان:

أحدها: أنها على بابها من الترجي. والمعنى: ذلكم وصاكم به على رجاء أنكم تعقلونه عن الله. وهذا الرجاء منصرف إلى الآدميين الذين لا يعرفون عواقب الأمور، أما هو (جل وعلا) فهو عالم عاقبة الأمور، وما يجري عليه معنى (لعل)؛ ولذا قال لموسىٰ وهارون في فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما أنه يتذكر، والله يعلم أنه لا يذكر ولا يخشى.

القول الثاني: هو ما قالته جماعة من علماء التفسير: أن كل (لعل) في جميع القرآن معناها التعليل إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] زعموا أنها بمعنى: (كأنكم).

والتحقيق: أن (لعل) تكون حرف تعليل. هذا لا شك فيه، وعليه فالمعنى: وصاكم به لأجل أن تعقلوا هذه الوصية عنه، فتمتثلوا أمره. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: آية ٧٨] أي: جعل لكم هذه الأسباب والنعم لأجل أن تشكروه. ومن إتيان (لعل) في كلام العرب بمعنى التعليل قول الشاعر[٣]:

فقُلتُم لنا كفُّوا الحروبَ لعلَّنا ... نكفُّ ووثقتُم لنا كل مَوْثِق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم ... كَشِبْه سراب بالمَلا مُتألق

(١) انظر: القرطبي (١٣٤/٧)، البحر المحيط (٢٥٢/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفُّوا عنّا لأجل أن نكف عنكم. هذا معروف في كلام العرب.

وقوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ معناه: تدركون بعقولكم؛ لأن العقل هو الذي فيه الإدراك. والعقل: نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد ذكرنا فيما مضى أن مركزه القلب لا الدماغ[1]، كما صرح به الله، وصرح به نبيُّه ﷺ. ولا شك أن من خلق العقل، وأبرزه من العدم إلى الوجود، أنه أعلم بموضعه من كفرة الفلاسفة، الذين يتحكمون على الله، ويخالفونه من غير دليل ولا برهان. وهؤلاء الذين ينفون هذا لأنهم يقولون ـ زعموا ـ أن بعض الناس صار يُجعل له قلبُ واحدٍ آخر. ولو أن هذا ـ لو فرضنا ـ صح، وأنه يدل على أن العقل ليس في القلب، فهذا لا دليل فيه؛ لأن العقل أصله نور روحاني ـ آلة للنفس ـ تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية، ومحله القلب الذي في الصدر، كما قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] فلو فرضنا أن الله خرق العادة وأزال القلب، ولم يمت الإنسان، لم يمنع أن يكون العقل باقياً في محله الذي كان فيه. وقد زالت الأداة الذي كان فيها. وكذلك لو جُعل قلب آخر، فقد دل القرآن في سورة النور أن القلب كأنه زجاجة، ونور الإيمان فيها الذي يُضاء به كأنه نور، وإذا انكسر الزجاجة فلا مانع من أن تأتي زجاجة أخرى ويكون فيها النور الذي كان في الزجاجة التي قبلها، وعلى كل حال فلا أحد أصدق من الله ولا من رسول الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] والله يقول في نبيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] وقد صرح الله ونبيه أن العقل محله القلب، ومن خلق العقل أعلم بمحل العقل، ونحن نعرف أن جميع ما يُؤثِّر على الدماغ يُؤثِّر على العقل، وهذا لا يقتضي أن يكون محل العقل الدماغ؛ لأنه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

كم من موضع من الجسد إذا اختلت خانة من خانات الدماغ اختل ذلك الموضع وليس يلزم أن ذلك الموضع المختل كان محله في الدماغ، بل هو خارج عن الدماغ، مشروط بسلامة الدماغ، فالعقل محله القلب، ولكن سلامته مشروطة بسلامة الدماغ، وقد ذكرنا ما ذكره بعضهم جمعاً بين القولين: أن مركزه في القلب، كما قال الله ورسوله، وأن شعاع نوره متصل بالدماغ. فمن قال إنه في الدماغ على هذا قد يكون هذا سائغاً على هذا القول، بناء على أن شعاع نوره متصل بالدماغ، ولكن هذا القول قد قدمنا أنهم لم يستدلوا عليه إلا بدليل استقرائي غير مقنع. والدليل الاستقرائي: هو تتبع الأفراد، وهو حجة عند الأصوليين. قالوا: قد استقرينا نوع البشر، ووجدنا كل رجل أو امرأة إذا كان طويل العنق طولاً مُفرِطاً خارجاً عن عادة أعناق الناس، لا بد أن يكون في عقله دَخَل. قالوا: وذلك لتباعد ما بين طرفيّ العقل؛ لأنه إذا بعُد طرف نوره الأعلى من طرفه الأسفل قد يَتَغَشَّى النور الروحاني المعلوم الذي به الإدراك وينقص الإدراك. هكذا زعموا، ولا دليل عليه، والله أصدق من يقول.

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٢].

قوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ كانت عادة العرب أن يأخذوا من اليتيم ماله الذي ترك أبوه، ويظلموه في حقه، ويظلموا المرأة، ويقولون: إن الذي يستحق المال هو من يحمي الذمار، ويُدافع عن الحريم، وهم الرجال الذين يستعينون بالمال على الدفاع، أما اليتيم والمرأة فإعطاء المال لهما ضياع له، وإذا كانوا يدفعون اليتيم عن حقه، ويظلمونه، كما في قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون: الآيتان ١، ٢] والدَّع: الدفع

بقوة. أي: يدفعه بقوة عن حقه ويظلمه[١]. والله (جل وعلا) أرسل هذا النبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) بكمال الإنصاف، ومكارم الأخلاق، والمحافظة على حقوق الضعيف الذي لا يقدر على الدفاع عن نفسه؛ ولذا نهى عن قُربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ونهىٰ عن ظلم المرأة، وبيّن أن من ظلم المرأة تعرض إلى بطش ملك جبار عظيم، حيث قال في سورة النساء: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: آية ٣٤] أي: لا تظلموهن إن أطعنكم وكُنَّ غير ظالمات. ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ يعني: من يحافظ على حقوقهن، وينتقم لمن ظلمهن، عليٌّ كبيرٌ عظيمٌ، يُرْهَب منه، وتُخاف سطوته.

كذلك قال هنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ تكلمنا على الحكمة في النهي عن قُرب الشيء، وأن المراد بها سدّ الذريعة والتباعد منه بالكلية. ومال اليتيم: هو ماله الذي هو ملك له، سواء ورثه من أبيه، أو حصل له بطريق أُخرى. واليتيم (فَعِيل) من اليُتم، واليُتم في لغة العرب معناه: الانفراد. تقول العرب: هذه يتيمة عصماء. يعنون: ياقوتة منفردة لا نظير لها. وإنما قيل لليتيم (يتيم) لانفراده عن وليه الذي من شأنه أن يقوم بأمره، وهو أبوه[٢]. واليتيم في بني آدم: هو من مات أبوه وإن كانت أمه حيّة، ولا يُتم بعد بلوغ بإجماع العلماء[٣]. فالبالغ لا يُسمىٰ يتيماً بإجماع العلماء. واليتيم: هو الصغير الذي لم يبلغ إذا كان أبوه قد مات، ولو كانت أمه حيّة. هذا هو اليتيم. ويُجمع على (يتامى)، ويستوي في الجمع ذكره وأُنثاه، تقول في جمع اليتيمة: يتامى. وفي جمع اليتيم: يتامى. كما تقدم في قوله: ﴿فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: آية ١٢٧] والمعنى: إذا مات

---

(١) انظر: المفردات (مادة: دع) (٣١٤).

(٢) انظر: المصباح المنير (مادة: يتم) (٢٦٠)، المفردات (مادة: يتم) (٨٨٩).

(٣) انظر: المغني (٣٠٦/٧)، القاموس الفقهي ص ٣٩٢.

والد الإنسان، وبقي الطفل صغيراً مسكيناً لا يقدر على الدفاع عن نفسه، ولا يقدر على حفظ ماله، فلا تأخذوا ماله وتظلموه لضعفه، بل لا تقربوا ماله إلا بالتي هي أحسن. أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال وأنفعها لليتيم، وذلك بالمحافظة عليه وتنميته، وتثميره بالتجارة في مواقع النظر والسداد، كما قالت عائشة: «اتجروا في أموال اليتامىٰ لا تأكلها
٢٢/ب /الزكاة»[١]، فالتي هي أحسن: المحافظة عليه من الضياع. والتثمير: هو تنميته بالربح بالوجوه المأمونة، التي يغلب على الظن ـ بحسب العادة ـ أن فيها سلامة وربحاً لا ضياعاً، ومن التي هي أحسن: أن القائم على مال اليتيم ـ وإن اشتغل في حفظه والتجارة فيه ـ إن كان له مال لنفسه يأكل من مال نفسه، ويُثمّر لليتيم ماله مجاناً[٢]، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا

---

(١) الحديث بنحو هذا اللفظ جاء مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ بروايات متعددة (وكلها ضعيفة) منها:
١ ـ من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عند الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة مال اليتيم. حديث رقم (٦٤١)، (٣٣/٣). وأشار عقبه إلى ضعفه، وأخرجه أيضاً الدارقطني (١١٠/٢)، وأبو عبيد في الأموال (١٢٩٩)، والبيهقي (١٠٧/٤).
٢ ـ عن يوسف بن ماهك مرسلاً عند عبدالرزاق (٦٦/٤)، والشافعي في الأم (٢٩/٢)، وأبو عبيد في الأموال (١٣٠٠)، والبيهقي (٤/ ١٠٧).
وفي الكلام على هذه الرواية والتي قبلها، انظر: تنقيح التحقيق (١٣٨٠/٢ ـ ١٣٨٤، ١٣٨٦)، نصب الراية (٣٣١/٢ ـ ٣٣٢)، تلخيص الحبير (١٥٧/٢ ـ ١٥٨)، إرواء الغليل (٢٥٨/٣).
٣ ـ عن أنس بن مالك (رضي الله عنه). عند الطبراني في الأوسط (٤١٦٤).
انظر: نصب الراية (٣٣٢/٢)، التلخيص (١٥٨/٢)، الإرواء (٢٥٩/٣).
وقد ورد موقوفاً على عمر (رضي الله عنه)، عند مالك في الموطأ ـ بلاغاً ـ في الزكاة، باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها. حديث رقم: (٥٨٨) ص (١٦٧). كما أخرجه الشافعي في الأم (٢٩/٢)، وأبو عبيد في الأموال (١٣٠١)، وابن أبي شيبة (١٤٩/٣ ـ ١٥٠)، والدارقطني (١١٠/٢)، والبيهقي (١٠٧/٤).
وانظر: الاستذكار (٨٢/٩)، تنقيح التحقيق (١٣٨٤/٢)، نصب الراية (٣٣٣/٢) تلخيص الحبير (١٥٨/٢)، إرواء الغليل (٢٥٩/٣).
وإنما الذي ورد عن عائشة (رضي الله عنها) في هذا الباب إنما هو من فعلها. والله أعلم.
(٢) انظر: ابن جرير (٢٢١/١٢)، القرطبي (١٣٤/٧).

فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: آية ٦] وهذه من الدلالات على أن هذا الشرع الكريم شرع سماوي، يراعي حقوق الضعيف، ويحافظ على مكارم الأخلاق.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ (حتىٰ) حرف غاية بمعنى (إلىٰ)، والمُغيَّا بها: النهي عن قرب مال اليتيم بغير التي هي أحسن، والمضارع بعد (حتىٰ)، منصوب بـ (أن) محذوفة، وهو في محل جر بـ (حتّى) والمعني بـ (حتىٰ): إلى. إلى أن يبلغ أشده. أي: إلىٰ بلوغ أشُده. وظاهر هذه الغاية ليس مراداً بإجماع العلماء[(١)]، إذ ليس المعنى: لا [تقربوا][(٢)] ماله إلا بالتي هي أحسن، حتى يبلغ أشده، فإن بلغ أشده فاقربوه بغير التي هي أحسن. ليس هذا مراداً بإجماع العلماء، وإنما الغاية تتعلق بمحذوف دل المقام عليه، أي: فحتى يبلغ أشده، فإن بلغ أشده وآنستم منه رشداً فادفعوا إليه ماله.

وإنما كانت الغاية: لأنه إذا كان بالغاً أشده، مستكملًا قوته وعقله، لا يقدر أحد على أن يغتصب منه ماله، فهو كسائر الرجال.

والأشُد هنا: التحقيق الذي لا شك فيه أنه بلوغ الحُلم مع إيناس الرشد[(٣)]؛ لأن خير ما يفسر به القرآن القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: آية ٦] فدلت آية النساء على أن الأشُد في الغاية هنا: أنه أن يبلغ الحلم، ويُؤنس منه الرشد؛ لأن ببلوغ الحلم يتقوى بدنه ويكون في قوة الرجال، وبإيناس الرشد يتقوى عقله ونظره، فاجتمع أشده بدناً وفكراً ونظراً، فعند ذلك يُعطى ماله. وخير ما يُفسر به القرآن القرآن.

أما الأشُد من حيث هو: فهو يطلق على خمس وعشرين، وعلى ثلاثين سنة، وعلى أربعين، وعلى ستين، وعلى خمسين[(٤)]. ومن إطلاقه

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٥٢/٤)، الدر المصون (٢٢٠/٥)، أضواء البيان (٢٧٨/٢ ـ ٢٧٩).

(٢) في الأصل: «تبلغوا» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢٧٩/٢).

(٤) انظر: ابن جرير (٢٢٢/١٢)، القرطبي (١٣٥/٧)، البحر المحيط (٢٥٢/٤)، الكليات ٥٤٠، الدر المصون (٢٢١/٥)، أضواء البيان (٢٧٩/٢، ٢٨٠).

على الخمسين قول سحيم بن وثيل الرياحي[(١)]:

أخو خمسين مجتمعٌ أَشُدِّي ونجَّذني مُداوَرَةُ الشؤون

فهذه الأقوال المروية عن العلماء في الأشُد ـ من خمس وعشرين، ثلاثين، أربعين، خمسين، إلى ستين ـ لا ينبغي أن تُذكر في هذا الموضع؛ لأن بلوغ اليتيم أَشُدَّه صرح القرآن بأنه بلوغ الحلم مع إيناس الرشد، كما أوضحته آية النساء ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: آية ٦] أما أقوال العلماء في (الأشُد) فينبغي أن تكون عند آية قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: آية ١٥] لأن بلوغ الإنسان الأشُد بالنسبة إلى غير دفع ماله إليه هو الذي ينبغي أن تكون فيه الأقوال المعروفة[(٢)].

وكلام أهل اللغة في الأَشُدّ معروف[(٣)]، قال بعضهم: الأَشُد واحد لا مفرد له من لفظه، وإتيان المفرد على وزن (أفْعُل) نادر جداً، ومنه قولهم: «آنُك» و (الآنُك) هو الرصاص. وهو مفرد على وزن (أفْعُل)، وقال سيبويه: الأشُد جمع (شِدَّة)، كنعمة وأَنْعُم، وشِدّة وأشْدُد، أصله: (أَشْدُد)، وعلماء العربية يقولون: إن قول الشيخ سيبويه من قبيل اللغة معروف؛ لأن العرب يقولون: بلغ الغلام شِدته. إذا قوي واشتد، إلا أن جمع (فِعلة) على (أفْعُل) لم يُعرف في كلام العرب. أما قول سيبويه: «إن النعمة تجمع على أنْعُم» فقد قالوا: ليس ذلك كذلك، وإنما الأنْعُم جمع نُعْم، كما تقول العرب: نُعْمٌ وأنْعُم، وبُؤس وأَبْؤُس. و (الفُعْل) قد يُجمع على (أفْعُل). وقال بعض العلماء: الأَشُدُ جمع (شَدّ) ـ بالفتح ـ ككلب وأكْلُب، وشَدّ وأشْدُد.

والأشدّ: أصله (أشْدُد) حصل فيه الإدغام. وقال بعضهم: مفرده (شِدّ) بالكسر، كذئبِ وأَذْؤُب. وهذه أقوال العلماء فيه. والمعنى صائر إلى شيء واحد.

---

(١) البيت في القرطبي (١٣٥/٧)، أضواء البيان (٢٨٠/٢).

(٢) انظر: أضواء البيان (٢٨٠/٢ ـ ٢٨١).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٥٣/٤)، الدر المصون (٢٢٠/٥ ـ ٢٢١)، أضواء البيان (٢٧٩/٢).

والأَشُد هنا لا شك أنه بلوغ الحلم مع إيناس الرشد.

ومعنى (بلوغ النكاح) وهو بلوغ الحلم. وللبلوغ علامات معروفة عند العلماء[(١)]، منها السّن، وأكثر العلماء على أن سن البلوغ خمس عشرة سنة[(٢)]؛ لأن النبي ﷺ في بعض غزواته ردّ أبناء أربع عشرة سنة، وأذِن في الغزو لأبناء خمس عشرة سنة[(٣)]. فدل ذلك أنهم صاروا رجالًا. وعن مالك: أن أقله بالسن ثمان عشرة سنة. وعن أبي حنيفة: تفريق بين الذكور والإناث معروف في فروع المذاهب، وليس فيه تحديد بنص من النصوص، وإنما هي اجتهادات في تحقيق المناط، كل يقول: إذا بلغ هذه السن فقد بلغ مبلغ الرجال. وكان بعض العلماء واللغويين يرى أنه إذا كان خمسة أشبار أنه بلغ مبلغ الرجال[(٤)]. وهذا القول يُروىٰ عن علي بن أبي طالب، واعتمده الفرزدق في شعره حيث قال[(٥)]:

مـا زالَ مُـذْ عَـقَـدَتْ يـداهُ إِزارَهُ ... فَـسَـمـا فـأَدْرَكَ خَـمْـسَـةَ الأَشْـبَـار

يُـدْنِي خَـوافِـقَ مِـنْ خَـوافِـقَ تَـلْـتَـقي ... فـي ظِـلِّ مُـعـتـبـط الـغـبـارِ مـثـار

فقوله ببلوغه «خمسة الأشبار» يعني أنه بلغ مبلغ الرجال. وأسباب البلوغ كثيرة معروفة في الفروع، منها: إنبات العانة، وليس المراد به إنبات الشعر؛ لأن الشعر ينبت عليها من الطفل، وإنما المراد خشونة وغلوظة تعرض للمحل عند البلوغ. والعلماء يذكرون له أسباباً كثيرة، ومنها بلوغ الحلم، كما قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [النور: آية ٥٩] أي: صاروا بالغين مبلغ الرجال ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ ومعنى (بلوغ الحلم): أن الصبي إذا

---

(١) انظر: الفتح (٥/٢٧٧)، أضواء البيان (٢/٢٧٩).

(٢) أضواء البيان (٢/٢٧٩).

(٣) البخاري في الشهادات، باب بلوغ الصبيان وشهادتهم حديث رقم: (٢٦٦٤)، (٥/٢٧٦). وأخرجه في موضع آخر، انظر الحديث رقم: (٤٠٩٧).
ومسلم في الإمارة، باب بيان سن البلوغ. حديث رقم: (١٨٦٨)، (٣/١٤٩٠).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢/٢٧٩).

(٥) البيتان في اللسان (مادة: خمس) (١/٩٠١)، ضياء السالك (٢/١٥٣)، أضواء البيان (٢/٢٧٩).

رأى في نومه أنه يجامع لا ينزل منه منيّ، بخلاف البالغ، إذا رأى في النوم أنه يجامع، فإنه ينزل منه المنيّ، وذلك معنى بلوغه الحلم. أي: إنزال المنيّ بسبب ما يراه في حلم النائم. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: فإن بلغ أشده فادفعوا إليه ماله إن آنستم منه رشداً، كما تقدم في سورة النساء.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن ظلم اليتيم حرام. ولمّا أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: آية ١٠] خاف الصحابة الذين عندهم أيتام، وعزلوا مال الأيتام عن مالهم، وطعامهم عن طعامهم، حتى صار ما فضل عن اليتيم من طعامه يبقى ولا يجد من يأكله، خوفاً منه، وربما فسد، فشكوا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فأنزل الله آية البقرة المعروفة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾(١) [البقرة: آية ٢٢٠] ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: لحمّلكم العنت والمشقة بحفظ أموالهم وطعامِهم معزولًا عن طعامكم؛ لأن ذلك فيه حرج ومشقة، إلا أنه خوفهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ فمن خالط اليتيم، وخلط ماله بماله يريد مصلحة اليتيم والتوفير له، فالله يعلم نيته ويُثيبه، ومن كان يريد بمخالطة مال اليتيم وطعامه لطعامه أن يأكل مال اليتيم خديعة في غضون ذلك، فالله يعلم نيته، ويجازيه على ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾. وقال هنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام. حديث رقم: (٢٨٥٤)، (٧٣/٨) والنسائي في الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه. حديث رقم: (٣٦٦٩، ٣٦٧٠)، (٢٥٦/٦)، والحاكم (١٠٣/٢، ٣٠٣، ٣١٨)، والبيهقي (٢٨٤/٦)، وابن جرير (٣٤٩/٤، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤)، والواحدي في أسباب النزول ص (٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وانظر: صحيح أبي داود (٥٥٤/٢ ـ ٥٥٥)، وصحيح النسائي (٧٧٩/٢) وقد جاء ذلك أيضاً في روايات مرسلة عن سعيد بن جبير، وابن أبي ليلى، وقتادة، والشعبي، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد. انظر ابن جرير (٣٥٠/٤ ـ ٣٥٢)، أسباب النزول للواحدي ٧١ ـ ٧٢.

﴿أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال، وأتمها وأحوطها وأحفظها لمال اليتيم، بالمحافظة عليه، وتثميره وتنميته بالطرق المأمونة، التي يغلب على الظن أنها لا خسار فيها ولا ضياع. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: يبلغ الحلم، ويُؤنَس منه رُشد، فادفعوا إليه ماله، وأشهدوا عليه إذا دفعتموه إليه.

ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ هذه أوامر اجتماعية عظيمة، تدل على كمال تشريع الإسلام، ورعاية دين الإسلام لمصالح البشر، كبيرها وصغيرها، جليلها وحقيرها.

والمكيال والميزان هما الآلتان التي جعلهما الله (جل وعلا) لتُضبط بهما المبيعات. وهذا من فضل الله ورحمته بخلقه؛ لأن الله خلق الإنسان محتاجاً للغذاء، ومفتقراً للنساء، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ولم يتركه سدى. فأنت محتاج إلى طعام أخيك، وأخوك محتاج إلى طعام آخر عندك، فلو لم يجعل الله المقادير بمكيال وميزان تَعْرِف به قدر ما تدفَع، وقدر ما تأكل؛ لتهارشتم على ذلك تهارش الحُمر والكلاب. فالميزان والمكيال آلات جعلها الله (جل وعلا) لخلقه ليأخذ كل واحد منهم غرضه من أخيه طيبة نفسه، عارفاً قدر ما أخذ، وقدر ما أُخذ منه، طيب النفس بذلك، بحيث ينتفع كلٌّ من أخيه، وتتبادل المصالح عن طيب نفس وسماحة وسخاء؛ ولذا قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ قال بعض العلماء: الكيل هنا معناه المكيال. وإيفاء الكيل وإيفاء المكيال راجعان إلى شيء واحد[1]. وكذلك إيفاء الميزان، وإيفاء الوزن، معناهما واحد. والله (جل وعلا) يعلم أن بعض الأخِسَّاء من الذين يتولَّون الكيل والوزن عندهم حيل دقيقة، ينقصون بها حقوق الناس إذا كانوا يكيلون للناس، ويزيدون حقوقهم إذا كانوا يكيلون لأنفسهم، فحذرهم الله من هذا الفعل الخسيس، وعظَّم شأنه، وتوعد عليه التوعد العظيم الهائل بالويل؛ وذلك لأن المال هو شريان الحياة، والطعام الموزون المكيل هو الذي به حياة الدنيا وقوامها ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا

(١) انظر: القرطبي (١٣٦/٧).

يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: آية ٨] فالآلات التي نُصبت عدلاً لذلك ينبغي الاحتياط الكامل في إقامتها على وجهها، وعدم الغش والخديعة فيها؛ ولذا كثُر في القرآن العظيم الإيصاء بإيفاء الكيل والوزن، كما قال جل وعلا: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: الآيتان ١٨١، ١٨٢] وذكر الله عن نبيه شعيب مواضع متعددة من ذلك ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: آية ٨٥] وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[1] [الأعراف: آية: ٨٥] والله جل وعلا يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: الآيات ٧ ـ ٩] ومن عصى هذه الأوامر، ولم يتتبعها، فيا ويله، ويا ويله؛ لأن خالق السماوات والأرض يقول في الذين يُخسرون الكيل والميزان: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ ويكفيك من التهديد والوعيد لفظة (ويل) المتوجهة من الله إلى من يفعل هذا الفعل الخسيس الدنيء الرذيل، ثم فسّر المطففين بأنهم ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ [المطففين: الآيتان ١، ٢] يعني: إذا كان الكيل لهم من الناس كالوا كيلاً وافياً. وإذا كالوا من متاعهم للناس أو وزنوا للناس يخسرون. أي: ينقصون بالحيل الخفية؛ لأن من تمرّن على الكيل والوزن يعلم حيلاً لا يعلمها غيره، يحسب الناظر أن المكيال تام، وأن الميزان بتمام، وهناك نقص خفي يعرفه أصحاب الصنعة بحيلهم الدقيقة. هذا معروف، فحذرهم الله من هذا، وهذا يدل على أن كل من تولى مصلحة اجتماعية عليه أن ينصح إخوانه المسلمين فيها، فالقرآن يُذكر منه الآيات ليُنبه بها على غيرها.

فهذه مصلحة اجتماعية عامة؛ لأن كل الناس يحتاج إلى طعام يكيله، أو إلى حاجة يزنها، وهذا به قوام الناس في حاجاتهم ومصالحهم المتبادلة، فالذي يغش فيه وينقص ويُخسر خسيس من أخبث خلق الله، ويكفيه خبث

(١) والشاهد قوله تعالى قبله في نفس الآية: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

ورداءة أن خالق السماوات والأرض يهدده بالويل، وأي شيء أعظم من تهديد الله للعبد بالويل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ ثم قال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: الآيات ١ ـ ٦]، ويُفهم من فحوى الآيات: أنهم إذا بُعثوا إلى ذلك اليوم العظيم، وقام الناس لرب العالمين، واجتمع الخلائق الأولون والآخرون في صعيد واحد، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعي، أن ذلك الخائن الناقص في الكيل والوزن يُنادى به على رؤوس الأشهاد، ويفتضح على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، وفضيحة القيامة ليست كفضيحة الدنيا؛ لأن الإنسان يفتضح في الدنيا، ويضيع عرضه، ويبقىٰ صحيح البدن، سالماً يأكل ويشرب، غير متألم، وإذا كان رذيلاً دنيّاً لا يؤلمه ضياع العرض، إنما يتألم من ضياع الأعراض أصحاب الشؤون والهيئات والشرف. وقد ذكر العلماء أن أعظم ما يصاب فيه الإنسان بعد نفسه إنما هو ـ مثلاً ـ قُرباؤه: كأولاده، أو ماله، أو عرضه، أو دينه، فإذا أُصيب في دينه فتلافيه سهل؛ لأنه إذا أناب إلى الله قد يتوب الله عليه، وقد يكون انكسار التوبة يبلغ به مرتبة عند الله أحسن مما كان قبل فعل الذنب؛ لأن الإنابة إلى الله، والتوبة، والتذلل، والخضوع، والانكسار من الذنوب قد يكسب العبد درجة أعظم من درجته قبل أن يواقع الذنب، والمال قد يخلفه شيء بسيط، فصفقة واحدة قد يربح منها أضعاف ما خسر، والأنفس قد تُعوض بالولادة فيموت له ولد فيولد له عشرة أولاد، قالوا: أما العِرْض فإذا ضاع من الإنسان فلا شيء يخلفه؛ لأنه إذا ضاع عرضه، وعُرفت الفضيحة أمام الناس لم يمكن أن يداوي ذلك، ولو رجع إلى مكارم الأخلاق، فتلك الفضيحة بقيت فيه. لكن فضيحة الدنيا وإن كانت من أعظم المصائب، ففضيحة الآخرة أعظم وأطم؛ لأن المفتضح في الآخرة إنما يُفضح بذنوب تؤديه إلى العذاب والنكال يوم القيامة ـ والعياذ بالله ـ فعلى من ولاّه الله الكيل أو الوزن أن يحذر من الله، ويخاف من فضيحة الآخرة، ويوفي الكيل إيفاءً تاماً، ويوفي الميزان، ولا يغش وينصب فيستوفي لنفسه، وينقص للناس. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] القسط في لغة العرب معناه: العدل، والقَسط - بالفتح - الجور[١]، فالمقسطون من أهل الجنة، والقاسطون من أهل النار، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: آية ١٥] لأن القاسط اسم فاعل القَسْط - بالفتح - من قَسَط الثلاثية، وهو الجائر الحائد عن الهدى. والمُقْسِط: من القِسْط، وهو العدل.

ومعنى كونه بالقسط: أي: بالعدل التام، بحيث لا يزيد ولا ينقص، فلا يطلب المشتري زيادة على حقه، ولا ينقص البائع المشتري عن حقه، فليكن الحق كاملًا وافياً من غير [زيادة][٢] ولا نقصان. وهذا معنى إيفائه بالقسط. ولما كان الإنسان قد يبالغ جهده في أن يوفي المكيل، وقد يتفاوت ذلك، فبعض المكاييل يبني عليه المكيل، ويرتفع بعضه فوق بعض، حتى يكون وافياً. وبعض الناس يجتهد في أن يفعل ذلك، ويختل عليه شيء من غير قصد منه، إذا كان الله يعلم صلاح نيته وقصده للإيفاء، إلا أنه وقع تقصير أو نقص من غير قصده، فهذا معفوّ عنه، بدليل قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] فهذا الإيفاء في الكيل والوزن الذي كلفناكم به إنما نعني به حسب ما تستطيعون، فمن بذل مجهوده في إيفاء الكيل والوزن ثم وقع نقص من غير قصده فهو معفوّ عنه؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. هذا سبب نزول الآية[٣]، وهي عامة؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: طاقتها. وهو الشيء الذي في طاقتها وقدرتها لا تعجز عنه، ولا يشق عليها مشقة عظيمة. وهذا من التسهيل على هذه الأمة، لا يكلفها الله ما أخطأت فيه، وما نسيت. وقد جاء في الذكر المحكم: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] وثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة: أن النبي ﷺ لما قرأ من خواتيم سورة البقرة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] قال الله: نعم قد فعلت.

(١) انظر: المفردات (مادة: قسط) (٦٧٠).

(٢) في الأصل: «تمام» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/٢٨١).

(نعم) في رواية أبي هريرة و (قد فعلت) في رواية ابن عباس، وكلتاهما ثابتة في صحيح مسلم[(١)] . والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: آية ٥] فالخطأ والنسيان وما لا يقصده الإنسان معفو عنه؛ ولذا قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] وهذه الآية عظيمة جداً، وهي من الآداب الاجتماعية العامة، البالغة في العظمة، وهي تشمل أشياء كثيرة، إذا كنت تشهد بحق فلا تشهد عند القاضي إلا بعدل، واخش شهادة الزور لأجل قريب، أو رشوة، أو غير ذلك، وإذا كنت قاضياً فلا تقل إلا الحق، واحذر أن تميل لقرابة، أو لغرض، أو رشوة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: آية ٥٨] وإذا كلمت أخاك المسلم فلا تقل إلا عدلاً، ولا تقل له شيئاً يؤذيه، ولا تكذب عليه، وإذا حدثت عن قصة ماضية فلا تقل إلا عدلاً ولا تكذب، وإذا حدّثت عن الله فلا تقل في صفاته إلا اللائق الكريم، وإذا قلت في كل قول فلا تقل إلا أمراً كريماً عدلاً.

ومن حفظ لسانه، وكان لسانه معتدلًا لا يقول إلا ما يرضي الله فإن هذا من أحكم الآداب الاجتماعية التي يُطفَأُ بها الشرر العظيم المتفشي في المجتمع؛ لأن أكثر الأضرار الاجتماعية هي جنايات اللسان، وعدم اعتداله في قوله، فيقول على هذا ما لم يفعل، ويلمز هذا بما يؤذيه، ويشهد على هذا بالزور، ويحكم على هذا بالباطل. فإذا كان يزن قوله بميزان الشرع، ولا يقول إلا عدلًا، كان هذا من أعظم الآداب الاجتماعية، وأكثر المنافع للمجتمع، وأعظمها تفادياً لكثرة الأضرار الناشئة عن عدم العدل في القول؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يعني: لا تحملك قرابة أحد على أن لا تعدل في القول فتشهد له بباطل لقرابته، أو تشهد على خصمه بما يؤذيه، أو تشهد على الشاهد لخصمه إن جرحه، أو نحو ذلك، فلا تحملنك القرابة أن تقول إلا عدلًا، ولا يصدر منك كلام إلا على الحق والعدل المطابق لما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

يرضي الله[١]، كما قدمنا في قوله: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: آية ٨] وفي الآية الأخرى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ [النساء: آية ١٣٥] أي: ولا يحملك أيضاً أن هذا فقير وهذا غني، فتشهد على الغني رحمة بالفقير، أو تكتم الشهادة على الفقير رحمة به للغني، لا تفعل هذا، فقل الحق على بابه كائناً من كان، على القريب، وعلى الفقير، وعلى الغني.

وآية النساء هذه: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ وما بعدها فيه سرّ أعظم، وتعليم أكبر؛ لأن الله يعلم أنه سيأتي في آخر الزمان مذاهب هدامة، تتصل إلى سلب حقوق الناس أموالهم بدعوى أن هذا فقير، وأن هذا غني، وأن هذا الغني ابتز ثروات الفقراء، وأنه ينبغي أن يُنزع مال الغني ليستوي هو والفقير باسم العدالة الاجتماعية!! فالله (جل وعلا) علم أن هذا سيقع، وبيّن حكمه قبل أن يقع، فقال: لا تتخذوا من كون هذا غنياً، وكون هذا فقيراً طريقاً تتصلون بها إلى ظلم الناس، وأخذ أموال الناس، اتباعاً للهوى ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ [النساء: آية ١٣٥] وتتخذوا من ذلك طريقاً تأخذون بها أموال الناس من غير رضاهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ فعلى المسلم أن يعمل بقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ فإذا أراد أن يتكلم تأمل في الكلام الذي يقوله، فإذا كان حقاً صواباً مرضياً لله فليقدم عليه، وإذا كان جوراً غير حق فليُحجم عنه، كأن يعيب الإنسان، أو يشهد بشهادة الزور، أو يحكم بباطل، أو يقول عن إنسان ما ليس فيه، أو يحكي قصة فيحرفها، إلى غير ذلك. وهذا من المصالح العامة التي تدل على أن هذا الدين سماوي، وأن هذا كلام خالق الخلق ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢] أي: ولو كان المقول عليه من شهادة أو حكم أو أنه ظالم ﴿ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ أي: صاحب قرابة، حتى ولو كان على نفسك، كما بيّنته آية النساء.

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/٢٨١).

ثم قال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ هذه أيضاً من الآيات العظام الشاملة للمسائل الاجتماعية والإلهٰية، فهي من غرائب التشريع؛ لأنها شملت أحكام دين الإسلام، لأن العهد المضاف إلى الله هنا هو على التحقيق يشمل أمرين:

أحدهما: عهد بين المخلوق والخالق، كالنذور التي ينذرها طاعة لله، والله يقول: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: آية ٢٩] وقد مدح أهل الجنة بذلك حيث قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: آية ٧] وقد يكون عهد الله فيما بين عبيده؛ لأن العهد فيما بينك وبين أخيك هو عهد لله؛ لأنه أخذ على كل منكما العهد أن يفي لأخيه بما عاهده عليه، وأن لا يفعل معه إلا خيراً، ومن عهود الله التي يجب الوفاء بها: وصاياه التي أوصانا بها في هذه الآيات المحكمات، وجميع أوامره ونواهيه، وامتثال أمر الله واجتناب نهيه. كل هذه عهود الله على خلقه في جميع التشريع يجب الوفاء بها، وكذلك عهدك على أخيك، كأن تقول له: لك علي كذا. أو أشترط عليك كذا. أو أعهد إليك بكذا. فإنه يجب الوفاء في ذلك.

وفي هذه الآية تعليم عظيم؛ لأن كثيراً من الفقهاء غلطوا غلطاً فاحشاً في حديث، يرفع ذلك الغلط آيات من كتاب الله، منها هذه الآيات؛ لأن النبيَّ ﷺ جاء عنه في حديث أنه قال: **«من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مئة شرط»**[1]. فكان ابن حزم[2] ومن غرّه كلامه، وكثير من الفقهاء الذين لم يتدبروا معاني القرآن، يظنون أن كل شرط لم ينص القرآن على عينه أنه باطل؛ ولذا أبطل بعض العلماء كثيراً من الشروط، كأن تشترط على أخيك كذا في البيع من أمر مباح، أو تشترط المرأة على الزوج في عقد النكاح أمراً مباحاً. ويقولون: هذه الشروط ليست في كتاب الله، فهي باطلة.

والتحقيق: أن كل شرط لا يُحل حراماً، ولا يحرم حلالًا فهو في

---

(١) أخرجه البخاري في المكاتب، باب ما يجوز من شروط المكاتب. حديث رقم: (٢٥٦١)، (١٨٧/٥)، ومسلم في العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق. حديث رقم: (١٥٠٤)، (١١٤١/٢).

(٢) انظر: المحلى (٤٤/٩).

كتاب الله؛ لأن الله أمر بالوفاء بالعهد أمراً عاماً، كقوله هنا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: آية ١] فكل شرط اشترطه مسلم على مسلم، ولم يكن هذا الشرط يبيح حراماً حرّمه الله، أو يحرم حلالاً أحلّه الله، بل كان مشترطاً أمراً جائزاً، فهذا الشرط في كتاب الله؛ لأن الله أمر المسلمين بالوفاء بالعهود في آيات كثيرة، وهي شروط عامة، كقوله هنا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ يعني: أن عهد الله هنا يشمل جميع الأمانات، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ويدخل فيه الوفاء بالنذور، ويدخل فيه عهود المسلمين بعضهم على بعض، وشروط بعضهم على بعض؛ لأن المسلمين عند شروطهم، فكل شرط اشترطه مسلم على مسلم، وكان ذلك الشرط لا يحل حراماً حرّمه الله، ولا يحرم حلالًا أحله الله، فهو في كتاب الله، لعموم الأدلة على وجوب الوفاء بالعهود. والشروط من أوكد العهود التي أمر الله بالوفاء فيها، وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ في الحديث المتفق عليه أنه قال: «**إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»[(١)] فما تشترطه المرأة على زوجها بالعقد إن كان لا يحل حراماً، ولا يحرم حلالاً.

أما الشرط الذي أحل حراماً، أو حرم حلالًا، فهو ليس في كتاب الله، فهو باطل وإن كان مئة شرط. وهذا معنى قوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾.

ثم أعاد الله (جل وعلا) الوصية وكررها علينا، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ذلكم المذكور في هذه الآية من التباعد من أكل مال اليتيم، ومن بخس المكيال والميزان، ومن عدم العدل في القول، ومن الإيفاء بالعهد. هذه الأمور التي أمركم الله بها، وحذركم عن أضدادها وصاكم بها. أي: أمركم بها أمراً مؤكداً، فعليكم أن تحتزموا بها، فلا تقربوا مال اليتيم بغير الأحسن، ولا تقولوا إلا ما هو عدل، ولا تنقضوا العهود، إلى غير ما جاء في الآيات.

---

(١) البخاري في الشروط، باب: الشروط في المهر عند عقدة النكاح. حديث رقم: (٢٧٢١)، (٣٢٣/٥)، وطرفه في (٥١٥١)، ومسلم في النكاح، باب: الوفاء بالشروط في النكاح. حديث رقم: (١٤١٨)، (١٠٣٥/٢).

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأه هنا حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بتاء واحدة وذال مخففة، وأصله (تَتَذَكَّرُونَ) فحذفت إحدى التاءين. وقرأه الجمهور، وهم الباقون: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال وإدغام إحدى التاءين في الذال، وعلى قراءة حفص وحمزة والكسائي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١] فقد حُذفت إحدى التاءين. والمضارع المبدوء بتاءين يجوز حذف إحداهما بقياس مطرد:

وَمَا بِتَاءَيْنِ ابْتُدِي قَدْ يُقْتَصَر فِيهِ عَلَى تَا كَتَبَيَّنُ العِبَر[٢]

وعلماء العربية مختلفون اختلافاً لا طائل تحته ولا دليل عليه في التاء المحذوفة من التاءين هل هي تاء المضارعة أو التاء الأخرى؟[٣] هذا الخلاف لا طائل تحته، ولا دليل عليه، والمدار على أن إحدى التاءين محذوفة. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢].

كان بعض العلماء يورد في هذه الآيات سؤالًا، وهو أن يقول: عبّر في الآية الأولى بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] وفي هذه الثانية بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وأجابوا عن ذلك بأجوبة ـ الله أعلم بها ـ[٤] منها: أن قالوا: إن المذكورات في الآية الأولى واضحة لا خفاء فيها؛ لأنها هي عدم الإشراك بالله، وعدم قتل الأولاد، والبر بالوالدين، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهذه أمور ظاهرة؛ ولذا قال لما كانت ظاهرة لا تحتاج إلى تفكر وتذكر، لظهورها ووضوحها، قال: قلت لكم هذا لتُدركوه عنّي بعقولكم؛ لأنه أمر واضح. وأن المذكورات في الآية الأخيرة تحتاج إلى تأمل وإلى تفكر، كإيفاء الكيل والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وكالتحرّي في الأقوال ليعلم العدل منها من غير العدل، والوفاء بالعهود، أن هذه أمور فيها خفاء، فعبّر

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (٢٠٤).

(٢) الخلاصة ص (٧٩).

(٣) انظر: البحر المحيط (٢٥٣/٤)، الدر المصون (٢٢٣/٥).

(٤) انظر: ملاك التأويل (٤٨٠/١)، درة التنزيل وغرة التأويل ص٧٤، البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص٦٩، فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن ص١٨١ ـ ١٨٢. البحر المحيط (٢٥٣/٤)، الدر المصون (٢٢٢/٥)، فتح المجيد ص (٤١).

بعدها بالتذكر؛ لأنها تحتاج إلى تذكر. هكذا يقولون، والله تعالى أعلم.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] ذكرنا أنه جرت العادة أن الله ينوّه بالتوراة
١/٢٣ والقرآن معاً؛ لأنهما أعظم الكتب المنزلة؛ لأنه قبل/ نزول القرآن كان التوراة أعظم الكتب المنزلة وأجمعها للأحكام، كما قال الله فيه: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: آية ١٥٤]. فلما نزل القرآن كان أشمل كتاب وأعظمه؛ لأنه جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وزاد فيه أشياء لم تنزل على غيره؛ ولذا لما نزلت التوراة في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٤] نوّه بالقرآن العظيم بعده فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] ومثل هذا يتكرر في القرآن، كقوله في التوراة: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٩١]، ثم قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: آية ٩٢] فأتبع التنويه بالتوراة التنويه بالقرآن، كقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: آية ١٧] وكقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ [القصص: آية ٤٨] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿**ساحران تظاهرا**﴾ [والجن][2] الذين استمعوا القرآن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: آية ٣٠].

ومعنى الآية الكريمة: وهذا الذي تُتلى عليكم آياته كهذه الآيات المحكمات: ﴿تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلى آخر الآيات [الأنعام: آية ١٥١]، ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي تُتلى عليكم آياته جامعة هذا من الأحكام والتشاريع، ﴿كِتَٰبٌ﴾ هو كتاب الله (جل وعلا)، الذي هو آخر كتاب نزل من السماء، وهو أعظم كتاب سماوي، على أعظم رسول أرسله الله في الأرض،

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٤١ .

(٢) في الأصل: «واليهود» وهو سبق لسان.

فهو آخر الكتب السماوية، ونازلٌ على آخر الرسل وخاتمهم ﷺ، جمع الله فيه علوم الكتب السابقة؛ ولذا صار القرآن مهيمناً على الكتب السابقة، كما قدّمناه في سورة المائدة في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] ولذا ما حرّفه اليهود بيَّن القرآنُ أنه محرّف، وكان اليهود يختلفون في أشياء لا تعلم علماؤهم حقائقها، من غوامض التوراة، فبيّنها لهم القرآن، وأوضحها لهم، لهيمنته على الكتب قبله. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: آية ٧٦] أي: ويوضحه لهم، ولمّا أنزل الله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: آية ١٦٠] قال اليهود: «ما حُرِّم علينا شيء بسبب ذنب، وإنما حُرِّم علينا ما كان محرّماً على أبينا إسرائيل من الأطعمة». وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام. فلمّا زعموا أن الله لم يحرم عليهم إلا ما كان محرماً من الطعام على إسرائيل كذّبهم القرآن، وألقمهم الحجر، فقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فلما قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خافوا وخجلوا، ولم يأتوا بها[1].

وكذلك قصة اليهوديين الزانيين المشهورة، بأنه زنىٰ يهوديان من يهود خيبر أو ما يقرب منها، فأرسلوا ليهود المدينة: «سلوا لنا محمداً ﷺ عن حكم الزاني المحصن، فإن أتاكم بجَلد أو شيء غير القتل فاقبلوا حكمه، ونخرج من العُهدة

---

(١) انظر: ابن جرير (٧/٧) وقد مضى عند تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام.

(٢) الروايات الواردة في اليهوديين الزانيين كثيرة، ومنها الرواية التي أشار إليها الشيخ (رحمه الله) هنا وهي من حديث جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) في أن ذلك وقع من يهود (فَدَك) كما في مسند الحميدي (١٢٩٤)، وذكره السيوطي في الدر (٢/٢٨٢) وعزاه للحميدي، وأبي داود، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه.
وقد رواه جماعة من غير ذكر (فَدَك) كما في سنن أبي داود (٤٤٢٨)، وأبي يعلى (٢١٣٦)، والبزار (كما في كشف الأستار ١٥٥٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/٢٧١).
كما رواه بعضهم مختصراً وفيه ذكر (فَدَك). كما عند الحميدي (١٢٩٥)، وأبي داود (٤٤٣١)، وابن جرير (١٠/٣١٠، ٣١٤)، وابن أبي حاتم (٤/١١٣١)، وعزاه في الدر (٢/٢٨٢) لابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

أمام الله بأنهما حكم فيهما نبيٌ كريم» لأنهم يعلمون أنه نبي كريم ﷺ. كما تقدم في قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: آية ٤١] يعنون: إن أعطاكم الحكم السهل من عدم رجم الزانيين فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا!! وعلى كل حال ثبت في الصحيحين في قصة الزانيين المشهورة أنهما أتوا بهم إلى النبيِّ ﷺ وحكَّمه فيهم[(١)]، والنبيّ ﷺ قال: «**سأحكم فيهم بالحكم الذي أنزل الله في التوراة**» وهو الرجم. وكان رئيسهم الديني في ذلك الوقت: عبدالله بن صوريا الأعور، فقال له: ليس في التوراة الرجم. فقال النبيُّ ﷺ: «**بلى، إن في التوراة لآية تدل على الرجم، فأتوا بالتوراة**». فجاؤوا بالتوراة، فقرأ ابن صوريا ما قبل آية الرجم وما بعدها، وجعل يده على آية الرجم يخفيها إخفاءً للحق، فجاء عبدالله بن سلام (رضي الله عنه وأرضاه)، وهو يهودي أصلاً من يهود بني قينقاع، وهو من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وأفاضل الصحابة الكرام، فهو الذي أنزل الله فيه في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾[(٢)] [الأحقاف: آية ١٠] هذا الشاهد: هو عبدالله بن سلام، وكان أعلمهم بالتوراة، فقال لابن صوريا: ارفع يدك!! وقرأ آية الرجم، فحكم النبي عليهما بالرجم، ورجمهما الصحابة. وفي الصحيحين: أن بعض الصحابة رأى الرجل يجنأ على المرأة. أي: ينحني عليها ليقيها الحجارة، فرُجما وقُتلا[(٣)]. وهذا من هيمنة القرآن على الكتب، وإنما سُمي هذا القرآن كتاباً لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢] ومكتوب في

---

(١) هكذا العبارة في الأصل، والصواب أن يقال: «أنهم أتوا بهم إلى النبي ﷺ وحكموه فيهم...

(٢) كما في حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) عند البخاري، وكما جاء من حديث عبدالله بن سلام نفسه، عند الترمذي وابن جرير وغيرهما، وكذا حديث عوف بن مالك عند أحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني في الكبير، وأبو يعلى، وابن جرير. وحيث أن الشيخ (رحمه الله) لم يورد رواية هنا فإني أكتفي بهذا الإجمال.

(٣) البخاري في المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾. حديث رقم: (٣٦٣٥)، (٦/٦٣١)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (١٣٢٩، ٤٥٥٦، ٦٨١٩، ٦٨٤١، ٧٣٣٢، ٧٥٤٣). ومسلم في الحدود، باب رجم اليهود، أهل الذمة، في الزنى. حديث رقم: (١٦٩٩)، (٣/١٣٢٦).

صحفٍ عند الملائكة لما جُمع كله في بيت العزة في السماء الدنيا، كما في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾ [عبس: الآيات ١١ ـ ١٤] ولأنه مكتوب أيضاً عند المسلمين، كما قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: الآيات ١ ـ ٣].

فلما كان مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي الصحف عند الملائكة، وبالصحف بأيدي المسلمين قيل له: (كتاب) وأصل الكتاب: (فِعَال) بمعنى (مفعول) وإتيان (الفِعَال) بمعنى (المفْعُول) مسموع في لغة العرب في كلمات غير كثيرة، ككتاب بمعنى مكتوب، ولباس بمعنى ملبوس، وإله بمعنى مألوه، أي: معبود، ونحو ذلك في أوزان غير كثيرة.

وأصل مادة الكتابة، مادة (الكاف، والتاء، والباء) (كتب) معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناها: الضمّ والجمع، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض وجمعت بعضه إلى بعض فقد كتبته. ومن هنا قيل للخِيَاطة كتابة. وفي لُغز الحريري[1]:

وكـاتـبـيـنَ ومـا خـطَّـتْ أنـامِـلُـهـم ... حَرْفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتبِ

يعني بالكاتبين: الخيّاطين. ومنه قول عمرو بن دارة يهجو بني فزارة من قبائل غطفان كانت العرب تعيّرهم بالفاحشة مع إناث الإبل، يزعمون أنهم يزنون بالنوق، تعييراً لهم، فعيّرهم هذا الشاعر فقال[2]:

لا تـأمَـنَـنَّ فـزاريـاً خَـلـوتَ بـه ... عـلـى قـلـوصِـكَ واكـتُـبـهـا بـأَسْـيَـارِ

يعني: خط فرجها بأسيار لئلا يزني بها. وهذا معنى معروف في كلام العرب.

ومنه قيل للرقعة التي تكون في السقاء، وقيل لها: كُتْبَة وقيل للسَّيُر الذي تُخاط به الرقعة أيضاً: (كُتْبة) لأنه يضم الرقعة إلى السقاء، ومنه قول غيلان ذي الرمة[3]:

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ ... كـأنّـه مـن كُـلَـى مَـفْـرِيَّـةٍ سَـرَبُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

وفَـرَاءَ غَـرفـيَّـةٍ أثْـأى خَـوارِزَهَـا ... مُشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

يعني: بـ (الكُتب): قيل: السيور التي تُخاط بها الرقع، أي: مَسْك الرقع، يُشَبِّه كثرة دموعه بماء السقاء إذا اتسع موضع السير الذي خيطت به؛ لأنها جماعة ينضمّ بعضها إلى بعض، ويتشكل مع بعض، فسُميت الخياطة كتابة؛ لأن الخيّاط يضم طرفي الثوب أو الأديم، ويجمع بعضها إلى بعض بالخياطة، كذلك قيل للكتابة (كتابة) لأن الكاتب يضمُّ نقوشاً بعضها مع بعض، يضع حرفاً منقوشاً ثم حرفاً ثم حرفاً، حتى يتكون من ذلك كلام يدل على المعاني؛ فلأجل هذا فالكتابة مصدر سيّال.

أي: وهذا قرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف عند الملائكة، وفي صحف مطهرة بأيدي المسلمين.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: هذا الكتاب أنزلناه من عندنا، ومن كلامنا. وصيغة الجمع للتعظيم، وجملة الفعل وفاعله في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ في محل النعت للكتاب[(١)]؛ لأن النكرات تُنعت بالجُمل، كما هو معروف[(٢)]. و (مبارك) نعت آخر[(٣)]، والأصل أن يُقدم النعت بالمفرد ثم بشبه الجملة ثم بنفس الجملة كما في قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: آية ٢٨] فبدأ بالنعت بقوله: ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ لأنه مفرد، ثم أتبعه بشبه الجملة، وهي: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ثم أتبعه بالجملة ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ هذا هو الأصل المقرر في المعاني. وربما قُدّم النعت بغير الجملة، وربما قُدم النعت بغير المفرد على النعت بالمفرد. فمثال تقديمه بشبه الجملة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ فالجار والمجرور نعت قُدّم على النعت المفرد في قوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: آية ٣١] ومثال تقديم الجملة على المفرد قوله هنا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فجملة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ نعت قُدّم على النعت بالمفرد. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد[(٤)]:

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/٢٥٦)، الدر المصون (٥/٢٢٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/٢٥٦)، الدر المصون (٥/٢٢٩).

(٤) البيت في معلقته. وقوله: (أحوى): هو ظبي في ظهره خُطتان خضراوان. و (المرد): =

وفي الحيِّ أحوى ينفُضُ الْمَرْدَ شادنٌ مُـظـاهِـرُ سِـمْـطَـى لُـؤلُـؤٍ وزَبَـرْجَـدِ

فإن قوله: (شادن ومظاهر) مفردان، قدّم قبلهما النعت بالجملة في قوله: «ينفض المرد» وهذا معروف[1].

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ معناه: أن هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات، والخيرات، فمن تعلّمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة؛ لأن ما سماه الله مباركاً فهو كثير البركات والخيرات قطعاً. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا. تصديقاً لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ونرجو أن يكون لنا مثل ذلك في الدنيا. وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلّا الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين؛ إذا قرأه الإنسان وتدّبر معانيه ففي كل حرف عشر حسنات في القراءة، وإذا تدبر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات؛ لأنه نور ينير الطريق التي تميّز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، فهو كله خيرات وبركات، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين.

ومن غرائب الأشياء وعجائبها أن أكثر أهل المعمورة ممن يؤمنون بأنه كلام الله الذي أنزله على رسوله يطلبون الهدىٰ في غيره، ويطلبون التشاريع والتحليلات والتحريمات من غيره!! فهذا من الغرائب! إذ كيف يعدل عاقل عن كلام خالق السماوات والأرض؟ فهو النور المبين، والحبل المتين الذي بيّنه سيد الخلق ﷺ بسنته الصحيحة. يعدل عن هذا زاعماً أنه ليس بصالح لهذا الوقت، وأن الحياة تطورت بعد نزوله تطوراً لا يلائم هذا القرآن!! ومن أنزل القرآن عالمٌ

= ثمر الأراك. و (شادن): ظبي ليس بالكبير. و (مظاهر): قد جمع بين اللؤلؤ والزبرجد. انظر: شرح القصائد المشهورات (١/٥٦).

(١) انظر: النحو الوافي (٣/٤٩٦ ـ ٤٩٧).

بما يحدث من التطورات، وما يكون، فجعل القرآن ديناً خالداً لا ينسخه دين، باقٍ إلى يوم القيامة، وهو عالم بما ينزل وما يحدث في الدنيا، بل لو عملت الدنيا أجمعها بهذا الكتاب الكريم لأزال جميع مشاكلها، وأزال عنها كل ضرر، ونظّم علاقات حياتها على الوجوه الكاملة، وأراها الطريق الواضحة التي تحصل بها على خير الدنيا والآخرة. وهو دائماً يحث على التقدم والرقي في جميع ميادين الحياة؛ لأنه كلام ربِ العالمين.

القرآن يحث الإنسان على أن يعطي جسده حظه، وأن يعطي روحه حظها[1]. وإذا قرأ الإنسان القرآن فهم كيف يدعو الإنسان إلى الجدِّ والكدح في هذه الحياة الدنيا، وإلى طاعة خالق هذا الكون، ونحن نقرر في المناسبات، وفي الدروس دائماً، أن هذا الحيوان الذي هو الإنسان، أنه حيوان مركب من جوهرين مختلفين بالذات اختلافاً جذرياً حقيقياً، وأصلاه اللذان تركب منهما متنافيان كل التنافي ـ أعني بهما روحه وجسده ـ فحقيقة الروح من العالم العلوي، والجسد من العالم السفلي، وبين الروح والجسد تباين وتنافي تام بالجوهر والعنصر وجميع الصفات. والله ركب الإنسان منهما، فالروح وحده ليس بإنسان، والجسد وحده ليس بإنسان، وإنما هو حيوان مركب منهما، ومعلوم أن الروح له متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الجسم، وأن الجسم له متطلبات لا تكفي عنها متطلبات الروح، فللجسم متطلبات لا بد منها، كالقوة الجسمية، والله (جلّ وعلا) يحث على هذا كل الحث؛ لأن من أعظم أنواع تربية القوة الجسمية هو إعداد القوة الكافية، والوحدة حولها وحدةً حقيقية صحيحة، والله يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠] فهذه الآية الكريمة بظاهرها تساير التطور مهما بلغ التطور من أنواع القوة؛ لأن الله يأمر بإعداد كل ما يدخل في طاقة الإنسان من إعداد القوة ليتقوى بها المسلمون، ويردوا بها الهجوم المسلّح، ويحافظون بها على بيضة الإسلام. فهذا من أعظم الأمر بأسباب القوة. وكذلك يأمر بالاجتماع؛ لأن البلايا كلها من المخايلات، وعدم اتحاد

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

القلوب، واختلاف القلوب وتباغضها، وهذا هو السبب الأكبر للضعف، وهو السبب الذي يدخل منه العدو فيضرب بعضهم ببعض، ويبقون ـ مثلاً ـ لأن المختلفين لا ينجحون؛ ولهذا يقول الله في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال: آية ٤٦] ويقول (جل وعلا): ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: آية ١٠٣] ويحض على الاجتماع النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، وقد بيّن القرآن في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، ومعاداة البعض للبعض أن منشأه إنما يكون من ضعف العقول، كما قال في قوم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: آية ١٤] ثم كأن قائلاً قال: ما المُوجب الذي صيّر قلوبهم شتى وهم أمة واحدة متفقة في الأهداف والأغراض، ما الموجب الذي صيّر قلوبهم شتىٰ، أي: مختلفة متنافرة؟! فبيّن العِلة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وليس المراد هنا نفي العقل من أصله، والمعنىٰ: (أنهم لا يعقلون) نفي كمال العقل. يعني: أن عقولهم ليست ناضجة كما ينبغي، إمّا هم في الحقيقة فمن جملة العقلاء. وهذا يدل على أن هذه الفرق ـ التي تدّعي الإسلام ـ المختلفة، التي يبغض بعضها بعضاً، وإن تجاملت في ظاهر الأمر، أن سبب ذلك إنما هو ضعف العقول في بعضها. وقد يكون المختلفان أحدهما عنده عقل كامل، يدعو إلى الطريق المستقيم بعقله المستقيم، والآخر ضعيف العقل، يفرّ من تلك الطريق ويخالف. فهذا من ضعف العقل. وقد بيّنا أن في هذه السورة الكريمة أن ضعف العقول وموتها، أن علاجه القرآن، لأنه يصير به الميت حياً، ويصير به الذي كان في الظلام في النور ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: آية ١٢٢] فبيّن أن اتباع القرآن حياة بعد الموت، ونور بعد الظلام؛ لأن تشريع خالق السماوات والأرض، ينوّر الأفكار، ويضيء الطريق، ويدل الخلق على ما هم عاجزون عليه من مصالحهم. ولا شك أن هؤلاء الذين يعدلون عن القرآن، والله يقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: آية ١٥٣] ويسميه النور الذي يضيء، فيرى في ضوئه كل حق، وكل باطل، وكل حسن، وكل قبيح، وكل نافع، وكل ضار؛ ولذا كثيراً ما يطلق على القرآن اسم النور، كما قال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ

﴿النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢]، فالآيات المصرحة بأن هذا الكتاب نور، والنور هو الذي يُرى في ضوئه الحق حقاً، والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، إلى آخره. فالذين يعدلون عن هذا النور ـ الذي هو كلام رب العالمين، المبيّن بسنة سيد المرسلين ـ ﷺ ـ زاعماً أن هذا لا هدىٰ فيه، ويطلب الهدىٰ في نظم وضعية، ألفها خبثاء كفرة فجرة خنازير أبناء خنازير، أن هذا من طمس البصائر الذي يُؤسَف له، ويُبْكي العيون ـ والعياذ بالله ـ والحق الذي لا شك فيه أن الذي سبب هذا إنما هو طمس البصائر؛ لأن البصيرة إذا ضعفت جداً كانت لا تتحمل النور العظيم، والنور العظيم يقضي على ذي البصر الضعيف ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٠] فالذين يعدلون عن كتاب الله إلى نظم وضعية زاعمين أنها أحسن منه، وأبلغ في تنظيم الحياة في جميع ميادينها، فهم في الحقيقة بالحرف الواحد، والكلام المطابق: خفافيش البصائر، أعماهم نور القرآن، كما تعمي الشمس الخفافيش:

خَفَافيشُ أعمـاهَا النـهارُ بضـوئِهِ ... ووافَقَـهَا قِطْـعٌ من الليـلِ مُظلـم[١]
مثـل النَّهـارِ يـزيـدُ أبـصَـارَ الـوَرَى ... نُـوراً ويُـعـمـي أعيـن الـخُـفَّـاشِ[٢]

والدليل على هذا أن الله بيّن أن الذي لا يعلم أحقية القرآن أن الذي منعه من ذلك عَمَاه، مع وضوح دلالة القرآن، قال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: آية ١٩] فبيّن أن الذي منعه أن يعلم أنه الحق إنما منعه عَمَاه[٣].

إذا لم يكن للمرءِ عينٌ صحيحةٌ ... فلا غَرْوَ أن يرتابَ والصبحُ مُسفر

فلو حاولت أن تُري الشمس للأعمى لا تستطيع، فنور القرآن أعظم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من هذه السورة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

من نور الشموس، والذين يطلبون الهدى في غيره أضعف بصائر من الخفافيش، فمن هذا جاءت البلية. فعلينا جميعاً أن نعرف أن القرآن نور الله المبين، وحبله المتين، المعتصم به ظافر؛ والمحتج به غالب، لا يخذل من تمسك به أبداً لأنه كلام الله؛ ولذا قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: آية ١٥٥] أي: ولا تتبعوا غيره من السبل الزائغة الضالة.

ومعنى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾: أحِلوا حلاله، وحرموا حرامه، واعتقدوا عقائده، واعتبروا بأمثاله، وعاملوا أعداءكم بما فيه من الحِكَم؛ لأن القرآن يوضح جميع المرافق الحيوية من جميع مرافقها، وقد بيّناه مراراً، وسنضرب لذلك مثلًا بسيطاً؛ لأنه معروف أن جميع المصالح في الكتب السماوية، أنها تدور حول ثلاث، هي: دفع الضرر، المعروف بدرء المفاسد، الذي يُقال له في الأصول: (الضروريات)، وجلب المصالح، المسمىٰ في الأصول بـ (الحاجيّات)، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات. فجميع الشرائع السماوية إنما تدور حول هذه المصالح الثلاث. إمّا أن يتضمن التشريع نفي ضرر وإبعاد مفسدة، أو جلب مصلحة، أو جرياً على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات. وإذا نظرنا كتاب الله وجدنا فيه العجب العجاب، الذي يبهر العقول من المحافظة على هذه المصالح. ولو تكلمنا على هذا لما وسع الوقت شيئاً قليلًا منه، ولكن نضرب بعض الأمثال فنقول مثلًا: أطبق عامة العقلاء أن المظالم التي تتظالم بها الناس في دار الدنيا، ويكون بعضهم ظالماً بعضاً، ومعتدياً على حق بعض، أنها هي الست، المعروف بالضروريات: ستة أشياء[1]، وهي:

أولها: الدين: والعدوان على الدين من أعظم الجنايات وأكبرها. ومن ذلك أن تكون أولاد المسلمين على الفطرة الصحيحة، وهم في غاية الاستعداد لقبول ما كان عليه آباؤهم من الدين والصلاح، فيأتيهم قوم فيجعلون لهم مدارس يعلمونهم فيها العقائد الزائفة، والإلحاد والفِكَر الهدامة، فيضيّعون دينهم. فهذا ظلم وعدوان على الدين، وهو من أعظم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

المظالم وأشنعها. هذا واحد من الستة، الدين.

الثاني: النفس: وهو الإنسان الذي يعدو على الإنسان فيقتله ويُذْهِبَ نفسه.

الثالث: العقل: ومن يعدو على الإنسان فيضيّع عقله.

الرابع: النسب: وهو من يتجرأ على المجتمع فيضيّع بعض أنسابه.

الخامس: المال.

السادس: العِرض.

فإن جميع المظالم في دار الدنيا تدور حول هذه الأشياء، وهي العدوان على دين الإنسان، أو العدوان على نفسه، أو العدوان على عقله، أو العدوان على نسبه، أو العدوان على ماله، أو العدوان على عرضه. فهذه الجواهر الستة التي تدور حولها المظالم في دار الدنيا، لا تجد نظاماً أحوط لها، وأحصن لها، وأشد محافظةً عليها من نظام السماء، الذي تضمنه هذا الكتاب المبارك، المنزّل من رب العالمين، فتراه يحافظ على الدين أشد المحافظة، فيقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] أي: حتى لا يبقى في الدنيا شرك ولا فساد دين، ويقول: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[1] ويقول: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: آية ٢١٧] يحثهم على أنهم يجاهدون كل المجاهدة من أراد أن يغيّر دينهم ويردهم عنه.

وأما النفس فقد جعل القرآن دونها حائطاً من حديد، وهو القِصاص؛ لأن أعظم صيانة للنفوس ومحافظة عليها: شرع القِصاص؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٩] ومعنى أن كون القصاص لنا به الحياة: أن الرجل ينزغ فيه الشيطان، فيغضب، فينوي أن يقتل الذي أغضبه، فيأخذ الخنجر أو السكين، أو آلة القتل، ثم يذهب مصمماً على أن يقتله، فيتذكر أنه إن قتله يتذكر صَلْبَه على الخشبة مقدماً لولي المقتول ليقتله أمام

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الناس، فإذا تذكر ذلك الموقف الذي يصير إليه أمره خاف، وارتعدت فرائصه، وهاب القتل، فحيي المقتول، وحيي هو. وقَتْل نفسٍ واحدةٍ قصاصاً يُحْيي الله به ملايين الأنفس. وهذه حكمة القرآن وشرعه.

وهؤلاء الكفرة الذين تشبعوا بالآراء الإفرنجية، الذين يقولون إن القصاص من السفاهات، أن هذا الرجل قتل رجلًا ونقص به عدد المجتمع، فكيف نضايف بأن ننقص عدد المجتمع برجل آخر؟!! هذه فلسفة شيطانية، أصحابها لا يعرفون الحقائق. فإن الرجل الذي قتلنا أحيينا بقتله آلاف النفوس؛ لأن الشيطان ينزغ بين الناس، ويُغضِب السفهاء حتى يُقدموا على القتل، ولا يردعهم إلّا القصاص، فإذا أراد أن يقتل تذكر موقفه أمام الناس مصلوباً على خشبة، أو ممسوكاً مجعولًا على عينيه غطاء ليقتله ولي الدم، فإذا تذكر موقفه أمام الناس ليُقتل خاف وحاسب، فحيي هو، وحيي المقتول. ونحن نقول مثلًا ـ وقصدنا بيان دين الإسلام، ومحاسنه، وصيانته للحقائق، لا إطراء زيد ولا عمرو ـ أن هذه البلاد، لمّا كانت تحكم بالقصاص، وتقطع يد السارق ـ نرجو الله أن يُسدد الحاكمين عليها للخير، ويديمهم على الحكم بحكم الإسلام ـ إذا وُجدت الإحصاءات العالمية في جنايات القتل أو السرقة تجد هذه البلاد أقل من جميع البلاد المتحضرة المترقية حوادث وجنايات، فكل ذلك بفضل الله ثم بفضل هذا النظام السماوي، الذي وضعه خالق السماوات والأرض، حياطة للنفوس، وحياطة للأموال.

ثم إنا إذا وجدنا الأنساب، نجد الشرع الكريم حافظ على أنساب المجتمع غاية المحافظة؛ ولذا حرم الزنى خَوْفَ أن يختلط ماء رجل بماء امرأة، وخَوْفَ أن تحمل النساء من رجال غير معروفين فتبقىٰ الأولاد لا آباء لهم، فتضيع أنسابهم؛ ولأجل محافظته على الأنساب أوجب العدة. عندما يحصل فراق بموت أو طلاق يجب على المرأة العِدة، بأن تمكث عدة معينة ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨] وقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: آية ٤] بالغ في الصيانة حتى ألزم العدة للتي لا تحيض، مبالغةً

في الصيانة جداً، حتى إنه من شدة محافظته على [الأنساب](١) منع سقي الزرع بماء غيره؛ ولذا منع تزويج المرأة الحامل؛ لأن الرجل إذا تزوج امرأة حاملاً كان يسقي بوطئه لها ـ كان ماؤه يسقي ـ ذلك الزرع الذي كان في بطنها قبله، فسقي الزرع بماء الغير كأن الولد يكون فيه حظ لهذا وحظ لهذا، فمنع سقي الزرع بماء الغير حياطةً للأنساب، كما قال: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: آية ٤].

وإذا نظرنا العقول فلا نجد نظاماً يحافظ على العقل مثل نظام القرآن العظيم؛ ولذا حرّم شرب كل مُسكِر، كل شيء يضيّع العقل حرّم تعاطيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وأوجب الحد في شرب الخمر محافظةً على عقول المجتمع.

وكذلك الأعراض، منع القرآن وقوع المسلم في عرض أخيه، قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: آية ١٢] ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: آية ١١] إلى غير ذلك من الآيات. ثم بيّن للإنسان خبث عرض أخيه وقال له: كأنك إن أكلت عرض أخيك، فأكلت لحمه، ووقعت في عرضه، كأنك أكلته ميتاً بعد أن أنتن، وصار فيه الدود، وصرت تبتلع لحمه، في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: آية ١٢] وهذا غاية التقبيح من الوقوع في أعراض الناس، والكلام فيهم بالغيبة. ثم إن الله جعل حدّ القذف ثمانين جلدة، حفاظاً على أعراض الناس ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النور: الآيتان ٤، ٥] كل هذا محافظة على أعراض الناس.

وأوجب حد السرقة محافظة على أموال المجتمع.

ونحن نذكر مراراً(٢) أن الذين طمس الله بصائرهم، ونظروا إلى

(١) في الأصل: «العقول» وهذا سبق لسان.
(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

التشريع السماوي بنظرة غير صحيحة، وصوّره لهم أعداء الدين بصورة مشوهة غير حقيقية، يزعمون أن قطع اليد أنه عمل وحشي، وأنه لا ينبغي أن يكون في النظم التي يُعامل بها الإنسان، وهو عمل عدالة اجتماعية من أحسن الأعمال في العدالات الاجتماعية، ومن أحسن الأعمال في الآداب الروحية أيضاً، فهو عمل جامع بين الجسم والبدن، ذلك أن الله خلق هذه اليد، وفرق أصابعها، وأبعد إبهامها من سبابتها، فلو كان الإبهام موضوعاً بقرب السبابة كقرب الوسطى منها لما قدر أن يعقد شيئاً ولا أن يحل شيئاً. وشدّ له رؤوس أصابعه بالأظفار؛ لتكون هذه اليد خير أداة عاملة لبناء المجتمع، والمعاونة على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: آية ٢] فلمّا مدت أناملها الخائنة الخسيسة الخائسة لتأخذ مال الغير على أقبح وجه وأردئِه وأخسه كانت هذه اليد في نظر الشارع الذي خلقها كأنها نجسة، فنجست هذا العضو بقذارتها وقذارة خستها وفعلها، فأمر الشارع بإزالتها كعملية تطهيرية، كعضو فاسد يفسد جميع البدن وينتنه، فهي عملية تطهيرية لإزالة عضو منتن فاسد؛ ليصح بقية البدن ويطهر؛ ولذا ثبت في حديث عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين[1] ما يؤيد أنه إن أُقيم عليه الحد وقُطعت يده أن ذلك يطهِره من تلك الخسيسة، فتطهر بقية البدن، مع أن المال هو شريان الحياة الذي به إقامة كل شيء، إذ لا عسكرية إلا بالمال، ولا اجتماع إلا بالمال، ولا ثقافة إلاّ بالمال. فهو شريان الحياة وأساس حجرها الأساسي، الذي يتركز عليه كل شيء من مرافق الحياة. والسرقة أخذه على وجه خبيث خسيس يعسر التحرز منه؛ لأن السارق ينظر الغفلاتِ، وأوقات الخلوات التي لا يُطَّلع عليه فيها غالباً، فلو تركناه ولم نردعه ردعاً بالغاً لأمكن لليد السارقة الواحدة أن تبطل ملايين الأيدي، فتترك ملايين الأيدي عاطلة!! فكيف نترك يداً واحدة تعيث وتفسد آلاف الملايين من الأيادي؟! فبقطعها يطهر بقية البدن، فيغفر الله للإنسان تلك الخسيسة، فيطهر من ذلك التنجيس والتقذير المعنوي. ثم إنه بعد ذلك ينزجر السفهاء

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

عن سرقة أموال الناس، فتكون عدالةً اجتماعية، وتطهيراً سماوياً من ذنب الخبيث، وهذه حكمة بالغة. فمعروف أن قطع السرقة فيه سؤال معروف، وهو أن الجنايات على المال أنواعها كثيرة، كأن يغصبه من إنسان، أو يختطفه، أو يتعدىٰ عليه بعدوان غير السرقة. والله ما جعل القطع بنوع من العدوان على المال إلاّ في النوع الواحد الذي هو السرقة. فمن غصب مال إنسان مكابرة لا تُقطع يده، والعلماء أجابوا عن هذا[1]: بأن العدوان على المال بالأوجه غير السرقة أنه غالباً يكون ظاهراً لا يخلو من أن يجد عليه بيّنة تشهد له عند ولي الأمر، فيردع وليُّ الأمر الظالمَ، ويرد للمظلوم حقه.

أما السرقة فلا تكاد توجد عليها البيّنة؛ لأن السارق يتحرىٰ أوقات الغفلات، وأوقات الخفاء الذي لا يطلِع عليها أحد، ولا توجد عليها بيّنة، فجعل الشارع الحد فيها أقوىٰ وأجدىٰ وأغلظ، لتبقىٰ للمسلمين أموالهم، وليطهِّر السارق أيضاً من رذيلته، وأمثال هذا كثيرة. فهذا هدي القرآن، ومحافظته على الحقوق، ومساواته بين الناس في الحقوق، إذا قتل أكبرُ رجل أصغر رجل يُقتل به. وهو يساوي بين الناس في حقوقهم. فاتباع نظام السماء إذا اتبعوه انتشرت بينهم المؤاخاة، والمحبة الصادقة، والعدالة الاجتماعية بمعناها الصحيح، والموادّة، والمحبة، والإنصاف. وإذا اعتدى بعضهم على بعض فالعمل السماوي النازل من عند الله (جل وعلا) في الردع عن ذلك الفعل هو أعظم الأشياء وأوقعها موقعها، ولكن من أعماه الله فلا مبصِّر له، من يُضِله الله فلا هادي له.

وعلى كل حال فالهدىٰ كل الهدىٰ في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن يكون عليه من الصفات الكريمة من عدم الغش، وعدم الخيانة، ومن السخاء، والتضحية، والمعاونة، والشجاعة، والصبر، والشكر إلى غير ذلك من أوصاف النفوس الحميدة، والنهي عن الأوصاف الخبيثة، كالعجب، والرياء، والحسد، والكبر، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. فيأمره كيف

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

يعامل زوجه وأولاده أكمل معاملة. ومن أوضح ذلك أنه يحذره أولًا من ضرِّهم؛ لأن أولاده وزوجته قد يضيّعون دينه، والله يقول: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: آية ٩] فإن الأولاد قد يحملون الرجل على بعض المخالفات، والمرأة قد يحمله خاطرها على بعض المخالفات، والله يقول: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] فيأمرهم بالحذر أولاً من أن يوقعوهم فيما لا ينبغي، ثم إن الله يعلم أنه لا بد أن يقع منهم شيء يسوء الرجل، فبعد ذلك يأمره بالصفح والعفو عنهم، ويحذره أولاً منهم، ثم يأمره بعد الوقوع بالمعاملة الحسنة معهم: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾/ أي: وإن وجدتم ما ٢٣/ب
لا يليق فقابلوهم بالصفح والعفو والرحمة. يأمر أولًا بالحذر خوفاً منهم، وثانياً بمعاملتهم بالإحسان إذا وقع منهم بعض الشيء.

ويأمرنا بما نعامل به الأعداء، وما نعامل به الإخوان، يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: آية ٢٩] فالمسلم رحيم بالمسلم، شديد على عدو المسلم، وقال (جل وعلا): ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٥٤] فيبيّن أن صفات المسلم أن يكون ليناً هيّناً على أخيه المسلم، وأن يكون غليظاً فظاً على أعدائه؛ ولذا يقول للنبي في حق المسلمين: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: آية ٨٨]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: آية ٢١٥] ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] ويقول في غير المؤمنين: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: آية ١٢٣].

وجميع ما في القرآن والسنة هو الهدي الصحيح الذي ينير معالم الطريق للإنسان في جميع المصالح الدنيوية والأخروية، ويجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وإذا قرأتم آيتين من سورة النساء فيهما صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾

[النساء: آية ١٠٢] إلى آخر الآيتين. هذا وقت التحام الكفاح المسلَّح. والمفروض أن الرجال يموتون. والقرآن في هذا الوقت يعلِّم المسلمين وجه الخطة العسكرية، وكيف يكونون؛ ليمكنهم بذلك أن يؤدوا لله (جل وعلا) طاعة من طاعاته، وأدباً روحياً من آداب السماء، وهو الصلاة في الجماعة.

فهكذا يكفل القرآن المحافظة والقوة في الدنيا، والاتصال بخالق هذا الكون، وتهذيب الروح على ضوء تعاليمه، والاتصال به. ويقول في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: آية ٤٥] فقوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ هذا تعليم سماوي عسكري، ومعنى: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ هو أمر العسكريين بالصمود في خطوط النار الأمامية في وجه العدو في الميدان. وهذا تعليم عسكري قوي، وفي هذا الوقت بعينه يقول: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فعاملوا الأعداء في الدنيا بالقوة والغلظة بجميع أنواعها، ولا تقطعوا صلتكم بمن خلقكم لتأكيد حظ أجسادكم وحظ أرواحكم. ومن أخل بأحد الطرفين ظهر فيه ما ظهر. الآن[1] الكفرة كالكتلة الشرقية والغربية نجحوا في خدمة الإنسان من حيث كونه حيواناً جسدياً، وأنتجوا من القوة المادية والتنظيمية ما كان لا يدخل في حسبان أحد حتى في النوم، ولكنهم أفلسوا كل الإفلاس في الناحية الروحية؛ لأن أرواحهم خبيثة كأرواح البهائم والسباع، ليست مُرباة على ضوء نورٍ سماوي، ولا تعليمٍ إلهي، فصارت هذه القوة الطاغية كأنها في يد سفيه جاهل لا يدري ماذا يفعل بها؛ ولذا تجد العالم كله في قلق من أن تنفجر هذه القوة وتُفني كثيراً من الدنيا، وتراهم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر، والمجلس بعد المجلس ليتخلصوا من تلك القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس.

وأنا أؤكد لكم تماماً أنه لو كان أحد الطرفين يعلم أنه لو بادر فدمر ما عنده من القوة الفتاكة لفعل الثاني كما فعل أنهم يبادرون ليتخلصوا من شرها وخوفها والقلق بها، ولكن الكل يخاف إن بدأ بإتلاف ما عنده أن يحتفظ الثاني بالقوة التي عنده ويهلكه بها، في الوقت الذي ليس عنده قوة تدافعها. كل هذا إنما جاءهم من أنهم أهملوا ناحية الروح، واعتنوا بناحية الجسد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

والاهتمام بناحية الجسد لا ينفع ولا يصلح إلّا إذا كان مزدوجاً مع الاهتمام بالروح. فلو كانت الأيادي التي صنعت هذه القوة مرباة تربية سماوية على ضوء نور إلهي لكانت في غاية العدالة، وكان الناس في أمن تام أنهم لا يبطشون بها إلا في أمرٍ يرضي الله ويكون في مصلحة العالم البشري؛ ولذا فهم كأنياب الأسد وأظفاره. أنياب الأسد وأظفاره قوة حيوانية بهيمية فتاكة، ولكن النفس التي تديرها نفس بهيمية طبيعتها الافتراس والابتزاز والهدم، فلا مصلحة بها لبني الدنيا؛ لأن الذي يديرها يوجهها توجيهاً لا فائدة فيه. كذلك المسلمون عندهم تراث عظيم روحي، ضيعوا هذا التراث!!

وكان الواجب على المسلمين أن يفهموا أن ما أنتجته الحضارة الغربية من خدمة جسم الإنسان أن فيه أشياء نافعة عظيمة، يجب أخذها، وهو ما أنتجته من القوة من الناحية المادية والتنظيم، وأن فيها أضراراً عظيمة، وسموماً قاتلة، وهي ما أحدثته من الإفلاس الخُلُقي، والتمرد على نظام السماء، والكفر الصريح، والانحطاط الخلقي في جميع ميادين الأخلاق والقيم الإنسانية الروحية، فهم مفلسون في هذه الناحية، أغنياء في هذه الناحية. فكان على المسلم أن يعلم أن الحضارة الغربية أنتجت ماءً زلالًا نافعاً، وسمّاً فتاكاً قاتلًا، فيأخذ الماء الزلال، ويحذر من السمّ القاتل، فينتفع بتعلم ما أحدثته من القوة في سائر الميادين، وفي ذلك يأمر القرآن، ويحذر مما جنته من التمرد على نظام السماء، حتى إن بعض الكاتبين منهم لينفون خالق السماوات!! وبعض طرقهم الهدامة مبناها على أنه لا خالق لهذا الكون ولا دين والعياذ بالله.

والمؤسف كل الأسف أن أغلب من يديرون الدفة ـ إلا من شاء الله ـ غالباً يعكسون الأمر فيأخذون من الحضارة سُمّها الفتاك، وهي الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ورمي القرآن وراء ظهورهم، في الوقت الذي لا يستفيدون فيه قوة.

ما أحسنَ الدينَ والدنيَا إذا اجتمعَا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ[1]

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٧٤.

فعلينا أن نعلم أنه لا يكفي نصيب الروح دون نصيب الجَسد، ولا نصيب الجسد دون نصيب الروح. فلو بقي المسلمون في المساجد يصومون النهار، ويقومون الليل، ويتلون القرآن، ويعبدون الله، ولم يزاولوا شيئاً من القوة التي يردون بها الكفاح المسلح عن أوطانهم، كانوا لم يأتوا بمدلول القرآن، ولم يطيعوا الله؛ لأن التكاسل والضعف، وعدم إعداد القوة مخالفة للشرع السماوي، وتمرد على نظام السماء. وكذلك الذين أعدوا جميع القوة، وخالفوا أوامر خالق السماء، فالكل من هؤلاء وهؤلاء ليس على هدىً، والهدىٰ ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه، وهو إعداد القوة الكاملة في جميع الميادين، مع المحافظة على إرضاء خالق هذا الكون، والعمل بما شرّعه من تحليل وتحريم وآداب ونحو ذلك؛ ولذا قال الله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يعني: اتبعوا ما فيه [من الهدى والرشاد، فإنكم لو فعلتم ذلك. . .][1] لكفاكم شر الدنيا وشر الآخرة، ولكنتم خير أمة، وفقتم جميع البشر، وغلبتم جميع من في الدنيا؛ لأن من أطاع الله صار حِزْبَ الله، وحزب الله لا يُغلب، وطاعة الله والتمسك بكتابه هي جند لا يُغلب. فالله (جل وعلا) يأمر المؤمنين بالاستعداد، مع أن إيمانهم بالله قوة لا يغلبها شيء.

فنحن نعطيكم أمثلة قرآنية تدلكم على ذلك: ألا تعلمون غزوة الأحزاب، المعروفة بغزوة الخندق، التي قصّها الله في سورة الأحزاب، أن المسلمين كانوا في قلة عدد، وفي جوع، وفي ضيق اقتصاد، وجميع من في الأرض من الناس يقاطعهم في السياسة والاقتصاد، لا روابط بينهم وبين أحد لا سياسية ولا اقتصادية، وجاءتهم تلك الجيوش جيوش الأحزاب ومعها اليهود وقريش، وجاؤوا بعشرة آلاف مقاتل، وحاصروا المدينة ذلك الحصار العسكري التاريخي المشهور، الذي نوّه الله بشأنه، ووصف شدته البالغة في سورة الأحزاب بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من الله أمر عظيم فظيع!! هذا الحصار العسكري، المسلمون في ضعف من العَدَد والعُدَد والعتاد والمال، وجميع الناس يقاطعونهم. فما هذا السلاح الذي قابلوا به هذا الحصار العسكري، والقوة العسكرية الشيطانية؟! الجواب: هو سلاح الإيمان بالله (جل وعلا)، كما نص الله عليه بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٢] هذا الإيمان الثابت الراسخ بالله، والتسليم لله، كان هو السلاح القاضي على هذه الأعداء، صرّح الله بنتيجته بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: آية ٢٥] يعني: إن كنتم ضعافاً أذلاء فهو قوي عزيز لا يذل من التجأ إليه، ولا من أخلص له حقاً. ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾ ثم ختم وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: الآيتان ٢٦، ٢٧] إن كانت قدرتكم ضعيفة فقدرته ليست بضعيفة، فهو قوي قادر لا يغلب، ولا يُغلب من كان حزبه حقاً.

ولما علم الله من الذين بايعوا النبيّ ﷺ تحت شجرة الحديبية علم من قلوبهم الإخلاص والإيمان الكامل، ونوّه به بالاسم المبهم - الذي هو الموصول - بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: آية ١٨] يعني: إخلاصاً وإيماناً كما ينبغي، فكان من نتائج ذلك الإخلاص والإيمان التام بالله أن قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فصرّح بأن إمكانياتهم العَدَدية والعُدَدية لا تقدرهم عليها، قال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾، لأنه القادر، فأقدركم عليها بقدرته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: آية ٢١]، فالمسلمون إذا استمسكوا بالدين غلبوا الأعداء. وهذا الذي ذكر الله يوم الخندق شيء ما كان في حسبانهم، وما كانوا يظنونه، فهو أمر إلٰهي من الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٩] فالمسلمون إذا تمسكوا بالدين كما ينبغي، فالقرآن يأمرهم بإعداد القوة الكاملة، ولو باغتهم العدو قبل أن يستعدوا العدة الكاملة و (...)[1] للكفاح، فالنصر يأتي من السماء من حيث لا يدرون، فقد يسلط الله على العدو الطاعون فيهلكه، وقد يسلط عليه عدواً آخر فيهلكه، وقد يخالف قلوب بعضه فيضرب بعضه بعضاً. والنصر يأتي من الله من الوجوه التي لا يعرفونها.

فالحاصل: أن القرآن لا يأمر بالتكاسل والتواكل، بل إنما يأمر بالقوة والاستعداد لكل هجوم، والمتمسك به أيضاً لو بُوغت قبل أن يستعد، أو في حالة ضعف فإن الله يقويه وينصره على عدوه بالطرق التي يعلمها هو وحده، وإن لم تكن في حسبان المسلمين، كما نصر أهلَ الأحزاب - النبيَّ ﷺ وأصحابه - بالريح وبجنود لم تروها، نصرهم بالريح، كلما نصبوا خِباءً في البر نسفته الريح، وكلما وضعوا قدراً ليطبخوا فيه نسفته الريح. فبقوا مثلًا لا قرار لهم، لا كِنَّ يكنهم، ولا طعام يأكلونه، فاضطروا للفرار، حتى قال رئيسهم أبو سفيان بن حرب: ارتحلوا وأنا أول مرتحل.

وكان حذيفة بن اليمان العبسي (رضي الله عنه) معهم في ذلك الوقت عيناً من النبي ﷺ، ذكروا عنه في السيرة أن أبا سفيان ركب على بعيره وهو معقول، قال: وأنا الذي فتحت عقال البعير، ولو لم يأمرني النبيّ بأني لا أحدث شيئاً لكنت قتلت أبا سفيان في ذلك الوقت[2].

هذا دين الإسلام، وهذا شأن المتمسكين به، أما الذين ينصرفون عنه ويتركونه محتقرين إياه، زاعمين أنه لا يُنظِّم الحياة، وأن الحياة تطورت، وأن تنظيم علاقات الدنيا يحتاج إلى أمور جديدة، كما يرتبه الكفرة الفجرة،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من هذه السورة.

(٢) في هذه المسألة راجع: ابن جرير (١٢١/١٢)، القرطبي (٨٦/٧)، ابن كثير (١٧٧/٢)، (١٧٠/٤) البحر المحيط (٢٢٢/٤)، أضواء البيان (٢١٠/٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

هؤلاء عُمي البصائر، خفافيش البصائر، وإن سموا أنفسهم مسلمين، فالنصر لا يأتيهم من عند الله؛ لأن الله ميّز الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم بصفاتهم الكاشفة، قال في الذين وعدهم بالنصر، ميّزهم في سورة الحشر تمييزاً كاشفاً: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ من هم الذين وعدهم الله بالنصر؟ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: الآيتان ٤٠، ٤١] أما الذين إذا مكن لهم في الأرض غيروا معالم الدين، وضيّعوا الشرع، ووضعوا المذاهب الهدامة، وأضاعوا ما في الإسلام من أخلاق، وغيروا معالم الدين، وجاؤوا بالفساد والطرق الملحدة المستوردة، هؤلاء ليس عندهم وعد من الله بنصرٍ ألبتّة، ومثالهم مثال العامل الذي عاقده رجل ليعمل له فامتنع من أن يعمل، ثم لما جاء الوقت جاء لصاحب العمل، وقال: أعطني أُجرتي. قال: كيف تطلب مني أجرتك وأنت لم تعمل شيئاً؟ أنت رجل مجنون!! فهؤلاء مثل هذا يعصون الله ويناصبونه بالعداء، ويغيّرون معالم دينه، ويتحاكمون إلى الطاغوت، ثم يقولون: نحن مؤمنون ينصرنا الله!! هذا جنون وهَوَسٌ وقلب للحقائق. فالمؤمنون الذين ينصرهم الله هم الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا دينه وشرعه، وعملوا بنور كتابه، كما قال هنا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ قال بعض العلماء: اتقوا تحريفه وحمله على غير معانيه. وقال بعض العلماء: اتقوا الله واجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه باتباع هذا القرآن العظيم[1]. وعلىٰ كل حال فمتبع القرآن متقي. فقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ كالعطف المؤكد لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اتبعوه لأجل أن يرحمكم الله، أي: اتبعوه راجين أن يرحمكم الله.

ثم إن كفار قريش كانت لهم حجة قطعها الله تبارك وتعالىٰ خصوصاً لكفار قريش: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ

(١) انظر ابن جرير (٢٣٩/١٢)، القرطبي (١٤٣/٧).

مِنْهُمْ﴾[الأنعام: الآيتان ١٥٦، ١٥٧] هذا قطع لحجة كفار مكة، وإلقام لهم الحجر. يعني: هذا كتاب مبارك أنزلناه بلغتكم الواضحة الفصحى.

أنزلناه ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ (أن) هنا: اختلف البصريون والكوفيون في المقدر قبلها[1]، فكان البصريون يُقدِّرونه مضافاً. يعني: أنزلنا عليكم هذا الكتاب بلغتكم كراهة أن تحتجوا حجة باطلة و ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وكراهة أن تقولوا: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾. والكوفيون يقولون: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ لئلا تقولوا كذا أو تقولوا كذا. فهو متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ فـ (أن) متعلقة بـ ﴿أَنزَلْنَآ﴾، بعضهم يُقدِّر: (أنزلناه كراهة أن تقولوا كذا) وبعضهم يقول: (أنزلناه لئلا تقولوا كذا). وهذا جارٍ في كل ما يماثله في القرآن، نحو ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: آية ١٧٦] أي: لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ [الحجرات: آية ٦]، كراهة أن تصيبوا، أو: لئلا تصيبوا. وهو كثير في القرآن. وبعض العلماء يقول: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾: العامل فيه محذوف؛ لأن ﴿أَنزَلْنَآ﴾ المذكورة حالَ بينها وبين المعمول أجنبيٌّ. والمعنى متقارب، والمعنى: كأنه يقول: يا كفار مكة: أنزلنا هذا الكتاب المبارك بلغتكم وبلسانكم كراهة أن تتعللوا بعلل فاسدة، وأن تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ وهم: اليهود والنصارى. وكتاب اليهود: التوراة، وكتاب النصارى: الإنجيل.

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ لأن الطائفتين كلاهما جماعة وخلق[2]. فقال: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ ولم يقل: «عن دراستهما».

﴿غَـٰفِلِينَ﴾ وإنما غفلنا عنها لأن لسان هؤلاء أعجمي، ولساننا عربي، ولا نفهم كلامهم، ولا يفهمون كلامنا. فلو أردنا أن نعرف منه أوامر الله ما

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٣٩/١٢)، البحر المحيط (٢٥٦/٤ ـ ٢٥٧)، الدر المصون (٢٢٩/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/٤).

قدرنا؛ لأنه ليس بلغتنا ولا بلساننا، ولا نفهم ما يقول أهله، ولا يفهمون ما نقول. يعني: كراهة أن تقولوا هذه الدعوىٰ، وتعتلوا هذا الاعتلال أنزلنا عليكم كتاباً سماوياً واضحاً بلغتكم، لنقطع هذا العذر. أي: أنزلناه لئلا تقولوا. أو: كراهة أن تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ اليهود، وهو: التوراة، والنصارىٰ، وهو: الإنجيل.

﴿وَإِن كُنَّا﴾ (إن) هي المخففة من الثقيلة[1]. وهي هنا مهملة لا عمل لها.

واللام في قوله: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لام الفرق، الفارقة بين (إنْ) المخففة من الثقيلة، و (إِنْ) النافية[2]. وكونهم غافلين عنها لا يفهمونها لأنها ليست بلغتهم، ولا يعرفون معانيها؛ لأنها ليست بلغتهم. يعني: فقد قطعنا هذا العذر، وأنزلنا إليكم كتاباً بلسانكم. أو تقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل التوراة على اليهود، أو كتاب كما أُنزل الإنجيل على النصارى، لعملنا بذلك الكتاب، وكنا أهدى منهم، ولكننا لنا عذر، وهو أنهم أنزل عليهم كتاب، ونحن لم ينزل علينا كتاب. هذا العذر. ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ فكأن الله يقول: إن ادعيتم هذه الدعاوي، واعتللتم بهذه العلل، فقد جاءكم كتاب منزل بلسانكم ولغتكم، تعرفون معناه فسمى القرآن (بيّنة) لأن البيّنة هي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، وسُمي الشهود (بيّنة) لأنهم يبيّنون الحق بشهادتهم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هدى إرشاد للجميع، وهدى توفيق لمن اتبعه. ورحمة يرحم الله به من عمل به من عباده المؤمنين ووفقه لذلك.

ثم إن الله قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهم كفار قريش، بعد أن نزل عليهم الكتاب، وقطع به عذرهم، ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقال: هي سحر، شعر، كهانة، أساطير الأولين.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/٤)، الدر المصون ٢٣٠/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢٥٧/٤)، الدر المصون (٢٣٠/٥ ـ ٢٣١)، الكليات ص٧٨٣.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ صدف تستعمل استعمالين[١]: صدف تستعمل بمعنى: أعرض. تقول: صدفت عن الأمر، أصدف عنه. بمعنى: أعرضت عنه. ومنه قول الشاعر[٢]:

إذا ذكَرْن كلاماً قلنَ أحسنَه وهُنَّ عن كل سوءٍ يُتَّقى صُدُفُ

أي: عن كل سوء معرضات. ومنه قول عبدالله بن رواحة أو غيره[٣]:

عجبتُ للطف الله فينا وقد بدَا له صَدْفُنَا عن كلِّ وحي مُنزّلِ

أي: إعراضنا. وعليه فـ (صَدَفَ) لازمة، بمعنى: أعرض. وتستعمل (صدف) متعدية، تقول: صدف زيدٌ عمراً. أي: صدّه عن طريقه، وجعله معرضاً عنها.

واختلف العلماء في (صدف) هنا، هل هي متعدية محذوفة المفعول؟ وهو قول السُدّي[٤]. وهو الظاهر؛ لأنه يكون جامعاً بين الضلال والإضلال. ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ﴾ أي: كفر هو بنفسه، وصدف الناس. أي: صدّ الناس عن الإيمان بها، فهو جامع بين الضلال والإضلال. وعلى هذا القول لو قلنا: إن (صدف) لازمة، تتكرر مع قوله: ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ﴾ لأن المكذب بآيات الله صادف عنها، فيكون تكراراً. وروي عن ابن عباس أن (صدف) هنا لازمة[٥]. أي: كذب بآياتنا وأعرض عنها. ووجهه: أنه كذب بها بلسانه، وأعرض عنها بجوارحه. كقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [القيامة: آية ٣١] أي: لا صدق بلسانه، ولا صلى بجوارحه.

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٤/١٢) القاموس (مادة: صدف) ١٠٦٨، البحر المحيط (٢٥٨/٤)، أضواء البيان (٢٨٢/٢)، مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) البيت لابن الرقاع، ولفظه في المصادر التي وقفت عليها، ومنها: أضواء البيان: «إذا ذكرن حديثاً». وقد مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٤) انظر: ابن جرير (٢٤٤/١٢)، أضواء البيان (٢٨٢/٢).

(٥) المصدران السابقان.

وقوله: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ سنجازي الذين يصدفون. أي: يصدون الناس ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾. بناءً على أن صدف متعدية. أو سنجزي الذين يعرضون ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ بناءً على أنها لازمة.

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف. أي: سنجزيهم العذاب السيء. وهذا يدل على أنها متعدية؛ لأن ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ عذابٌ مضاعف لضلالهم وإضلالهم، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: كفروا في أنفسهم، وصدوا الناس عن سبيل الله ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: آية ٨٨] أي: لإضلالهم وضلالهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ وفي هذه الآية بعض الأسئلة المعروفة اللغوية:

أحدها: أنه قال: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فأفرد الكتاب، ثم بيّن بقوله ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ أنهما كتابان، كيف يفرد الكتاب، وهما كتابان، التوراة والإنجيل؟ هذا سؤال وارد معروف.

والجواب عنه معروف، وهو أن المفرد إذا كان اسم جنس جاز استعماله مفرداً مراداً به الجمع أو التثنية؛ لأن المراد به الجنس في حالاته الثلاث. ونعني بحالاته الثلاث: أن يكون مُنكَّراً، أو مُعَرَّفاً بالألف واللام، أو مضافاً. ونحو هذا كثير في القرآن[1].

فمن أمثلته معرفاً قوله هنا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وليس بكتابٍ واحد. وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: آية ١١٩] أي: بالكتب كلها. ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: آية ٤٥] أي: الأدبار. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: آية ٧٥] أي: الغرف بدليل: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: آية ٢٠]. وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: والملائكة بدليل قوله: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: آية ٢٢] لأن الملك الواحد لا يكون صفاً صفاً. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [النور: آية ٣١] أي: الأطفال. وهو كثير.

---

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

ومثاله واللفظ مُنكَّر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: آية ٥٤] يعني: وأنهار. بدليل: ﴿فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمد: آية ١٥] ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: آية ٥]. أي: أطفالاً. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا﴾ [المؤمنون: آية ٦٧] أي: سامرين. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ [المائدة: آية ٦] أي: أجناباً أو جنبين. ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: آية ٤] أي: أنفساً. ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: آية ٤] أي: مظاهرون. وهو كثير في القرآن.

ومن أمثلته واللفظ مضاف: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: آية ١٨] أي: نعم الله. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: آية ٦٣] أي: عن أوامره. ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ [الحجر: آية ٦٨] أي: أضيافي. وكان سيبويه (رحمه الله) في كتابه أَلَمَّ بهذا الموضع(١)، وقال: إن إطلاق المفرد إذا كان اسم جنس مراداً به الجمع أنه يوجد في كلام العرب بغير كثرة، بقلة. ونحن نرى باستقراء اللغة العربية أنه كثير. وأنشد له سيبويه في كتابه بيتين: أحدهما قول علقمة بن عَبَدَة التميمي(٢):

بها جيفُ الحَسْرَى فأما عِظَامُها فَبِيْضٌ، وأما جِلْدُها فَصَلِيبُ

أي: وأما جلودها فصليبة.

والثاني قول الآخر(٣):

كُلُوا في بعض بطنكم تَعُفُّوا فإن زَمَانَكم زمنٌ خَمِيصُ

أي: بعض بطونكم. ونحن نراه في كلام العرب وأشعارها بكثرة، فمنه قول عقيل بن علّفة المرّي(٤):

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وكان بنو فزارة شَرَّ عمٍ [أي: أعمام] وكنتُ لهم كشرِّ بني الأخينا

وقول عباس بن مرداس السُلمي(١):

فقلنا أَسْلِمُوا إنّا أخوكُم وقد سَلِمتْ من الإِحَنِ الصدورُ

أي: إخوانكم. وقول جرير(٢):

إذا آباؤنا وأبوكَ عُدُّوا أبانَ المقرفات من العِرَابِ

أي: وآباؤك. وهو كثير في كلام العرب كما بيّنا.

فبهذا يعلم أن إطلاق الكتاب مراداً به جنس الكتاب الصادق بالتوراة والإنجيل واضح لا إشكال فيه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ بيّن أنهم كذبوا في هذه حيث قال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: الآيتان ٤٢، ٤٣] وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قِبَلًا﴾ وفي الأخرى: ﴿قُبُلًا﴾ ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآيات ١٠٩ ـ ١١١]، وبهاتين الآيتين قطع الله حجة كفار قريش.

يقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٨]، هذا استفهام معناه النفي، والمعنى: أن هؤلاء الكفار، والذين يكذبون بآيات الله ويصدفون عنها، يكذبون بها ويصدفون الناس عنها،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

ويحملونهم على الإعراض عنها، ما ينظرون، أي: ما ينتظرون؛ لأن معنى قوله هنا: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون. والعرب تطلق (نظر) بمعنى: انتظر، والدليل عليه هنا أنه بيّنه في آخر الآية فقال: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ونظيره من كلام العرب، من إطلاق (نظر) وإرادة: (انتظر) قول امرىء القيس[١]:

خَليليَّ مُرَّا بي على أم جُنْدَبِ لتُقضى لُبَاناتُ الفُؤادِ المُعذّبِ
فإنَّكما إنْ تنظرَاني ساعةً من الدهرِ تنفعني لدى أم جُندبِ

وقوله: «تنظراني» أي: تنتظراني. يعني: ما ينظر هؤلاء المكذبون إلاّ إحدى الدواهي العِظام الآتية ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جمهور المفسرين على أن المراد بإتيان الملائكة: إتيان الملائكة لقبض أرواحهم[٢]؛ لأن ملك الموت الذي يقبض أرواح الناس له أعوان كثيرة يقبضون الروح. قال بعض العلماء: حتى يبلغوها الحلقوم فيأخذها ملك الموت[٣]. وقد قال جل وعلا: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: آية ٦١] فدل على أنها رسل متعددة أعوان ملك الموت؛ ولذا أسند التوفي لرسل متعددة ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ وأسنده مرة لملك الموت ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: آية ١١] وأسنده مرة لنفسه ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: آية ٤٢] وإسناده لنفسه واضح؛ لأن كل شيء واقع بمشيئته. وإسناده لملك الموت لأنه الملك الموكل بقبض الأرواح. وإسناده لرسل متعددة؛ لأن لملك الموت أعواناً كثيرة من الملائكة يقبضون معه الأرواح. قال بعض العلماء: ينزعونها إلى الحلقوم فيأخذها هو أي: ملك الموت[٤].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) هذه الجملة جزء من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، وسيأتي عند تفسير الآيتين (٨٩ ـ ٩٠) من سورة التوبة.

والمعنى: ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة فتقبض أرواحهم على الشقاء والكفر، فيخلدون في النار تخليداً مؤبداً.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: يأتيهم الله لفصل الخطاب يوم القيامة، فيعذبهم العذاب الأكبر عندما يأتي ليحاسب الناس على أعمالهم، وإتيان الرب هنا هو معنى قوله جل وعلا:(١) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: آية ٢٢] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: آية ٢١٠].

وهذه الآيات ونحوها من الآيات، كمجيء الرب في هذه الآيات، الذي أخبر به عن نفسه، كنزوله إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر يقول: «**هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له**»(٢)، كل هذه من آيات الصفات وأحاديثها أشكلت على آلاف الخلق، وضل فيها ملايين الناس من حذاق النظار، الفحول العلماء؛ لأن التوفيق بيد الله.

ونحن نحرر لكم هذا المقام تحريراً شافياً واضحاً على ضوء نور القرآن العظيم، بحيث يتيقن العاقل أن من مات عليه لقي الله سالماً. اعلموا أيها الإخوان أنا نوصيكم وأنفسنا بهذا الذي نقوله لكم في الخروج من هذا المأزق الأكبر، ومزلة الأقدام التي زلت فيها أقدام الآلاف ممن ينتمي للعلم، في آيات الصفات، فمن مُعَطِّلٍ نافٍ لها، ومن مُشَبِّه مُجَسِّم، ومن مغير لها آت بغيرها. والحق الفصل في هذا: هو أن البيان بالقرآن، والله أوضح هذه المسألة إيضاحاً شافياً لا لبس في الحق معه، ولكن الله يهدي من يشاء. أما الذين يؤولون صفات الله، ويقولون: لها ظاهر غير مراد؛ لأنه

---

(١) ورد ذلك في حديث مرفوع أخرجه الترمذي في التفسير، باب «ومن سورة الرحمٰن»، حديث رقم: (٣٢٩١) (٣٩٩/٥)، والحاكم (٤٧٣/٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. من حديث جابر رضي الله عنه. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) عند البزار (كشف الأستار ٧٤/٣)، وابن جرير (١٢٣/٢٧ - ١٢٤). وانظر: السلسلة الصحيحة رقم: (٢١٥٠)، صحيح الترمذي (١١٢/٣).

ظاهر يُفهم غير اللائق بالله!! فيصرفونها ويأتون بشيء بدل ذلك من عند أنفسهم!! فهم كما قال الشافعي (رحمه الله) ـ لأنهم يقصدون الخير، ولكنهم غلطوا ووقعوا في شرٍ مما فرّوا منه، وقول الشافعي المذكور ـ بيته المشهور(١):

رَامَ نفعاً فضرَّ من غيرِ قَصْدِ ومن البرِ ما يكونُ عقوقاً

والمخرج من هذا المأزق: هو الاعتماد على ثلاثة أصول كلها من كتاب الله، فمن لقي الله معتقداً لها ومات عليها لقي الله سالماً على المحجة البيضاء، التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه: ومن أخل بواحدٍ منها دخل في مهواة وبلايا قد لا يتخلص منها. فأوصيكم بهذه الأصول الثلاثة القرآنية؛ لأنها هي المخرج الإلهي القرآني من هذا المأزق العظيم(٢).

الأول: من هذه الأصول الثلاثة: هو أساس التوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله معرفة على الوجه الصحيح، وهو تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة شيء من خلقه. هذا هو الأصل الأكبر، والحجر الأساسي لمعرفة الله على الوجه الصحيح اللائق. تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة شيء من خلقه في صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم. ومن هم الخلق يا إخوان؟ من هم الخلق؟! أليسوا أثراً من آثار قدرته وإرادته، وصنعة من صنائعه؟ وكيف يخطر في ذهن العاقل أن الصنعة تشبه صانعها؟ لا، وكلا!! فمن رزقه الله علم هذا الأساس، وهذا الأصل الأكبر، وأساس العقيدة الصحيحة الذي هو تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يشبه شيئاً من خلقه في شيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم فقد رزقه الله أساس التوحيد، وحجره الأساسي. وهذا إذا امتلأ منه قلب المؤمن، وعرف أن صفة الله عندما تُسند إلى خالق السماوات والأرض تمتلىء القلوب من الإجلال والإعظام والإكبار، وتنزيه صفة الله عن أن تشبه شيئاً من صفات خلقه. هذا هو الأصل الأول وهو في ضوء قوله ﴿لَيْسَ

---

(١) جاء في وفد نصيبين من الجن عدة أحاديث، منها:

١ ـ حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في مناقب الأنصار، باب ذكر

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: آية ٦٥] أي: مسامياً يساميه في المكانة والقوة والفضل. إذا استحكم هذا الأساس في قلب العبد، وكان قلبه طاهراً من أقذار تنجيس التشبيه منزهاً لله، عالماً أن وصف الله أجل وأعظم وأكبر وأنزه من أن يشبه صفة المخلوق/ فإذا استحكم هذا الأصل في قلبه. ٢٤/أ

فالأصل الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، إيماناً مبنياً على أساس هذا التنزيه؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله، الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] فهذا الذي قلت لكم في هذين الأصلين ـ أن **الأول**: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق. **والثاني**: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به نبيه إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه ـ ما قلته لكم من تلقاء نفسي، ولا رواية عن زيد ولا عمرو، بل في ضوء نور المحكم المنزل، الذي هو آخر الكتب السماوية عهداً بالله، وهذا تعليم رب العالمين، وذلك الإيضاح السماوي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١]، فاعلموا أيها الإخوان أن الإتيان بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه سرٌ أعظم، ومغزىً أكبر، وتعليم سماوي، لا يترك في الحق لبساً؛ لأن السمع والبصر صفتان هما أشد الصفات توغلًا في التشبيه، فجميع الحيوانات تسمع وتبصر؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: لا تتنطع يا عبدي، وتشبِّه صفتي بصفة مخلوقي، وتنفي عني سمعي وبصري، بدعوى أنك إن أثبت لي السمع والبصر شبهتني بالحمير والآدميين وغيرهم من الحيوانات التي تبصر!!

لا يا عبدي، أثبت لي سمعي وبصري، ولكن لاحظ في ذلك الإثبات قولي قبله متصلًا به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] فإثبات السمع والبصر على أساس نفي المماثلة.

فأول الآية الكريمة فيه النفي التام للتشبيه والتمثيل، وآخرها فيه الإيمان بالصفات من غير تكييف ولا تعطيل على أساس التنزيه عن التشبيه والتمثيل.

فعلينا أن نعمل بأول الآية. فننزه ربنا، وذلك هو الأساس، فإذا نزهناه عن مشابهة خلقه وحملنا أوصافه في القرآن والسنة على الأوجه الكريمة اللائقة. كان من السهل علينا أن نؤمن بالصفات؛ لأننا نؤمن بها على أساس التنزيه عن مشابهة الخلق.

فالأصل الأول: وهو أساس التوحيد: تنزيه الله عن مشابهة شيء من خلقه بشيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم.

والأصل الثاني: عدم جحد شيء مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، بل يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه، على غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١].

الأصل الثالث: هو أن نعلم أن العقول مخلوقة واقفة عند حدّها، لا تحيط علماً بخالقها، فهي عاجزة عن إدراك كيفية الاتصاف بالصفات، والله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: آية ١١٠].

فمعلوم أن المتكلمين الذين نفوا كثيراً من صفات الله بالأدلة العقلية المفرغة في قوالب أقيسة منطقية قسموا الصفات قسمة سداسية، قالوا: منها صفة نفسية، ومنها صفة معنى، ومنها صفة معنوية، ومنها صفة فعل، ومنها صفة جامعة، كتقسيمهم المعروف[1].

ونحن نبيِّن لكم أن كل هذه الصفات جاءت الآيات القرآنية بوصف الخالق بها، وبوصف المخلوق بها، والكل من ذلك حق، فالخالق حق، وصفاته حق، والمخلوق حق، وصفاته حق. ولكن صفة المخلوق ملائمة

الجن، حديث رقم: (٣٨٦٠)، (١٧١/٧).

لذات المخلوق، وصفة الخالق لائقة بذات الخالق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، لا مناسبة ألبتة بين الذات والذات، ولا بين الصفة والصفة.

هذه صفات المعاني السبعة، الذي يقر بها من ينكر أكثر الصفات الوجودية غيرها، وهي عندهم: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. جاءت في القرآن.

هذا السمع والبصر يقول الله فيه عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: آية ٧٥] في وَصْف نفسه وَصَف نفسه بأنه سميعٌ بصير، ووَصَف بعض خلقه أيضاً بالسمع والبصر، قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: آية ٣٨] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: آية ٢] ولا شك أن لله سمعاً وبصراً حقيقيين لائقين بكماله وجلاله، وللمخلوق سمع وبصر حقيقيان مناسبان لعجزه وفنائه وافتقاره، وبين سمع الخالق وبصره، وسمع المخلوق وبصره من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وقال (جل وعلا) في وصف نفسه بالحياة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: آية ٥٨]، ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: آية ٦٥].

ووصف بعض خلقه بالحياة، قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: آية ١٥]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: آية ٣٠]، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: آية ٣١].

فنحن نقطع أن لله حياة عظيمة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوقين حياة مناسبة لحالهم، وعجزهم، وفنائهم، وافتقارهم، وبين الصفة والصفة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بالعلم، قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢]، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٦٦]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: آية ٧].

ووصف بعض خلقه بالعلم، قال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:

آيــة ٢٨]، ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يــوســف: آيــة ٦٨]، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: آية ١٢].

ولا شك أن لله علماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوق علماً مناسباً لعجزه وفنائه وافتقاره، فصفة الله حق، وصفة المخلوق حق، وكل بحسبه. فصفة الله لائقة بذاته، وصفة المخلوق مناسبة لذاته، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

ووصف نفسه بالإرادة فقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: آية ١٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٨].

ووصف بعض خلقه بالإرادة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: آية ٦٧]، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: آية ١٣].

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوق إرادة حقيقية مناسبة لحاله وعجزه وافتقاره وفنائه، فبين الإرادة والإرادة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بأنه متكلم: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: آية ١٦٤]، ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعــراف: آيــة ١٤٤]، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٦].

ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: آية ٥٤]، وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: آية ٦٥].

ولا شك أن لله كلاماً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوقين كلام مناسب لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق والمخلوق من المنافاة كما بين ذات الخالق والمخلوق.

هذه صفات المعاني السبع الذي أقرّ بها من جحد كثيراً من الصفات. كذلك الصفات التي يسمونها السلبية، والصفة السلبية في اصطلاح المتكلمين: هي التي لا تدل بدلالة المطابقة على معنى وجودي، وإنما تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله. وهي عند المتكلمين خمس صفات:

وهي البقاء، والقدم، والغنى المطلق، الذي يُسمونه: القيام بالنفس، يعنون به الاستغناء عن المحل والمُخَصِّص. والمخالفة للخلق، والوحدانية[١].

أما القِدَم والبقاء: فالمتكلمون أثبتوهما لله، وقد قال بعض العلماء: إنه ورد بمثل ذلك حديث، وبعضهم ينفي صحته. والمتكلمون يقصدون بهما معنىً صحيحاً؛ لأن القِدَم عندهم: هو سلب العدم السابق. والبقاء: هو سلب العدم اللاحق. زاعمين أن الله أثبتهما لنفسه بقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: آية ٣] أي: الأولية الذي لا ابتداء لأوليته، والآخر الذي لا انتهاء لآخريته. قالوا: هذا معنى القدم والبقاء.

فنقول: القِدم وصف الله به المخلوقين قال: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: آية ٣٩]، ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥]، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: آية ٧٦]، والبقاء وَصَف به الحادث حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: آية ٧٧]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: آية ٩٦].

والوحدانية وصف بها نفسه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [البقرة: آية ١٦٣].

ووصف بعض المخلوقين بها قال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: آية ٤].

والغنى وصف به نفسه: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦].

وقال في بعض المخلوقين: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ﴾ [النساء: آية ٦]، ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النور: آية ٣٢].

ولا شك أن ما وُصف به الله من هذه الصفات مخالف لما وُصف به المخلوق كمخالفة ذات الله لذات المخلوق، فلا مناسبة بين الذات والذات،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من هذه السورة.

ولا بين الصفة والصفة، فالله حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، إلا أن صفة كلٍ بحسبه، فصفة الله بالغة من الكمال والتنزيه ما تتعاظم أن تشبهه صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق تتعاظم أن تشبه ذوات المخلوقين.

وهذه الصفات الجامعة(١) كالعلو، والكِبَر، والعظم، والملك، والجبروت، كل هذا جاء في القرآن العظيم وَصْف الخالق والمخلوق به، فقد وصف تعالى نفسه بالعلو، والكِبَر، والعظم، قال في وصف نفسه بالعلو والعظم: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥].

وقال في وصف نفسه بالعلو والكِبَر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: آية ٣٤]، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: آية ٩].

ووصف المخلوقين بالعظم، والكِبَر، والعلو، فقال في وصف المخلوق بالعظم: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣]، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: آية ٤٠] ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: آية ٢٣]، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: آية ١٢٩].

وقال في وصف المخلوق بالكِبَر: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٣١] ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: آية ١١]، ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: آية ٦٣].

وقال في وصف المخلوق بالعلو: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: آية ٥٠]، ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: آية ٥٧].

وقال في وصف نفسه بالملك: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: آية ١]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: آية ٢٣].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من هذه السورة.

ووصف بعض خلقه بالملك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: آية ٥٠]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ [يوسف: آية ٤٣]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبٗا﴾ [الكهف: آية ٧٩]، ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ٢٦].

ولا شك أن ما وُصف الله به من العلو، والكِبر، والعظم، والملك مخالف لما وُصف به الخلق من العظم، والكِبر، والعلو، والملك، فصفة المخلوق لائقة بعجزه وفنائه وافتقاره، وصفة الخالق لائقة بجلاله وكماله. فصفة كلٍ بحسبه.

ووصف نفسه بأنه متكبر جبار، قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى أن قال: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: آية ٢٣].

ووصف بعض خلقه بالجبار والتكبر كما قال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوٗى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: آية ٦٠] ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ [الشعراء: آية ١٣٠] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: آية ٣٥].

ووصف نفسه بأنه يغفر، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٧٣]، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ١٢٩]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: آية ٦].

ووصف بعض خلقه بالمغفرة، قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: آية ٤٣]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: آية ١٤]، ﴿قَوْلٞ مَّعْرُوفٞ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتْبَعُهَآ أَذٗى﴾ [البقرة: آية ٢٦٣].

ووصف نفسه بأنه حليم، قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [الحج: آية ٥٩].

ووصف بعض خلقه بأنه حليم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: آية ١١٤]، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصافات: آية ١٠١].

ووصف نفسه (جل وعلا) بالعزة، قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: آية ١].

ووصف بعض خلقه بالعزة قال: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: آية ٥١]، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: آية ٢٣].

ووصف نفسه بالقوة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٨].

ووصف بعض خلقه بالقوة، وجمع المثالين قوله: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: آية ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: آية ٥٤]، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: آية ٥٢].

ووصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: آية ٧].

ووصف بعض خلقه ـ وهو سيد الخلق ﷺ ـ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ١٢٨].

وإذا نظرنا إلى صفات الأفعال فنجده (جل وعلا) يصف نفسه بالفعل، ويصف عباده بالفعل، وجميع ما وصف الله به نفسه لائق بكماله وجلاله، وجميع ما وصف به خلقه مناسب لحال خلقه وفقرهم وعجزهم وفنائهم، وبين الصفة والصفة من المنافاة كما بين الذات والذات.

فمن صفات الأفعال: أن الله وصف نفسه بأنه يفعل رَزْق عباده، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٨]، وقال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: آية ٣٩]، ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: آية ١١].

ووصف بعض خلقه بأنه يفعل الرَّزْق أيضاً، قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾[النساء: آية ٨]، وقال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: آية ٢٣٣].

ورزق الله لخلقه ليس كرزق الناس بعضهم لبعض، فبين الفعل والفعل من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات.

ووصف نفسه بأنه يعمل، قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: آية ٧١].

ووصف نفسه بالفعل، الذي هو العمل.

ووصف خلقه بالعمل، قال: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: آية ١٧].

ووصف نفسه بأنه يُعلِّم خلقه: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: الآيات ١ ـ ٤]، ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: آية ٦٥].

ووصف خلقه بأنهم مُعلِّمون، كقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: آية ١٢٩]، وجمع المثالين قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: آية ٤].

ووصف نفسه بأن يُنبىء، ووصف بعض خلقه بأنه يُنبىء، قال: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: آية ٣].

وأمثال هذا في القرآن لا تكاد تحصىٰ، وقصدنا أن نُمثِّل بجميع الصفات أن الله وصف بها نفسه، ووصف بها خلقه، وأن لله صفات حق، وللمخلوقين صفات حق، وصفة الخالق لائقة بجلاله وكماله، وصفة المخلوق مناسبة لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره.

وكذلك وصف نفسه بالاستواء على العرش بسبع آيات من كتابه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: آية ٥٤]، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: آية ٥].

ووصف بعض خلقه بالاستواء على مخلوق كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: آية ١٣]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: آية ٤٤].

واستواء الخالق ليس كاستواء المخلوق، فبينهما من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. وهكذا في جميع صفات الله، إذا وصف نفسه بإتيان أو مجيء فإتيانه أو مجيئه لائق بكماله وجلاله، كسمعه وبصره، وقدرته وإرادته، منزه عن مشابهة إتيان الحوادث ومجيئهم، فكل ما يخطر في المعاني من إتيان الخلائق ومجيئهم، فصفة الخالق (جل وعلا) منزهة عنه كسائر صفاته.

فعلينا أولًا أن ننزه الله، ثم نثبت له ما أثبت لنفسه على أساس التنزيه، ثم نقطع طمعنا عن إدراك الكيفية.

ونحن نقول لكم: إن هذه الأيام والليالي سائرة بنا بسرعة إلى القبور، ثم إلى عرصات القيامة، فعن قريب ونحن أمام الله في عرصات القيامة، والله يقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: آية ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] ومما يوشك أن يسألنا عنه: ماذا كنتم تقولون في صفاتي التي مدحت بها نفسي؟؟ هل كنتم تنفونها وتكذبونني وتدّعون علي أني أمدح نفسي بشيء لا يليق؟ أو كنتم تنزهونني وتثبتون لي صفاتي، وتعلمون أني لا أمدح نفسي إلا بوصف كمال وجلال، وأن صفتي لا تشابه صفة خلقي؟

فهذه الأسس الثلاثة من مات عليها مات على دين محقق، وعقيدة سلفية صحيحة. وأنا أضمن له أنه لا تأتيه بليّة من واحدة من هذه الأصول الثلاث، ولا يأتيه من قِبلها لوم، ولا توبيخ، ولا عذاب بهذه الأسس الثلاث، فلا يقول الله له: لِمَ تنزهني عن مشابهة خلقي في صفاتهم، وأفعالهم، وذواتهم؟ لا، وكلا، هذه طريق سلامة محققة.

ولا يقول له ربه: لِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتصدق نبيي فيما أثنىٰ علي به تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه؟ لا، وكلا، هذه طريق سلامة محققة.

ولا يقول له: لِمَ لا تدعي أن عقلك محيط بي؟ فلا يقول له ذلك أبداً، فكل هذه الأسس الثلاث طريق سلامة محققة في ضوء القرآن، وكل البلايا وكل الشر من أن يسبق في الذهن تفسير الصفة بما لا يليق، فإذا سبق في الذهن تفسير الصفة بتفسير قذر نجس فيه تشبيه اضطر الإنسان المسكين إلى أن ينفيها. فإذا وضعتم مثلًا مقارنة بين مذهب السلف الذي كان عليه السلف الصالح، من الإيمان بالصفات إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، والتصديق بها، كما قال الإمام مالك لما قال له الرجل: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟؟؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وأمر أن يُخرج عنه[1].

فالسلف الصالح رضي الله عنهم من القرون المشهود لهم بالخير، قبل أن يظهر في الوجود الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، ما كان في الدنيا ولا في العلماء أحد ينفي شيئاً من صفات الله، ولا يفسرها بمعنى غير لائق، بل جميع الأمة إذا سمعوا الوصف مسنداً إلى الله امتلأت قلوبهم من الإجلال والإعظام، وعلموا أن ذلك الوصف لا يُشبه شيئاً من صفات المخلوقين، وأنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهان عليهم الإيمان به؛ لأن إثبات الأوصاف الكريمة لله هين على كل مسلم.

أما إذا فسر الصفة بتفسير خبيث يرمي إلى التشبيه، ويُدَّعى أن ظاهره التشبيه، فمن هنا تأتي البلايا، وتأتي الويلات، ويقع الإنسان في مشاكل؛ لأنه إذا تنجس القلب بقذر التشبيه اضطر إلى أن ينفي الصفة. ونضع ـ مثلًا ـ مقارنة: الله تعالى ـ مثلًا ـ قال: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥]، وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: آية ١٥٨]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: آية ٢٨٤]، فالسلفي يقول: هذه القدرة منزهة عن قُدر

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

المخلوقين وشبهها، وهذا الاستواء منزه عن استواء المخلوقين، لا يشبهه في شيء من المشابهة، وهذا الإتيان إتيان لائق بكمال الله وجلاله، منزه عن كل ما يخطر في العقول من إتيان البشر. فإذا كان قلبه ممتلئاً من الإعظام والإجلال، وحمل هذه المعاني على المعاني اللائقة الكريمة الجليلة اللائقة بالله، المنزهة عن كل ما لا يليق، كان أولاً: مُنَزِّهاً، وكان ثانياً: مؤمناً غير جاحد ولا معطل.

مثلًا كان السلف الصالح إذا سمعوا ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥]، يقول: هذا الاستواء بالغ من غايات الكمال والجلال والعظمة واللياقة بالله ما يقطع جميع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، ومن هم المخلوقون حتى يُشبه استواء الله باستوائهم؟ وهم أثر من آثار قدرته، وصنعة من صنعته، والصنعة لا تشبه صانعها!! فإذا حملوا الاستواء على المعنى العظيم اللائق بجلال الله، المُنزه عن كل استواء للمخلوقين يخطر في ذهن الإنسان، كان الإيمان بذلك الاستواء سهلاً عليهم؛ لأنهم يحملونه على معنى شريف كريم، لائق بجلال الله. وإذا سُئل أدنى الناس عقلاً، سُئل مُطْلَقُ عاقلٍ، وقيل له: يا إنسان، إذا وصف الله نفسه بوصف يمدح به نفسه فما الظاهر المتبادر من ذلك الوصف؟ أظاهره المتبادر منه أنه في غاية الكمال والجلال والتنزيه والليافة بالله حتى نقرّه على ظاهره الكريم إيماناً وتنزيهاً؟ أو ظاهره أنه يشبه صفات الخلق، وأنه قذر نجس حتى نحتاج إلى أن ننفيه بالتأويلات، ونثبت شيئاً بدله؟! فلا شك أن أطرف مؤمن يقول: كل وصف أُسند لله فهو بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

والأعراب البدو في زمن النبيِّ ﷺ كانوا إذا سمعوا صفة من هذه الصفات، كالاستواء والنزول، وكصفة اليد ونحوها لا يخطر في أذهانهم صفة المخلوق؛ لأنهم يعرفون أن مخالفة الرازق للمرزوق، ومخالفة الخالق للمخلوق، ومخالفة المُحيي للمحيَا، ومخالفة المُميت للمُمات تجعل بين صفاتهم مخالفات هائلة لا يعلمها إلا الله. فلا يفهمون من صفة هذا أنها

تميل إلى شيء من صفة ذلك، إذ لا مناسبة بين الخلق وخالقه، وهم أثر من آثار قدرته وإرادته.

إذاً فنعرف أن مذهب السلف هو المذهب الصحيح؛ لأن صاحبه أولًا: كان قلبه ممتلئاً من تعظيم الله، وإجلال الله، سالماً من أقذار التشبيه، يحمل استواء الله، ونزول الله، وإتيان الله على أكمل المعاني وأجملها وأليقها وأنزهها عن مشابهة المخلوقين، ثم إنه يؤمن بها على أساس هذا التنزيه، على غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١]، ويكون أولاً: منزهاً. وثانياً: مؤمناً مصدقاً، ثم يقطع طمعه عن إدراك الكيفية؛ لأن الله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠].

فلو تنطع متنطع وقال: نحن لا نعقل نزولًا، ولا مجيئاً، ولا استواء، ولا قدرة إلا يشابه صفات المخلوقين، فبينوا لنا كيفية منزهة لنعقلها!! فنقول: فلا نقول كما قال مالك[1]: السؤال عن هذا بدعة، بل نتنزل معه ونقول له: يا مسكين، أعرفت كيفية الذات الكريمة المقدسة، المتصفة بهذه الصفات؟! فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف متوقفة على معرفة كيفية الذات!! فسبحان من تعاظم وتكبر وتنزه عن كل ما لا يليق، وعن كل مشابهة الحوادث من جميع وجوهها، وهو (جل وعلا) متصف بصفات الكمال والجلال.

أما الذي يسمونه مذهب الخلف مثلًا ـ ويزعم كثير أنه أعلم وأحكم ـ فإنه إذا خطر في قلب الواحد: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥] قال: هذا الاستواء ظاهره تشبيه الخلق، كاستوائي على هذا السرير. فيكون أولاً: قد ظلم نصوص القرآن، وحملها على محامل غير شريفة، وغير لائقة بالله؛ لأن كون النص ظاهره التشبيه فهذا معنىً بالنسبة إلى الله معنىً قذر نجس وسخ؛ لأن خالق السماوات والأرض

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

لا يشبه شيئاً من خلقه. فكان هذا أول الضرر، وأول السوء. وهو الفهم من النصوص أنها تدل على معاني غير لائقة، ثم إذا تقرر في ذهنه أن ظاهر هذا النص أنه كاستواء المخلوق، اضطر المسكين إلى أن ينفيه؛ لأنه لا أحد يقول: (لا إله إلا الله) يرضىٰ أن يثبت لله وصف غير لائق، فينفي الاستواء من نفسه. فيكون الوصف الذي مدح الله به نفسه قد ظلم هذا الإنسانُ القرآنَ، وجعل أن ظاهره قذر وسخ نجس، وهو مشابهة المخلوقين. ثم يجرّه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي الاستواء. ويقول: الاستواء ممنوع، ولا يمكن أن يكون؛ لأن فيه نقصاً لله، ومشابهة للمخلوقين!! فيكون قد ظلم أولاً القرآن، وحمل ما مدح الله به نفسه على الذم. وهذا لا يليق بالله، بل الاستواء الذي مدح الله به نفسه في غاية الكمال والجلال، والبعد عن مشابهة المخلوقين، والنزاهة الكاملة عن أي تشبيه كائناً ما كان. ثم إنه إذا نفى الاستواء يريد أن يأتي ببدل من تلقاء نفسه، فيقول: معناه: (استولى). فنقول له: يا مسكين، أولاً: ظلمت الوحي، وادعيت على نصوص الوحي أن ظاهرها التشبيه. والله يعلم أنها بريئة من ذلك، بل ظاهرها التنزيه، ثم نفيتها من تلقاء نفسك بلا دليل من كتاب وسنة، ثم جئت بمعنى من عند نفسك وهو (استولى)، فنقول لك يا مسكين: قد شبهت الله باستيلاء خلقه؛ لأنك إذا وصفته بالاستيلاء فقد شبهته باستيلاء العرفجي على حماره، وباستيلاء الأمير على جيشه، وباستيلاء بِشْرٍ على العراق، الذي أنشدوا له البيت[1]:

قد استوى بشرٌ على العراقِ ... من غيرِ سيفٍ ودمٍ مُهراقِ

فنقول: قد مَاثَلْتَ استواء الله باستواء بِشْر!! فرجعت إلى التمثيل!! فإذا قال: استواء الله منزه عن استواء بِشْر. فنقول: كذلك يا مسكين كان ينبغي أن تقوله في الأول، وتعلم أن نفس الاستواء الذي مدح الله به نفسه

---

(١) البيت في اللسان (مادة: (سوى) ٢/٢٤٨).

أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعرف الحق، ونعرف من ضوء القرآن عقيدة السلف، ونعلم أن الله لا يمدح نفسه إلا بوصف كريم، وأن الاستواء الذي مدح به نفسه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهو في غاية النزاهة والكمال، وعدم المشابهة، فنقرّه على ظاهره من الكمال واللياقة بالله، ونعلم أن وصف الله لا يمكن أن يُشبه وصف مخلوق، وأن الله لا يمدح نفسه بوصف فيه تشبيه، ولا فيه محذور، ولا يلزم منه مشابهة مخلوق، بل هو استواء لائق بالله، كقدرته وإرادته وعلمه وسمعه وبصره، مخالف لاستواء المخلوقين كمخالفة ذات الله لذوات المخلوقين، فنكون أولًا عدلنا وأقسطنا مع النصوص، فحملناها على معانيها الكريمة الشريفة اللائقة بالله، وآمنا بذلك التنزيه.

أما هؤلاء الذين يقولون: ظاهر الاستواء أنه كاستواء المخلوقين. فقد ابتدؤا أولًا بظلم النصوص، وحملوها على معاني خبيثة غير لائقة، لا يمدح الله بها نفسه، ثم جرهم هذا التشبيه إلى أن نفوها وجاؤوا ببدلها.

وهذا الذي جاؤوا به فيه من التشبيه أكثر مما فرّوا منه أولًا، فالذي يقول: الاستواء ظاهره كاستواء المخلوق ثم ينفيه بهذا الظاهر المحذوف، ويؤوله بالاستيلاء، وأن معناه (استولى).

فنقول له: رجعت النتيجة في حافرتها، أن استواء بِشْر معناه: استيلاء بِشْر على العراق. فنقول: قد شبهت استيلاء الله على عرشه باستيلاء بِشْر على العراق، والاستيلاء كذلك صفة من صفات الخلق، فالعرفجي يستولي على حماره، والأمير يستولي على الجيش، والمالك يستولي على دابته، فالاستيلاء الذي فسرت به الاستواء هو أوغل في التشبيه من الاستواء.

فإذا قال: هذا الاستيلاء الذي فسرت به الاستواء استيلاء منزه عن

استيلاء المخلوقين. قلنا له: كان من حقك أن تقول هذا من أول، قبل أن تقع فيما وقعت فيه، وتقول: استواء الله منزه عن مشابهة استواء المخلوقين.

فعلينا جميعاً أن نعلم أن الاعتقاد الذي كان عليه السلف الصالح قبل ظهور الجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، هو على هذه الأسس الثلاث:
أولها: وهو الحجر الأساسي العظيم: تنزيه خالق السماوات والأرض عن أن يُشبه شيئاً من خلقه بشيء من ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم، وحمل معاني القرآن والسنة على المعاني الشريفة اللائقة بالله كل اللياقة، المناسبة لعظمته وجلاله وكبريائه، ثم نؤمن بها إيماناً مبنياً على أساس التنزيه. وكل هذا التعليم حصره الله لنا في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فإنا لا نعلم في الدنيا سمعاً ولا بصراً إلا هما حادثان خسيسان، يموت صاحبهما ويأكلهما الدود!! فإذا كنا نذهب بكل شيء فلقائل أن يقول: السمع والبصر ظاهره التشبيه بسمع الحمار وبصره، وسمع الإنسان وبصره، فَلْنَنْفِه ونثبت غيره، ولا فرق بين الصفات.

والحاصل أن الله حق، وصفاته حق، وأن المخلوقين حق، وصفاتهم حق، وأن صفة الخالق لائقة بذات الخالق، وصفة المخلوق مناسبة لذات المخلوق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. فنحن نثبت الصفات لله مصدقين ربنا، ومصدقين نبينا [ﷺ فيما أخبر به، مراعين في ذلك الإثبات ما بيّنه الله (تعالى) في كتابه، ذلك البيان الأوضح][1] والتعليم الأكبر، والمغزى الأعظم حيث جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] فإن ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ السمع والبصر صفتان هما أشد الصفات توغلًا في التشبيه بالمخلوقات، فالله مدح بهما نفسه بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني: أَثبِتْ لي صفاتي، وما مدحت به نفسي، ولكن راع في ذلك الإثبات قولي قبله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ واعلم أنه إثبات منزه لا

---

(١) في هذا الموضع وقع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

يُشابه إثبات المخلوقين، فلا يذهب قلبك إلى صفات المخلوقين.

فأساس الخير كله في هذا المقام هو أن يكون القلب أولًا مستولياً عليه تعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، فهذا أساس الخير، وهو معنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فمن رزقه الله هذا العلم بمدلول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعرف قداسة الله وعظمته، وعظمة أسمائه وصفاته، ونزاهتها عن مشابهة المخلوق، حمل ما مدح الله به نفسه على أكمل الوجوه، وأتمها وأشرفها، وأبعدها مشابهة للخلق، وآمن بها على أساس ذلك التنزيه. أما الذي يزيغ به الشيطان إلى أن يحمل النصوص على أنها يُراد بها ـ ظاهرها ـ صفات المخلوقين، فمن أين للمخلوقين أن يُشبهوا صفات خالقهم؟ وأين تُذكر صفة المخلوق عند صفة الخالق، وهو أثر من آثار قدرته وإرادته وصنعة من صنائعه؟

وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أن الواحد منا إذا مات على هذه الأسس الثلاثة:

أولاً: اعتقاده تعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه.

والثاني: الإيمان، وتصديق الله بما مدح به نفسه، أو مدحه به رسوله، إيماناً وتصديقاً مبنياً على أساس التنزيه عن مشابهة الخلق، على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقطع الطمع عن إدراك الكيفيات، أنه يلقى الله سالماً من هذه الورطات والبلايا. أما الذي يدّعي على الله أنه مدح نفسه بالاستواء في قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥] أن ظاهر هذا القرآن المتبادر منه التشبيه، وقذر ونجاسة لا تليق بالله، ثم يتجرأ فينفيه، ثم يأتي بـ (استولى) فإن هذا لا يليق بكمال الله. والذين فعلوا هذا هم في الحقيقة أكثرهم مقصدهم حسن، لا يقصدون إلا تنزيه الله، إلا أنهم غلطوا أولاً في تفسير معاني الكتاب والسنة، وحملوا مداليل الآيات والأحاديث على أن ظاهرها التشبيه، فاضطروا إلى أن ينفوا، ولو فهموا منها أولاً معانيها الصحيحة الكريمة اللائقة المنزهة لما وقعوا في شيء من

هذه المحاذير. فهم كما قال الشافعي رحمه الله[١]:

رامَ نفعاً فضرّ من غير قَصْدِ ومن البرّ ما يكونُ عقوقاً

وطريق الحق واضحة لا شك فيها:

والحقُّ أبلجُ لا تزيغُ سبيلُه والحقُّ يعرفُه أولُو الألبابِ[٢]

لأن من نزه الله كل التنزيه عن مشابهة الخلق، ثم صدّقه فيما وصف به نفسه تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه، ووقف عند حدّه، فعرف أن عقله لا يدرك كُنه الكيفيات، فهو مؤمن ماشٍ في ضوء القرآن، لم يتكلف شيئاً، لم يحمل معنىً من معاني نصوص الكتاب والسنة محملًا خبيثاً، ولم ينف عن الله شيئاً أثبته لنفسه، ولم يأتِ من نفسه ببدل، مع أن مَنْ أَوَّلَ لا بد أن يرجع إلى ما هو أوغل في التشبيه. فالذين فسروا الاستواء بالاستيلاء، وقالوا: الاستواء ظاهره كاستواء المخلوقين، فيجب صرفه عن ظاهره، ويقال فيه: «استولى» فقد وقعوا في ثلاثة محاذير:

الأول: أنهم قالوا على الله: إن ظاهر ما مدح به نفسه أنه غير لائق. وهذا افتراء على الله، وعلى كتابه، وعلى نبيِّه؛ لأن الله لا يصف نفسه إلا بأكرم المعاني وأشرفها وأنزهها وأجلها، فما هنالك إلا المعنى الشريف اللائق بكمال الله، المنزه عن مشابهة المخلوقين.

المحذور الثاني: أنه اضطروا أن ينفوا ما وصف الله به نفسه فنفوا الاستواء، والله يثبته في سبع آيات من كتابه. ثم جاؤوا بدله بالاستيلاء!! قالوا: معنى استوىٰ: استولى. فنقول: التشبيه الذي فررتم منه في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ جئتم بأضعافه في قولكم: «استولى» لأن (استولى) أوغل في التشبيه. فالعرفجي يستولي على حماره، والمالك يستولي على ملكه،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من هذه السورة.

(٢) البيت في اللسان (مادة: خيل) (٩٣٢/١). ولفظه:

والصدق أبلج لا يُخيل سبيله والصدق يعرفه ذوو الألباب

والرجل يستولي على امرأته، وبِشْر يستولي على العراق. وهذه الاستيلاءات خسيسة، قد شبهتم بها صفة الله. فإن اضطُر في الآخر أن يقول: هذا الاستيلاء منزه عن استيلاء المخلوقين. قلنا له: الاستواء الذي وصف الله به نفسه لائق كريم جليل منزه عن أن يُشبه شيئاً من استواء المخلوقين.

هذه هي طريقة السلف، وهذا العلم القرآني هو المنجي من هذا المأزق الذي ضلت فيه أقدام الآلاف من فحول الرجال. فعلى المسلم أن يستضيء بضوء القرآن، وأن يتنبه لكتاب الله؛ لأن فيه حلّ كل معضلة، والمخرج من كل ويلة وبليّة. والله علمنا أولًا أن ننزهه عن كل ما لا يليق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وأن نثبت له صفاته، وإن كانت المخلوقات يتصفون باسمها؛ ولذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ونعرف قدر عقولنا أنها لا تحيط بكيفيات صفات خالق الكون، كما نصّ عليه في طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] فوالله لو مات الواحد منا وحُشر، وجاءه السؤال يوم القيامة، لا تأتيه بليّة، ولا لوم، ولا توبيخ، ولا عذاب من واحد من هذه الأسس الثلاثة. والله لا يلومه الله ويقول له: لِمَ تنزهني يا عبدي عن صفات خلقي؟؟ ولِمَ تحمل المعاني التي مدحت بها نفسي على المعاني الشريفة الجليلة الكريمة؟؟ لا والله أبداً. فهذه طريق سلامة محققة. ولا يقول له الله موبخاً له: لِمَ تصدقني فيما أثنيت به على نفسي، وتثبت لي ما أثبته لنفسي على أساس التنزيه؟!! لا والله. فهذه طريقة محققة السلامة. ولا يقول له الله: لِمَ لا تدّعي أن عقلك المسكين المخلوق محيط بإدراك كيفيات صفاتي؟؟ لا والله ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

فعلينا معاشر المسلمين أن نأخذ قلوبنا أولًا بتعظيم الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه، فإذا استولى التنزيه والتعظيم والإجلال على القلوب كان سهلًا عليها أن تؤمن بصفات الله إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ثم تقطع الطمع عن إدراك الكيفية، فتسلم من جميع الورطات، فتكون ما حملت معنى القرآن إلا على المعنى الكريم اللائق، ولا نفيتَ شيئاً أثبته الله، ولا جئتَ بشيء من تلقاء نفسك. هذا المذهب الذي كان عليه السلف الصالح، ودرج

عليه عامة المسلمين. ومن نظر في كتب فقهاء الأمصار، كالأئمة رحمهم الله، وأمثالهم من فقهاء الأمصار، كالسفيانين، والليث، ووكيع، وما جرى مجراهم، يجدهم كلهم على هذه العقيدة، ينزهون الله عن مشابهة خلقه، ويؤمنون بما وصف الله به نفسه إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، ولا يشبهونه بخلقه، ولا ينفون شيئاً أثبته (جل وعلا) لنفسه.

هذا هو الذي ينبغي أن يُعتقد في صفات الله، أولًا: تنزيه، ثم إيمان مبني على أساس التنزيه، ثم قطع الطمع عن إدراك الكيفيات ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠] هذا الذي نعتقده ونوصي إخواننا به؛ لأنه طريق سلامة محققة؛ لأنه سالم من تشبيه الله بخلقه، وسالم من نفي صفات الله، وتكذيب الله فيما أثبته لنفسه، وسالم من كل سوء. طريق سلامة محققة.

ولم يبقَ إلا لو قال القائل: هذه الصفات التي تزعمون أنها منزهة ما فهمنا كيفيتها، فما نفهم كيفية إتيان منزه عن إتيان المخلوقين، ولا كيفية مجيء منزه عن مجيء المخلوقين، ولا كيفية استواء منزه عن
استواء المخلوقين، فبينوا لنا الكيفية. فنقول له:/ يا مسكين أعرفت كيفية ٢٤/ب
الذات المقدسة التي اتصفت بهذه الصفات؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف بهذه الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات. والله يجيء كما قال على الوجه اللائق بكماله وجلاله، على أشرف الوجوه وأليقها. وأتمها كما قال، مع أن جميع الكائنات بيده (جل وعلا) أصغر من حبة خردل. فنحن نُقر بما جاء عن الله، ونؤمن بما قال الله، وننزه الله تعالى أكمل التنزيه وأتمه عن مشابهة شيء من خلقه، على ضوء القرآن، وعلى غرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١].

يقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

[الأنعام: آية ١٥٨].

تكلمنا على أول هذه الآية، ونبدأ الكلام الآن من قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتيهم خالق السماوات والأرض لفصل الخطاب، عندما تشرق الأرض بنور ربها ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: آية ٦٩]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: آية ٢٢] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: آية ٢١٠] وقد تكلمنا بالأمس على ما دل عليه القرآن في آيات الصفات وأحاديثها.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: يأتيهم بعض آيات ربك. والمراد بذلك البعض: البعض الذي إذا جاء لا يُقبل من كافر إيمان، ولا من مذنب توبة.

فهذه تخاويف وتهديدات عظيمة، تهديد بمجيء الملائكة لقبض الأرواح، وبإتيان خالق السماوات والأرض لفصل القضاء، وبإتيان الآيات التي يمتنع عند مجيئها إيمان الكافر، وتوبة العاصي ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ هذا البعض هنا كأنه مبهم، أبهمه هنا ثم فصّله بأنه البعض الذي إذا جاء لا يقبل من كافر إيمان، ولا يقبل من عاص توبة، بل يغلق باب التوبة بمصراعيه، حتى كأنه لم يكن بينهما فتح قط، وتختم الأعمال على ما كان، وتضع الحفظة أقلامها، ويبقى الناس إلى ذلك الوقت على ما قَدَّموا. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

وهذا البعض الذي هُددوا بإتيانه قال فيه: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي: بعض علاماته العظام الكبرى. فالآية هنا من معنى العلامة.

﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ إذا أرادت أن تجدد الإيمان بعد إتيان بعض تلك الآيات لا ينفع منها ذلك الإيمان. وجماهير علماء التفسير، والأحاديث الصحيحة دلت على أن المراد ببعض الآيات التي

إذا جاءت لا يُقبل إيمان من كافر، ولا توبة من عاص، أن المُراد به طلوع الشمس من مغربها[١]؛ لأن الشمس ستطلع يوماً من مغربها يقيناً، كما تواترت به الأحاديث عن النبيِّ ﷺ، وهو ثابت في الصحاح، في الصحيحين وغيرهما، وفي صحيح البخاري: أنها إذا طلعت من مغربها فرآها الناس آمن جميع من على وجه الأرض، ولم يكن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت[٢].

وهذا فيه إشكالات معروفة؛ لأن الأحاديث الصحيحة هنا فيها إشكالات معروفة، ونحن في الحقيقة لم نر من حرّر المقام فيها تحريراً شافياً[٣]؛ لأن كون الآية التي إذا أتت هي طلوع الشمس من مغربها، هذا ثابت في الصحيحين وفي غيرهما، وهو يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات، وأن مجيء الدجال يُقبل بعده إيمان الكافر، وتوبة العاصي. ونزول عيسى يُقبل بعده إيمان الكافر كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: آية ١٥٩]، وهذا يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات. ويُشكل عليه حديثان ثابتان في صحيح مسلم وغيره، فإنه في صحيح مسلم أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[٤] وفي صحيح مسلم أنه قيل له[٥]: إن مروان بن الحكم يقول: إن أول الآيات خروج الدجال. فقال: ما قال مروان شيئاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[٦] وهذا الحديث مُشكل، إذا كان طلوع الشمس من مغربها قبل

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٤٥/١٢)، القرطبي (١٤٥/٧).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، حديث رقم: (٦٥٠٦)، (٣٥٢/١١). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان. حديث رقم: (١٥٧)، (١٣٧/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: فتح الباري (٣٥٣/١١ ـ ٣٥٧)، التذكرة للقرطبي ص ٧٠٧.

(٤) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض... حديث رقم: (٢٩٤١)، (٢٢٦٠/٤).

(٥) أي: عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٦) راجع الحاشية التي قبل السابقة.

الدجال. والعلماء مجمعون على أنه لا إيمان يُقبل من كافر بعد طلوع الشمس من مغربها. إذاً يكون زمن الدجال وعيسى ابن مريم لا تنفع فيه الأعمال. وهذا مخالف لظواهر النصوص الكثيرة، ففي حديث عبدالله بن عمرو هذا أعظم إشكال.

ومن الأحاديث المشكلة أيضاً: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**». ثم ذكر الثلاث: «**الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**»(١) وهذا يدل على أنه لا توبة تُقبل بعد مجيىء الدجال. وهذا خلاف الظاهر المعروف من النصوص. فحديثا مسلم هذان مشكلان جداً على قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ وعلى ما عليه جمهور العلماء من أنه طلوع الشمس، والإشكال في هذه الأحاديث لم نجد من حرّر المقام فيه تحريراً شافياً يجب الرجوع إليه.

والذي يظهر لنا: أن الآيات العظام نوعان: فقد ثبت في صحيح مسلم أن الآيات الكبار أنها عشر، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري (رضي الله عنه) أن النبيَّ ﷺ قال: «**لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات**»(٢) وهذه الآيات العشر عند العلماء هي العلامات الكبار. ثم عدّها النبيّ ﷺ فيما روى عنه مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري رضي الله عنه، وعدّ منها ثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وخروج الدجال، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى بن مريم، وخروج دابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، والدخان. وهذا الدخان الذي ذكره مسلم في صحيحه هنا قال بعض العلماء: إنه هو المذكور في سورة الدخان، وأنه لم يأتِ إلى الآن، وأنه هو في قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان. حديث رقم: (١٥٨)، (١٣٨/١).

(٢) مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة. حديث رقم: (٢٩٠١)، (٢٢٢٥/٤).

ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ [الدخان: آية ١٠] قالوا: وهو دخان يمكث أياماً يأخذ بنفس الكافر، ويأخذ المؤمن منه شبه الزكام، وأنه من العلامات التي ستأتي ولم يأتِ إلى الآن[١]. وكان عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) يقول: إن الدخان المذكور قد مضى، وهو ما أصاب ربيعة ومضر من الجوع لما دعا النبيُّ ﷺ عليهم وقال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[٢] وأنهم جاءهم من الجوع ما أكلوا معه العِلْهِز. والعِلْهِز: شيء كانوا يصنعونه من الوبر والدم، يأكلونه عند شدة الحاجة. كأن الإنسان لشدة الجوع يُخيل له أن أمام عينيه شبه الدخان، وأن ذلك الذي يُخيل لعينيه مما يشبه الدخان من شدة الجوع أنه هو معنى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ﴾ أي: فيما تظنه أعينهم لشدة القحط والجوع. هذا تفسير عبدالله بن مسعود وطائفة من العلماء للدخان[٣]. وفسّره جماعة آخرون بالدخان الذي عدّه مسلم في الآيات العشر العظام التي هي: الدخان، والدابة، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم وفي بعض الروايات بدل نزول عيسى بن مريم: ريح تلقيهم في البحر، وخسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخرها: نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو ترحل الناس إلى المحشر[٤]. هذه الآيات العشر.

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٥/١١١ ـ ١١٥)، ابن كثير (٤/١٣٨ ـ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد. حديث رقم: (٨٠٣)، (٢/٢٩٠) وطرفه في: (٧٩٧، ٨٠٤، ١٠٠٦، ٢٩٣٢، ٣٣٨٦، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة. حديث رقم: (٦٧٥)، (١/٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد جاء في دعاء النبي ﷺ عليهم بالسنين عدة أحاديث من أشهرها حديث ابن مسعود (رضي الله عنه) المخرّج في الصحيحين، وفيه وصف بعض ما وقع لهم من الشدة بعد دعائه ﷺ.

(٣) راجع المصادر المدونة في الحاشية التي قبل السابقة.

(٤) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

أما الأحاديث الصحيحة الثابتة في أنه تخرج نار بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى[١]. فهذه قد مضت بلا نزاع، وهي النار التي اشتعلت في الحرّة، واشتعالها وتأريخ اشتعالها معروف[٢]، فقد فاتت، وهي من معجزاته ﷺ.

وكان الشيخ ابن الجوزي يقول: إن الخسوف الثلاثة قد مضت، وأنه وقع في عراق العجم خسف عظيم، هو خسف المشرق، هلك فيه خلق عظيم، وأنه وقع كذلك في المغرب. ويزعم أنه وقع في جزيرة العرب[٣]، فعلى كل حال هذه الآيات العشر هي التي ذكرها مسلم في صحيحه أنها الآيات العظام، العلامات الكبرى للقيامة. وقد بينا أن جُلّ علماء التفسير، والأحاديث الصحيحة تبين أن بعض الآيات التي إذا أتى لا ينفع نفساً إيمانها: أنه طلوع الشمس من مغربها. وستطلع من مغربها يقيناً بلا شك؛ لأن الصادق المصدوق ﷺ بيّن أنها ستطلع من مغربها بروايات صحيحة لا مطعن فيها، وهو الصادق المصدوق، لا يقول إلا الحق. وطلوعها من مغربها أكبر دليل على تخريف وخرق أصحاب الهيئة الكذابين، الذين يقولون: إن حالة الشمس والقمر دائبة لا تتغير ولا يعروها تغير. فسيرى الحاضرون منهم لذلك الوقت أنها تتغير، وأنها تطلع صباحاً من مغربها كما كانت تطلع من مشرقها، ويعلمون أن لها صانعاً حكيماً مدبراً، هو الذي يجريها كيف يشاء، على النحو الذي يشاء.

ووجه إشكال حديثي مسلم: أن حديث عبدالله بن عمرو الثابت في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها**»[٤]

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب: خروج النار. حديث رقم: (٧١١٨)، (١٣/٧٨)، ومسلم في الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز. حديث رقم: (٢٩٠٢)، (٤/٢٢٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وذلك ليلة الأربعاء، بعد العشاء، ثالث جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة. انظر تفصيل ذلك: في التذكرة للقرطبي ص (٦٣٦)، البداية والنهاية (١٣/١٨٧)، فتح الباري (١٣/٧٩).

(٣) انظر: القرطبي (٧/١٤٧).

(٤) مضى قريباً.

وطلوع الشمس من مغربها لا خلاف بين العلماء أنه من بعض الآيات التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل. فيلزم على هذا الحديث الذي رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه لا إيمان ولا توبة أيام الدجال وعيسى. وهذا خلاف التحقيق. فالحديث مشكل.

والحديث الثاني: هو ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: **«ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن ءامنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»** وذكر الثلاث فقال: **«الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها»**[(١)]. فعلى مقتضى هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم أن العمل لا يقبل أيضاً بعد الدجال، وهو خلاف الظاهر والتحقيق. وقد ذكرنا أنا لم نر ممن تكلموا على أحاديث مسلم من شفىٰ الغليل في هذا شفاء واضحاً تتفق به الأحاديث مع الواقع، والذي يظهر لنا ـ والله تعالى أعلم ـ أن الآيات العظام الكبار على نوعين[(٢)]:

أحدهما: آيات أرضية تدل على حدوث أمور عظام هائلة في العالم السفلي والأرض، وأول هذه: الدجال، كما كان يقولونه؛ لأن الدجال ينزل قبل نزول عيسىٰ بن مريم. أو أول هذه الآيات العظام: الدجال؛ لأن الدجال يدرك عيسىٰ ابن مريم فيقتله. وبعض العلماء يقول: إن عيسى ابن مريم ينزل قبل الدجال، ويصلي في إمام المسلمين المهدي، الذي ثبتت الأحاديث الصحاح به[(٣)]، وعقد له أبو داود كتاباً باسم (المهدي)[(٤)] وهو أيضاً آت لا محالة، وإن أنكره من أنكره؛ لأن الأحاديث الصحيحة ثابتة بمجيئه عن النبيِّ ﷺ ثبوتاً لا مطعن فيه، فأول الآيات الأرضية العظام نزول الدجال؛ لأن الدجال أكبر حادث يقع في الأرض، وأعظم فتنة تقع في الأرض. وقد صرحت الأحاديث:

---

(١) مضى قريباً.

(٢) انظر: الفتح (١١/٣٥٣).

(٣) انظر عقد الدرر في أخبار المنتظر للسلمي، والاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر للتويجري، والرد على من كذّب الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي. للعباد.

(٤) عون المعبود (١١/٣٦١).

أنه منذ خلق الله الدنيا لم تقع في الأرض فتنة أعظم من الدجال؛ لأن معه ناراً ونهراً، وناره ماء، ونهره نار؛ ولأنه يأتي القوم فيصدقونه، فيقول للسماء: أمطري. وللأرض: أنبتي. فتطيعه في ذلك، فتروح سارحتهم أعظم ما كانت ضروعاً، وأَمَدّه خواصر. ويُحيي للرجل أباه وأمه، ويشق الرجل نصفين حتى يروه نصفين، ثم يجمع بين نصفيه، فيرون أنه يحيه. وهو أعظم فتنة في الأرض[١]. كأن ـ مثلاً ـ من قال: «إن أول الآيات خروجاً الدجال». يعني: أول الأحداث الأرضية، التي تكون في الأرض، تؤذن بأمور عظام، وقرب انقضاء الدنيا، وأن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات التي هي من العالم العلوي، المؤذنة بزوال العالم العلوي وانقضائه. فيكون كون الشمس أول الآيات يعني باعتبار ما هو من جنسها، كتغيير العالم العلوي، ويكون الدجال أول الآيات باعتبار العالم الأرضي.

وعلى كل حال فالشمس إذا طلعت من مغربها أُغلق باب التوبة، وطلوع الشمس والدابة مترادفان بينهما قليل، جاء في بعض الأحاديث أن الشمس إذا طلعت من مغربها خرجت الدابة ضحىً[٢]. والدابة هي التي يأتي ذكرها في النمل، في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية[٣] [النمل: آية ٨٢]. قال بعض العلماء[٤]: والحكمة في إتيان الدابة بعد الشمس: أن الشمس إذا طلعت من مغربها خُتم على الأعمال، ولم يقبل من كافر إيمان، ولم يقبل من عاص توبة، وانقطع تجديد إيمان جديد، أو توبة جديدة، فيرسل الله بعد ذلك الدابة، فتكتب على جبهة كل إنسان: (سعيد) أو (شقي) يعرفه من

---

(١) انظر جملة من الأحاديث الواردة فيما سبق، في البخاري (١٣/٨٩ ـ ٩١)، مسلم (٤/٢٢٤٩ ـ ٢٢٥٨).

(٢) وهو حديث عبدالله بن عمرو وقد مضى قريباً.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٣٣٥).

(٤) انظر: فتح الباري (١١/٣٥٣).

يراه، لتبين حال الناس عند انقطاع أعمالهم، من هو الكافر منهم ومن هو السعيد، والحاصل: أن أكثر أهل العلم، والأحاديث الصحيحة، دلت على أن الآية التي إذا جاءت لا يُقبل من أحد إيمان: هو طلوع الشمس من مغربها[١]. وفيها أحاديث كثيرة، وفيها حديث أبي ذر المشهور: أنها تسير كل يوم، فتسجد لمستقر لها تحت العرش، ثم تستأذن فيؤذن لها فترجع، فإذا كان اليوم الذي يريد الله طلوعها من مغربها تستأذن فلا يُؤذن لها[٢]. ويقول المفسرون وبعض المحدثين[٣]: إن تلك الليلة تطول جداً، وينتظر الناس الصباح، فيطول عليهم الليل، فتستأذن الشمس فيقال لها: اطلعي من مغربك، فتصبح طالعة للناس من مغربهم، فإذا رأوها آمن جميع من في الأرض، وعلموا أن للكون خالقاً حقاً، ولم يبق أحد منهم إلا وهو مؤمن، وذلك الوقت ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ وذهب بعض العلماء، ونصره أبو عبدالله القرطبي[٤]: أنها بعد طلوعها من مغربها سترجع إلى عادتها وتطلع من مشرقها، وترجع الدنيا إلى حالها، وأنه إذا تقادم عهدها، وصار الناس يسمعون بخبرها، أنه حينئذ تقبل توبة الكافر إذا تاب، والعاصي إذا تاب. وهذا قال به بعض العلماء، ولكنه خلاف التحقيق؛ لأن ظاهر الأحاديث الكثيرة، والآية الكريمة، أنه بعد إتيان الآية لا ينفع نفساً إيمانها، وهو نفي مطلق إلى يوم القيامة. وقال بعض العلماء[٥]: تؤمر الحفظة بطي الصحف، وطرح الأقلام، ولا ينفع أحداً عمل، ويختم على كل بعمله.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٢/٢٤٦)، ابن كثير (٢/١٩٣ ـ ١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ حديث رقم: (٤٨٠٢، ٤٨٠٣) (٨/٥٤١). ومسلم في الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان حديث رقم: (١٥٩) (١/١٣٨).

(٣) انظر: التذكرة ص ٧٠٥ فتح الباري (١١/٣٥٥)، الدر المنثور (٣/٥٧ ـ ٦١).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٧/١٤٧، ١٤٨)، التذكرة ص (٧٠٦).

(٥) انظر: فتح الباري (١١/٣٥٥).

وقوله: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ يُفهم منه أن النفس التي طلعت عليها الشمس من مغربها وهي مؤمنةٌ من قبل أنها في خير، وعلى خير، وأن إيمانها نافع لها.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يُفهم منه أن النفس المؤمنة التي كانت تعمل الخير أنها في خير، وعلى خير، وأما النفس التي كانت مؤمنة ولم تعمل في إيمانها الخير، بأن كانت ترتكب المعاصي، وتخالف الله، ثم أرادت عند طلوع الشمس أن تتدارك ذلك بالتوبة فلا يُقبل ذلك منها لقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ وكان بعض العلماء يقول: من طلعت عليه الشمس من مغربها وهو على الاستقامة وطاعة الله كُتب له ما كان يفعل دائماً[1].

وهذا القول وان كان ظاهر الآية لا يساعد عليه، إلا أنه غير بعيد؛ لأنه دلت نصوص أخر على أن الإنسان المواظب على الخير إذا عاقه عنه عائق كمرض أو سفر أنه يُكتب له ما كان يواظب عليه من الخير إذا عاقه عنه مرض، وهو أحد التفسيرين[2] في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: الآيتان ٥، ٦] فعلى أحد التفسيرين في الآية: أن الإنسان إذا رُدّ أسفل سافلين إلى أرذل العمر، وكان هرماً لا يعقل، أنه يُردّ إلى أسفل السافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم من الأجر ما كان يُكتب لهم. هذا وجه في الآية، ولكن الوجه الصحيح فيها عند المفسرين: أن معنى: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: جعلناه إلى دركات النار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ وهو الجنة. وهذا معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ نفساً لم تكن ءامنت من قبل لا ينفعها إيمان جديد بعد طلوع الشمس من مغربها. وقد ثبت في الصحيح أنها إذا طلعت من مغربها آمن كل من على وجه الأرض من البشر بالله (جل وعلا)[3]. ولكنه إيمان غير

---

(١) انظر: القرطبي (١٤٦/٧) من التفسير، وفي التذكرة ص (٧٠٥).

(٢) انظر: ابن جرير (٢٤٦/٣٠ ـ ٢٤٧).

(٣) مضى قريباً.

مقبول؛ لأنهم ما آمنوا حتى فات الوقت وانتهت المدة، وانقضت الفرصة. ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، ولا ينفع نفساً عاملة للخير لم تكن عملت في إيمانها السابق خيراً، فالذي ينفع: الإيمان السابق، وعمل الخير السابق في الإيمان، أما العمل الذي يُجَدَّد بعد الطلوع، والإيمان الذي يُجَدَّد بعد الطلوع فلا ينفع. واستثنىٰ بعض العلماء من هذا من طلعت عليه الشمس وهو مستقيم على اجتناب نواهي الله، وامتثال أوامره، أنه يكتب له ما كان يعمل. وقال بعضهم[1]: إن المؤمن تُقبل توبته لإيمانه السابق. وظاهر الآية خلاف ذلك، وأنها إذا جاءت خُتم لكل بما كان يعمل، وانقضىٰ العمل، فمن جاءته وهو على الإسلام والخير فهو إلى الجنة، ومن جاءته على الشر والكفر ـ عياذاً بالله ـ فهو إلى النار. ولا تُقال لأحد عثرة، ولا تقبل منه توبة بعد نزول الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

ثم إن الله لما قال للكفار المكذبين لرسوله: ما تنتظرون إلا بلايا تأتيكم، إما أن تأتيكم الملائكة لقبض أرواحكم، أو يأتي خالق السماوات والأرض لفصل الخطاب فيحكم بتعذيبكم، أو يأتيكم بعض الآيات المانعة من قبول العثرة والتوبة، إذا كان يهددهم هذا التهديد، فقد أتبعه بقوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فإنكم تنتظرون السوء ونحن ننتظر الخير؛ لأنا إذا جاءتنا الملائكة فقبضت أرواحنا ونحن على الاستقامة كان فيه أعظم البشارة لنا، وأحسن العُقبىٰ، وإذا أتانا ربنا لفصل القضاء حكم لنا بأحسن الحكم، وأكرم النعيم لطاعتنا واستقامتنا. وإذا جاء بعض الآيات المانعة من التوبة وجدتنا على هدى وتوبة وإنابة، فلم يضرنا مجيئها؛ ولذا قال: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ كقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ [التوبة: آية ٥٢].

---

(١) انظر: التذكرة للقرطبي ص (٧٠٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٥٩].

[قرأ الجمهور][1] غير حمزة والكسائي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بتشديد الراء، وعدم ألف بعد الفاء، وقرأه حمزة والكسائي: **﴿إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾**[2] أما على قراءة حمزة والكسائي: **﴿فارقوا دينهم﴾** فالمعنى واضح؛ لأنهم ارتدوا - والعياذ بالله - عن الدين وفارقوه، وصاروا طوائف كافرة، كل طائفة ملحدة كافرة غير الأخرى. وأما على قراءة الجمهور: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ فالمراد بتفريقهم الدين: أن كل طائفة تنتحل نحلة تزعم أنها هي الدين[3]. فهي في أهل الأهواء والبدع والضلالات، ويدخل فيهم اليهود والنصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: آية ١١٣] فقد فرقوا دينهم. ومعناه: أن كل طائفة وفرقة انتحلت نحلة تزعم أنها هي الدين الحق، وأن ما سواه باطل، والجميع كله ضلال وبدع وأهواء. كما ذكرنا في الحديث: أن النبيَّ بيّن هذا التفريق، وأن اليهود افترقوا إلى إحدى وسبعين فرقة، وهذه الإحدى والسبعين فرقت دينها، وجعلته إحدى وسبعين فرقة، كل واحدة تدّعي أنها على الحق، وأن غيرها ضال، وافترقت النصارىٰ إلى اثنتين وسبعين فرقة، كل فرقة تزعم أنها على الحق، وأن غيرها ضال. وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، تزعم كل واحدة أنها على الحق. وجميع الفرق في النار إلا فرقة واحدة[4].

(١) في هذا الموضع وُجد مسح في التسجيل وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٥.

(٣) انظر: حجة القراءات ص ٢٧٨.

(٤) أخرجه أحمد (٣٣٢/٢) وأبو داود في السنة، باب: شرح السنة. حديث رقم: (٤٥٧٢)، (٣٤٠/١٢)، والترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة. حديث رقم: (٢٦٤٠)، (٢٥/٥). وقال الترمذي: «وفي الباب عن =

وعلامة هذه الفرقة الواحدة: هي الخالية من البدع والأهواء والمبتدعات بعد الرسول ﷺ، المخالفة لشرعه، بل هي التي تمشي على الجادة والمحجة البيضاء، التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه. هذه الفرقة هي الناجية: وهي المسماة بأهل السنة والجماعة، وإن كانوا قليلًا؛ لأن أكثر الأرض على الضلال، أكثر من في الأرض ضلال في النار، والذين هم على الهدى وأهل الجنة قلة جداً. وقد ثبت في الصحيحين عن النبيِّ ﷺ أن نصيب الجنة من الألف واحد، ونصيب النار من الألف تسع وتسعون وتسعمائة. وهذا ثابت في الصحيح عنه ﷺ، ولما شقّ هذا على أصحابه أخبرهم بكثرة المشركين، وأن هناك قبيلتين قد تكون الألف منهم، والواحد منكم: يأجوج ومأجوج(١). ويأجوج ومأجوج من العلامات العشر التي ذكرها مسلم لم نذكرها، وهذه الفرق كلها في النار، ونصيب الجنة واحد من الألف لكثرة الكفار، والله يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: آية ٨]، ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: آية ٧١] ﴿وَمَآ أَكْثَرُ

= سعدٍ وعبدالله بن عمرو، وعوف بن مالك. قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح» ا.هـ.

وأخرجه ابن ماجه في الفتن، باب: افتراق الأمم. حديث رقم: (٣٩٩١)، (١٣٢١/٢)، وابن حبان (الإحسان ٤٨/٨)، والحاكم (١٢٨/١)، وأبو يعلى (٥٩١٠/١٠)، والآجري في الشريعة ص (١٥). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد جاء في هذا المعنى عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة كأنس بن مالك، وعوف بن مالك، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبدالله بن عمرو وغيرهم.

وانظر: صحيح أبي داود (٨٦٩/٣)، صحيح الترمذي (٣٣٤/٢)، صحيح ابن ماجه (٣٦٤/٢)، السلسلة الصحيحة رقم: (٢٠٣)، التعليق على التنكيل (٥٣/٢)، صحيح الجامع رقم: (١٠٨٣).

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج. حديث رقم: (٣٣٤٨)، (٣٨٢/٦)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣). ومسلم في الإيمان، باب: قوله: «**يقول الله لآدم: أخرج بعث النار. . .**». حديث رقم: (٢٢٢)، (٢٠١/١).

ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٣] فالأكثرية أهل النار، وهي التي منها هذه البدع والأهواء والفرق الضالة الزائغة عن هدي النبي ﷺ، والهدى لا يخفىٰ:

الحقُّ أبلج لا تزيغ سبيلُه والحقُّ يعرفُه أولُو الألبابِ[1]

لأن من هو على هدي النبيِّ ﷺ لا يخفىٰ على أحد؛ لأنه خال من الابتداع، والدعاوى الكاذبة، والتضليلات، والتخريفات، والتهريجات الزائفة، بل هو على صراط مستقيم، عامل بهدي رسول الله، عارف أوامر القرآن ونواهيه، عالم بسنة رسول الله وبأحكامها، متبع ما جاء عن الله، مؤتمر بأوامر الله، منزجر عما زجر الله عنه، على المحجة البيضاء، سالم من الدعاوى الخرافية، والضلالات المبتدعة التي لم يعرف لها عهد في زمن رسول الله ﷺ وأصحابه. فالفرقة الناجية: هي التي كانت على ما عليه النبيّ وأصحابه من العقيدة الصحيحة، وامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه على الوجه الصحيح الكامل، فالصحابة (رضي الله عنهم) لم يدّعوا شيئاً مما يدّعيه المضللون من أنهم يرون النبيّ يقظة، ويجتمعون به دائماً!! لم يقولوا شيئاً من ذلك لصدقهم وعدالتهم. هذا أمير المسلمين في زمانه: عثمان بن عفان، أعز فتى في قريش، وهو أمير المؤمنين. والإسلام في شدة قوته، ولما أمر النبيُّ ﷺ عمر بن الخطاب أن يذهب بالهدايا إلى مكة لما حاصروهم في الحديبية قال له: أنا لا أستطيع؛ لأن بني عدي لا يمكن أن يمنعوني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعز مني، وهو عثمان بن عفان. فأخذه النبيُّ ﷺ لعزته ومكانته في قريش، وأرسل معه الهدايا وتلقاه بنو عمه يقولون:

أَقْبِلْ وأَدْبِرْ ولا تَخَفْ أَحداً بَنُو سعيدٍ أَعِزَّة الحرمِ[2]

وهو بهذه العزة في قريش، وهو أمير المؤمنين، وصهر رسول الله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من هذه السورة.

(٢) البيت لأبان بن سعيد بن العاص. وهو في تاريخ دمشق (١٣٤/٦)، الاستيعاب (٧٥/١)، الإصابة (١٤/١) سير أعلام النبلاء (٢٦١/١).

على ابنتيه، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ذُبح في داره ظلماً، والحجرة النبوية بجنبه، لم يأته النبيُّ ﷺ، ولم يحُل لهم المشكلة، وهذه عائشة (رضي الله عنها) ذهبت إلى العراق، ووقعت قصة الجمل، والنبيُّ ﷺ معها في الحجرة، لم تستطع أن تلقاه، ولم تأخذ رأيه: هل تفعل؟ بل قد ندمت كل الندم على ما صدر منها. ولما نزلت مسألة العول: ماتت امرأة وتركت زوجها وأختيها في خلافة عمر بن الخطاب، فقال عمر: إن أعطيت الزوج النصف لم يبق ثلثان، وإن أعطيت الأختين الثلثين لم يبق نصف، فماذا أفعل؟ وأسفوا كل الأسف على أنهم لم يسألوا النبيَّ ﷺ(١)، فما قال أحد منهم: إنهم يسألونه؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه أرسله الله لمهمة وقد بلّغها على أكمل الوجوه وأتمها وأحسنها وأنصحها، ثم تركها محجة بيضاء ليلها كنهارها، ثم اختاره الله إلى ما عنده من الكرامة، ونقله إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه.

والشاهد أن الذين هم على هدي النبيِّ ﷺ وأصحابه سالمون من الدعاوى الكاذبة، والخرافات المضللة، بل هم على صراط مستقيم، وهدي واضح لا دعاوى فيه ولا تضليل ولا تهريج، يقتفون آثار النبيِّ ﷺ بالعمل بكتابه وسنته، ومجالسهم كأن على رؤوسهم الطير فيها. فمن كان على هديه ﷺ في الأعمال والأقوال والأفعال والسمت والعقيدة فهو الفرقة الناجية، وغيره هي الفرق الضالة المضلة التي فرقت دينها وجعلته شيعاً.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ الشيع جمع شيعة، وكل قوم تشيعوا واجتمعوا على نصرة رجل، أو على نحلة ينتحلونها فهم شيعة، سواء كانت في الخير أو في الشر(٢)، ومنه قوله في نوح: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات: آية ٨٣] أي: من جماعته الذين هم على دينه وهديه، ومنه قول الكميت(٣)، وهو من الشيعة الذين يتشيعون لآل النبيّ ﷺ:

---

(١) انظر: المحلى (٢٦٣/٩)، وانظر ما سيأتي عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: المصباح المنير (مادة: شيع) ص (١٢٦).

(٣) البيت في شذور الذهب ص ٢٦٣، تلخيص الشواهد لابن هشام ص ٨٢، قطر الندى (٢٤٦).

وما لـيَ إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ ومالِيَ إلا مذهبَ الحقِّ مذهبُ

﴿شِيَعًا﴾ أي: فرقاً مختلفة، كل فرقة تنصر صاحب بدعة مثلاً، أو رأس ضلالة يشيعونه وينصرونه.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ معناه: أنت بريء منهم، وهم برآؤا منك، لست على دينهم وليسوا على دينك. والعرب إذا كان الإنسان بريئاً من الإنسان يقولون: لستُ منك ولستَ مني. ومنه قول نابغة ذبيان[1]:

إذا ما رُمتَ في أسَدٍ فُجوراً فإنّي لستُ مِنْكَ ولسْتَ منّي

يعني: أنا بريء منك، وأنت بريء مني.

ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما أمرهم ومصيرهم إلى ربهم، فالله هو الذي حكم عليهم في دار الدنيا بذلك الشقاء والخذلان وطمس البصيرة، وهو الذي يجازيهم يوم القيامة على ما كان منهم، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة. أي: يخبرهم إذا جاؤوه بالذي كانوا يعملونه في الدنيا، فيجدون كل ما عملوه في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويقال للإنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: آية ١٤]، فيجد الإنسان كل ما قدم وأخر ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: آية ٣٠] وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ والمراد بالتنبئة هنا ليس مجرد الإخبار، ينبؤهم ليُقروا ويعترفوا فيعلمون أنه إنما عاقبهم على عدل وليس بظلم، والنبأ في لغة العرب أخص من مطلق الخبر؛ لأن كل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأ؛ لأن العرب لا تُطلق النبأ إلا على الخبر الذي له شأن وخطب، فيقولون: جاءنا نبأ الجيوش، ونبأ الأمير، وخبر الجيوش، وخبر الأمير. أما

(١) البيت في ديوانه. ص (١٣٨). وروايته في الديوان: «إذا حاولت...».

لو قال قائل: تلقّينا اليوم نبأً عن حمار الحجام. فإن هذا لا يكون من كلام العرب[١]؛/ لأن حمار الحجام لا أهمية له، وإطلاق النبأ عليه وضع للنبأ في غير موضعه، فاللائق أن يقول: خبر حمار الحجام؛ لأن النبأ لا يُطلق إلا على ما له شأن[٢]، وكون التنبئة هنا لها شأن لعظمة الله بإحصائه إياها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولعظمة الخطب عليهم، كما قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: آية ٤٩]. ١/٢٥

يقول الله جل وعلا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: آية ١٦٠].

لما أمر الله الخلق بسلوك صراطه المستقيم، ونهاهم عن اتباع السبل لئلا تتفرق بهم عن سبيله، ثم بين أن بعضاً منهم لم يمتثلوا ذلك، بل اتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الأنعام: آية ١٥٩] بيّن أنه (جل وعلا) بالنسبة إلى من عصاه فاتبع تلك السبل الضالة، وبالنسبة إلى من أطاعه فاتبع ذلك الصراط المستقيم، أن معاملته للمحسنين في غاية الإكرام والتمام والكمال، وللمسيئين في غاية الإنصاف والعدالة، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ يعني: من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة التي كان يعملها في دار الدنيا، فقول بعض أهل العلم هي: «لا إله إلا الله» كالتمثيل؛ لأن المراد بالحسنة: كل خصلة تُرضي الله (جل وعلا)، سواء كانت (لا إله إلا الله) أو غيرها من العقائد، وأفعال الجوارح، وأعمال القلوب[٣]، كل من جاء إلى الله يوم القيامة بالخصلة الحسنة من طاعة الله من جميع خصلة ترضي الله (جل وعلا)، فالله (جل وعلا) يُضاعفه على أقل التقديرات عشر أمثالها، أي: فله عشر حسنات،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٢٧٥)، البحر المحيط (٤/٢٦١).

كل حسنة مثلها، فأقل المضاعفة للمحسنين عشرة. ثم إنه بيّن في بعض المواضع أنه يضاعف إلى سبعمائة، وفي بعضها أنه يضاعف حسب مشيئته بحيث لا يعلمه إلا هو حيث قال في المضاعفة إلى سبعمائة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فجاءت الحبة بسبعمائة حبة، وهي مضاعفة الحسنة بسبعمائة.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: آية ٢٦١] أي: يضاعف لمن يشاء من الأضعاف ما شاء، فأقل المضاعفة عشر حسنات، إلى سبعمائة، إلى ما شاء الله. فتوضع الحسنة في الميزان بعشر حسنات.

ثم قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالخصلة السيئة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فجزاء السيئة سيئة واحدة مثلها، وجزاء الحسنة على أقل التقديرات عشرة أمثال، فمن غلبت آحاده عشراته فلا خير فيه، ولا يهلك على الله إلا هالك؛ لأن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيد ولد آدم (عليه الصلاة والسلام) هيأ الله فيها طريق الجنة ويسَّرها تيسيراً عجيباً، رفع فيها الأثقال والآصار والتكاليف، من شقّ عليه السفر فليفطر، وليقصر الصلاة(١)، ومن لم يقدر على الصلاة قائماً صلى قاعداً، وهكذا في أنواع التخفيف، فمع هذا فالحسنة تكتب له بعشر حسنات، كل حسنة مثلها. والسيئة إنما تكتب عليه سيئة واحدة مثلها. ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، بل قد تكون حسنة، إن كان تركه لها لأجل ابتغاء مرضاة الله، فهذه الآيات من أعظم المبشرات للمسلمين؛ لأن جميع حسناتهم عند الوزن الذي قال الله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: آية ٨] إذا كانت حسنتك تضاعف عشر مرات، وسيئتك إنما تُجازىٰ بسيئة واحدة مثلها، ففي هذا أعظم البشارة للمسلمين، وعليهم أن يكثروا من الحسنات. ومن الحِكَم

---

(١) معلوم أن القصر والفطر في السفر لا يتوقفان على وجود المشقة.

العظيمة، وجوامع الكلم، قوله ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١) يعني: إن صدرت منك سيئة فأتبعها بحسنة؛ لأن السيئة تُجعل في كفة الميزان سيئة واحدة؛ وتجعل الحسنة في الكفة الأخرى عشر حسنات فيثقل وزنها عليها. وهذا معنى قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: آية ١٦٠] أصل الحسنة: هي الصفة المشبهة من حسُن، يحسن، فهو حسَن، والأنثى حسنة. وقد جرت عادة العرب بأن يجعلوا لفظ الحسنة والصالحة كأنهما اسما جنس للخصلة الطيبة، والفعلة الكريمة، حتى كادوا يتناسون الوصفية فيهما، ومنه هنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالخصلة الحسنة، فَحُسْنها هو كونها تُرضي الله (جل وعلا)، وتطابق ما أمر به ونهى عنه. وقد وعد الثواب عليها، وكذلك قال: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: آية ٢٥] فالصالحة كالحسنة، أي: هي الخصلة التي هي صالحة؛ لأن الله أمر بها، ووعد فاعلها الخير. وهذا معروف في كلام العرب. أما في الحسنة فمشهور، وأما في الصالحة فمعروف في كلام العرب، ومنه قول الحطيئة(٢):

كيفَ الهجاءُ وما تَنفَكُّ صَالِحةٌ ... مِنْ آلِ لأمٍ بظهرِ الغَيْبِ تأتِيْنِي

أي خصلة طيبة. وقول أبي العاص بن الربيع في زوجه زينب بنت رسول الله ﷺ(٣):

بنتُ الأمينِ جَزَاهَا اللّهُ صالحةً ... وكلُّ بَعْلٍ سَيُثْنِي بالذي عَلِمَا

وسُئل أعرابي عن الحب ما هو؟ فقال(٤):

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٥٣، ١٥٨، ١٧٧)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، حديث رقم: (١٩٨٧)، (٤/٣٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
وانظر: السلسلة الصحيحة (٣/٣٦١ ـ ٣٦٢)، صحيح الترمذي (٢/١٩١)، المشكاة رقم: (٥٠٨٣).

(٢) البيت في شواهد الإنصاف ص ١٢٦، الدر المصون (١/٢١١).

(٣) البيت في طبقات ابن سعد (٨/٢١)، الاستيعاب (٤/٣١٢)، مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٩/٤٤)، أعلام النساء (٢/١١٠).

(٤) البيت في الأضواء (٤/٩).

الحبُ مشغلةٌ عن كلِ صالحةٍ وسكرةُ الحبِ تنفي سكرةَ الوسَنِ

فالصالحة، والحسنة، والسيئة كأنها أسماء أجناس، ثنتان للخصلة الطيبة، وواحدة للخصلة الخبيثة.

وأصل السيئة[١]: (سيوِئة) ووزنها بالميزان الصرفي: (فَيْعِلَة) فـ (ياء) (الفَيْعِلَة) زائدة. اجتمعت هي والواو التي في مكان العين؛ لأن أصلها من (سَوَأ) فمادة الكلمة: فاؤها سين، وعينها واو، ولامها همز، (سَوَأ). فقيل في السيئة: (سيوِئة) على وزن (فَيْعِلَة) اجتمعت ياء (الفَيْعِلَة) الزائدة، والواو التي في محل العين سكنت إحداهما قبل الأخرى سكوناً غير عارض، فأبدلت الواو ياء على القاعدة التصريفية المشهورة، فقيل: (سيئة) فالياء الأولى زائدة، والثانية مبدلة من الواو التي في محل عين الكلمة[٢].

والسيئة: هي الخصلة التي تسوء صاحبها إذا رآها في صحيفته يوم القيامة[٣]. ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: آية ٣٠].

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ومن هنا تعرفون أن ما يجري على ألسنة العامة: أن السيئات تضاعف في مكة كما تضاعف الحسنات، أن ذلك الإطلاق لا يجوز؛ لأن مضاعفة السيئات ممنوعة قطعاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو نص صريح قرآني في أن السيئات لا تضاعف، ولكن السيئة في حرم مكة مثلًا تعظم؛ لأن السيئة تعظم بحسب عظم الزمان والمكان، فإذا عظمت السيئة عظم جزاؤها؛ لأن الجزاء بحسب الذنب، إذا عظم الذنب عظم الجزاء، وإذا صغر الذنب صغر الجزاء. فهو من عظم الذنب، وعظم الجزاء تبعاً لعظم الذنب، لا من المضاعفة؛ لأن السيئات لا تضاعف، ولكنها تعظم وتكون أكبر في زمان من زمان، وفي محل من محل؛ ولذا قال في حرم مكة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ

---

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٤٦.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم ص (١٤٦).

(٣) انظر: المفردات (مادة: سوأ) (٤٤١).

بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: آية ٢٥] وقال في الأشهر الحرم: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [التوبة: آية ٣٦] مع أن ظلم النفس في غيرهن حرام(١).

وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: والجميع لا يظلمون، فلا يُزاد في سيئات المسيء، ولا يُنقص من حسنات المحسن، بل حسنات المحسن تُزاد، وسيئات المسيء إما أن يُعفى عنها أو يُتجاوز، وإن عُومل بها عُومل بوزرها فقط عدلًا وإنصافاً.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦١].

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ قرأه الجمهور: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وفتح اثنان من السبعة منهما نافع: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢) ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قرأ أربعة من السبعة، وهم الكوفيون الثلاث: عاصم، وحمزة، والكسائي، والشامي ـ وهو ابن عامر ـ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بكسر القاف وفتح الياء مخففة. وقرأ الحرميان، أعني: نافعاً وابن كثير، والبصري ـ وهو أبو عمرو ـ قرؤوا: ﴿دِيناً قَيِّماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾(٣).

وقرأ جمهور القراء ما عدا هشاماً عن ابن عامر: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بكسر الهاء ممدودة بياء، وقرأ هشام عن ابن عامر: ﴿إبراهام حنيفاً﴾ بفتح الهاء ومدها بألف، وهما لغتان في إبراهيم صحيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان(٤).

لما بيّن الله انقسام الخلق إلى مهتد وضال، ومفرقين دينهم شيعاً ومهتدين، أمر نبيّه ﷺ أن يُصرح على رؤوس الأشهاد أنه لم يتبع السبل

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/٥١).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٠٦).

(٣) انظر: المصدر السابق ص (٢٠٥).

(٤) انظر: السبعة لابن مجاهد ١٦٩، الموضح (١/٢٩٩ ـ ٣٠١)، الإقناع لابن الباذش (٢/٦٠٢)، النشر (٢/٢٢١)، البدور الزاهرة (١١٣).

الزائغة، ولا الطرق الضالة، وأنه على الهدى المستقيم، والمحجة البيضاء التي هداه إليها ربه، قل يا نبي الله: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ أي: أرشدني ودلني ووفقني للعمل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. الصراط في لغة العرب: الطريق الواضح(١)، ومنه قول جرير(٢):

أميرُ المؤمنينَ على صراطٍ إذا اعْوَجَّ الموارِدُ مستقيم

والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه، طرفه بيد المسلمين، وطرفه الآخر في الجنة.

وقوله: ﴿دِينٗا﴾ أعربوه أعاريب مختلفة(٣)، أجودها: أنه بدل محل من قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لأنه مجرور في محل نصب. والأصل: (هداني ربي صراطاً مستقيماً) لأن (هدى) تتعدى إلى المفعول الثاني بنفسها دون حرف الجر، كقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾ [الصافات: آية ١١٨] ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: آية ٦] ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: آية ٢٠] وقد يتعدى بـ (إلى) كقوله هنا. ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وقد يتعدى بـ (اللام) إلى المفعول الثاني، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: آية ٩] فهو وإن جر بـ (اللام) أو بـ (إلى) فهو في محل نصب؛ لأن الفعل يتعدى إليه بنفسه، ومعروف أن مراعاة المحل في الإعراب أمر معروف:

وَجُرَّ ما يَتْبَعُ مَا جُرَّ وَمَنْ رَاعَى في الاتْبَاع المحلَّ فَحَسَن(٤)

كما قاله ابن مالك في الخلاصة. فقوله: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ مجرور في محل نصب، إذ (هداني) تتعدى إلى المفعول الثاني بنفسها، فكأنه قال: (هداني صراطاً مستقيماً دينا قيماً) فـ (الدين) بدل من (الصراط

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٧) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٢/٢٨٢)، القرطبي (٧/١٥٢)، البحر المحيط (٤/٢٦٢)، الدر المصون (٥/٢٣٨).

(٤) الخلاصة ص (٣٩).

المستقيم) وهو بدل محل؛ لأنه منصوب أُبدل من مجرور، لكن المجرور في محل نصب.

وأعربه بعضهم حالًا من (الصراط) أي: إلى صراط مستقيم في حال كون ذلك الصراط المستقيم ديناً قيماً. والنكرة إذا نُعتت أو خُصصت جاز مجيء الحال متأخرة منها.

وبعضهم قال: هو منصوب بـ (هداني) بتضمينها معنى (عرفني). ولا يخلو من بُعْد، وفيه أعاريب غير هذا أظهرها ما ذكرنا.

﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ أي: أرشدني ووفقني إلى طريق واضح لا اعوجاج فيه.

﴿دينا قيماً﴾ على قراءة: ﴿قيماً﴾ فهو الصفة المشبهة من: قام، يقوم، فهو قَيِّم، بمعنى: استقام، يستقيم، فهو مستقيم. والعرب تطلق (قام) وتريد: استقام، ومنه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: مستقيمة على دين الحق ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: آية ١١٣]. فالقيِّم هو الصفة المشبهة من: قام، يقوم، بمعنى: استقام، يستقيم، فهو كالتوكيد لما قبله.

وقال بعضهم: هذا الدين (قيِّم) معناه: أن اتباعه يقوم بشؤون الدين، وينظم علاقاتها ومصالحها في الدنيا والآخرة، من قولهم: فلان قيِّم على أهله، أي: قائم بمصالحهم وشؤونهم، ودين الإسلام جامع بين الوصفين، هو قيِّم يعني بأحوال الدنيا والآخرة؛ لأن مُتبعه يصلح له جميع أموره من جميع الجهات في دنياه وأخراه.

وعلى أنه (فَيْعِل) من قام بمعنى: استقام، فهو أيضاً في غاية الاستقامة، وهو كالتوكيد لما قبله.

أما على قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فالقِيَمُ هنا مصدر قليل، كقولهم: كبُر كِبَراً، وعَظُم عِظَماً، وشَبِعَ شِبَعاً، وقام قِيَماً. فهو مصدر بمعنى (القيام) نُعت به. و(قام) التي مصدرها (قِيَماً) هنا من (قام) التي بمعنى (استقام)، فهو راجع في المعنى إلى الأول، إلا

أنه من النعت بالمصدر، والعرب إذا نعتت بالمصدر كقولهم: رجل كَرَم، وفلان عَدْل. لأن العدل مصدر، إذا نعتت بالمصدر فقيل هو على حذف مضاف. أي: ذو قِيَم. أي: استقامة. زيد كَرَم. أي: ذو كَرَم. أو كأنهم بالغوا فيه حتى جعلوه عين القِيَم، بمعنىٰ الاستقامة. وكأنهم بالغوا في كرم زيد حتى جعلوه عين الكرم.

الثاني: أن المصدر المنكَّر يؤول بالوصف، فيرجع معنىٰ المصدر إلى معنىٰ (قيِّماً)، الذي هو الصفة المشبهة من (قام). فيرجع معنىٰ الأقوال إلى شيء واحد؛ لأن النعت بالمصدر معناه: ذو قِيَم. أي: استقامة. أو هو استقامة بعينه، كأنه لشدة استقامته سُمي (استقامة) لشدة استقامته. أو لأنه مصدر أُريد به الوصف، فيكون (قِيماً) بمعنى: قيِّماً. هذه الأقوال الثلاثة معروفة في النعت بالمصدر، كما قال في الخلاصة[1]:

ونَعَتُوا بمصدرٍ كثيراً فالتزمُوا الإفرادَ والتذكيرَا

فعلى قراءة (قِيَماً) فهو من النعت بالمصدر، فالقِيَم: مصدر كالشِّبَعِ، والصِّغَرِ، والكِبَر. وعلى قراءة من قرأ ﴿قيِّماً﴾ فالأمر واضح[2].

وقوله: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ هذه بدل من الدين[3]؛ لأن الدين القيم هو ملة إبراهيم، والملة: الشريعة والطريقة. قال بعض العلماء: اشتقاقها من (الإملال)، و(الإملال) بلامين، وهو ما يسمونه الإملاء ـ بالهمزة ـ أن تلقي على الكاتب جملة فيكتبها، ثم تُملي عليه جملة أخرىٰ فيكتبها. ومنه قوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] معنى أنه يملل، أي: يُلقي على الكاتب جمل عقد المداينة حتى يكتبها. أبدلوا اللام الأخيرة همزة، فجعلوه إملاء. وأصله

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر هذه القراءات وتوجيهها في: المبسوط لابن مهران ص ٢٠٥، ابن جرير (٢٨٢/١٢)، حجة القراءات ص ٢٧٨، القرطبي (١٥٢/٧).

(٣) انظر: الدر المصون (٢٣٨/٥).

(إملال) قالوا: لأن الملة وهي الشريعة، تنزل جُمَلاً جُمَلاً جُمَلا حتى تتم[١] كما وقع في ديننا. فُرضت الصلاة أولاً قبل الهجرة، ثم فُرضت الزكاة والصيام في عام اثنين من الهجرة، وفُرض الحج في عام تسع على أصح الأقوال، شيئاً بعد شيء حتى تتم.

وقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ هو نبي الله إبراهيم، الذي جعله الله للناس إماماً، وشهد له شهادته بالوفاء ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: آية ٣٧] ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: آية ١٢٤] وقيل لنبيِّنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: آية ١٢٣] وقيل له هنا: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ثم بين أنه ملة إبراهيم.

وهنا سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: دلت هذه الآيات على أن النبيَّ ﷺ أمر أن يتبع ملة إبراهيم، والمتبوع أفضل من التابع، فإذاً قد يكون إبراهيم أفضل من النبيِّ ﷺ، حيث أُمر باتباعه[٢]؟

والتحقيق أن النبيَّ ﷺ سيد الخلق، وأفضل البشر، وأفضل من خلق الله، وأفضل من إبراهيم، ومن عامة الرسل، وسيظهر فضله على الرسل يوم القيامة، وقد ظهر ذلك فيما مضى؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) ليلة الإسراء لما اجتمع بالرسل - أرواحهم مجسدة بصور أجسادهم - وخاطبوه وكلمهم، ارتفع حتى بلغ مقاماً أعلى من مقاماتهم، ولما نزل إلى الأرض، في بيت المقدس، في محل مبعث الرسل وديارهم صار إماماً للجميع بإشارة من جبريل[٣]. فتبين أنه سيدهم في السموات والملأ الأعلى، وسيدهم في الأرض (صلوات الله وسلامه عليه).

---

(١) انظر: المفردات (مادة: ملل) ٧٧٣.

(٢) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

(٣) حديث الإسراء والمعراج مستفيض مشهور مُخرَّج في الصحيحين وغيرهما، وقد رواه جماعة من الصحابة، أما صلاة النبيِّ ﷺ بالأنبياء فذلك ثابت في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: ذكر المسيح بن مريم. حديث رقم: (١٧٢)، (١٥٦/١ - ١٥٧). =

والجواب عن هذا: أن أمره باتباع إبراهيم مما يدل على أفضليته عليه؛ لأن كل ما كان عند إبراهيم من الشرائع التي وفاها وحاز بها الفضل يُؤمر هو باتباعها، فيساويه فيها، ثم يُزاد بتشاريع وأمور عظيمة لم تنزل على إبراهيم ولم تكن في شرعه، فيأخذ ما عنده ثم يزيد عليه، ومن هنا يتبين الفضل، وأن أمره باتباع الرسل في هذه السورة الكريمة سورة الأنعام الذي قدمناه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: آية ٩٠] أنه يقتدى بما عندهم من الهدى، ثم يُزاد من أنواع الهدى أشياء عِظاماً لم تكن عندهم ولم يُعطوها، فيظهر فضله على الجميع (صلوات الله وسلامه عليه).

وقوله جل وعلا: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ هنا حال من إبراهيم[١]، والمعروف أن الحال لا تكون من المضاف إليه إلا إذا كان المضاف هو عامل الحال، أو كان المضاف كأنه جزء من المضاف إليه كما هنا، أو شبه الجزء[٢]، بدليل أنه لو حُذف لما ضرّ، لو قلت مثلًا: ديناً قيّماً ملة إبراهيم. لو قلت: اتبعوا إبراهيم. لكفى عن: اتبعوا ملة إبراهيم.

والحنيف في لغة العرب: أصله الذي به حَنَف، وأصل الحَنَف في لغة

= وأما ما رُوي من تقديم جبريل للنبي ﷺ ليؤمهم في الصلاة فهو عند ابن سعد في الطبقات (١٤٣/١ ـ ١٤٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور ١٢٩/٢ ـ ١٣٠) من حديث ابن عمر، وأم سلمة، وعائشة، وأم هانىء، وابن عباس (رضي الله عنهم). (دخل حديث بعضهم في بعض). وانظر الدر المنثور (١٤٩/٤).
وساق في الدر (١٥٤/٤) عن علي (رضي الله عنه) بنحو هذا المعنى. وعزاه للبزار.
وأورد (١٥٤/٤) من رواية ابن الحنفية نحوه ـ أيضاً ـ وعزاه لأبي نعيم في الدلائل.
وقد ورد هذا المعنى في حديث أنس عند النسائي في الصلاة، باب: فرض الصلاة.
حديث رقم: (٤٥٠)، (٢٢١/١ ـ ٢٢٢). قال ابن كثير: (٥/٣ ـ ٦) من التفسير: «وفيها ـ أي الرواية ـ غرابة ونكارة جداً».
كما أورد ابن كثير (٦/٣ ـ ٧) رواية عند ابن أبي حاتم تدل على ما سبق، وعقبها ابن كثير بقوله: «هذا سياق فيه غرائب عجيبة» ا.هـ.
(١) انظر: القرطبي (١٥٢/٧)، البحر المحيط (٢٦٢/٤).
(٢) انظر: ضياء السالك (٢٢٩/٢).

العرب: هو أن يميل القدم الأيمن إلى جهة القدم الأيسر، والقدم الأيسر إلى جهة القدم الأيمن، فيكون في كلتا الرجلين اعوجاج، كل منهما تَعْوَج إلى الأخرى[(١)]. فيقال للرجل: أحنف. وللمرأة: حنفاء. وكان الأحنف بن قيس سيد تميم كذلك، وفيه سُمي الأحنف، وكانت أمه ترقصه وهو صبي، وهي تقول[(٢)]:

والـلّـهِ لـولا حَـنَـفٌ بـرجـلـهِ ما كـانَ في فتيانِكُم من مثلِهِ

هذا أصل الحَنَف، وصار أكثر ما يُستعمل الحَنَف في الميل عن الأديان الباطلة إلى الدين المستقيم[(٣)]. فالحنيف: المائل عن كل دين باطل لا يُرضي الله إلى الدين المستقيم الذي يرضي الله. فهذا معنى كون إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا صاداً عن جميع الأديان الباطلة إلى الدين المستقيم الذي يُرضي الله جل وعلا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نفي هذا الكون الماضي، بأن الله نفى عن إبراهيم الشرك في الكون الماضي، معناه: أنه لم يقع منه كون الشرك فيما مضى أبداً. وهذا حق لا شك فيه، والآيات الدالة عليه كثيرة، كقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: آية ١٢٣] وهذا يكثر في القرآن - نفي كون الشرك الماضي عن إبراهيم - وبهذه الآيات وأمثالها في القرآن من تبرئة إبراهيم من شرك ماض أبداً، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: آية ٥١] تعلمون أنه غلط كبار من كبار العلماء، منهم كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري، والروايات المروية عن ابن عباس وغيره من أجلاء علماء التابعين، أنها كلها غلط لا شك فيه؛ وذلك لأنهم زعموا أن قول إبراهيم المتقدم في الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦]

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

زعموا أنه كان يظن أنه ربه وقت قوله ذلك. ولو كان يظن ربوبية الكوكب لكان من أشد المشركين شركاً، والله ينفي عنه الشرك في الكون الماضي، فدل قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في آيات كثيرة، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: آية ٥١] أن قوله في الكوكب: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ أنه ما كان يظن ربوبية الكوكب أبداً، إذ لو كان يظنها لكان سبق عليه شرك ماض، وظَنُّ ربوبية غير الله هو أكبر أنواع الشرك وأكفرها، والله يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: آية ٦٦] فقول ابن جرير: إن إبراهيم كان يظن ربوبية الكوكب أولاً، وروايته لهذا عن ابن عباس وجماعة غلط فاحش لا شك فيه(١)؛ لأن الله يقول عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ونفي الشرك في الكون الماضي يدل على الاستغراق؛ لأنه من المعروف عند العلماء أن الفعل قسمان: فعل حقيقي، وفعل صناعي.

أما الفعل الحقيقي فهو الذي يسميه علماء النحو بالمصدر، وهو الحدث المتجدد، كالضرب والكلام والقعود. والفعل الصناعي: هو المعروف في صناعة النحو بالفعل، مما يسمونه: ماضياً، أو مضارعاً، أو فعل أمر، وهذا الفعل الصناعي عند عامة النحويين يَنْحَلّ عن مصدر وزمن(٢)، وبيَّنه في الخلاصة بقوله(٣):

المصدرُ اسمُ ما سوىٰ الزمانِ من   مدلولَي الفعلِ كأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

وعند المحققين من علماء البلاغة كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية: أن الفعل الصناعي يَنْحَلّ عن مصدر، وزمن، ونسبة، فالمصدر كامن في جوفه إجماعاً(٤). وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (كان) فعل صناعي،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٤) انظر: جواهر البلاغة ص ٣١٠، الكليات (١٠٢).

فعل ماض ناقص يكمن في جوفه مصدره قطعاً. ففيه نفي كون الشرك الماضي قطعاً، نفياً باتاً من الله، فلم يكن من إبراهيم شرك ألبتة، كما صرح به الله في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في آيات كثيرة.

ولا شك أن طالب العلم يخطر في ذهنه الآن أن يقول: برّأتم إبراهيم من كل شرك ماض؛ لأن الله نفىٰ كون الشرك الماضي عنه، وهو يستغرق ماضي الزمن إلى الأزل، ولكن ماذا تقولون في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: آية ٧٦]؟

والجواب: قررناه في محله من هذه السورة[١]، وسنُلم بنموذج قليل منه، منه: أن هذا إنما قاله نبي الله إبراهيم على سبيل التنازل الجدلي، ليمكنه إفحام خصمه؛ لأن من أمهات الجدل أن تُسلم الكذب المحض لخصمك ليمكنك إفحامه؛ لأن إبراهيم لو قال أولًا: الكوكب لا يمكن أن يكون رباً. لقالوا: أنت رجل جاهل كذاب، الكوكب رب. ولم يحصل شيء، فكأنه قال: سلمنا على زعمكم الكافر الكاذب الباطل، هذا ربي!! أي: على زعمكم الكافر الملحد الفاجر، فَلِمَ يأفل؟؟ وكيف يأفل الرب ويسقط؟!! ولذا قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ فلو لم يتنازل ويُسلمهم التسليم الجدلي ويقل لهم: هذا ربي. أي: فرضاً على كفركم وقولكم الباطل. لو لم يتنازل هذا التنازل لما أمكنه إفحامهم كما يقول الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: آية ٢٢] ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٤٢] أي: لو كان رباً لما كان آفلا!! ولو لم يُظهر لهم بعض الموافقة للكذب الباطل لما أمكنه إفحامهم.

والوجه الثاني: أن همزة[٢] الاستفهام الإنكاري محذوفة دل المقام عليها، والأصل: أهذا ربي؟! وهمزة الاستفهام إذا دل المقام عليها جاز حذفها. والدليل عليها وعلى أن إبراهيم ما كان ظاناً ربوبية الكوكب هو

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

عظم إبراهيم، وشهادة الله له في القرآن أنه لم يكن مشركاً قط، وفي نفس الآية قرائن واضحة قاطعة على أنه ما كان يظن الكوكب رباً؛ لأن الله قال في أول الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: آية ٧٥] فلما حكم له بأنه من الموقنين الذين لا يُخالج يقينهم شك رتب على ذلك بالفاء قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: آية ٧٦] فكيف يظن أنه ربه والله يقول: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ فرتب على كونه من الموقنين قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ وهمزة الاستفهام حذفها مطرد إذا كان مع (أم) لا نزاع فيه. وزعم الأخفش الصغير أبو الحسن علي بن سليمان، الأخفش الصغير، أن حذف همزة الاستفهام إذا دل عليه قرينة أنه مطرد في اللغة العربية، قياسي لا يحتاج إلى سماع. ومن أمثلته في القرآن: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: آية ٣٤] والمعنى: أفإن مِتَّ أفهم الخالدون. لأن محل استفهام الإنكار في قوله: «أَفَهُمُ الخالِدُونَ». وهو كثير في كلام العرب دون (أم)، ودون ذكر الجواب، ومع (أم)، ومع ذكر الجواب[(١)].

فمن أمثلته دون (أم) ودون ذكر الجواب قول الكميت[(٢)]:

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ ولا لعباً مني وذو الشيبِ يلعبُ؟

يعني: أَوَذُو الشيب يلعب؟ فحذف همزة استفهام الإنكار، ونظيره قول الآخر، واسمه خويلد[(٣)]:

رَفَوني وقالوا يا خُويلدُ لم تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوه هُمُ هُمُ

يعني: أَهُم هُم؟ فحذف همزة الاستفهام على التحقيق، وكما جزم به غير واحد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٣) السابق.

ومن أمثلته دون (أم) مع ذكر الجواب: قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[(١)]:

ثم قالوا: تحبُّهَا، قلتُ بَهْراً عددَ النجمِ والحصَى والترابِ

فقوله: «ثم قالوا: تحبها» يعني: أتحبها؟ فحذف همزة الاستفهام.

أما هو مع (أم) فهو مطرد لا يخالف فيه أحد، وأنشد له سيبويه قول ابن يعفر التميمي[(٢)]:

لعَمْرُكَ ما أدري وإن كنتُ دارياً شُعيثُ بن سهم أمْ شُعيثُ بن مِنْقَرِ

يعني: أشعيث بن سهم؟ ومنه في كلام العرب قول ابن أبي ربيعة المخزومي[(٣)]:

بدا لي منها مِعْصَمٌ يوم جَمَّرتْ وكفٌ خَضِيبٌ زُيِّنتْ ببنانِ

فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ بسبعٍ رميتُ الجمرَ أمْ بثمانِ

يعني: أبسبع رميت الجمر أم بثمان؟ ومنه قول الخنساء السُلمية الشاعرة، الخنساء بنت عمرو بن الشريد المشهورة[(٤)]:

قذىً بِعَيْنَيْكَ أمْ بالعينِ عُوَّارُ أمْ خِلتَ إذ أَقْفَرَتْ من أهلِهَا الدارُ

تعني: أقذىً بعينك؟ ومنه قول أُحيحة بن الجُلاح الأنصاري[(٥)]:

وما تدري وإن ذمَّرتَ سَقْباً لغيرك أم يكون لك الفصيلُ

يعني: ألغيرك؟ وقول امرىء القيس[(٦)]:

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٧٦) من هذه السورة.

(٥) السابق.

(٦) السابق.

تـروحُ مـن الـحـي أو تـبْـتَـكِـرْ   ومـاذا عـلـيـكَ بـأَنْ تَـنْـتَـظِـر

وهو كثير في كلام العرب.

والحاصل أن قوله هنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يدل على نفي الشرك عن نبي الله إبراهيم في الزمن الماضي كله أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٦٢، ١٦٣].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ بفتح ياء ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ وسكون ياء ﴿وَمَمَاتِى﴾، وقصر ألف ﴿وَأَنَا۠﴾ وعدم مدها. وقرأ نافع وحده دون عامة القراء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ﴾ بخلاف عن ورش فيه، واتفاق عن قالون: ﴿وَمَمَاتِيَ لله رَبِّ العَالمِينَ﴾ بفتح ياء ﴿وَمَمَاتِى﴾[1]، وقرأ ـ مثلاً ـ: ﴿وأَنَآ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهي لغة تميم مدّ لفظة ﴿وَأَنَا۠﴾ وقرأه عامة القراء غير نافع: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بلا مدّ ﴿وَأَنَا۠﴾[2].

والمعنى: قل لهم يا نبي الله إن جميع عباداتي منصرفة إلى من خلقني لا أشرك فيها غيره معه، فأنا موحد صِرْفاً، مخلص لربي في عبادتي ﴿إِنَّ صَلَاتِى﴾ إذا صليت ﴿وَنُسُكِى﴾ أكثر العلماء على أن النسك هنا معناه: النحر في الضحايا والهدايا. ونحري إذا نحرت ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: آية ٢] وعلى هذا فالنسك خاص بالذبح[3]. والمعنى: أنه لا يُنحر لغير الله، ولا يذكر على الذبيحة اسم

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص (٢٠٦).

(٢) انظر: السبعة لابن مجاهد ١٨٧، الموضح (٣٣٨/١)، الإقناع لابن الباذش (٦١٠/٢)، النشر (٢٣٠/٢ ـ ٢٣١)، البدور الزاهرة (١١٤).

(٣) انظر: ابن جرير (٢٨٣/١٢ ـ ٢٨٥)، أضواء البيان (٢٨٤/٢).

غير الله، كما لا يُصلىٰ لغير الله، كما أوضحناه في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقال بعض العلماء: ﴿وَنُسُكِى﴾ معناه: جميع عباداتي؛ لأن التنسك: التعبد، و (النسك) يطلق على جميع العبادات، ويدخل فيه دخولًا أوليًا: النحر والتقرب بالدم؛ لأن التقرب في الدماء في الضحايا والهدايا من أعظم القُرَب إلى الله، وصرفه لغير الله صرف لحقوق الخالق إلى المخلوق، وذلك معروف ما فيه. فعلى أن (النسك) خصوص الذبح فالآية كقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ فخص هاتين العبادتين وغيرهما من العبادة مثلهما. وعلى أن النسك جميع العبادة فقد شمل الذبح وغيره[1]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾.

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ اختلف العلماء في معنى قوله: ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ قال بعض العلماء: إن الذي يستحق مني أن أخصه بصلاتي وبنحري وبجميع عباداتي هو الذي بيده روحي، يملك موتي ويملك حياتي، إن شاء أماتني وإن شاء أحياني، فالذي يملك إحيائي وإماتتي هو ربي ومعبودي الذي يحق لي أن أخلص له حقه في عبادته. وقال بعض العلماء: ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ هو ما قدمت في حياتي من جميع الأعمال الصالحة مخلصاً فيه لله وحده[2].

﴿وَمَمَاتِى﴾ قيل: هو ما أوصيت أن يُفعل بعد مماتي من إجراء قربات وصدقات تجري علي، كل ذلك مخلص فيه لله. أو ﴿وَمَمَاتِى﴾ أي: ما جاءني عليه الموت من الأعمال الصالحات التي أدركني الموت وأنا مقيم عليها، كما قال نبي الله يعقوب: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ١٣٢] كل ذلك مخلص فيه لله (جل وعلا) وحده لا أشرك معه غيره[3].

٢٥/ب وهذا تعليم لنا أننا نخلص [عبادة][4]/ خالقنا له (جل وعلا) ولا نشرك

(١) انظر: القرطبي (١٥٢/٧)، أضواء البيان (٢٥٤/٢).
(٢) انظر: القرطبي (١٥٢/٧)، البحر المحيط (٢٦٢/٤).
(٣) انظر: المصدرين السابقين.
(٤) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

معه فيه غيره؛ لأنه أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل من أحد أشرك معه غيره، وكل شيء يغفره إن شاء إلا الإشراك به ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: آية ٤٨] وهذا معنى قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ في شيء من ذلك، لا شريك يُصلىٰ له غيره، ولا شريك يُنحر ويتقرب إليه بالنحر غيره، ولا شريك يُميت ويُحيي غيره، ولا شريك يقام على الأعمال لرضاه مخلصاً له في الحياة غيره، ولا شريك يُوصَى بالأعمال الصالحة بعد الممات يُراد بها رضى شريك غيره، بل هو وحده الذي له الإخلاص في جميع ذلك كله، ثم قال: ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم من إخلاص العبادة لله طول أيام الحياة، وما يُوصى به بعد الممات، وما يموت عليه الإنسان من الأعمال، إخلاص التوحيد والقُرَب لله في ذلك وحده ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾ هكذا أمرني ربي، وأنا عبد مأمور، وقد أمرني بالإخلاص له في جميع عباداتي.

فعلينا أن نعلم أن هذا الذي أُمر به سيدنا ﷺ من تحقيق العبودية لله، وإخلاص حقوق الله لله، وتحقيق معنى (لا إله إلا الله) علينا أن نتبع فيه نبينا ﷺ.

ثم قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: أول المسلمين من هذه الأمة؛ لأنه هو الذي دعاها إلى الإسلام، فهو أول من أسلم؛ لأنه نزل عليه الوحي فآمن به ثم قام يدعو الناس إليه، أي: من هذه الأمة لا من جميع الناس. أما المسلمون قبله من الأمم الأخرى فهم كثير جداً، وكل الأنبياء قبله مسلمون، وهذا نبيُّ الله إبراهيم يقول الله فيه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: آية ١٣١] وهذا نبي الله نوح يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٧٢﴾ [يونس: آية ٧٢] وهذا نبي الله يوسف يقول: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: آية ١٠١] والله يقول: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ [المائدة: آية ٤٤] وأمثال هذا في القرآن كثيرة، فالمسلمون قبله كثير، ودين

الإسلام قبله منتشر في شرائع الرسل. ومعنى ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة التي بعثني الله بشيراً ونذيراً إليها.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦٤].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يقول علماء التفسير: إن سبب نزول هذه الآية الكريمة من سورة الأنعام: أن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: اعبد معنا آلهتنا مرة ونعبد معك إلهك مرات أُخرى، فأمره الله أن يُنكر عليهم هذا القول، ويقول لهم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ والمعنى: أأبغي رباً غير الله حتى أعبد صنماً وأتخذه رباً؟ لا يمكن أن يكون هذا منّي. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني: لا أبغي رباً غير الرب الذي هو الرب الحقيقي، الذي هو رب كل شيء، أي: خالق كل شيء، ومدبر شؤون كل شيء، إليه المرجع والمآب، هو وحده الذي هو ربي؛ لأن غيره مخلوق مربوب مملوك له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وإنما قدم المفعول لأن محل الإنكار مُنصَبّ على غيريّة الله، واتخاذ الربوبية إنكاره منصب على غيريّة الله؛ ولذا قدّم غير الله لأنه محل مصب الإنكار، والحال هو ـ أي: الله ـ ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فالذين تدعونني أن أعبدهم هم مخلوقون لله، ومربوبون له، فهو رب كل شيء، ومعبود كل شيء، فهو المعبود وحده، فلا أعبد غيره، ولا أتخذ غيره رباً.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ والمعنى: لا تكسب كل نفس ذنباً إلا عليها. ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعني لا تكسب ذنباً إلا على نفسها. وأنا إن عبدتم أنتم الأصنام فضرر ذلك عليكم، وإنما يضرني لو كنت وافقتكم؛ ولذا قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ العرب تقول: وَزَرَ الذنب. إذا تحمّله، أي: ولا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة متحمّلة للآثام، لا تحمل وزر ذنب نفس أخرىٰ، بل كل نفس عليها ذنبها، وهذا كالتأكيد لقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ وهذا بيِّن، ولو كانت أقرب الأنفس إلى النفس لا تحمل عنها من وزرها شيئاً، كما يأتي في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: آية ١٨] وكان بعض العلماء يقول: سبب نزول هذه الآيات: أنهم لما دعوا النبي ﷺ إلى أن يعبد معهم آلهتهم مرة ويعبدون معه إلهه مرات، وقنّطهم من ذلك، وأمره الله أن يقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قالوا له: أنت وأصحابك اتبعوا سبيلنا واعبدوا معبوداتنا ونحن نتحمل عنكم جميع الآثام، ونضمن لكم خير الدنيا والآخرة، فكل ما يهمّكم في ذِممنا وعلينا، كما قال: إنهم قالوا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: الآيتان ١٢، ١٣] أي: أثقال ضلالهم، وأثقال إضلالهم؛ ولذا قال هنا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فكسبنا وآثامنا لا تكون عليكم، ولا يمكن أن تتحملوها لو أطعناكم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس مذنبة ـ يعني ـ ذنب نفس أخرى، بل كل وعمله، والله لا يأخذ أحداً بعمل غيره، فالكل مؤاخذ بما عمل.

وهذه الآيات فيها موعظة عظيمة، وسؤال.

أما الموعظة العظيمة: فهي أن يعلم الإنسان أن حركاته في الدنيا وسكناته أن ما فيها من نفع فهو عائد إلى خصوص نفسه، وما فيها من ضرّ فهو عائد إلى خصوص نفسه، فليجتهد الإنسان وقت إمكان الفرصة أن يُسلّم نفسه من البلايا، وأن يُكسبها الخيرات. فحركات الإنسان في دار الدنيا إنما يبني بها بيته الذي إليه مصيره الأخير، وهو إما غرفة من غرف الجنة أو سجن من سجون النار، فعلى كل مكلف أن يتأمل في نور القرآن في الحياة الدنيا في صحته وفراغه، ويعلم أن حركاته من أقواله وأفعاله ونيّاته وقصوده إنما يبني بها مقرّه الأخير النهائي: إما غرفة من غرف الجنة، وإما سجن من سجون النار.

الثاني: أن يُقال: في هذه الآية سؤال: لأن الله نص فيها أنه لا يؤاخذ أحداً بفعل أحد آخر، وقد جاءت مسألتان وقعت فيهما المؤاخذة بفعل الغير:

إحداهما: تحمّل العاقلة للديّة، فقد يقتل رجل إنساناً خطأ فتُجعل الدية على عاقلة ذلك الرجل، فيُكلفون بغرم لا ناقة لهم فيه ولا جمل. فهذه الأنفس قد أُخذت بذنب نفس أُخرى وهي لا ذنب لها فيه.

الثاني: ما ثبت في الصحيح عن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما) أنه قال: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**»[(١)]. وهذا كأنه عُذب بفعل غيره، والحديث ثابت في الصحيح، وتكذيب عائشة لابن عمر في هذا الحديث، - توهيمها له، وأنه غَلِطَ نظراً لهذه الآيات ـ غَلَطٌ منها هي (رضي الله عنها)، والصواب مع ابن عمر؛ لأنه حافظ سمع من النبي ﷺ غير شاك ولا متوهم[(٢)].

فهذان سؤالان: لِمَ وجبت الديّة على العاقلة، وهي من فعل غيرها؟ ولِمَ عُذِّب الميت ببكاء أهله وهو من فعل غيره؟

والعلماء أجابوا عن هذا بأجوبة، قالوا[(٣)]: أما العاقلة: فإن الإنسان القاتل خطأ لا ذنب عليه؛ لأنه لا يقصد شيئاً ولا مؤاخذة عليه عند الله إجماعاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾ [الأحزاب: آية ٥] ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ﴾ [النساء: آية ٩٢] والكفارة التي وجبت عليه قال بعض العلماء: إنما هي مؤاخذة لعدم شدة التحفظ والتحرز أولاً والتسبب في عدم وقوع الخطأ، أما بعد وقوع الخطأ فلا إثم فيه قطعاً. قالوا: هذا رجل مسلم

---

(١) البخاري في الجنائز، باب: قول النبيّ ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**» إذا كان النوح من سنته. حديث رقم: (١٢٨٦)، (١٥١/٣ ـ ١٥٢). وطرفه في: (١٢٨٧ ـ ١٢٩٠ ، ١٢٩٢، ٣٩٧٨).

ومسلم في الجنائز، باب: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه. حديث رقم: (٩٢٨)، (٦٤٠/٢). وانظر الأحاديث الأُخرى التي أخرجها في الباب نفسه.

(٢) انظر: فتح الباري (١٥٤/٣)، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص (٦٧).

(٣) انظر: المغني (٤٨٩/٩)، فتح الباري (٢٤٦/٢).

لزمته دية، وهو لم يقصد سوءاً، ولم يقصد بها ذنباً ولا جريمة، فالله (جل وعلا) أمر عاقلته من أهل ديوانه ـ ممن يقول بالديوان ـ أو من عصبته ـ ممن يقصرها على العصبة ـ أمرهم أن يساعدوه، وخالق السماوات والأرض يُدبر على البعض من البعض، ويأمر البعض بمساعدة البعض، إكراماً وجرياً على مكارم الأخلاق، كما أمر بأن تؤخذ الزكاة من أغنيائنا وترد على فقرائنا، فهذه إعانة محض، ومكارم أخلاق جاء القرآن بها معاونة لذلك الإنسان، كما أوجب الزكاة مساعدة للفقير، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك.

أما حديث ابن عمر فللعلماء عنه أجوبة كثيرة[1]، منها: أنهم حملوه على الميت الذي أوصاهم أن يبكوا عليه. أي: عرف أنهم إذا مات يبكون عليه، ولم ينههم. وكانت هذه عادة العرب. ويوضحه قول طرفة بن العبد في معلقته[2]:

فإنْ مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُه وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ

فهذا إذا شقّت عليه الجيب وبكت عليه فلا إشكال في تعذيبه ببكائها؛ لأنه أمره بها في الدنيا، وهو من فعله. وكذلك من علم أنه إذا مات يفعلونه ولم ينههم، فهو متسبب بعدم نهيهم.

وقال بعض العلماء: تعذيبه ببكاء أهله أن أهله إذا بكوا عليه أن الله يُطلعه على ذلك ويأسف ويحزن من حزن أهله. إلى غير ذلك من الأقوال، وأظهرها الأول. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ المرجع هنا: مصدر ميمي، بمعنى: الرجوع، والمصدر الميمي إذا لم يكن من مادة واوية الفاء يكون قياسه (مفعَل) بفتح العين[3]، فالقياس أن يكون (المرجَع) بفتح الجيم، ولكن هذا سماع مانع للقياس، فهو مصدر ميمي على (مفعِل) سماعاً لا قياساً، ومعناه: إليه رجوعكم يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: يخبركم إخبار مجازاة

---

(١) انظر: فتح الباري (٣/١٥٢ ـ ١٥٥)، أحكام الجنائز للألباني ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) شرح القصائد المشهورات (١/٩٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالذي كنتم تختلفون فيه. يعني: أهؤلاء الذين كانوا شيعاً وفرقوا دينهم واتبعوا الأهواء والضلالات، وهؤلاء الذين كانوا على الصراط المستقيم، مرجعهم جميعاً إلى الله، فيخبرهم بالحقيقة، ويبيِّن لهم الضال من المهتدِ، ويعاملهم بحسب ما كانوا عليه من هدىً وضلال، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: آية ١٦٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: هذه منة تخص أمة محمدٍ ﷺ ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ يا أمة محمد خلفاء الأرض؛ لأنه لا يأتي نبي بعد نبيكم، ولا شرع بعد شرعكم، فيكون الحكم في الأرض تبعاً لشرعه، بل شرعكم ودينكم هو الباقي الخالد في الأرض، المُحَكَّم في جميع من في الأرض، في دمائهم، وأموالهم، وأديانهم، وأعراضهم، وفروجهم، فأنتم خير الأمم، وأنتم خلفاء الأرض، لا يأتي شرع ينسخ شرعكم، ولا نبي بعد نبيكم، فأنتم خلفاء الأرض إلى يوم القيامة، وإن شرعكم باق، ونبيكم لا نبي بعده، ودينكم باق إلى يوم القيامة. وعلى هذا فالمنّة على أمة محمد ﷺ. وهذا الامتنان يقتضي أن تعطوا الخلافة في الأرض حقها، وتقتفوا آثار الرسول ﷺ، وتخلفوه خلافة حقاً، فتُرضوا الله بأن تنفذوا أوامره في أرضه، وتضعوا العدالة في أرضه، وتجعلوا المحكّم في الدنيا نظامه الذي شرع، وتجعلوا كلمته هي العليا، وتستعدوا بكل قوة حتى تجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى، فعلى هذا القول فهو منّة على هذه الأمة. وقال بعض العلماء: (. . .[1]).



(١) ملحوظة: انقطع التسجيل بعد هذا الموضع.